الدنورالط فط أجمري

دكتوراة دولة بامتياز من جامعة مدريد أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة



الت شِرُ مُكْتبتر وهن بِرَاهِ ١٤ شاع الجمهُورية بيت ابدين تليفون ١٤٠٠٠ الطبعة الثانية : ربيح الأول ١٣٩٧ – ه مارس ١٩٧٧ – م الاهِ صلاء

إلى واللهي ، في رحاب الله : . . .



تمثال ابن حزم ، أقامته بالدية قرطبة عام ١٩٦٣م ، أمام باب أشبيلية ، أو العطارين ، وكان يوْدى إلى بلاظ منيث ، الحى الذى نشأ فيه ابن حزم ... من هنا كان طريقه اليومى إلى المسجد الجامع ، على المسجد الجامع ، طالبا ، وأستاذا ، أو الصلاة !

				ř .	100	946			. 44		
			***							in gain	
									936	e i de la composition della co	1.
									1,940		1 100
	49	46.50 (A.1)	A) 10 4 4 1 1 1 1 1 1	. ve	a contract		THE GRAP IN	24000 x 55 154	4.87		* **
							-				
,											
	i.										
	4.5										
•											
š											
-											
	4										
									,		
	7								16 . 175 A		
								v) ×	-1.5 T. Aug. 4	· .	
	1										
_		*									
	Ý										
						9 5 6					
Į.					1 10 1						
7											
			,								
•											
			* .								
		-									
			•								

كلمات في البدء

كان مقدراً لهذه الدراسة أن تكون مقدمة لكتاب وطوق الحمامة ، ، لا بن حزم ، وقد حققته ، وصدرت طبعته الأولى عن دار المعارف منذ شهور ، ونفدت ، وتصدرالطبعة الثانية منه خلال أيام ،

لكنى وجدت المقدمة طالت ، ووجدتها تتجا وزحجم الكتاب نفسه ، ولم أرد أن اختصرها لأنها دراسة للطوق ، ومقدمة له ، وتعريف بصاحبه ، ودراسة الطوق بجبأن تتناول ، على الأقل ، الجو انب الهامة فيه ، وما أكثرها! ، والصفحات التي تمهد له ، وحياة كاتبه ، تعينان القارىء على تصور جوه ، وتسهمان في تذليل صعابه ، والكتاب حافل مها .

لقد تصورت في البدء – مثلا – ألا حاجة بي لأن أكتب عن عمران قرطبة ، الشوارع والميادين والحياة والناس ، ثم وقعت عيى على كتاب للد كتور زكريا إبراهيم بعنوان : « ابن حزم الأندلسي »، وصدر في سلسلة « أعلام العرب » فأدركت على الفور ، من النظرة الأولى فيه ،أن جهله بتخطيط مدينة قرطبة ، أوقعه ، كما أوقع ناسخ مخطوطة الطوق الوحيدة قبله ، وكل الذين نشروا الكتاب بعد ذلك ، في خطأ مربع ، تقول الفقرة في غير آل نسختنا المحققة ، والتي اعتمد عليها الدكتور زكريا إبراهيم : « ... سألني يوما أبوعبد الله محمد بن كليب من أهل القبروان ، أيام كوني بالمدينة ، وكان المويل اللسان جدا ، مثقفا للسوال في كل فن ... ،

هكذا جاءت الفقرة فى كل الطبعات العربية ، باستثناء طبعتناالمحققة ، واعباداً عليها مضى الدكتور زكريا لمبراهيم يعلق على النص ويستنطقه : و ولكن ابن حزم لم يذكر لنا سبب انتقاله إلى القروان ، فضلا أنه لم يشر إلى أى اضطهاد وقع عليه من جانب أهل المغرب عموما ، وأهل تلك المدينة خصوصا ، وأغلب الظن أن يكون أمامنا قد رحل إلى القبروان للدفاع عن مذهبه الظاهرى ، و هذا كلام باطل كله ! . فابن حزم لم يغادر و مجادلة الفقهاء وأهل الفرق ، و هذا كلام باطل كله ! . فابن حزم لم يغادر

الأندلس أبدا ، لإلى القروان ولا إلى غيره ، ولم يقع عليه اضطهاد من أهل المغرب ، ولاذهب إليه لينشر مذهبه . وأخيراً فالقيروان في توكس وليست في المغرب ، كما وهم الدكتور . ولوكان موالف كتاب ابن حزم ، والدين نشروا مخطوطة «الطوق » قبلى ، يعرفون أن كلمة « مدينة » إذا جاءت مرسلة عند الحديث عن قرطبى ، فإنما تعنى الحي القديم من عاصمة الحلافة ، و تميز في عماره وحياته بملامح خاصة ، ولوعرفوا أن ابن حزم لم يسكن هذا الحي القديم أبدا من قرطبة ، أى المدينة ، لفكروا في تةويم النص . « والمرية » مما القديم أبدا من قرطبة ، أورب الألفاظ رسما إلى كلمة المدينة ، وليس ثمة شك في أن هذه تحريف عن تلك ، جرى بها قام ناسخ المخطوطة الوحيدة جهلا، لأنه مشر قى على غير علم بأسماء الأمكنة الأندلسية . وهو تصويب يمكن الوصول لأنه مشر قى على غير علم بأسماء الأمكنة الأندلسية . وهو تصويب يمكن الوصول الميه بشيء من التأمل ، وللحق فإن الأستاذ الحليل الدكتور طه الحاجرى أدرك هذا الحطأ و صوبه منذ أعوام طويلة ، في كتابه القيم : « ابن حزم : صورة أندلسية » . و لم يقرأ أحد ممن شروا الطوق هذا الكتاب واستفاد منه .

وكان ذلك دافعا لكتابة الفصل الأول عن قرطبة ، عمرانها وتخطيطها والحياة فيها على أيام ابن حزم ، وألحقته بمصور تخطيطى وتقريبي للمدينة في القرن العاشر الميلادي ، ودون ادعاء ، يرسم وينشر لأول مرة في اللغة العربية .

وأمام حياة ابن حزم ، شاهد عصر ، تر ددت لحظات! . لأنى ترجمت كتاب المستشرق الإسبانى العظيم ميجبل أسين بلاثيو سعن ابن وحزم القرطبى » وسوف ينشر قريبا ، وفيه الغناء كل الغناء، ولكنه كتاب موسع وشامل ومنعمق ودر اسة مستقلة ، ونحن هنا فى حاجة إلى علامات هادية فحسب ، على طريق حياة ابن حزم ، تعبن على فهم «الطوق » ، وليس إلى حياته كلها ، ثم هممت أن أقدم ترجمة للدراسة الجميلة والموجزة التى قدم بها غرسية غومث ترجمته الإسبانية للطوق ، ولكن الرجل يتحدث فيها إلى إسبان ، يكتب لهم أحيانا أماليس القارىء العربى فى حاجة إليه ، ويتجاوز أحيانا قضايا فوق طاقة القارىء الإسبان غير المنخصص ، ولكنها ضرورية للغارىء العربى ، ومن ثم قد اسهاديته الإسبان غير المنخصص ، ولكنها ضرورية للغارىء العربى ، ومن ثم قد اسهاديته

فى دراسى، وأفدت مماكتب، وهويعتمد أصلاعلى أسين يلاثبوس ، دونأن أسير على دربه دواماً .

وقد وجدت الفيلسوف الإسباني الكبير أورتيجا إى جاسيت (١٨٨٣ – ١٩٥٥) ، وشهرته تتجاوز إسبانيا إلى عالم الفلسفة بأسره ، قدم لترجمة الطوق الإسبانية ،بدراسة مركزة ورائعة ،فآثرت نقلها إلى العربية برمثها ، ليكون لدى قارىء الطوق العربي ، وجهة نظر أخرى غير عربية ، قد يرضى عنها أو يختاف مع صاحبها، ولكنها مفيدة في كل الأحوال .

وعن هوبة ابن حزم كتب المؤرخ الإسباني ، الحجة في دراسات العصر الموسيط ، الأستاذ سانتشيث البر نس (١٨٩٣ –) دراسة مستفيضة ، رد فها عبقرية ابن حزم إلى خصائص سلالته الإسبانية ، وقد ترجمت هذه الدراسة برمها أيضاً ، دون تعليق مي أو مناقشة ، ودون أن يعني هذا موافقي على رأيه ، لأني فضلت ، كعادتي فيما أترجم ، أن أترك القارى العربي حراً ، مطلق الفهم ، في مواجهة ما يقرأ من نصوص مترجمة ، وأن يبدى رأيه فها دون تطفل مني . وثمة كثيرون من المفكرين الإسبان المعاصرين يشاركون سانتشيث البرنس رأيه ، ولكنه الوحيد الذي درم القضية ، وعبر عن فكره ، وربما عن فكرهم أيضاً ، في هذه الدراسة المستفيضة .

آما أن ابن حزم من أصول غير عربية فحقيقة لانرفضها ، وكان عالم قرطبة العظيم مسلما طيبا ، والإسلام فوق عصبيات الجنس واللون والدم ؛ وأما أنه منسلالة يمكن أن توصف بأنها إسبانية ففيه شائ كبير . لأن لفظة وإسبانيا » لحظة الفتح الإسلامي كانت تعنى امتداداً جغرافيا فحسب ، دون أن تكون لها دلالة أبعد من هذا ، قومية أو دموية أو فكرية . والقول بهذا ليس من عندى ، وإنما هي فكرة اهتدى إليها المفكر والمؤرخ الفيلسوف أميركي كاسترو ، وظل يبشر بها طرال حياته (١٨٨٥ – ١٩٧٣) ،

ويرى فى تجاهل الإسبان لها تضليل وتحريف للتاريخ ، والحراف بسير الثقافة فى وطنه ، وألف فى ذلك كتابا قيا : وحقيقة إسبانيا التاريخية ه ، وكانت دراسة سانتشيث ، وكتاب آخر له ، رد على نظرية كاسرو هذه ، ولقد حرم القارىء من فكر أمير كو كاسرو الرائع فى هذه الدراسة التي نقدمها ، لأن نظريته لاتقف عند ابن حزم وحده ، وإنما تتجا وزه إلى القضية فى جوهرها : لمن ينتسب هؤلاء الذين عاشوا فى الأندلس ، على امتداد دولة الإسلام التى ظلت تسعة قرون ؟ وإجمالها غير متاح ، ومن شم فقد ترجمت الكتاب كله ، وينتظر الناشر ليأخذ طريقه إلى القارىء قريباً .

ورأيت مفيداً إلى جانب ما تناولت من أفكار و الطوق و و الالالته المتنوعة ، أن أتتبع آثاره في الآداب التي عايشته ، أو تلته ، في الأندلس ، في الأدبين العبرى و الإسباني ، وأن ألقى نظرة على الدراسات المماثلة التي سبقته إلى هذا المنحى في اللغة العربية ، والتي جاءت بعده وسارت على دربه ، أو أفادت منه ، و ترجمت دراسة لغرسية غومث تناولت جانبا من هذه القضية ، وأكملت الجوانب الأخرى التي لم يتعرض لها المقال .

ثم وقفت عند شاعرية ابن حزم ، وأهمية الطوق كمصدر لتأريخ الحياة الأدبية فى قرطبة ، إلى جانب ما يقدم من معلومات أخرى ضافية ، اجتماعية وسياسية ، والمرأة فى قرطبة الحلافة من خلاله ، ولحياة مؤلفه نفسها . وتلك هى الخطوط العامة للدراسة ؛ وما أريد أن أقف عندها تفصيلا ، وفى الفهرسة آخر الكتاب ما يغنى .

أنهيت هذه الدراسة مع بداية الصيف ، ثم حملتها إلى المواطن التي عاش فيها ابن حزم منذ ما يزيد على ألف عام ، أمضيته بين وابة وإشبيلية وقرطبة والمرية وشاطبة وميورقة ، وغيرها . وفي ضوء ما رأيت على الطبيعة وحياة الناس ، وفيها ما لم يتغير أصلا

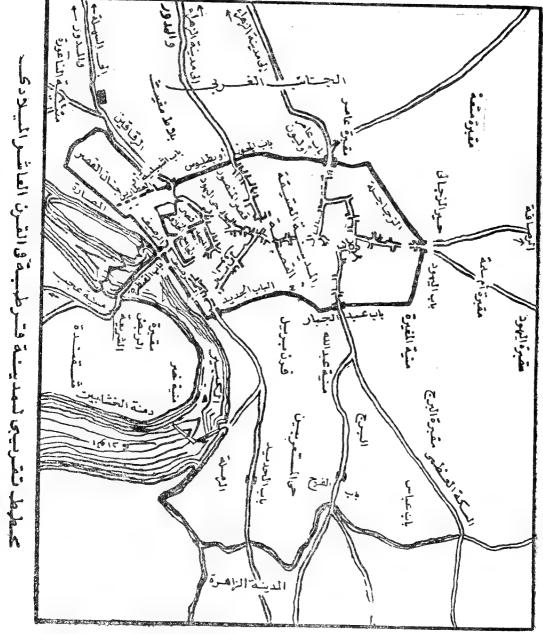
أوما تغير قليلا ،وما استلهمت من روح الناربخ ، واستهديت منحدسي بين هذه المعالم ، صححت وراجعت ، وأضفت وحذفت ، فكانت هذه الصفحات ،

قلت وأنا أقدم الطبعة الأولى من تحقيقى ولطوق الحمامة ، إن النص والدراسة التى سوف أعدها مستقلة عنه ، كقدمة له ، تربط بينهما أقوى الوشائج ، ولا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر . وأعيد هذه السطور هنا مرة أخرى إبراء لذمتى ، لأن فى هذا ما يفسر ذاك ، والعكس صحيح أيضا .

ومن الله الحزاء، ومنه التوفيق .

قرطبة - الأندلس شبان ١٣٩٦ هـ أغسطس ١٩٧٦م

الطاهر أحمد مكي



قرطبة على أيام ابن حزم

السكان:

حين زحف مغيث الرومى ، علام الوليد بن عبد الملك ، يريد قرطبة عام ٩٢ هـ ٧١٩م، وحاصرها حتى فتحها ، لم يدر نخلده ، ولأنخلد أحد ممن كانو ا معه ، أن هذه المدينة الصغيرة القابعة في سفح جبل العروس ، نصف همجية ونصف متبدية ، عكن أن تصبح في مدى قرنين ونصف من الزمان ، كبرى مدن الأندلس ، موطن الإمارة ، وحاضرة الخلافة ، تنافس بغداد ، وتطاول القاهرة ، وتكسف ماحولها من مدائن ، وتبلغ شهرتها الخافقين ، فتصبح موضع الإعجاب من راهبات منقطعات في دير منعزل بألمانيا ، وتقول عنها الأخت الشاعرة السكسونية روز فيتا Hroswita في قصيدة لها : هجو هرة العالم الساطعة ،مدينة جديدة ورائعة ، فخورة بقوتها ، شهيرة عباهجها ، مزهوة بما تملك من خير وفير يا.

ليس من غرضى ، ولافى نطاق بحنى ، أن أعرض لقرطبة فى طفولتها وتطورها على امتداد القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وغاية ما أطمح فيه أن أعطى صورة مصغرة فحسب ، لجوانبها المختلفة ، خلال القرن العاشر الميلادى ، حين طرق ابن حزم أبوابها وليدا .

كانت قرطبة القرن العاشر الميلادى مدينة كبيرة ، يتجاوز سكانها المليون عددا ، تتحدث العربية ، إلى جانب لغات أخرى ، وتدين بالإسلام ، إلى جوار المسيحية واليهودية ، ويسكنها أقوام ينتمون إلى أصول مختلفة .

كان هناك العرب، مضريون أو يمنيون، جاءوا قديما مع موسى بن نصير، أومع بلج بن بشر القيسى بعده، أو فى أفواج قليلة العدد أيام عبد الرحمن الداخل، وانتشروا فى كل الأندلس، وأورد لنا ابن حزم معلومات مستفيضة

عن منازلهم فى كتابه وجمهرة أنساب العرب و اتخذ عدد منهم مكانه إلى إلى جانب الإمارة أو الخلافة ، ولم تكن أعدادهم في المدينة كبيرة ، ويمكن القول أنهم كانوا أقل عددا من أية طائفة أخرى، ويتولون الوظائف الهامة، وعكف بعضهم على النجارة ، وقلة تدير من العاصمة مزارعها الواسعة في الريف ، وحافظوا على أصولهم اللَّى انحُدرو إَ منها ، وحَرَ صواعليَ أَن يتميز وا بألقابهم العربية ، وظلت ذكريات قبائلهم حية في حكاياتهم وسمرهم ، وهي خصائص أخذت نختفي مع الز من، ونتيجة الزواج المختلط، يُنفقد ﴿ جاء العرب فرادى عادة، وكان النصف الثانى من بيوتهم ، زوجة أو جارية أو عشيقة ، إيبيريا في الأعم الأغلب، ومن ثم بدأت ﴿ الأندلسية ﴾ تأخذ طريقها إلى وجدائهم إحساسا ، فأصبح النردامهم محس بأنه قرقطبي ، قبل أن يكون مخزوميا أو قرشيا . وبدأ ثقلهم السياسي يضعف مع عبد الرحمن الناصر ، فقد كان ميالا إلى قيام سلطة مركزية قوية ، ورأى المنصور بن أبي عامرًا بعده خطر قيام طبقة تعتمد على الدم وحده طريقا إلى النبل ، فقرر إأن يهبط جم إلى حيث يقية الراس ، وقضى نهائيا على نظام الجند القبلي ، وأحل مكانه مفهوما جديدا يجعل العصبية للأندلس .

وكان هناك البربر ، من زناتة أو صنهاجة ، وهم أول من دخل الأندلس ، واحتملوا صدمة الفتح الأولى ، واتصلت هجراتهم إليه ، لقرب بلادهم منه ، وتشابه مناخ أوطانهم به ، وكثرة القلاقل السياسية عندهم ، حتى فاقوا العرب عددا ، وأورد لنا ابن احزم في كتابه و جمهرة أنساب العرب فصلا عنه أسماه : « بيوتات البربرفي الأندلس » ، ونجد عنهم معلومات وافرة في تاريخ ابن خلدون . وقد اتجه معظم البربر الى الريف ، وامتزجوا بالسكان الأصلين ، ولعبوا دورا هاماً في نشر الإسلام ، وآثرت قلة منهم البقاء في العاصمة ، تعمل في المهن المتواضعة ، على حين سمت بآخرين مو اهبهم ، فتبوأوا أعلى المناصب ، وباشروا نفوذا سياسيا أو علميا أو أدبيا مرموقا ، فقد عرف القرن العاشر منهم في قرطبة أبناء يحيى بن يحيى الليثي ، كبير فقهاء لقد عرف القرن العاشر منهم في قرطبة أبناء يحيى بن يحيى الليثي ، كبير فقهاء

المالكية ، ومنذر بن سعيد شيخ الخطباء وإمام عبد الرحمن الناصر ، وابن دراج القسطلي شاعر المنصور بن أبي عامر ، وحافظ بعضهم على نسبه البربري ، واصطنع آخرون لهم نسبا عربيا ،على ما سترى .

أما الكثرة الغالبة من السكان فى قرطبة ، فممن وجدهم المسلمون لحظة الفتح ، ويعودون إلى أصول محتلفة ، لاتينية وقوطية وإيبرية وسلتية وحتى أفريقية وفيتيقية ، وقد أطلق على من أسلم منهم لحظة الفتح اسم « المسالمة » ، وعلى أبنائهم اسم « المولدون » ، وكان منهم الحرفيون وصغار التجار ورجال الأعمال ، وبعضهم كان يعمل فى المزارع التى حول قرطبة ، وهم العنصر الأكثر فعالية فى الاقتصاد ، لأنهم أعرف من غيرهم بالبلد ، وأكثر احمالا لأجوائه وجوائحه . وقد دعمت الدولة فى سياسة بعيدة النظر هؤلاء المسلمين الجدد وحميهم ، وفتحت أمامهم باب الأمل والعمل راسعاً وعريضا ، لكى يعملوا ويتروا أبو يحتلوا مكانهم فى المجتمع ، وبرزت من بينهم مواهب كلى يعملوا ويتروا أبو يحتلوا مكانهم فى المجتمع ، وبرزت من بينهم مواهب عربياً ، عن طريق الزواج والمصاهرة ، أو الولاء ، أو باصطناع نسب مزيف ، عربياً ، عن طريق الزواج والمصاهرة ، أو الولاء ، أو باصطناع نسب مزيف ، عربياً من ماضهم غير الإسلامى ، وثنياً كان أم مسيحياً أم يهودياً . وكان هروباً من ماضهم غير الإسلامى ، وثنياً كان أم مسيحياً أم يهودياً . وكان بينهم من يتعصب لطائفته ، وقد كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وأصله من الباسك ، رسالة فى فضائله م والدفاع عنهم .

وقد احتفظ عدد كبير من هولاء المولدين بأسماء أسرهم القديمة ، واتخذوا منها ألقابا ، فلدينا ابن بشكوال Ibn Pascual صاحب كتاب «الصلة » وبنو قومس Banu Martin ، وبنو مرتبن Banu Garcia ، وبنو غرسية Banu Garcia ، وآخرون كثيرون . وبعضهم عرب اسمه اللاتيبي ، فأصبح به Félix يدعى سعياً ، و Victor يدعى الظاهر ، وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربي ، فاسم Boisés عيسى ، و هكذا .

ثم السود والصقالبة ، وهما على النقيض لونا . ويطلق على الرقيق القادم من الصقالبة ، وهما على النقيض لونا . ويطلق على الرقيق القادم من بلاد السودان اسم العبيد أوالسودان ، ولا صلة للتسمية بما يطلق الآن على جنوبي وادى النيل، وإنما تعنى تلك المناطق التي تمتد من جنوب المغرب وما وراءه من غربي إفريقية ووسطها . وقد اتخذمنهم الخلفاء حرسهم الخاص، وبلغوا عدداً لا بأس به ، وبخاصة في عهد الحكم الثاني ، وأصبحوا يكونون جانباً من المهرجانات العامة ، بين فرسان ومشاة ، وبخاصة في البيعة ، وأكثر منهم المنصور بن أبي عامر ، لأنهم اشهروا بالقوة و الاحمال، والقدرة على العدو ، حتى أن البريد ويطلق عليه في لغة الأندلس الإدارية اسم والرقاص ، كان وقفا عليم ، وكان يتبع المنصور في كل حملاته الحربية ، مل أوامره إلى مرءوسيه في بقية العاصمة أو بقية الكور.

ولا يزال أحد شوارع قرطبة بحمل اسمهم مترجما حتى يومنا هذا: زقاق السود Galleja de Los Negros تا

والسودا وات كن أكثر عدداً من الرجال ، ويتمتعن بشهرة عالية فى الأعمال المنزلية ، وكان الرجال يقد رون فيهن صفات أنثوية لا يجدونها فى غيرهن ، وكان اللون الأسود لأبناء من آباء بيض شائعا بين الطبقة الحاكمة والمقتدرة ، « وإنه لشىء يشرف هؤلاء المسلمين أنهم لم يعرفوا التفرقة العنصرية بسبب اللون أبداً ، لا فى العصر الوسيط ، ولا فى أيامنا هذه » .

وكان الصقالبة خصيانا في أكثر الأحوال ، ويعملون في حرس الخليفة ، والطريق مفتوح أمامهم إلى المناصب العليا ، وإلى أن يصبحوا في مرتبة الرجال الأحرار ، رغم أنهم جاءوا إلى الأندلس رقيقا ، وبينهم من احتفظ بلغته ، ومن اعتزل المجتمع ، وحافظوا على خصائصهم ، واتخذوا لهم موقفا خاصا ، رغم أنهم أسلموا ، وفتحوا قلوبهم للمجتمع الذي يعيشون فيه ، وعندما سقطت الخلافة أصبحوا عنصراً مستقلا في

مواجهة العناصر الأخرى ، وتميزوا بروخ التضامن فيما بينهم . وفي البدء كان يطلق لفظ الصقالبة على الذين يؤتى بهم من وسط أوربا ، ويقوم اليهود على خصائهم في مدينة بجانة ، وكل سكانها من اليهود ؛ وكان يهود فرنسا يباشرون المهنة في مدينة « فردان » ، ويرْيحون من ورائها أموالا طائلة ، وفيا بعد أطاق الاسم على كل الرقيق الأبيض اللون ، حتى أو لثك الذين يؤنى مهم من جنوب فرنسا أو شمال الأندلس. و كان الأسيرات القادمات من بلاد الإفرنج، في جنوب فرنسا ، أو مِن مقاطعات قطلونية والباسك وغاليسية في شمال الأندلس، حظوة كبيرة في قرطبة، لأنهن بيضاوات البشرة ، شقراوات الشعر، زرقاوات العيون، ومن بيهن كان الأمراء بختارون عشيقائهم المدللات، فإذا أنجبت الواحدة منهن صارت أم ولد ، أى حرة . وقد مارست الجوارى نفوذا كبيراً في الحياة السياسية ، "ولم يكن اتخاذهن وقفا على الأمراء ، وإنما شاع ذلك في بيوت الحاصة ، وأعلى الطبقة الوسطى ؛ من كبار الموظفين ؛ ورجالات الدولة ، وأبنـــاء البيوتات . وتميز هؤلاء الحوارى بالثقافة والرقة والصقل ، وأدين دور ا بالغ الأهمية كأمهات ، وأعطين المحتمع الأندلسي طابعه الخاص ، ولعبن دُورًا كبيراً في تحسين مكانة المرأة في الأندلس.و يحمل شارع في قرطبة اسم شارع الرقيق ، أو الجوارى Las esclavas حتى يومنا :

هذه العناصر على اختلافها كانت تأخذ طريقها ، تدريجيا ، نحو اندماج كلى ، سهله ومهدله ، عقيدة و احدة كانت نظل الناس جميعا، و تحدد لهم أنماط السلوك في حياتهم العامة والخاصة ، دون أى تمييز طبقى أو عنصرى . و يمكن القول ، إن القرن العاشر الميلادي ، في النصف الثاني منه تقريبا ، وفي ظل السلام الوارف الذي بسط عبد الرحمن الناصر ربوعه على الأندلس ، تمت عملية المزج بين العناصر الأصيلة والوافدة ، وكنت إذا سرت في الشوارع ، أو تجولت في الأسواق ، تلتقي بأناس ألوانهم مختلفة ، شقر وسمر وبيض أو تجولت في الأسواق ، تلتقي بأناس ألوانهم مختلفة ، شقر وسمر وبيض وسود ومخلطون ، يعيشون في وثام مع بعضهم ، ومع الذميين من الكاثوليك

واليهود ، « ونجم عن اختلاظ الأجناس، وتجاور الديانات ، جو سمح جميل، إنساني وشفاف ، هو الجو الحضارى نفسهالذى نعرفه فى بغدادكما تصورها قصص ألف ليلة وليلة ، خالصا من كل مايرتبط بالشرق فى أذهاننا ، من جلافة يشوبها الغموض ،

في هذا القرن كانت الخلافة الفاطمية في المغرب، والعباسية في بغداد، تدفع بالأندلس دفعاً بحو الإنطواء على نفسه ، فكلاهما كان خصماً سياسياً عنيفا ، ومن ثم كان اهتمامه بالوحدة الفكرية للعالم الإسلامي فاترا ، وبدأ يتكون في وجدان الأندلسي شيء غامض ، بإحساس ذاتي مبهم، من المبالغة أن نقول عنه إنه قومي ، لأن مثل هذا التعبير يتجاوز ماأ حسبه الأندلسيون، ولايتناسب وطبيعة العصر ، ويمكن تحديده بأنه إحساس بوحدة الأمل والغاية والحياة بين سكانه ، وبعزلة جغرافية شعورية عن بقية العالم الإسلامي، ومع شدة العداء السياسي من الفاطميين والعباسيين أخذ هذا الاتجاه شكلا أكثر قوة ووضوحا ، وبدأ الأندلسي ، إيبريا من شبه الجزيرة ، أو قادما من المغرب ، أو مها جرا من المشرق، يحس بشخصيته الأندلسية ، ويعبرابن حزم عن هذا المعني تعبيرا قويا في بيت من الشعر :

وياجوهر الصين سحقا فقد ﴿ غنيت بياقوتة الأندلس

لقد بدأ الأندلسيون يستشعرون أنداسهم وطنا ، يتعبدون به دواما ، يتغزلون فيه شعراء حين يكونون على بساطه ، و محنون إليه وجدا حين يكونون بعيدين عنه ، وليس مهما بعد ذلك أنه لم يعرفوا كيف يدافعون عنه فيما بعد . ذلك أن الأندلسي كان كثير الكلام وجدلا ، قوى الإحساس بالطبيعة وشاعرا ؛ قادرا على التمتع بالحياة ، ولكنة كأى متحضر تنقصه الخشونة التي تجعل منه قادرا على الصمود والنضال .

وكان هناك المستعربون، وتطلق عليهم المصادر العربية ، نصارى اللذمة ، أوالعجم ، أو مجرد كلمة نصارى، وتطلق عليهم المصادر اللاتينية السم: المستعربون، أخذا من من كلمة مستعرب Mozarabes مضافا إليها أداة الجمع في اللاتينية، وهم أولئك الذين ظلوا على كاثوليكيهم، ولكنهم فيا عدا ذلك شاركوا المسلمين الكثير من عاداتهم وثقافهم وألوان حياتهم ولانستطيع أن نستنتج عددهم، ومن الواضح أنه كان يقل مع الزمن بفضل تقدم الإسلام، وباستثناء روسائهم الدينيين، فإن المصادر العربية قلما تتحدث عهم وبينهم من كان يتمتع بوضع اجهاعي ممتاز، ولم يكونوا يتعرضون لأية مضايقا من الخايفة، أو من المنصور بن أبي عامر عندما أصبح حاجبا، ولامن الحاصة، وبرهنوا من جانبهم على انضمامهم للمجتمع، وحاولت الدولة أن تكسب ثقهم، ولكن ما إن نمت القوى الكاثوليكية في الشمال حتى اهتز ولاؤهم، وأصبح مجاهلة وتقية وانتظاراً أكثر من المخلاصا.

وفد استقلوا بشؤهم الدينية ، أصبح لهم رئيس ينتخبونه من بينهم ويعينه الخليفة، يدى قومس Comes ، وقاض ينظر في أمورهم الحاصة ، يعرف باسم القاضى العجم» ، وكان لهم كنائس في داخل المدينة ، وعدد آخر خارجها ، تضم كل واحدة منها ديراً ، وفي هذا القرن ألغى القرار الخاص بحظر دق أجراس الكنائس ، وكانوا يؤدون طقوسهم الدينية في جرج يشد إليه فضول حتى أولئك المسلمين الطيبين من العامة ، ووصف لنا ابن شهيد ، في رسالته «التوابع والزوابع » ، انطباعه عن دير زاره . ورغم أن بعض المسلمين كان يتهم رجال الدين الكاثوليك بأنهم ليسوا طيبين ، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب ، وأمكنة ليسوا طيبين ، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب ، وأمكنة ليسوا طيبين ، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب ، وأمكنة ليسوا طيبين ، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب ، وأمكنة ليسوا طيبين ، وأن الأمر فإن مثل هذا الاتهام لم يكن يسبب أية متاعب للمستعر بن.

وبعض هولاء المستعر بين كان على ثقافة عالية ، وموضع ثقة الحايفة ، وكان ربيع بن زيد ، واسمه المسيحي Recemundo يستخدم

اللانينية والعربية عستوى واحد، وقد انخذ منه الناصر سفيراً متجولاً له: فأرساه إلى أوتون الأول Otoni ملك جرمانيا، ثم إلى القسطيطينية وسورية للحصول على مواد محتاج إليها فى بناء مدينته الزهراء، ولكى يضفى عليه احتراماً زائداً فى سفارته عينه أسقفاً لمدينة إلبرة، وهى وظيفة شرفية، فلم يكن لديه فى الواقع وقت ليباشر وظيفته هذه. وكان الحكم الثانى يقدر معارفه الفلسفية والفلكية، وله ألف ربيع بنزيد كتابه الأنواء وكان المستعربون طبقات اجتماعية محتلفة، يقف على قمها النبلاء الذين ينحدرون من القوط، ثم الطبقة العليا وكانت وقفاً على رجال الدين ويأنى العبيد في نهاية السلم، وكان المسيحيون واليهود شأنهم كالمسلمين عمتلكون الرقيق.

وكان فى قرطبة يهود ، ومعلوماتنا عن نشاطهم فى القرن العاشر محدودة للغاية ، وما وصلنا من أخبار وفيرة عهم يعود إلى القرن التالى ، ولقد وجدت عنتاً فى الوصول إلى معرفة عدد من اليهود كان يعرفهم ابن. حزم ، وتبردد أسماؤهم فى «طوق الحمامة». ومع ذلك يمكن القول أنهم كانوا يكونون جالية كبيرة ، تقطن حياً خاصاً بها ، يقع بين شارع القنطرة وقصر الخلافة ، ويحمل اسمهم . وأن أحد أبواب المدينة كان يطلق عليه اسم باب اليهود ، وأن الربض المجاور له يحمل اسمهم أيضاً ، ويبدو رغم صمت المؤرخين أنه حى يهودى آخر يختلف عن الأول ، وربما كان موطن الأغنياء منهم .

وقد سكن البهود الأندلس قبل مجئ المسلمين ، وساعدوهم في حركة الفتح ، واعتنق بعضهم الإسلام ، وظلت غالبيتهم على ديبها ، وفيا بعد جاء يهود آخرون من أفريقية وآسيا . وقد تركوا أحراراً تماماً في حياتهم الدينية ، وكانت لهم بيعهم داخل المدينة ، ولهم مجلس شوري يرعى شاوتهم يسمى و الحماعة ، ورئيس هو الصلة بيهم

وبين السلطات الإدارية ، ورئيسهم في عهد عبد الرحمن الناصر ، و هو الوحيد الذي نعرف عنه شيئاً ذا قيمة في هذه الفرة ، حسداى بن إسحاق بن شبروط ، كان طبيبا للمخليفة ، ومن مستشاريه المقربين ، ويسفر له لدى ملوك الشمال المسيحيين ، وإليه يرجع فضل إقامة الدراسات التلمودية في قرطبة وإزدهارها ، على حين كانت تخبو في المشرق ، وبدأ اليهود يصوغون لهم تشربها خاصاً وقوانين ، وأخذ الشعراء ينشدون الشعر العبرى ، ويتخذون من العروض العربي قالباً يصبون فيه أشعارهم العبرية .

وفيا قبل القرن العاشر حاول البود أن يتمردوا ، وأن يغلوا الحركات الثائرة ، أوينضموا إلها ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن هذه ألبست مهمتهم ، وأن التآمر والدسائس ودفع الآخرين إلى الثورة ، والتسرد على المحكومة ، لن يؤدى إلى شيء ، فآثروا السلامة ، وانصرفوا إلى أعمالهم . وعندما جعل الناصر من نفسه خليفة ، ومن قرطبة عاصمة الخلافة ، وغرق الناس فى النرف ، ووسعت الحياة كل عاملى ، انصرف البهود إلى جمع المتروات الكبيرة ، وآثروا أن يربحوا علما ، انصرف البهود إلى جمع المتروات الكبيرة ، وآثروا أن يربحوا نقة الدولة ، وكانوا يعملون في تجاوة المحوهرات ، والذهب والفضة والرقيق ، والسوق البوداء ، والرهونات والصياغة ، والربا ، وفي النزييف أحيانا هو يعملون مترجمين وأطباء وصيادلة ، وفي التنجم والقلك ، وبعض وظائف الإدارة ، مرجمين وأطباء وصيادلة ، وفي التنجم والقلك ، وبعض وظائف الإدارة ، وخاصة ما اتصل مها و بخزانة المال ،

· الطبقات الاجهاعية :

المدمج مكان قرطبة عنصريا ، و لكن الطبقية الاجتماعية ظلت قائمة على النحو الذى كانت عليه في بغية العالم الإسلامي ، فقد كان هناك الأحرار والموالى . وفي نطاق الأحرار هناك الخاصة ، أو الطبقة العليا بلغة العصر الحديث ، والعامة ، أو الجماهع كما نقول في أيامنا هذه .

تتكون طبقة والخاصة عن أبناء الأسر العربية ، ويخاصة أولئك الذين يرتبطون من قريب أو بعيد بنسب مع الأسرة المالكة ، ويطلق عليهم أحيانا و بنوهاشم » ، أو و أهل قريش » ، إشارة إلى أصولهمالنبيلة ، ويتلقون رواتب من بيت المال إلى جانب أملا كهم الحاصة ، وكانوا موضع احرام كبر من عامة الشعب ، وبعيدون عن المناصب العامة، ويتولى شئوبهم نقيب لهم ، هو صوتهم والصلة بينهم و بن الخليفة. وتأتى مكانهم في الحفلات الرسمية أو العامة ، أو الأعياد الدينية ، أو استقبال السفراء ، قبل الوزراء وكبار الموظفين ؛ ويليم رجال القضاء، وعلى رأسهم قاضى الجماعة ، ثم كبار الموظفين ، ويعدون من الخاصة ، إلى أى عنصر انتموا . ومنذ نهاية كبار الموظفين ، ويعدون من الخاصة ، إلى أى عنصر انتموا . ومنذ نهاية القرن التاسع الميلادي بدأ كثيرون من كونوا ثروات طائلة، قديما أوحديثا، يشترون وضعا اجهاعيا أفضل ، يدفعون ثمنه ذهبا ، لكى ينتسبوا في هذه الطبقة ذات الأهمية الاجتماعية ، وكانت تتمتع بامتيازات مادية محدودة ، ومعنوية أكبر ، ولها الحق في معاملة خاصة من موظفي الدولة . و على أية حال الإقطاع والمصادرة تتم فجأة ، ومحدودة العدد ، وغير مستقرة ، لأن عليات الإقطاع والمصادرة تتم فجأة ، وتخضع لأهواء الحاكم دواما .

كان أبناء و البيوتات ، أوضح عناصر هذه الطبقة فى القرن العاشر ، وهم الله ين كانوا يتوارثون الوظائف الحكيرى منذ القرن التاسع ، ومحتكرون الإدارة المركزية فى العاصمة ، وتميز من بينهم خمسة ، أصولهم شرقية هم بنوعبدة ، وبنو حدير ، وبنو شهيد ، وبنو عبد الرءوف ، وبنو فطيس ، وأبناء الأسر الثلاثة الأولى تبردد أسماؤهم كثيراً فى طوق الحمامة ، وفى القرن العاشر ، على أيام الناصر ، سوف تلحق بهم بيوت أخرى ، لموظفين كبار ، أو موال محدثين ، بجحوا فى مهمات وكلت إليهم . من طراز بدو ابن أحمد الذى انتصر على أور دنيوالثانى Ordanio ملك ليون ، فى موقعة متونية أحمد الذى انتصر على أور دنيوالثانى عبدالله وعبد الرحمن ، وظهر عدد خليفة ، وخلفه فى بعض مناصبه إبناه : عبدالله وعبد الرحمن . وظهر عدد

من الفتيان الصقالبة ، أمثال: درى ، وأفلح ، وطرفة ، وجعفر ، ويظهرون في الوثائق تحت إسم «أبناء الحلائف » ، وبدهى أنهم أصبحوا أحراراً قبل أن يعهد إليهم بالوظائف العالبة ، والتي ارتفعت بمستواهم إلى أشهر البيوتات العربية القديمة ، والتي أحست على التأكيد بأن شيئاً تتوارثه قد انتزع منها فجأة . وفيا بعد ، في خلافة الحكم الثاني وابنه الضعيف هشام الثاني ، سوف نلتقي بالحاجب المصحفي ، والمنصور بن أبي عامر ؛ وأحمد بن سعيد ابن حزم ، والد ابن حزم صاحبنا .

جرت العادة أن يحمل كار الموظفين لقب وزير ، وأن يتلقوا الراتب المقرر له ، وكانوا إلى جانب ذلك يجمعون ثروات طائلة ، من الضياع الواسعة ، والعقارات الهامة ، والجواهر الغالبة ، وكان الحليفة يسأل الذين تطول أعناقهم فجأة عن مصادر ثرائهم، وبعضهم لا ينتظر حتى يسأل ، وإنما يسبق الأحداث فيقدم بعض ما جمع إلى الحليفة ، أو بيت المال ، وكلاهما كان واحدا .

ثم تأتى الطبقة الوسطى ، ويتحدث عنها المؤرخون عرضا ولما ، وتجيء طبقاً لنظم المراسم فى آخر القائمة ، ويطلق عليهم اسم و الأعيان ، ، وهم أغنياء الأحياء ، وكبار تجار الأسواق ، ممن استطاعوا أن يرتفعوا بمستواهم فى سلم الطبقات الاجتماعية ، ومعظمهم من المولدين . ولانستطيع فى ضوء النصوص التى بين أيدينا تحديد الدور الذى قامت به هذه الطبقة فى حياة العاصمة ، ولسكن الأقرب إلى التصور أن الأغنياء منهم كانوا يحاولون أن يقفزوا إلى مرتبة الحاصة ، ولم يكن للبقية دور حتى يكون لهم وضع خاص .

وكانت الطبقة الدنيا ، أو العامة كما تسميهم المصادر القديمة ، وقل ما تتحدث عنهم ، تتكون من الحرفيين والعمال، وكلها من البربر أو المولدين أو الموالى ، إلى جانب المستعربين واليهود ، وفى مدينة كقرطبة ، تجرى الأموال بن يدى الخاصة أنهارا ، كان على هذه الطبقة أن تتحمل ضبر المجتمع

î.

وقسوة الحياة ، وأن ترزح تجت أعباء ضرائب باهظة كانت تفرض عليها. وكانت تقوم بينهم وبين الدولة هوة سحيقة من سوء الظن وعدم الثقة ، لأن الغرم يقع عليهم دائماً ، وكانوا دواماً ، وربما على حق ، مادة معدة للانضهام إلى أية ثورة أو تمرد أو عنف ، ووراء أى قائد أو دعوة ، وظاوا يخضعون دائماً لرقابة مشددة من الدولة ، و درج الأمر أو الجليفة على أن يتملق عواطفهم عند توليه السلطة ، يوكد أمنهم ، ويخفف الضرائب عنهم ، وقد يعفيهم عما تأخر منها .

- اللخة

هذه الجماهير المتدفقة عبر شوارع قرطبة ، أو الهاجعة في بيوتها ، أو المتحلقة في الكتاتيب و المساجد ، أو العاملة في المصانع و الحقول ، أي اللغات كانت تتحدث ؟.

خارح عن قصدى أن أتتبع العربية في زحفها وراء راية الإسلام المندفعة، وأن ألم بخصائصها ، وما أصابها من تحوير أو تحريف أو تطور ، إنما أريد أن أقصر نظرتى على بهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ، أي الغترة التي سبقت أو عاصرت أو تلت ابن حزم ، وهي في الوقت نفسه الفترة التي بلغت فيها الحضارة الأندلسية قمة توهجها .

كَانَتُ اللغة العربية الفصحى اللغة القومية ، ولأنها لغة ثقافة ، وعاء حضارة ، في تجله على بطحاء شبه الجزيرة الإببرية لغة أخرى تدخل معها في صراع ، أو تقاوم زخفها ، ولأنها لغة القرآن فرضت نفسها لغة الإدارة أيضاً . وأصبحت لغة الحديث في اجماعات الأصدقاء المثقفين ، وفي « الصالونات » وأصبحت لغة الحديث في اجماعات الأصدقاء المثقفين ، وفي «الإبداع الأدبي شعراً الأدبية ، وعرير الرسائل ، والوثائق الرسمية ، وفي الإبداع الأدبي شعراً ونثراً ، ولغة التعليم بنوعيه ، المبتدىء والعالى على السواء . وفي العلاقات الدولية ، ومع المشرق بخاصة ، أفراداً أو على مستوى الدول ، وكان المحكن منها شرطاً لتولى أي من المناصب العامة ، والتفوق إفيها العاريق

الوحيد إلى النبل المكتسب والوظائف العليا . ومن ثم كان على الأندلسين من غير المسلمين ، يهوداً أو مستعربين ، أن ينبغوا فيها إذا أرادوا أن بجدوا لهم مكاناً مرموقاً تحت شمس الخلافة ، وتعرف من بيهم أدباء وشعراء كانوا يكتبرن فيها شعراً جميلا و نثراً راقيا . ويعبر عن هذا لها الواقع زفرة أرسلها ألفارو ، مطران قرطبة ، عام ١٥٨٤ م ، أى قبل الفترة الى نعرض لها بنحو قرن كامل ، ولما يمض على الفتح الإسلامي غير مائة وأربعين عاما ، يقول : و من الذي يمكف اليوم بين أتباعنامن المؤمنين على در سة الكتب المقدسة ، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علماتها ، ممن كتبوا في اللغة اللاتينية ؟ من منهم يلدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرسل ، إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبا يلانحة العربية ، يبحثون عن كتبها ويقتنونها ، يدرسونها في شغف ، ويعلقون باللغة العربية ، ويتحدثون بها في طلاقة ، ويكتبون بها في جمال و بلاغة ، ويقولون غيها الشعر في رقة وأناقة . ياللحزن : مسيحيون بجهلون كتابهم وقانونهم فيها الشعر في رقة وأناقة . ياللحزن : مسيحيون بجهلون كتابهم وقانونهم فيها الشعر في رقة وأناقة . ياللحزن : مسيحيون بجهلون كتابهم وقانونهم فيها الشعر في رقة وأناقة . ياللحزن : مسيحيون بجهلون كتابهم وقانونهم فيها الشعر في رقة وأناقة . ياللحزن : مسيحيون بجهلون كتابهم وقانونهم فيها الشعر في رقة وأناقة . ياللحزن : مسيحيون المها لا محصى يظهر وسالة معقولة لأخيه مسلماً عليه ، وتستطيع أن تجد جمعا لا محصى يظهر وسالة معقولة لأخيه من اللغة العربية .

وكانت البربرية ، بلهجانها المختلفة ، تتحدث في الأعوام الأولى من شمال المحتلفة ، وحتى زمن متأخر نسبياً ، مع الجنود البربر ، والمهاجرين من شمال الفريقية ، وكانوا أكثر عدداً من العرب ، ويذكر ابن القوطية في كتابه : وافتتاح الأندلس ، أن عبد الرحمن الداخل و ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفرمن العسكر، فسمح البربرية كلمون في المسكربالبربية ، فدعا بمواليه من البربر ، وقال لهم : خاطبوا بني عمكم وعظوهم ، وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دواتنا فلا بقاء لهم معهم ، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية ، ولكنها ما لبثت انتقهقرت امام العربية ، ولا نبلغ المرحلة التي نحن بصددها من تاريخ الأندلس حتى بعدها قد تلاقت تعاما ، فهاهدا كلمات قليلة لبست بذات أثر ، من أسهاء غيدها قد تلاقت تعاما ، فهاهدا كلمات قليلة لبست بذات أثر ، من أسهاء

بعض الأطعمة أو الملابس ، ولو أنها سوف تعود فيما بعد ، ودون أن تترك أيضا أثرا يذكر ، مع بعض دول الطوائف ذات الأصل البربرى ، ومع المرابطين والموحدين .

وكانت هناك اللغة اللاتينية ، لغة رجال الدين من المستطربين ، يعرفونها إلى جانب ما يعرفون من العربية الفصحى والعامية ، والرومانية ويطاق عليها اللاتينية الواطية ، لأنها تخدف عن اللاتينية الأدبية في تراكيها وصوتيانها ومفرداتها ودلالاتها ، وتتباين مناطق وعصوراً ، وتأثر ا باللغات القديمة في المناطق التي عاشت فيها ، وما وصلنا فيها من أدب قليل للغاية ، لأنها لم تكن لغة ثقافة ، وإنما تستخدم في الطقوس الدينية ، وفي الوثائق الإدارية فحسب ، ولم تكن مفهومة لغير رجال الدين ، وقد اضطر سعيد المطران ، أو عصب ، ولم تكن مفهومة لغير د في المصادر اللاتينية ، إلى شرح المكتاب المقدمن باللغة العربية ليسهل فهمه على عامة للمتعربين ، وفيا يعد ترجمت التوراة نفسها ، وتحتفظ مكتبة مدريد الوطنية بمخطوطة تضم ترجمة عربية التوراة نفسها ، وتحتفظ مكتبة مدريد الوطنية بمخطوطة تضم ترجمة عربية للقوانين الكنسية كتبت عام ١٠٤٩ م ، وإذا عرفتا أن الكتاب وضع خاصة للقوانين الكنسية أدركنا المستوى الذي انتهت إليه اللغة اللاتينية في الأندلس .

وكان عامة المستعربين ، ومعظم المسلمين ، وجل اليهود ، يتكلمون الرومانئية ، أو يعرفونها ، أو يلمون بشيء مها ، إلى جانب الفصحي وعامية أهل الأندلس ، وهي لغة انحدرت من اللاتينية العامية ، أو اللاتينية الواطية ، و ابتعدت عنها كثيراً ، وأخذت في كل منطقة تطوراً خاصاً ، صوتاً واشتقاقا و تركيبا ، سوف يصبح فها بعد اللغات اللاتينية الحديثة ال ، وهي الإيطالية والفرنسية و الإسبانية والبر تغالية و القطلونية ، البروفنسالية والرومانية (نسبة إلى رومانيا الحديثة) ، وما تفرع عن هذه من لهجات . ويطلق عليها المؤرخون الأندلسيون اسم : لسان العجم ، أو العجمية ، أو الليطينية قليلا، وقد عجب ابن حزم في كتابه و جمهرة أنساب العرب » ، من أن

وعرف العصر عدداً من كبار المفكرين اليهود في قرطبة ؛ وفي غيرها ، وفيه بدأت الدراسات اليهودية تزدهر ، ومع إذلك لا يمكن القول بأن اللغة العبرية كانت لغة ثقافة أو محادثة لأحد . صحيح أن عدداً محدوداً من علماء اليهود كان على معرفة بها ، ولكنها معرفة المتخصص الراغب في الدراسة ، أكثر منها معرفة المتمكن مجعل منها محملا لأفكاره أو مشاعره ، أو أداة وصل بينه وبين الآخرين.

ومن الموكد أن الصقالبة ، وجاءوا من أمكنة عديدة من وسط أوربا ، كانوا يعرفون لغام الأصلية أو مفردات منها ، وأن أدوات النطق عندهم تكونت على نحو يترك أثره فى نطقهم للغة التى سوف يتحدثون بها . ورغم أن الكثرة الغالبة منهم كان يوتى بهم أطفالا ، ويربون على إتقاق اللغة العربية وإجادتها ، فإن عددا منهم ليس بالقليل ، كان يجيء فى سن فتية لايتأتى معها أن يتعلم اللغة العربية بسهولة . وكان جهلهم بها ية يم بينهم وبين عامة الناس سورا عالياً من العزلة ، فلا يشاركون إغيرهم فى حديث أو حوار ، فكان يطلق عليهم اسم و الحرس ، لكننا لا نعرف أنهم تركوا أثرا واضحا ، أو غيرواضح ، فى أى من لغات الأندلس : العربية أو العامية أو الرومانثية ، أو حيى الإسبانية فيا بعد ، ولو أن

حيوان أبن قرمان ، وكتب في عامية أهل الأندلس بعد ذلك بقرن من الزمان ، يضم عددا كبيرا من ألفاظ. غير عربية ، الجانب الأكبر منها من أصل روماني ، ولكن عددا من المفردات يمكن ــ ظناــأن يكون مصدره هؤلاء الصقالبة ، لأننا لانعرف له معنى ، ولم نتوصل له إلى أصل يمكن أن يرد إليه .

وإلى جانب هذه اللغات كلها عرف الأندلس عربية عامية ، ذات دائرة أوسع منها جميعاً ، ولها خصائص متميزة ، وسوف تعرف باسم و عامية أهل الأندلس ، و جاءت نتيجة طبيعية القلة العنصر العربى ، و للزواج المختلط، فكل العرب الذين و فلوا على الأندلس ، إلا ماندر ، جاءوا رجالا ، و تزوجوا فيه من إسبانيات . أو تسروا من الجوارى ما وسعتهم الحال ، وكان عدد الحوارى كبيرا ، وينتمين في جنسيات مختلفة ، ومن مناطق متنوعة في عدد الحوارى كبيرا ، وينتمين في جنسيات مختلفة ، أو الباسك ، أو جليقية ، الأندلس نفسه ، ففيهن القادمات من قطاونية ، أو الباسك ، أو جليقية ، ومن جنوب قرنسا ، ويطلق عليهن في المصادر القديمة اسم و الفرنج ، وكن مرغوبات و عبوبات ، لبياض بشرتهن ، وشقرة شعرهن ، و مثلن وكن مرغوبات و عبوبات ، لبياض بشرتهن ، وشقرة شعرهن ، و مثلن الحارية الحارية ، إلى جانب قلة من الصقابيات أو السودانيات ، وكانت الحارية الحق بجهل العربية ، إلى جانب قلة من الصقابيات أو السودانيات ، وكانت الحارية الحق بجهل العربية ، و تطلب المتعة ، أغلى ثمنا من غيرها .

والرجل مع زوجه ، أو جاريته ، في لحظاتهما الودود ، لا يتحدث الفصحى ولا يسمعها ، يعبر عن عواطفه بلغة مفهومة لمن معه ، وتجسد هي مشاعرها في لغتها الأصابة ، أوفي لغة هجين ، لأن الكتب والثقافة والتعليم لاتمدها ، ولاغيرها من على شاكلتها ، بألفاظ هذه الأحاسيس ، إنما يتعلمها التي من أنداده ، من على شاكلتها ، فأنوابها . وكل ذلك إلى جانب مفردات البيت المتصلة بالطعام وتنقلها الفتاة عن أترابها . وكل ذلك إلى جانب مفردات البيت المتصلة بالطعام والشراب . وهي تلقن هذه الألفاظ وما تحب من لغتها لأطفالها ، فتأتى لغة والأبناء ، على الأقل في المرحلة التي تسبق المدرسة ، خليطا من لغة الأب ومن طحجة الأم

وإذا تجا وزنا الجوارى ، فإن الباعة وأصحاب المهن الصغرى، وكالهم ليسوا بعرب، تخلف في نطقهم ، وفي معجمهم اللغوى، الكثير مما ورثوا ، ومن الرومانثية ، ومن ثم فإن عامية الأندلس كانت خايطا من ألفاظ عربية فى مجملها ، فى صورتها الصحيحة أو تطورت نطقا و دلالة . ومن كامات رومانئية تمثل نسبة عالية ، قا. تبلغ حد الثلث منها ، ومن ألفاظ بربرية أومن لغات أخرى. قليلة للغاية ، وليست بذات أهمية ، وكانت هذه اللغة معروفة للناس جميعا ، عربا و بربرا وإسبانا مسلم ين ويهو دا ومستعربين، و لكل من يعيش فى قرطبة ، إنها لغة الحياة اليومية فىالبيعوالشراء ،والسمروالتوادد ، والتخاطببين عامة القوم ، ولم يصلنا من هذه اللغة، أو اللهجة إن شئت الدقة ، فىالفترةالتي نعر ض لها ، نصوص تعين على تحديد ملامحها ، ولكن ابن حزم أشار إلى بعض هذه الملامح ، وي ى أن المربر لعبوا دو راً حاسما فىالتحريف البنائي والصوتى الذي. أصاب اللغة العربية فى الأندلس ؛ ويقول المقدسي ،و هو جغرافي غير أندلسي من القرن العاشر الميلادي، إنه التقيفي مكة محجاج أندلسين، • لغتهم عربية ، غير أنها منغلقة ، مخالفة لما ذكرنا فى الأقاليم ، ولهم لسان آخر يقاربالرومى . . أما هذه العربية المنغلقة، فهي عامية آهل الأندلس ، وأما اللغة التي تقار ب اللسان. الرومى (أى اليوناني) فهي الرومانثية . ويمكن القول إجمالاأن هذه العامية ، إذا استثنينا الكلمات الرومانثية التي اختاطت بها ، تشبه في صوتياتها ، والحانب الأكبر من دلالاتها ، عامية أهل المغرب والجزائر ، فى أيامنا هذه ، إلى حد بعيد .

وهذا التيار العامى كان يمكن أن يودى بالعربية ؛ لولا أنه أدى فى الوقت نفسه للى رد فعل معاكس ، فكانت عناية الدولة والمجتمع الراقى و المنقفين بالفصحى كبيرة ، الحلفاء ورجال الدولة يقربون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم فى إجادتها ، ويغدقون العطاء على الشعراء والكتاب ، ويحرص هو لاء من جانبهم على النزامها ، ويبالغون فى مراعاة القواعد ، و التأنق فى التعبير ، ومن ثم از دهرت الدراسات اللغوية ، وعرف الأندلس عددا من كبار النحاة ، كابن مالك صاحب الواضح فى النحو ، ، كابن مالك صاحب الألفية ، وأبى بكر الزبيدى صاحب و الواضح فى النحو ، ،

وغيرهم .وعرفتالدراسات الحاصة بمقاومة اللحن ، وتصحيح النطق ، وإر شاد الناس إلى الصواب .

· العمران :

تحتل قرطبة بوصفها عاصمة الأندلس المكانة الأولى فىالمصادر التاريخية والحغر افية ، غيرأن التفصيلات التي تقدمها لنا هذه المصادرعن تخطيط المدينة والحياة فها قليلة للغاية ، والكتاب الوحيد الذينستخلص من عنوانه أنه عني بهذا الجانب، وهو «كتاب وصف قرطبة» لمؤرخ الأندلس الكبير أحمد بن محمد الر ازى (ت ٣٤٤ ه = ٩٥٥ م)، وفيه تفصيلاتوافية عن شو ارعها وقصور الأعيان فيها ، ضاع ولم يصلنا . ولقد أوقف المقرى الحزء الثاني من كتابه « نفح [الطيب، ، طبعة الشيخ محيى الدين ؛ ألم على مدينة قرطبة ، وحشد فيه نصوصا كثيرة ، كاملة أو مبتسرة ، جغرافية وتاريخية وأدبية، غير إأن المؤلف وهو مغربي؛ وحرركتابه في القاهرة ، ويتحدث عن مجتمع أندلس قد اندثر ، لايقدم [لنا ، إذا حذفنا الأشعاروالتكر اروما لإ صلة له بالموضوع ، إلامعلومات قلية للغاية، وحاضر المدينة ، وزرتها مرارا ، صورة مشوهة لماكانتعليه فيماضها ، نُعُمُّ إن بعض المعالم لاتز القائمة ، وبخاصة تلك التي تقع على شاطي ءالوادي الكبير ، كالمسجد الحامع، والرصافة، وبقايا أطلال العصر الأموى فيالسهلة، أوسفح الحبل ، أو مدينة الزهراء ، كما أن السور الذي كان قائما خول المدينة في القرن العاشر بمكن تحديد معالمه كاملة . إن قرطبة المعاصرة، مياني وسكانا ، جزء صغير عما كانت عليه في عصر الحلافة ، لقد تلاشت أحياء وأرباض كاملة برمتها ، وأصبح ماحول قصر الناصر في مدينة الزهراء أعشابا مخضرة ، مراعى للثمر ان .

كانت قرطبة القرنالعاشر صنوبغداد، فيا يرى ابن حوفل، ولم يجدلها في مصرأوالشام شبرا، ويختلف المؤرخون المعاصرون في عمدد سكانها، "في مصرأوالشام شبرا، وفي غيبة فيعضهم يتجاوز به المليون، ويهبط به آخرون إلى ماثة ألف، وفي غيبة

الوقائق القاطعة كل شيء محتمل ، ولو أن الرقم الأدنى يبدو غير معقول ، لأن قرطبة الآن تغيم من السكان مائتى ألف ونيفا ، وكان امتدادهامدينة ، ومركزها عاصمة ، يجعل منها فى العصرالوسيط أضعاف أضعاف ماهى عليه الآن. وإذا استخدمنا الأرقام ، ومالدينامنها كافلالقاء ضوء على حجم المدينة ، قلنا : كان بها ٣٨٧٧ مسجدا فى رواية ، و ٢٨ ربضا ، و ٩١١ حماما ، قلنا : كان بها ٣٨٧٧ مسجدا فى رواية ، و ٢٨ ربضا ، و ٩١١ حماما ، وطبقاً لإحصاء تم بامر المنصور بن أبي عامر فى نهاية القرن العاشر ، كان فيها وطبقاً لإحصاء تم بامر المنصور بن أبي عامر فى نهاية القرن العاشر ، كان فيها الموظفين ، و ٥٥٠ ر ٨٠ د كانا ، ولايدخل فى هذه الأرقام البيوت المؤجرة ، ولا الحمامات ولا الفنادق ، وسبعون دار اللكتب .

وكان يطلق على الجانب القديم من قرطبة اسم « المدينة » مرسلا ، أو والمدينة العتيقة، أو القصبة ،، و يحيط به سور يرمم من حين من لآخر، وتقوم عليه عدة أبواب، أهمها: باب القنطرة، ويقوم على مقربة من المسجد الجامع ، ومن قصر الخلافة ، ويربط المدينة بربض شقندة ، اوكان الحكم الأول (٧٩٦ – ٨٢٢ م) قد أمر بهدمه وتحويله إلى مقبرة ، بعد أن تزعم سكانه ثورة عليه عرفت باسم « فتنة الربض » . وباب الوادى أو الجزيرة ، وفيها يقول البكرى كان عايه تمثال لمريم العذراء، والباب الجديد، وباب طليطلة ، ويطنق عليه أيضاً باب رومية ، على حين كانت العامة تسميه باب عبد الجبار، نسبة إلى عبد الحبارين الخطاب مولى الخليفة المشرق،مروان بن الحكم . والباب الرابع فى الشمال الغربي ويسمى باب ليون أو باب طلبيرة أو باب اليهود ، واستقبح بعضهم هذا فكانوا يطلقون عليه باب الهدى ، والأبواب الأخرى توجد في الحانب الشرقي ، وهي : باب عامر ، أوباب ، الحوز ، ويسمى باب بطليوس أيضا ، وباب إشبيلية أو العطارين ، وعلى مقربة منه كان يوجد مصنع ساك العملة ، ويطلق عليه اسم و دارالضرب. . وكانت عدة دورالرعايا والسواد الذين يسكنون داخل السور١١٣ ألف دار ، حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والبياض .

غيرأن المدينة ، ومخاصة منذ القرن الناسع ، بدأت تفيض بسكامها نحو أحياء جديدة بين الحانب الأبمن والمنطقة التي تبدأ من باب عبد الحبار وتمتد حيى الكولية ، وتسمى الشرقية ، أو الحانب الشرقي ، ومازالت تعرف باسمها العربي حتى يومنا هذا في شكله الإسباني الحديث Ajarquia ، (في الإسبانية القدعة Axerquia) ، ومنها يبدأ الطريق الموصل إلى مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر .

وفى أقدم مخطط وصلنا لمدينة قرطبة ، ورسم عام ١٨١١ م ، نلتقى بعدد من المعالم العربية وبخاصة مااتصل مها بالحى التجارى مثل: القيصرية ، وهى سوق الأقمشة ، وتنفرع مها على الطريقة القديمة شوارع : الحزارين والحبازين والحياطين ، والصفارين . ونلحظ أن حى الشرقية الحديث احتفظ بعدد من أسماء الشوارع العربية ، في صورتها العربية أو مترجمة إلى الإسبانية ، وترتبط بنشاط تجارى أو صناعى كان يشتهر به الشارع في قرطبة العربية ، فهناك شارع الوراقين Librerias ، والحلالين والحلالين والحبالين وأسماء أخرى كثيرة . وبقى القليل في صورته العربية ، كالمحور الذي تلنقى وأسماء أخرى كثيرة . وبقى القليل في صورته العربية ، كالمحور الذي تلنقى عنده عدة شوارع صغيرة ويسمى الزنيقة Azonaica ، أو ميدان المغرة وشرها . هردواق عائش Azonaica ، وزقاق عائش ميدان المغرة وغيرها .

وكأية مدينة إسلامية في العصور الوسطى لها حى وسيط يشغله أرباب النجارة ، ويرتبط بشوارع تتصل بأبواب المدينة ، وبأحياء أخرى يعمل فيها أصحاب الحرف ويعيشون أيضا . وإلى جوار السور ، حيث يتيح الحلاء أرضاً واسعة لمن يريد ، تسكن الطبقة العليا في بيوت متسعة أكثر منها مرتفعة ، تطوقها حدائق غناء ، ومع از دياد السكان بدأ الناس يبنون بيوتهم خارج الأسوار ، على نحو ماأشرنا ، وبدأ ماأطلق عليه اسم والربض ، ، وهي كلمة

أخذت طريقها إلى اللغة الإسبانية لفظاً ومعنى ، مع تحريف يسبر ، فأصبحت المحتلف الكلمة مستخدمة في لغة الحياة اليومية حتى يومنا ، وقد ينتقل السور مع الحي الحديد ، وقد تتعدد الأرباض ، على حين أن الأصل ، وهومابين الأسوار القديمة ، ظل يعرف باسم المدينة ، ومع الزمن أصبح كل ربض مدينة مستقلة ، له حياته ومتطلباته الحاصة ، وأورد لنا ابن بشكوال قائمة بأرباض قرطبة ، وكانت تبلغ في روايته ستة وحشرين ، وقد اندثرت هذه الأرباض اليوم ، وقامت على أنقاضها مزارع وحدائق ، ولم يكن امتداد المدينة يخضع لتخطيط من الدولة ، وإنما ترك المسادأة الشخصية .

ويخبرق المدينة شارع كبير ، طويل وحزيض ، يطلق عليه اسم : « السكة الكبرى، أو « المحجة العظمى » ، وسوف يصبح مثل هذا الشارع من معالم قرطبة و غيرها من مدن الأندلس ، كبرتأم صغرت، وحيى الآن ، بعد أن ترجم حرفياً إلى اللغة الإسبانية، فأصبح Calle mayor . ويطلق على الشوارع غير الرئيسية اسم « زقاق، ، ويوُدى الزقاق وهو متعرج وضيق لَكَ وَدُرِبٍ، ، وَيَكُونَ هَذَا مُسْلُمُودًا عَادَةً فَي نَهَايِتُهُ ، وَانْتَقَلَ اللَّفْظُ بِصُورَتُهُ العربية إلى الإسبانية Adarve . ومجموعة الشوارع تصبح « حومة » أو « حارة » ، ودخلت هذه إلى اللغة الرومانثية في صورة مصغرة على الطريقة الإسبانيةHarella ، وتحمل الحارة إ أو الحومة اسم المسجد الخاص بها ، والذي بوُّدى فيه سكانها الصلاة . ويتوسط الشارع مجرى مركزى محدد ، ومغطى أحياناً ، تصبفيه المياه القذرة ، ومياه المطر ، ويقوم على تنظيفه عمال من قبل الدولة ، يدقون الأجراس قبل عملهم تنبيها للمارة كي يبتعدوا ؛ أما الزبالة فكان موكولا أمرها لسكان الحي أنفسهم ، يستأجرون من بحملها خارج المدينة . وكان فيها أميال من الطرق المرصوفة ، التي تضاء من بيوت تقوم على جانبي الشارع ، وذلك «على حين لم تكن نتمتع بمثل هذا لندن أو باريس حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ ، وبعد ذلك (م ٣ – ابن حزم)

بقرون كان الذي مجروً على الخروج من عتبة بيته في باريس في يوم مطبر يغوص في الوحل إلى عقبيه » .

وكانت قرطبة ، شأمها في ذلك شأن أية مدينة أندلسية كبرى ، تضم خارج أسوارها حدائق واسعة ، يطلق علمها اسم : « الشريعة » ، مخضرة وذات خدائل ، وتستخدم لأغراض عديدة ، ففي جانب منها يقام السوق الأسبوعي ، وفي آخر مصلي لإقامة الصلوات في الفضاء ، ومخاصة في الأعياد والحفلات الدينية ، وإلى جانبها الحور ، طريق ممتد تحفه الأشجار العالية ، ويتخذه المتنزهون والعشاق والمتبطلون ملتقي لهم . وخارج أسوار المدينة كانت المقابر أيضا ، وعلنها يتردد السكان رجالا ونساء ، ليزوروا مقابر أسلافهم ، ولتكون قبل ذلك وسيلة الالتقاء ، حيث يلتقي الأصدقاء ، وتتبادل السيدات آخر الأنباء والإشاعات ، وحيث تتاح الفرصة للعشاق أيضا .

وكان للخاصة ، أو الطبقة العليا ، بيوت ريفية ، تقوم وسط جنان علدة وعامرة ، يطلق عليها اسم « المنية » ، وإذا كبرت جداً واتسعت أطلق عليها اسم « حبر » ، وتفتح عادة فى وجه الراغبين من عامة الشعب ، وأشهرها فى قرطبة « حبر الزجالى » أو تملكه أصلا أسرة بربرية] ، وتميز بأنه كان يفتح فى وجه العامة من المثقفين والأذكياء وأصحاب الذوق الرفيع فحسب . ونعرف من هذه البيوت الفاخرة « منية نصر » ، نسبة إلى الفيى الصقلى نصر ، ، وكان خصيا ، وموضع ثقة عبد الرحمن الثانى ، وبعد موته المأسوى صادر ها الأمير محمد ، ومنحها زرياب المغيى ليسكن فيها ، وحفظ لنا ابن حيان فى كتابه « المقتبس] قصيدة ليحيى الغزال يسجل فيها الحادث والمناسبة ، وفيها أيضاً كان ينزل السفراء القادمون فى مهمات فيها الحدى عبد الرحمن الناصر .

وخارج المدينة نقوم « المشافي » للمرضى الذين يستعصى علاجهم ، أو

يبطىء، أو مصابين بأمراض معدية ، فى حى قائم بنفسه يطلق عليه : «ربض المرضى »، ويقع قريباً من « منية عجب »، وتقوم عليها جماعات معتطوعة إشرافاً وإنفاقاً ، مما تتلقاه من أهل الحير ، أو مما يوقف عليها من مال أو أرض أو عقار .

ومن معالم قرطبة المسجد الجامع ، ولا يزال قائماً بعد ألف عام من بنائه ، يطاول الزمن ، ويقاوم المحن ، والإلمام بتاريخه ، والوقوف عند أوصافه ، يخرج بنا إلى إطناب ليس هنا مكانه . وقد ترك لنا الشريف الإدريسي ، وهوأنداسي من سبتة ، وتوفي عام ٥٦٠ه ه = ١١٦٦ م، وصفاً له ، شاملا ودقيقاً ، في كتابه : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، كما أن المقرى جمع في كتابه ، النفح ، نصوصاً عديدة متصلة به .

وعندما يهبط المرء من أعلى المدينة ، سالكاً طريق « المحجة العظمى»، و عراً ابن قصر الخلافة والمسجد الجامع ، ينهى أبه الأمر إلى القنطرة القائمة على مهر الوادى الكبير ، وهي قديمة وشهيرة ، ويقال إن الإمبراطور الروماني أغسطين أول من أمر ببنائها ، وما تزاال قائمة حتى يومنا إهذا .

الدفاع الماء ، وأمكنه الصلاة في الهواء الطلق ، ومكان متسع يعلق فيه المحكوم علمهم بالصلب .

• المهن والحرف :

فى القرن العاشر ، وتحت مظلة شاملة من الأمن والسلام ، لكل الأرض وكل الناس ، بلغت قرطبة قمة الازدهار الاقتصادى ، وتحولت المدينة إلى الخاية عاملة ؛ تقوم على التخصص فى المهن ، والتعاون فيما بيها فى الوقت نفسه ، فكانت هناك مهن كثيرة ، وحرف متعادة ، تجعل الحياة أكبر سهولة ويسراً وإمتاعاً .

كانت هناك أفران عامة وكثيرة ، توجد فى كل شارع مهما صغر ، وأحصيت فى قرطبة المعاصرة خمسة شوارع مل كل مها امم فرن Horna مضافاً إلى صاحبه أو منشئه، ويرسل الناس نخزهم إليها، ولكل فرن أصبى معين بمر بالبيوت فى ساعة معينة ، يحمل مها الخيز عجينا ويعود به مستويا ، ويتلقى أصحاب الأفران أجرهم عجينا أ، فيصنعو نه خبرا، ويبيعونه بدورهم لمن لاعجبين عنده . وفي كل حى شارع يتميز بالحوانيت المخاصة ببيع الطعام والشراب ، من خضرى وجزار وفاكهى وبقال وعطار وسماك ، ببيع الطعام من يقوم بالطبخ أو الشيء، أو عمل الحلوى ، لمن بحب وعلى مرأى من طالبه ، وما يجرى في الشارع موضع رقابة كاملة من الدولة ، فظافة وصعه وصنعة وسعرا .

وتنظم الدولة صناعة النسيج والاتجار فيه وتراقها ، وكانت تحتل جانباً هاماً من نشاط الناس ومن اتساع المدينة ، فتشغل حياً كبراً يسمى والطرازين »، وتفتح في أطوارها المختلفة ، من نسج وصبغ وتطريز وتفصيل ، الباب واسعاً أمام آلاف العمال ، و وثلهم من الصبيان الراغبين في التعليم والتدريب . وجمهرة العاملين فيها من المسلمين المولدين ، ومن المستعربين المسيحيين . كانت الأقمشة تباع نسيجاً لمن عب ، أو ملابس جاهزة ، وكان ، ه سوق خاصة بها يطلق عليها اسم «السقاطين »، وهي لفظة انتقل لي الإسبانية لتودي المعني نفسه ، وما زال سوق «السقاطين »، وهي لفظة انتقل لي الإسبانية لتودي المعني نفسه ، وما زال سوق «السقاطين ، وتعددت الألوان ، وتغيرت أنواع الملابس ، ولكن الحي ، حياة وتقاليدا ، لم يبعد كثيراً عما كان عليه بالأمس . وكانت الرسوم متأثرة في المنب مها بالرسوم الفاطمية ، أو القبطية المصرية ، وقد غزا النسيج المصري قرطبة ، وشاع فيها ، وعرب منه «القباطي» .

وعلى هذا المنحو من الاتساع كاند عناعة الجلود ، صباغة وعملا ، . وبلغت فى قرطبة شهرة عالمية فى العص وسيط ، حتى أن الكلمة الفرنسية

الحاصة بصانع الأحلية Cordonnier أخلت من لفظ أقرطبة في صورته الفرنسية Cordoue ، وتخضع هذه الصناعة بدورها لرقابة الدولة ، ونعكس في أشكالها وألوانها ، فضلا عن الدقة ، قدراً من الترف المصقول الذي كان لدى القاهرين والأغنياء وعامة الناس .

وكانت الملابس الملكية ، وما تحتاجه دار الخلافة ، والهدايا التي يمنحها الأمير أو الحليفة ، تتم في مصانع خاصة ، متصلة بالقصر ، يطلق عليها ودار الصناعة ، وترسم وتزخرف في عناية بالغة ، ويكتب عليها بأحرف من ذهب اسم الأمير ، أو الحليفة ، المهدى لها .

وبلغت صناعة الفخار ، إلى جانب صناعة الزجاج ، قدرا عالياً من التقدم ، وعثر فى حفائر مدينة الزهراء على بقايامنه تؤكد هذا التقدم ، وأول من اكتشف أسرار صناعة الزجاج قرطبى من القرن التاسع ، عباس بن فرناس ، وهو شاعر أيضا ، وأشرف بنفسه على إقامة مصانعه وأفرانه فى قرطبة .

ومع نهاية القرن العاشر بدأت قرطبة تحتل مكانة عالمية إتفوق بيز نطة ، فى صناعة الجواهر، من عقود وخواتم ومعاصم مرصعة، وفى تزيين الجلود، وصناعة الماثيل من العظم والعاج والخشب .

ولم تكن فى قرطبة مصانع كبيرة للورق أو الرق ، وكانت تعيش منها على ما تنتجه المصانع الكبرى التى أقيمت فى شاطبة jativa قريباً منها ، وكان الورق ميسورا ورخيصا، والنوع الجيد منه يسمى الشاطبى ، ولا تزال شاطبة حتى اليوم مركزا هاما لصناعة الورق فى إسبانيا .

ولا يمكن أن نرسم صورة صادقة للمناخ الذي عاش فيه صاحب وطوق الحمامة ، ما لم نتحدث عن سوق الرقيق ، وليس هنا مكان دراسة الظاهرة نفسها ، وكانت من معالم المحتمع الإنساني حتى وقت قريب فقله كان في قرطبة ، كما كان في غيرها من كبريات المدن ، سوق للرقيق تسمى

« المعرض » ، يعرض فيها الرقيق من « رجال و إناث للبنيع». وفيها يتصل بالإناث هناك صنفان: المتميزات ويطلق عليهن اسم « مرتفعات شه و الوحش الرقيقي . والبيضاوات مهن كن يعرضن طبقاً للصدرهن : الصقلبيات ، ويؤتى بهن من وسط أوربا ، والإفرنجيات وهن القادمات من جنوب فرنسا ، وإيطاليا ، ومنطقة قطاونية فى شمال شرقى الأندلس ، والغالبسيات ، أو الجليقيات في المصادر القديمة ، وموطنهن شمال غربي الأندلس، والبربريات على حين يطلق اسم «السودانيات» على كل السوداوات ولم يكن هؤلاء بأقل احتراما من البيضاوات، فقدتميزن أعمال البيوت، والشيء نفسه عكن أن يقال عنهن كعشيقات. والإفرنجيات، والصقابيات القادمات حديثاً ، ولما يزلن بجهلن لغة وتقاليد من اشتر اهن ، أغلى ثمناً من غير هن . ويطلق اسم ﴿ قَيْمَة ﴾ على التي تجيد الغناء والرقص ، ولما كان المحتمع القرطبي يهفو للشعر الجيد، ويطرب للموسيةي الجديدة ، ويهتزللرقص الرفيع ؛ أكثر مما يعني بألوان الفنون الأخرى ، نقد عظم شأن الجواري. الموهوبات المتعلمات وسمت قيمتهن . وقد كثر عددهن في قصر الخلافة ، ﴿ ومارسن نفوذا قوياً في الحياة الخاصة للأمبر أو الخايفة ، والعامة للدواة، وكان يؤتى نَهُن في البَدَءُ مُدَرِّباتُ من المُشرق ، وفيهَا بَعَد ، خُن أَقَامٍ زرياب عدداً مِن معاهد الموسيقي في الأندلس ، كان الإعداد بحِرَى في قرطبة نفسها .

والحياة الحاصة :

وتقيم الأسرة في بيت ، والأب صاحب الكامة فيه ، وداخل البيت لا صلة له بالشكل الخارجي ، فإذا كان المظهر الخارجي متواضعا، فإن الداخل يعكس قدرا كبيرا من الرفاهية والترف ، ويعامل الزوج زوجته باحترام شديد، والعكس صحيح ، وتخاصة أمام الأبناء ؛ وهوالا ، يوقرون أباهم ، لا يقتر بون منه إلا بقدر ، ولا يتحدثون العاسم الا بإذن ، وعندما تسكن

الأم مع ابنها المتزوج ، تصبح المسئولة عن اقتصاد البيت ونفقاته . وتعدد الزوجات نادر بين الفقراء والطبقة الوسطى ، ويحدث أحياناً حين لا تكون الزوجة جذابة أن يشترى الزوج جارية بيضاء أو سوداء ، تعاون في أعمال البيت ، وترضى رغائبه حين يحب ، ويمكن أن ينجب منها ، وتصبح أم ولد ، ولا يجوز للرجل أن يبيعها حيناند ، وتحصل على حريبها يوما ، بعد موت زوجها . ومنذ زمن مبكر جداً يعرف الأطفال بالدقة ما تعنى العلاقة الزوجية ، فإذا بلغوا سن الحلم ، كان نضجهم العاطفي كاملا ، وليسوا في حاجة إلى أية إثارة .

ويقوم الأب بشراء متطلبات البيت ، وحين يذهب إلى عمله تتنفس الأسرة اله عداء ، وتستأجر البيوت المقتدرة خلدماً ، ومن بين الوثائق التى وصلتنا صورة لعقد بين أسرة وخادم ، يحدد الحقوق والواجبات : كان عليها العجن والخبز وعمل الطعام ، والنظافة وترتيب الأسرة ، وإحضار الماء ، وغسل الملابس ، والخياطة . ويدفع أجرها سنوياً إلى جانب الغذاء والإقامة والملابس .

أما في بيوت الخاصة فتلتقي ، طبقاً لمستوى الزوج الاقتصادى ، بعدد من الزوجات ، وسحابة من الجوارى ، سود وبيض، وحاشية من البخصيان ، تحت رئاسة «قهر مان» ، و ثمة رئيسة للخدم في بيوت العلية تسمى «قهر مانة» ايعمل تحت إمرتها الحادمات والطياخات والحاضنات ، وكان يطلق على الأخير ابت اسم « الرشيدات » ، ويتوزعن على بيت متسع ؛ كثير الحجرات ممتدال لحديقة ، وفي غيبة الأب تسمع المناقشات الصاحبة بين هذا إلى العديد من البشر ، على بحن يلعب الأطفال في الأبهاء أو الحديقة ، ولكن ما إن يصل رب النبيت خجى الاصم ، أو وشوشة النوافير الناعمة ، أو هديل الجمام الغرد ، والبائب المخصصة الأسم ، أو وشوشة النوافير الناعمة ، أو هديل الجمام الغرد ، والبائب المخصصة في الأسرة لاتكاد تقع عليه عين الغريب ، فقابلات الزوج لأصدقاله من الغريب ، فقابلات الزوج لأصدقائه من المناه من الغريب ، في المناه من الغريب ، في الغريب الزوج الأصدقائه من الغريب ، في الغريب النوائم عليه عين الغريب ، في المناه من الغريب ، في الغريب المناه من الغريب ، في المناه من الغريب المناه من الغريب ، في الغريب المناه من الغريب المناه من الغريب ، في الغريب المناه من الغريب ، في المناه من الغريب المناه المناه المناه من الغريب المناه ال

أو للعمل ، أومع الباعة ، ، تتم فى غرفة توجد عند مدخل البيت ، ومخصصة لمثل هذه المقابلات . والبيث مملكة تكاد تكون مستقلة ، وتبلغه أخبار الشارع ، وما يجرى فى البيوت الأخرى ، من فضائح وجديد فى الأزياء ، موشاة بالزيادة والأكاذيب .

وتجرى الحياة فى البيت رتيبة ، يوماً وراء آخراً ، عمل وتنظيف ، وشهيئة كل وسائل الراحة لربه أولا ، ولمن فيه أخيرا وكلهم سعداء ، لا أحد يشكو سوء الحظ ، ومن حين لآخر تقوم الزوجة بعمل ما يدفع الحسد أوالشياطين عن البيت . وقل ما تخرج الأسرة للنزهة ، فللسها بستانها وكثير ما تخرج لزيارة أصدقائبا ، وتخرج إلى الهواء الطلق فى الأعياد الدينية والقومية ، وتقوم بزيارة أسبوعية للمقابر للصلاة على أدواح الله الأهل ؛ وتذهب مرة أو مرتين إلى الحمام ، إذا لم يكن لليها حمام خاص ، وهى فرصة فهبية للسيدات لكى يلتقين ، ويتبادلن لخيا الإشاعات ، سوياً وبعيداً عن أية عين أو رقابة .

وتركز الأحداث الهامة في حياة الأسرة في ثلاثة: الزواج والإنجاب والموت. وفي الحدث الأول يكون الاحتفال كبيراً وبهيجاً في بيت العروس، ويتكلف نفقات طائلة ، مما أدى إلى حملة قوية من الفقهاء على ذلك النمط، وتشغل حفلات الزواج أسبوعاً كاملا ، وترك لنا ابن حزم في كتابه والمفاوق ، وصفاً لحفلة كهذه جرت في الشارع ، وهو منظر يسعله المارة ، والمفارغين من العمل وما كان أكثرهم في قرطبة . وتتم عملية الوضع على يد القابلة ، وتستدعي الطبيبة في الحالات المستعصية ، وكانت تتقاضى أجراً عالياً . وتقوم على الطفل حاضنة خاصة في بيت أبيه ، إذا كان معها حتى الفطام ، وو صلمنا عقود تحدد الشروط الواجب توفرها معها حتى الفطام ، وو صلمنا عقود تحدد الشروط الواجب توفرها في الحاضنة وأهل الطفل ، فكان على الأب أن يدفع للحاضنة راتباً شهرياً وملابس ، وعليها إرضاع الطفل ونظافته جسماً وملبساً ، وتقام « العقيقة »

في اليوم السابع ، وتأخذ شكلا يرتبط بمستوى الأسرة الاقتصادى ، حينئذ يحلق شعره للمرة الأولى ، ويأخذ الطفل اسمه ، ويستخدم مصغراً تدليلا له ، وتأصلت هذه العادة في الأندلس ، وتخلفت بعد جلاء الإسلام والمسلمين عنه ، فهي شائعة حتى يومنا هذا ، وغالباً ما يطلق عليه اسم جده ، أو الجد الأعلى اللأسرة ، أو اسم أشهر شخصية فيها . وفي هذا اليوم تعطى له كنيته أيضاً ، وحين يكبر سوف ينادى بها في الأمرة أكثر مما ينادى باسمه . ويطنى على الفتاة اسم إحدى شهرات الأسلام في أيامه الأولى ، وكنية أيضاً تمادى بها ، مثل : أم كلثوم ، أم الحكم، في أيامه الأولى ، وكنية أيضاً تمادى بها ، مثل : أم كلثوم ، أم الحكم، وهكذا . ومنذ القرن العاشر بدأت قرطبة تتخلى عن هذا التقليد المشرقي لتعطى أسماء وصفية للفتيات الحرائر ، وكانت قبل وقفاً على الجوارى فأصبح لدينا أسماء مستمدة من الزهور ، ونعرف للمنصور بن أبي عامر فلاث بنات كانت أسماؤهن : بهار ، ونرجس وبنفسج .

وكانت حفلات الإعذار للذكور كبيرة ، والعادة أن يجمع المقتدر اقتصادياً عددا من الأطفال من الستوى الاجتماعي الطفله ، أودونه ، كى يعذروا معه ، وتتم الحفلة للجميع ، ويتولى نفقاتها بمفرده .

وعلى لله كس ، كان تشبيع المونى ودفهم يتم فى ظروف بسيطة ، وطبقاً لأحكام المذهب المالكي ، ويدفن فى أقرب مقبرة إلى بيته ، وبعضهم كان يعد شاهدا يوضع على قبره ، لايضاف إليه غير تاريخ الوفاة واسم المتوفى ، ويتضمن بعض الآيات القرآنية المناسبة ، ودعوة لمن يقرأه أن يطلب الرحمة لصاحب وأن يقرأ الفاتحة لروحه ، زيضم متحف قرطبة الآن عدداً من هذه الشو هد .

و لایتمبز البیت ، عادة ، فی خارجه عن بقیة البیوت حوله ؛ سواء أكان فی شارع عام أم درب نافذ، ولابیت باب بمفتاح من خشب غالبا ومن حدید قلیلا ، ویفتح فی أسطوان ، أو سقیفة ، و مها بمتد مسرینهی الی صحن البیت ، وتوجد فیة بئر و آهجار و ظالة ، و طل عایه

قاعتان كبيرتان ، ويحتوى البيت على مرفق ، و طبخ تسع يوودى إلى الصحن ، ويتكون البيت، بعامة ، من دورين على الأقل. ولا يضم ، غالبا ، غير أسرة واحدة ، والفقراء جدا قد يضطرون إلى تأجير بعض غرفه ، أو يشاركون فيه أسرا أخرى ، وهو أمرنادر ، ويصبح موضع تندروعت وتعيير من الجيران .

ومنازل الطبقة الوسطى متسعة ، وتبنى الأحياء المعضلة ، ويتوسطها فسخن رحب ، يضم ما يشبه أن يكون حديقة صغيرة منازهور والرياحين، وأشجار الفواكه أحياناً ، وتمتد عبره قنوات لتوزيع المياه التي تستخرج من البئر ، على حين تمتد عبار أخرى ، بعيدة عن الأولى ومغطاة ، تحمل المياه القدرة إلى مستودعها الذي يوجد في منتصف الشارع.

وبيوت الطبقة العالية تفصل بينها جنان واسعة ، والممتد منها يسمى وحيرا » والجنان، وهذه مشمرة ، ومثلها والمنيات ، القائمة على ضفاف النهر الكبير .

وفى أى بيت توجد حجرة استقبال ، نضم أثاثاً يسهل نقاء ، ن غرفة إلى أخرى، والأرض مغطاة بالحصر فحسب ، أو بالحصر وفوقها السجاد، تبعاً لمستوى الأمرة ، وتغطى الجدران بأقمشة منسوجة من الصوف ، علمه مناظر جميلة ، وتسمى « الحائطى» ، وتحما ديوان قليل الارتفاع ، فوقه المراتب وعليها الوسائد معتمدة على الحائط ، محشوة قطنا ، ومزخر فأ ظاهرها بالرسوم ، وفه ق المراتب تتناثر المخدات المدورة ، والأرائك المتخذة من الجلد ، و يستخدمون المقاعد ذات الحشايا ، وتضم حجرة النوم سريراً عليه فراش مغطى ، وألحفة محشوة صوفا .

ويضم مطبخ كل بيت خزين أغذية ، من دقيق وزيت وعسل ، وقواكه جافة ، ولحوم مقددة ، وتحفظ من أوانى من الزجاج أو الفخار .

وتضاء البيوت إبالشموع والقناديل • وتستخدم التريات في بيوت · الأغنياء ، وتنم التافئة في الشناء عن طريق إجراء الماءالساخن ، عبر الاحجرات ، في أنابيب من الفخار ، على حين يستخدم الآحرون لمو اقد العادية. • أما في الصيف فيواجهون الحربرش الصحن جيدا بالماء ، وأكثر من مرة في اليوم .

وترك لذا الأندلسيون أكثر من كتب في الطبخ ، وتتحدث عن مطابخ الثانة : أندلسي ، ومسيحي ، ويهودي . وطرائقه متعددة ومعقدة ، وتخضع المائدة لنظام صارم ، فلابد أن يكون هناك تناسق بين الألوان التي تقدم. ويقوم على إعداد الطعام في بيوت الطبقة الراقية طباخون محتر فون ، من السود غالبا ، وتزخر المائدة بألوان عامرة من الحلوي ، مابين محشو بالزيد أو اللو ز ، وشهر من بينها نوع من الفطير المحشو جبنا ، ويسمى بالزيد أو اللو ز ، وشهر من بينها نوع من الفطير المحشو جبنا ، ويسمى هكانا ، واحتل من الشعر الأندلسي مكانا ، وتخلف في الإسبانية إعدادا ومادة واسد. Almojabanas ، ويصفها ابن الأبار:

بنفسی مثنجات للصدور ا حوامل وهی أبكار عداری كبر د الطل حین تداق طعماً لها حالان بین فم وكف فتغرب كالأهلة فی له اه

ها سمنان من نار ونو تزف على الأكف مع البكور وفي أحشائها وهج الحرور إذا وافتك رائعة السفور وتطلع في عمن كالبدور

وعلى المائدة يستحدمون المنزعق ﴿ ويشربون الماء معطرا بالزهر أو الورد ، ويأكلون الفواكه كثيرا من عنب ورمان ، وبطيخوتفاح .

وفيما يتصل بالملابس كثير منها مشترك بين الرجال والنساء ، فكلهم يرتدى فوق البدن قميصاً من الصوف أو انقض ، ومبراويل (دخلت اللغة الإسبانية في صورة Zaraguelles) طويلة وضيقة ، ولا تتجاوز الركبة ، و يمكن أن تحل الجلابية البيضاء محل القميص ، وهو مزخر ف إلى حد كبير . وتضاف « المحشاة » في الشتاء على هذه الملابس الحفيفة ، للرجال والنساء ، وهي فروثقيل يتخذ من جلد النعاج أو الأرانب ، ويلبس في شكل جلباب. والأطفال من الجنسين ملابسهم على هذا النحو ، ويضعون جوارب في أقدامهم ، وتتخذ من الصوف ، وتصل إلى الركبة ، ويأتي فوقها الحذاء ، خفا في الشتاء ، وصندلا في الصيف ، ويسمى هذا في الأندلس « القرق » ، و دخلت الكلمة إلى الإسبانية في صورة Alcorque . و يميز غطاء الرأس الرجل من المرأة ، فالأول يغطى رأسه بكوفية أو شاشية ، على حين تضع المرأة على وجهها خمار ا .

ويرتدى أبناء الطبقة العالية الملابس الحريرية المطرزة ، وتصنع من الحرير الطبيعي ، وبلغ نسجه حداً عالياً من الإتقان ، نافست به قرطبة بقية بلاد العالم ، ومنه تصنع ملابس الحفلات ، والحلاليب الراقية ، ذات النسج ا الرقيق الشفاف .وبدأوا يستخدمون القلانس والطوائى، إلى جانب الطرطور، و سوف يقلدهم في صنيعهم هذا بلاط مملكة ليون المسيحية في الشمال. وثمة ملابس أخرى ذات ترفووجاهة ، ترتديها الطبقة العالية ، وأبرزها الحبة ، وانتقلت إلى الإسبانية في صورة Algupa ، والدراعة ، وتخلفت في الإسبانية adarra ، والمحشية Almexias . وسوف يتلاشي اباسالرأس تدريجا ، لتصبح العمامة ، ابتداء من القرن الحادى عشر ، وقفاً على رجال الدين من العلماء والقضاة ، وبعض هؤلاء ردها لباسا . وكان البرنس ، وتخلف في الإسبانية في صورة Albornaz ، في هذه الفترة ، وحتى مجيء المرابطين ، وقفاً على نساء الطبقة العالية عندما يسافرن على ظهور الحيل أوالبغال . وكان زرياب المغنى ، حين جاء الأندلس ، في الربع الأول من القرن التاسع الميلادي ، قد أحدث ثورة في عالم الأزياء ، إلى جانب الموسيقي ، ومراسم تناول الطعام ، وطريقة تصفيف الشعر للرجال والنساء ، فقد جعل لكل فصل من السنة ملابسه الحاصة به ، طبقاً

لمكانه من الحرأو البرد. فالملابس البيضاء للصيف ، وجعل له بدءاً عيد العنصرة ، في الأندلس ، وبحي في الأيام الأولى من شهر يونيو ، وبمتد حتى أول أكتوبر ، والملابس الملونة لبقية العام ، وجعل منها للربيع الحجاب الحزوالملتحم والمحرر والدراريع التي لابطائن لها ، لقربها من لطف ثياب البيض الظهائر، التي ينتقلون إليها لحفتها وشبهها بالمحاشي ثياب العامة ، وأن يلبسوا في الخريف و المحاشي المروية ، والثياب المصمتة وما شاكلها من خفاف الثياب الماونة ذات الحشو ، والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد في العدوات » ، فإذا قوى البرد و دخل الشتاء و ينتقلون إلى أثنى منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا و ينتقلون إلى أثنى منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا المن صنوف الفراء » . وكان اللون الأبيض شعار الحزن عند بني أمية الأندلسيين ، فلما اتخذ ملبساً للصيف تراجعت عنه الناس إلى السواد .

• الحفلات والأعياد والملاهى :

وتحتفل الأسر كلها بالأعياد الدينية ، عيدى الفضر والأضحى ، وكان الصوم شائع. ، إلا أولئك الدين الديهم رخص دينية ، وإذا جاء رمضان في الصيف ، وقرطبة حارة ، ترك أثره في الحياة العامة للناس ، فهم يصحون من نومهم متأخرين ، ويخالمون إلى الراحة ساعة الظهيرة حين يشتد الحر ، فإذا غربت الشمس ، وأفطر الناس ، عادت الحياة إلى الشارع بكل صخبها : تفتح المتاجر ، وتظل كذلك حتى ساعة متأخرة من الليل ، ويبدأ الباعة المتجواون من حملة المشروبات الباردة وغيرهم في الطواف . وتضاء المساجد ليلة الإسراء على نحو خاص ، وتمتلىء بالعباد الخاشعين ، ومعها يتهيأ الناس للعبد ، بوللعودة إلى الحياة العادية .

وفى عيد الأضحى بحرص الناس ، كل الناس ، أغنياء وفقراء ، على التضحية بكبش ، وكسوة الأولاد بملابس جديدة ، وتتم صلاة العيد في الهواء الطانق ، ويوم المصلين قاضي الجماعة . أو صاحب الصلاة ،

- وَتَضِمُ الرَّجَالَ وَكُثْيِرًا مِنْ النَّسَاءَ ، وَبَعَدُهَا يَعُودُ الْجَمْيُعِ إِلَى المَّدِينَةُ اللَّهِ الْمُتِبَادِلُ الْمُلْكُ . ﴿ وَكُثْيِرًا مِنْ النَّسَاءَ ، وَبَعَدُهَا يَعُودُ الْجَمْيُعِ إِلَىٰ المَّدِينَة

ولم تعرف قرطبة حتى نهاية القرن العاشر الاحتفال بالمولد النبوى ، ذلك شيء سوف بجيء فيا بعد ، ولكم كانت يحتفل ، وعلى نحو بهيج ، بعيدى و النبروز و و « المهرجان» ويشاركهم في هذا مواطنوهم المستعربون . و « النبروز » في أصله اليوم الأول من العام الشمسي في فارس ، ومنذا بحده العالم الإسلامي عيداً دخلته تغيير ات كثيرة ، وكان يحتفل به في الربيع ، في اليوم المعتدل منه ، دون أن يرتبط ذلك بأول العام الجديد . وليس فيا بين أيدينا من مصادر ما يحدد تاريخ هذا اليوم في الأندلس . أما المهرجان ، ويطلق عليه عيد العنصرة أيضاً ، فيقع فيا بين اليوم السادس واليوم الرابع والعشرين من شهر يونية . وكانت الأعياد ، ونحاصة عند العامة ، أمراً مرغوباً لكسر وتابة الحياة اليومية .

وتزدحم الشوارع ، وبجد فيها الكسالي والمتبطلون فرصتهم لمتابعة السائرين ، وتأمل ما هوجديد ، على حن يحاول الباعة في الشوارع القريبة من القيصرية ومن « السقاطين ، أن بجذبوا إليهم الزبائن ، بأصواتهم العالية ، ونداءاتهم المسجوعة ، لحضور المزاد . وتلتقى في الميادين العامة بأهل المدينة ، والقادمين إليها من الريف للشراء أو البيع ، أولاشياء أخرى ، يلتفون جول « مهرج » تحقى في شكل قروى ، وراح يقلد حركاته البسيطة والساذجة ، حين يواجه المدينة للمرة الأولى . وهناك من يعرضون ألعابهم على أنعام الموسيقى ، وو البهلوانات » ، والشعراء الجوالون ، ومن يعرضون خيال الظل ، ومن يقرأون الطالع ، ومن يقصون الحكايات ، أو التواريخ ، أوشيئاً من السنة ، بصوت مرتفع . ويختلط ذلك مع أصوات السقائين ؛ وبانعى البخود أبصوت مرتفع . ويختلط ذلك مع أصوات السقائين ؛ وبانعى البخود أبضور عبد وموزعيه ، واللصوص ، والقوادات . وقد يضطرب الأمن حن يقوم شجاربين وموزعيه ، والمدوء وبتوزع الجميع .

وفى يوم الجمعة حيث تخرج النساء إلى المقابر ، وفى نزهاتهن الأسبوعية ، فإن الطريق إليها وإلى الحدائق يكون غاصاً بأناس من الجنسين ، وكلها تعبر القنطرة إلى ربض شقندة ، ويلبس الفتيان خير ما عندهم ، ويبحثون عن المغامرات ، ويداعبون الفتيات الوحيدات بالكلمات الحلوة ، أمريشبه ماعايه حال قرطبة اليوم . وفى هذا المكان التقى الشاعر يوسف الرمادى بصاحبته خلوة ، وجرى بيهما حوار أور د لنا ابن حزم فى كتابه و الطوق ، جانبامنه . ومع غياب الشمس يعود الجميع إلى بيوتهم ، فإذا أقبل الليل لا يسمع فى الشارع غير وقع أحذية الجنود الثقيلة ، وخطى المتخلفين والساهرين .

وكان الفضاء المتسع خارج المدينة معداً . إلى جانب عرض المحكوم عليهم بالصاب ، لاستعراض الجيوش في المناسبات العامة ، كقدوم سفير ، أو سفر الحليفة على رأس حملة ، وتقام هذه في الطريق الموصاة إلى مدينة الزهراء ، وكان ظهور الفرسان بملابسهم الزاهية ، على خيولهم الأصيلة ، في خوذاتهم القوية ، تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطى ألف لون ولون ، يثير في الناس الحماسة والهجة والاطمئنان .

وكان من المتع العالية في مجتمع قرطة صيد الطيور والأرانب الجبلية ، ومن المهارة أن تصطادها قبل أن تنفق ليمكن الإفادة منها ، فتذبح ثانية بطريقة شرعية ، وتباع في المدينة . ويعد الصيد هواية محببة للأمير وحاشيته والحاصة ، ويتحدث المؤرخون عن رحلات صيد طريلة على ظهور الخيل ، في الجبال والوديان المحيطة بقرطبة ، ويتم الصيد بالصقور ، وكانت تربيبها في الجبال والوديان المحيطة ، ويقوم على أمرها في قصر الحلافة فتى يعني بها ، يدعى وبيعها تجارة رابحة ، ويقوم على أمرها في قصر الحلافة فتى يعني بها ، يدعى وصاحب البزرة » ، وتركت المهنة أثرها واضحاً في اللغة الإسبانية ، في جنوب البرتغال قرية تحمل اسم « البيزرة واضحاً في اللغة الإسبانية ، في غرناطة ، وكان موطن المسلمين في آخ أياديهم بعد سقوط دولة الإسلام ، فأسهر حي و البيارين Albaicio » و البيارين Albaicio »

وكان هناك الصيد بالكلاب في المناطق الوعرة المخضرة ، ذات الأشجار الملتفة والجبال العالية ، وبحاصة تحت سفح الحبل ، حيث تعقد حفلات صيد كبرى ، تصاد قيها الحنازير إالبرية والغزلان والأيول ، يطلقون عليها فصائل من الكلاب السريعة تثيرها ، وتدفع بها حيث يتظرها الصيادون . وبمضى العاهل القرطبي ، أحيانا ، أياما متصلة إلى الصيد ، وهو أمركان موضع نقد العامة واعتراضهم .

ومن الألعاب المحببة للخاصة أيضا لعبة الصولجان ، وهي قريبة من لعبة «البولو» الحديثة والنرد ، وسباق الحيل ، والشطرنج أوجاء به زرياب من المشرق ، ولقي رواجاً كبيراً بين أهل قرطبة ، وأصبح من مظاهر الرقى الثقافي . أو كان القمار رغم أتحر عه معروفا ، ومعلوماتنا عنه ألى التعاية بوصفه عملا محرما ، ونعرف من أوامر المنع أن لعبة النرد كانت شائعة ، وكان النساء يلعبن القرق .

مباهج الحضارة وأمراضها:

وفى هذا الفرن بدأت قرطبة تعانى الكثير من أمراض الحضارة ، ويكفى أن نلقى نظرة على كتاب «الطوق ، لنجد ابن حزم يقص عاينا الكثير مما يجرى دون حرج أو إنكار ، ودون أن يلاحق أصحاب الأحداث بالسب واللعن ، كما هى عادة الفقهاء ، يذكر ماعرف فى بساطة ، كما كان شيئاعاديا ، لامهرب منهولاحيلة فيه . لقدفاضت رغبات الناس الجنسية ، وتجاوزت ماهو مقبول عر فا وعادة ، ولم يعد حب المرأة ، رغم شيرعه ويسره ، كافياً وحده ليوقف اندفاعهم ، من أى وسطكانواوإلى أيه طبقة انتموا ، عن اتجاه آخر تنجرف فيه العاطفة عن مسارها الطبيعى ، أي الشلوذ الجنسى .

كان الحديث عنالغلمان والتغ عيمالهم شائعاً يتعدى الشعراءإلى الحباة،

ويعرض له المؤرخون دون إنكار أو تشنيع ، ولست أعتقد أن كل الذين تحدثوا عن الغامان كانوا عمارسون هذه العادة الشاذة، ولو أنه ، في الوقت نفسه ، لايمكن أن نقلل من شيوع الظاهرة وخطورتها . وتخلو المصادر من إشارات إلى أحداثوقعت من عامة الناس ، وهو أمر طبيعي ، فالتاريخ الوسيط قلما ما يتوقف أمام هذا القطاع من المجتمع ، وعلى النقبض ، يقدم لنا قائمة طويلة بشخصيات هامة في شتى مجالات الحياة في قرطبة ، أورد لنا أبن حزم في كتابه « الطوق » مثلا صارخا لها : قصة أحمد بن كليب ، وسنعرض لها فى دراسة خاصة، وهىقصة تمس شخصية هامة ، أسرياًوثقافياً واجمَّاعيا ، في المجتمع الفرطبي ، وشاعت حتى بلغت المشرق فأوردها یاقوت الحموی ، (ت ۲۲٦ هـ ۱۲۲۹ م)، فی کتابة « إرشاد الأریب» ، وجاء مها فى تفصيلات وافية داود الأنطاكى ،(ت ١٠٠٧هـ ١٥٩٩ م) فى كتابه : « تزيين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق » . وكان ضحاياً هذه الفعلة الشنيعة ، عادة ، من الخصيان وصغار الموالى ، في قصور الأمراء وبيوت الأشراف ، ولم تكن قرطبة أيضاً تخلو من فتيان مخنثين ، يقدمون خدماتهم لأفضل طالب ، وأعطانا ابن عبدون وصفاً للمخنث في رسالته عن الحسبة بأنه ﴿ الذي يقاله النساء في ملابسه وصوته ﴾ .

وعرفت المدينة بيوت «الحظوة»، وزبائها من دهماء المدينة، ومن الريفيين الذين يهبطون العاصمة للبيع أو الشراء أو لقضايا أخرى ، وتسكن العاملات فيها الحانات، ويدفعن ضرائب للدولة، وتسمى الواحدة منهن فى لهجة الأندلس «خراجية»، ويطلق على بيوت الدعارة نفسها «دار الحراج» ويسميها ابن عذارى «دار البنات». ولاتكاد المصادر تشير إلى شيء يتصل بانحراف العاطنة عند المرأة، وممارسها الحب مع امرأة أخرى، وقياسا يمكن أن نتصور أن هذا حدث، وكتب الفقه الأندلسي المفصلة تشير إليه، عكن أن نتصور أن هذا حدث، وكتب الفقه الأندلسي المفصلة تشير إليه، وتراه محرما، ولانعتر له على صدى في دواوين الشعراء، أو كتب المؤرخين، باستئناء أبيات من الشعر أنشدها أبو الصات، أمية عبدالعزيز الداني؛ المتوفى باستئناء أبيات من الشعر أنشدها أبو الصات، أمية عبدالعزيز الداني؛ المتوفى (م؛ ـ ابن حزم)

حام ٥٢٩ هـ ١١٣٤ م، وفيها عرض للمساحقة مباشرة ، وكان الصمت فيما يبدو لى تحرجاً وليس جهلا ، لأن العماد الأصفهاني في كتابه «خريدة القصر وجريدة العضر ، أتى بهذه الأبيات في القسم الخاص بالمغرب ، وحين طبع للمرة الأولى في تونس في أوائل هذا القرن ، حذف منه الطابعون هذه الأبيات ،

وكان الحصول على النبيذ والشرابحيي السكر ميسورا ، ومنذ القرن ، التاسع الميلادي أصبح ربض شقندة يضم سوقاً نافقة للنبيذ ، يستأجرهاو احد من المستعربين، وقد أغلق مدة ثم أعيد فتحه ، لا يدره على الخزانة العامة من دخل ، وكان يمد الحانات المسموح بها ، والتي تعمل في خفاء ، بما تحتاج إليه من أنواعه المختلفة ، ويتردد على الحانات المستعربون المسيحيون والمسلمون غير الطيبين ، ونفهم من إشارات الشعراء أن ثمة حانات كانت : تقوم على مقربة من الأديرة المسيحية خارج المدينة ، يقدم فيها الطعام والنبيذ أيضًا . ومن الشائع أن يتردد على هذه الحانات المخنثون ، والنساء من ذوات السمعة السيئة ، يقضين الليل مع نشوة الكأس وفى حمياها ، وكان ذلك موضع هجوم دائم من الفقهاء ، وملاحقة مستمرة من رجال الشرطة ، وظل الصراع عنيفاً بين سلطان هؤلاء وذكاء الشاربين ويتعرض الشارب للمتابعة والعقاب حين يكون الأمرعلانية ، ويمس الأخلاق العامة، ويعذر من يضبط سكراناً بالحد الشرعي المعروف ، غير أن المتابعة لاتمتد لما يجرى فى البيوت، بيوت العامة والخاصة على السواء، فهي بمنأى عن الملاحقة والرقابة ؛ وكان المقتدرون في قصورهم ، أو بيوتهم الريفية في ضواحي العاصمة ، يستطيعون بلاخوف ، ودون حد ، أن بمضوا مع أهوائهم شراباً ونساء حتى الثمالة . و لعل جانباً من المجتمع ، إلى جانب ضرورات البيئة ، كان يجد مندوحة فيما شهر عن أبى حنيفة النعمان أنه أباح شرب النبيذ، وأوجز ابن عبد ربه صاحب «العقد » هذا الاتجاه في بيت من الشعر:

ديننا ، في السماع ، دين مديني ، وفي شربنا الشراب عراقي

وفى مجتمع لم يعرف المسرح كان الرقص والموسيقي والغناءمن أكثر مباهج الحياة شيوعاً في قرطبة القر ن العاشر ، وإذا صدّةنا الشعراء ، أوحتي جانباً مما يقولون ، لم تكن هناك حفلة ولا جمع ولا مهرجان لايضم هذه الألوان الثلاثة . وترك لنا ابن حزم في « الطوق » ، وابن بسام في كتابه « الذخيرة» وصفاً تفصيلياً شائقاً لبعض الحفلات الني كانت تقام في بيوت الحاء ، في قرطبة وغيرها ، حفلات مايكاد المدعوون فيها ينتهون من تناول الطعام على أنغام الموسيقي حتى يبدأ الغناء والرقص ، والعازفون من الرجال والنساء ، ولكن الفرق الجيدة الممتازة لم يكن يقدر على نفقاتها غير كبار الموسرين . وشهرت من بين أنواع الرقص العدياة رقصة يرتدى فيها الراقصات ملابس الغامان ، ويمنطين خيولا صغيرة من خشب ، معلقة بأطرافها أقبية ، " رطبقاً لنظام معين تأخذ الرقصة شكل معركة حقيقية ، يكرون ويفرون ومحاورن. ولم يكن الأمراء يترددون، أحيانا، في حضور حفلات أكثر بساطة : مجرد راقصة بالصاجات ، تتلوى على أنغام بوق ، ويطلق على ً هذه الجفلات اسم (سمر» ، وبقى لها الاسم حتى أيامنا هذه ، وأخذصورة Sambra ، و بحمله اليوم أعرق وأرقى مكان للرقص التقليدي في مدريد : واشتهر من بين الراقصات أولئك القادمات من مدينة قادس ، ولراقصاتها هُهُرَةُ تَارَيْخِيةً عَرَيْقَةً ، ولهن من قديم قدرة فائقة على التشكل والإثارة . وقد أشار إليهن في قصائده الشاعر الرقيق ، الماجن والأنيق ، اللاتيني اللغة ، الإسباني الموطن ، مرسيال Marcial ، المتوفى عام ١٠٤ للميلاد ، ونعرف منهأن هؤلاءالر اقصات كنموضع إعجاب روماعاصمةالإمبر اطورية على امتداد القرن الأول الميلادي، وأن قادس كانت تدفع بأعداد منهن على الدوام إلى روماً؛ فيلقين الحفاوة والحب ، وأصبحت رقصاتهن موطن التقديرو الإعجاب، رقصات تحرك نوازع الرغبة، وتضل أقوى الرمجال عفة في روما . وتحدث عنهن أيضا الشاعر اللانيني جوفينال Juvenal ، المتوفى

قريبًا من عام ١٢٥ ميلادية ، ووقف طويلا عند جمال غنائهن ، وإثارة وقصاتهن . وفي العصر الذي نعرض له ، شهرت مدينة أبذة Ubida ، في كورة شاطبة ، على مقربة من قرطبة ، « بالرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنهن أحذق خاق الله » .

• الثقافة

باستثناء حالات نادرة يكون فيها الأب دون أن ينتسب في أية طبقة اجتماعية ، وفي ظروف بائسة للغاية ، فإن الأب يقدم لأطفاله ، بنين وبنات ، تعليها ابتدائياً منذ صغرهم ، إذاكان ميسورا يأتى لهم بالمدرس إلى البيت ، و إلا أرسل مهم إلى « الكُتاب » الأقرب إلى مسكنه ، وتخضع هذه المدارس الابتدائية نظرياً لإشراف « المحتسب » ، وقل ماكان يزورها فعلا . 'ويجمع المعام ، أو المؤدب ، عددا محدو داً من الأطفال في مكان صغير ، مفتوح على . الشارع، يطلق عاليه اسم (المصرية) ، يدرس لهم بأجر برنامجاً معروفا ، غير مكتوب ، تحدده التقاليد ، وبعقد محترم منه و من ولىالطفل . وفي هذهالمرحلة محفظ الطفل جانبا من القرآن الكريم ، ويحفظ قصائد من الشعر ، و مقتطفات من النثر، ويدرس شيئا من النحو، وقايلًا من الحساب، والكتابة والقراءة على الطريقة « الجملية » ، ويبدوأنها لم تكن مقبولة من الكافة ، لأن ابن خلدون فيما بعد سوف يبسط آراء المعارضين لها ويفندها. ويدفع الأجرالمعام ، في كتابه أوجاء إلى البيت ، طبقاً للعقد ، ويكون سنويا ، ويتضمن المأدة أو المواد المطلوب تعليمها ، وشكل التعليم ، والزمن المخصص لها ، وشروط دفع النفقات ، من مال يدفع آخر العام ، أو مو اد غذائية من دقيق و زيت تدفع شهريا ، ومن العادات المتأصلة أن تقدم الهدايا للمعلم في عيدي الأضحى والفطر، وأخرى أجلواً كبرحين يختم الطفل القرآن ويترددعلي بيوت القادرين، غانبا ، أكثر من معلم لتربية أطفالهم . وأحياناً يقع الاتفاق على إكمال العمل، يقوم المعالم بتعليم الصبي ،مقابل أجر معلوم ، مادة معينة ، أومو اد متعددة، وفي هذه الحالة عن عقلية الأمر أن يقدم تقريراً وافياً عن عقلية الصبي وقدراته الذهنية .

ورغم أن التعليم أهلى ، كانت المدارس المجانية كثيرة ، ينفق عليها من ربع الحوانيت والعقارات والأراضى التى أوقفها الحكم الثانى ، وآخرون غيره . وأسهم الشعب بدوره ، بجمع الهبات ، ويدعم المدارس ، بعيداً عن رقابة الدولة وتدخلها فى النظم أو المناهج ، ما دامت لا تستهدف نشر أفكار ضارة بأمن المحتمع وهدوئه . وقد تحقق فى قرطبة المثل الأعلى الذى نطمح اليه ، أن يكون التعليم الابتدائى مجاناوإ جباريا ، محانا لأن العاجزين لم يكونوا محرمون منه لعجزهم ، وإجباريا بضغط من المجتمع نفسه ، دون حاجة إلى أمريصدر أو قانون يشرع ، لأن التجار وأصحاب الحرف والمصانع يرفضون أن يقبلوا فى حوانيتهم عمالا لا يعرفون القراءة والكتابة حتى ولوكانت مهمم أن يقبلوا فى حوانيتهم عمالا لا يعرفون القراءة والكتابة حتى ولوكانت مهمم أو يواصل تعليمه العالى إذا سمحت له ظروفه بذلك ه

ونعنى بالتعليم العالى ما تجاوز المواد التى تدرس فى التعليم الابتدائى ، ولقد يكون فى وصفنا له « بالعالى » تجوز ، لأننا بإزاء مرحلة ليست لها خطط رسمية تحدد المناهج أو الوسائل ، وإنما بحضر الطالب المواد التى تعجبه ، على الأستاذ الذى يطمئن إليه ، ويقرأ فى الكتاب الذى يراه نافعاً ومفيداً ، ويتعمق فى درسه بالقدر الذى يسمح له به ذكاؤه ورغبته وإمكاناته ، ومن المصعوبة بمكانأن نحدد على نحو دقيق : منى يبدأن التعليم العالى ومنى ينتهى ، وليس من الممكن كذلك تحديد المادة ، أو المواد ، التى يبدأ طلاب التعليم بدراسها : القرآن ، أو الرياضيات ، أو الطب ، أو اللغة ، أو الأدب ، فقد كان الطلاب أحياناً يجمعون بين أكثر من مادة فى الوقت نفسه ، ولكن يمكن القول أن الطلاب كانوا يبدأون دراسة النحو والتعمق فيه ، ليعيهم على فهم بقية المواد الأخرى ، وتليه دراسة المواد الدينية ، من فقه وحديث وتفسر وأصول .

وكان هناك الطلاب المنتسبون ، إذا صبح لنا أن نستخدم هذا المصطلح العصرى جدا ، وهم الذين لاتمكنهم ظروفهم من حضور الدرس ، فيعتمدون على الكتاب ، وإذا وثقوا من أنفسهم تقدموا للأستاذ ليجيزهم . ويعتمد الطلاب على ذوا كرهم كثيرا ، وكان فيهم من يحفظ آلاف القصائد من

الشعر، ومن يحفظ كتاب «الأغانى» لأبي الفرج الأصفهانى كاملا، وفيه تتعدد الروايات وتتشابه ولارابط بينها، ويتنوع محتواه من شعرون شروحكايات، ومن يحفظ ومن يحفظ القرآن لا يغيب عن ذاكرته حرف واحد منه، ومن يحفظ موطأ مالك، أومدونة سحنون، أو ديوان المتنبى، أوكتاب «الكامل »الممبرد، نعم، وكان في الأندلس من محفظ هذا دون حاجة إلى أن يكون عالما أو متخصصا، ويقص علينا ابن بشكوال أنه كان في سوق قرطبة باعة عنب وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب «معانى القرآن» وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب «معانى القرآن» هربرة، ويحاولون ما استطاعوا أن يزيد وها حدة بالأدوية، وأشهر هذه شراب مربرة، ويحاولون ما استطاعوا أن يزيد وها حدة بالأدوية، وأشهر هذه شراب البلاذر»، ويتخذ من ثمار شجرة هندية، يصفع الأطباء، ويتناوله القادرون، وأقلوا من التفكير، وكان ذلك، فيالحظ ابن خلدون، وراء تدهور الثقافة وأهلوا من التفكير، وكان ذلك، فيالحظ ابن خلدون، وراء تدهور الثقافة والعلم في أخريات أيام الأندلس، لأن المعرفة لاتتقدم بالحفاظ عايها، وإنما والعلم في أخريات أيام الأندلس، لأن المعرفة لاتتقدم بالحفاظ عايها، وإنما بنعهدها إيماء وتجديدا.

وكان العمل بالتعليم العالى مناطقة دير المحتمع واحترامه ، ويرفع العاملين فيه إلى مستوى كبار القوم ، ممن إجاءهم الجاه وراثة ، أساتذته في مستوى بقية الوظائف الكبرى عسكرية أو مدنية ، كالولاة والقضاة والقادة . ولكنها مهنة تميز تبأنها مفتوحة الأبواب أمام كل ذكى ، وكان يعمل فيها من ينسبون إلى طبقة الحاصة حباً في العام ، وطلباللمزيد من الجاه، والقادمون من ينسبون إلى طبقة الحاصة حباً في العام ، وطلباللمزيد من الجاه، والقادمون من تحت ، يجدون فيها الأمن والحماية والطريق إلى الشهرة . وعادة تاتقط الدولة خيرة الأساتذة وترشحهم للمناصب العالية ، حلباً لرضى العامة ، وكسباً للقتها ، فلم تكن هناك أحز اب ولاصحافة ولا مجامع علمية ولا بر لمان يامع فيها الناس ، وتظهر الكفاءات . ومن جانب آخر ، لم يكن لدى الأدباء ، وكبار الكت ، في وقت لم تكن عرفت فيه الطباعة ، من وسيلة لنشر آرائهم و أفكار هم الكت ، في وقت لم حقة في المسجد الحامع ، وهي دروس لم تكن تجذب الطلاب غ ثن بحسب ، وإنما كانت تتجه إليها صفوة المحتمع القرطبي . ويقص علينا والد . وحسب ، وإنما كانت تتجه إليها صفوة المحتمع القرطبي . ويقص علينا والد . وحسب ، وإنما كانت تتجه إليها صفوة المحتمع القرطبي . ويقص علينا والد . وحسب ، وإنما كانت تتجه إليها صفوة المحتمع القرطبي . ويقص علينا والمناف المحتمع القرطبي . ويقص علينا والمناف المنافقة المحتمع القرطبي . ويقص علينا والمناف المنافقة المحتمع القرطبي . ويقص علينا والمنافقة المحتمع القرطبي . ويقم علينا والمنافقة المحتمع القرطبي . ويقم علينا والمنافقة المحتمع القرطبي . ويقم علينا والمنافقة المحتمد المنافقة المحتمد المحتمد المنافقة المحتمد المنافقة المحتمد المحتمد المنافقة المحتمد المحتمد المحتمد المنافقة المحتمد المح

أحد تلاميذاً بي و هب عبد الأعلى ، يقول : وكان أستاذي يقيم ويباً من مقبرة قريش في قرطبة ، في بستان له يقوم هو نفسه على غرسه ، وذات يوم بعد أن قدم طعام الغداء لتلاميذه ، جاء من يطلب الإذن بالدخول ، وكان القادم الوزير هاشم بن عبد العزيز ، وأقرب الناس إلى الأمير ، وقد رحب الأستاذ، وعندما دخل وجدنا نتناول خضراً مطبوخة ، وهي مما غرس في الحديقة ، وقد ارتبائ صاحب البيت قليلا قبل أن يدعوه ، خشية أن يكون الطعام دونه ، ولكن هاشما بادره : ألا تدعو في لمشاركتهم ، أوتخاف أن آ على المائدة ولكن هاشما بادره : معده انتحى به جانبا ، فاستشاره بعض القضايا واقتحم المائدة معنا ، و بعده انتحى به جانبا ، فاستشاره بعض القضايا الفقهية وتلقى رأيه ، وعندما خرج هممت بالوقوف تحية ، ولكن الأستاذ أشار إلى في قسوة أن أجلس، و بعد أن ودعه عاد فعتب علينا في شدة أننا أمر فنا في الأدب و المجاملة ، و لم نكن عاديين » .

وكانت هناك شروط معينة بجب توافرها في الأستاذ ، أولها العلم ، ويحرص الأستاذ على أن بحصله بكل جهد ممكن له : يذهب إلى المشرق ليدرس هناك ، وكان تعبير « وله رحلة ، يعادل في لغتنا الحديثة « عائد من بعثة » ، وموضع زهو من صاحبه ، وتقدير من المحتمع ، ونلتقى به وصفاً لعدد من العلماء الكبار ، وأن يختلف إلى مجالس كبار العلماء قرطبة ، والقادمين من المشرق مخاصة ، وأن يحرص على اقتناء ، أو على الأقل دراسة ، ما يؤلف من الكتب لحظة صدورها . وحين استفامت الحياة الثقافية ، وتكونت شخصية الأنداس ، وأحس بذاته ، استغى عن الرحاة ، وعن الأستاذ الوافد ، بل أقسم عالم من إشبيلية أن يذهب الى القاهرة ، وأن يجلس في صحن الأزهر ، و أن يدرس « الكتاب » اسيبويه ، ليثبت أن الأندلسيين لم يعودوا دون المشارقة تمكنا من العلم ، واستيعابا له .

والصفة الثانية التقوى، والعالم غير التقى لن يجد طلاباً يجلسون إليه ويتاتمون العالم منه ، وكلما كان الأستاذ مالكى المذهب كان إقبال الطلاب عليه أشد . وكثير ون من الأندلسيين ذهبوا إلى المشرق ، ورأو ا مذاهب فقهية أخرى ، تحمسوا لها ، وعادوا على أمل أن يبشروا بها ، فلما عرف الطلاب منهم هذا انصرفوا عنهم واحداً وراء آخر ، فبقوا وحدهم لا يجدون من يستمع إليهم .

وإلى جانب العلم والتقوى ثمة صفات أخرى يود الناس والطلاب أن تكون مما يتحلى به العالم ، مها الصدق ، و استقامة العادات . وعليه أن يكون في درسه لطيفاً واجتماعياً ، سخياً في الشرح والتعليق والتفسير ، لا يحجب عن طلابه شيئا ، وأن يكون مهم بمنزلة الأب أوالأخ الأكبر ، وكان الأساتذة كذلك بعامة ، فتميزت علاقاتهم بطلابهم بعطف حنون ، ومودة صادقة .

وليس سهلا أن يصبح المرء أستاذاً معترفاً به ، وله طلابه ، إلا بعد أن تتقدم به السن في المهنة ، أو يبلغ شأواً كبيراً من الشهرة والذيوع في وظيفة عامة ذات طابع ثقافي ، قاضيا أو مفتياً أو مشاوراً أو والياً . وليس ثمة سن معينة يتقاعد عندها الأستاذ، والطلاب وحدهم هم الذين يقررون ، فإذا تبينوا في أستاذهم خرف الشيخوخة ، أو طفولها ، بدأوا يفارقونه ، وحينئذ يحيل نفسه إلى التقاعد . ولم يكن للأساتذة زي محدد، ولكن الأجلاء منهم يضعون الطيلسان على رءوسهم ، وكان ابن حبيب ، الفقيه المالكي الكبير ، يذهب يضعون الطيلسان على رءوسهم ، وكان ابن حبيب ، الفقيه المالكي الكبير ، يذهب الى الدرس في أحسن أزيائه ، وهي من نسيج يمني ، على حين يرى آخرون إلى أفضل زى يرتديه الأستاذ أن يكون في رأسه شيء يقوله للطلاب . ويزاول الأساتذة إلى جانب التدريس مهنا أخرى ، تدر عليهم رزقاً يعينهم على الحياة ، ويلقى الواحد منهم طلابه في بستانه أو حانوته أو مصنعه ، وآخرن يلقون ويلقى الواحد منهم طلابه في بستانه أو حانوته أو مصنعه ، وآخرن يلقون دروسهم في المسجد الجامع أخرة اليوم ؛ بعد صباح جاهد من أجل لقمة هيوس . وقبول الأجر من الطلاب لا يلجأ إليه الأستاذ إلا عند الضرورة العيس . وقبول الأجر من الطلاب لا يلجأ إليه الأستاذ إلا عند الضرورة المعورة ، وطلبه ، أو قبول الهدية ، أمر مخجل على أية حال .

• الحياة الدينية:

ظلت قرطبة بمنأى في انجال الديني عن الحركات المتطرفة من إلحاد وزندقة، وعن الدعاوى غير السنية من خوارج وشيعة ، وليس من الممكن القول أن الدين كان بحتل مكانة هامة ، لان الدين كان الحياة نفسها ، عنه تصدر ، وبه ترتبط كل مظاهر الحياة الاجماعية . ويلنز مالقرطبي بما ياتزم به أي مسلم ، في أي مكان ، فالإسلام عقيدة وفكراً وطقوساً لايتأقلم في جوهره ، وليس ممكناً أن نتحدث عن إسلام قرطبي أو أندلسي ، وربما تميزت قرطبة عن غيرها بأن حماسها للإسلام وحرصها عليه كان عفوياً وشديداً ومستمراً .

كانت حماسة الناس للدين قوية ، وحرصهم على أداء شعائره حادا ، وأشدهم حرصاً أولئك الإيبريون الذين أسلموا مع الفتح أو بعده ، ثم البربر، ويأتى العرب أخبرا . وصنع الإسلام من هذه العناصر محتمعاً مماسكاً ، وهو ما كانت تفتقده بلاد إسلامية أخرى . ومن هنا كان الرحالة المشارقة يوخذون، حين يطأون أرض قرطبة ، عا عليه أهلها من إسلام خالص ، ومن تقوى خاشعة ، عند غالبية الناس . وكان المحتمع ، إذاء دين بلا كهانة ، يقوم على حراسة معتقداته ، ولا يتهاون أبداً فما هو جوهرى منها ، ولم تكن بقوم على حراسة معتقداته ، ولا يتهاون أبداً فما هو جوهرى منها ، ولم تكن وكانت حرية الأدبان مطلقة ، ومحترمة ، ويتم اعتناق الإسلام أمام القاضى ، ويسجل في وثائقه ، ويقر فيها المرء بأنه اعتنق الإسلام بإرادته وحريته وبإيمان وبسجل في وثائقه ، ويقر فيها المرء بأنه اعتنق الإسلام بإرادته وحريته وبإيمان مطلق منه ، ودون ضغط أو تدخل من أحد ، وأنه يلتزم بقو اعده ، ولكن عقوبة التحيف على الإسلام صارمة ، وكان الاتهام بها يخفي وراءه ، أحياناً ، عقوبة التحيف على الإسلام صارمة ، وكان الاتهام بها يخفي وراءه ، أحياناً ،

وحرص الأندلسيون على الحج ، وتقلع بهم السنن من المرية أو بلنسية أو دانية ، وهي فغور لانزال قائمة ومزدهرة حتى يومنا هذا ، تبحروهليها

أعداد كبيرة من رجال ونساء ، وتافي رحالها في الإسكندرية ، لكي يتجه الناس منها إلى القاهرة ، وقد يتوققون فيها أياماً طويلة ، للعام أو التجارة أو السياحة . على حين يأخذ الفقراء طريقهم براً عبر شاطىء شهالى أفريقية حتى يبلغوا مصر ، وهي رحلات أخذت شكلا جماعياً ، في قوافل كبيرة ، منذ نهاية القرن التاسع ، ومن يتخلف عن الحج لسبب أو لآخر بمكن أن ينيب عنه من يقوم به بدلا منه ، وفيا وصلنا من وثائق صورة عقد بين حاج وموكله ، والمناسات التي عليه أن يضطاع بها . وكان الحج شائعاً بين العامة والفقراء ورجال العلم ، فهم مهدفون إلى أن تكون لهم معه رحلة علم ، ومن هنا فنحن لا نعرف إلا قلة بين الحاصة أدت الحج ، ولم يؤده أى من الأمراء أو الخلفاء لأسباب سياسية خالصة ، ولا نعرف أن ابن حزم ، صاحبنا ، أدى الحج ، رغم دفاعه الشديدعن الإسلام وأصوله ، وقدرته المالية ، في أوائل أدى الحج ، رغم دفاعه الشديدعن الإسلام وأصوله ، وقدرته المالية ، في أوائل لهناته على الأقل ، ولعاه أناب من يضطاع به نيابة عنه ، أو وجد لنفسه مندوحة فها أحاط به من ظروف .

وقد أصبحت قرطبة موطن المذهب المالكي ، وأصبح الاتجاه الغالب فيها ، تبنته الدولة ، وعليه الفتوى ، وأغلقت أبوابها في وجه المذاهب الفقهية الأخرى ، وأعرض عاماؤه عن النظر إلى غير المالكية من المذاهب واعتبروا معرفة المرا لاجدوى فيه ، ووقفوا بالفقه المالكي عندما أورده مالك وكبار تلاميذه وأصحابه من بعده ، يدورون حوله دون أن يتقدموا به خطوة ، ولم يتيحوا لأنفسهم حرية الدرس أو الاجتهاد إلا في حالات نادرة ، حن يصطدمون بما هو شائع ويصعب تغييره ، فيجدون لهم مندوحة في باب لا العرف والعادة » ، وهما من روافد التشريع عند المالكية . وإن المرء ليستطيع أن يؤلف مجلدات تستغرق أسماء الفقهاء الذين برزوا من علماء المذهب في تلك الفترة . ويهمنا أن نشير من بينهم إلى أبي الوليد علماء المذهب في تلك الفترة . ويهمنا أن نشير من بينهم إلى أبي الوليد كان خصها فكرياً لدوداً لابن حزم ، وجرت بينهما محاورات عنيفة ، وأنى كان خصها فكرياً لدوداً لابن حزم ، وجرت بينهما محاورات عنيفة ، وأنى

عليه ابن حزم ثناء بالغا. وألف الباجى عدداً من الكتب فىالفقه المالكى، وفى علم الأصول، وفى الحديث. وكان موطأ الأمام مالك؛ وشرج والمدوبة ولسحنون القيرواني، من أوائل الكتب التى يدرسها المالكية، وأكثرها رواجا.

وفى النصف النانى من القرن التاسع الميلادى جاء قاسم بن محمد بن سيار بالمذهب الشافعى من المشرق ، وانصرف إلى نشره عن طريق الدرس والتأليف ، وكان يلقى دروسه فى المسجد الجامع، ووجد رعاية من الأمير محمد الأول ،الذى عينه موثقه الخاص حماية له من علماء المالكية ، وعاش المذهب الشافعى فى الظل طوال أيام عبد الرحمن الناصر، لأن ابنه الأمير عبدالله ، وكان شافعيا ، اتهم بالاشتراك فى إموامرة لحلع أبيه الناصر ، لأنه بايع ابنه الحكم بولاية العهد دونه ، وقد فشلت المؤامرة ، ولقى عبدالله حتفه على يد أبيه ، وكان لذلك أثره السى على المذهب الشافعى فتوقف نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر ، الذى كان على المذهب الشافعى فتوقف نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر ، الذى كان من شيوخ المذهب الشافعى ، فانتعش المذهب الشافعى من جديد ، ولكنه انكمش ثانية فى عهد المنصور بن أي عامر ، وكان حاكماً واقعيا إ، فرأى من صالحه أن يجارى فقهاء المالكية ليكسب تأييدهم ، وفيا يعد سوف يصبح من صالحه أن يجارى فقهاء المالكية ليكسب تأييدهم ، وفيا يعد سوف يصبح ابن حزم واحداً من أتباعه ، قبل أن يتحول إلى المذهب الظاهرى .

و دخل المذهب الظاهرى الأبدلس فى الوقت الذى دخل فيه المذهب الشافعى تقريبا ، على يد عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال (ت ٢٧٢ه = الشافعى تقريبا ، على يد عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال (ت ٢٧٢ه و ٨٨٥ م) ، واجتهد رغم أنه شافعى فى نشر المذهب الظاهرى ، ويبدو أنه آلم يوفق كثيراً فيما رمى إليه . وتعرض الظاهرية لمثل ما تعرض له الشافعية من مضايقات علماء المالكية ، وأول شخصية ظاهرية نلتقى بها ، ذات ، قام وتأثير ، منذر بن سعيد البلوطى ، وتاقى أصواه فى رحلة له إلى المشرق ، وظل عليه حتى وفاته عام ٣٥٥ ه – ٩٦٦ م ، ثم ضعف صوت الظاهرية إلى أن عاد قوياً مع ابن حزم العظم .

و مع وصول كتب الحاحظ إلى الأندلس ، وشيوعها على نحو خمي بين مجموعة من المنقفين ، عرفت قرطبة عدداً محدوداً من الممتزلة ، ولكننا في النصف الثاني منالقرن العاشر لانكاد نعثر لهم على أثر ، والذين جاءوا الأندلس من الحارج لنشر هذا المذهب أبعدوا منه . مثلا وصل قرطبة أبوالطيب ابن أبي بردة ، عام ٣٦١ هـ = ٩٧١ م ، وأحسن الحكم الثان استقباله ، كواحد من كبار علماء الشافعية على أيامه ، ولكن ما إن علم أنه من المعتزلة حتى أصدر قراراً بإبعاده . و لكن ابن حزم يقول لنا أن وادى بني توبة كانكله معتزليا . وربما ارتبطت فكرة المعتزلة بالزهد ، لقد كان الطريق الوحيد ، فيما يرى أسين بلاثيوس ، أمام الذين يرغبونأنيبشروا بأفكارهم دونأن يعرضوا أنفسهم للاضطهاد والملاحقةأن يزهدوا وينسكوا في «الروابط» لأن هذه الخلوات تمتعت بمهابة جليلة لدى الحكام والفقهاء والعامة ، وكانت تقع خارج المدينة ، في الجبال أو الغابات ، وتجرى الحياة فيها على نحوز اهد ويطلق على سكانها اسم : زاهد أو ناسك أو عابد أو صوفى . وآخرون من الزهاد ظلوا بين العامة ، وتمنزوا بالتقشف ، واحتقار الترف ، وإهمال الأناقة ، وعاشوا حياة رقيقة ، تمتهنون أعمالا متواضعة ، ويشاركون في الجهاد .

وكان الفيلسوف ابن مسرة أوضح شخصيات هؤلاء العباد، وأقام خاوة له في جبل قرطبة، على مقربة من العاصمة، وعرف بالجبلى، وفي ثياب زاهد خاشع بدأ يتأمل أفكار المعتزلة، ويبنى لنفسه فلسفة جديدة، راخ يبشر بها بين عدد محدود من تلاميذه، وفي البدء، بتأثير من حياته المستقيمة، ونسكه الصادق، وتقواه الخاشعة، كسب إلى جانبه قلوب القرطبيين، ثم بدأ الهمس: إنه معتزلى، يبشر بمذهب فلسفى جديد، بينه وبين الإلحاد خطوة و احدة. وأحس ابن مسرة بالهمس، وبما يجرى حوله وخطورته، فرحل إلى المشرق، وأدى فريضة الحجم، وبعده عاد الل خلوته، وباشر حياته الزاهدة ودروسه، وضيتن الحياة ودع الدنيا عام الل خلوته، وباشر حياته الزاهدة ودروسه، وضيتن الحياة ودع الدنيا عام الله على ما وقد مهد الطريق ففكر فلسفى حر، ومن بعده واصل

تلامیذه إشاعة فکره ، ونشر کتبه ، ولم یصلنا منها شیء ، ولکنی فی زیارتی المتعادة للرباط عاصمة المغرب ، وجادت أن مخطوطة الجزء الحامس ، من کتاب « المقتبس » لابن حیان ، ولما تنشر ، وتوجد فی خزانة القصر الملکی، تضم نصوصاً کثیرة ، ذات فائدة قصوی فی توضیح مذهب ابن مسرة و تحدید مسارد .

وفى أواخر خلافة الناصر ، أو على التحديد عام ٣٥٠ ه = ٩٦١ م ، شخه نشر فقيه قرطبي ، محمد بن يبقى بن زرب ، دحضاً لآراء ابن مسرة ، فمنجه الحليفة ، مع الزبيدى ، أبو محمد بن الحسن ، سلطات واسعة لمحاصرة فلسفة ابن مسرة . فأمر ابن زرب باعتقال كبار تلاميذه ، و أكرههم على رفض أفكارهم على ملأ من الناس ، وأمر بكتب ابن مسرة التي كانت معهم فأحرقت علانية على مرأى منهم ،أمام أبواب المسجد الجامع . وقلد خفت حدة الملاحقة في عهد الحكم الثاني ، و لكن ما إن ولى المنصور بن أبي عامر الحجابة ، وعين ابن زرب قاضيا ، حتى اشتدت الملاحقة من جديد ، و أغضى المنصور عينه عنها استجلاباً لرضى الفقهاء و العامة ؛ وكان من ضحاياها عبد الملك بن منذر ابن سعيد الباوطي ، صاحب خطة الرد ، وكان معتزلياً مثل أبيه ، القاضى والإمام والحطيب على عهد الناصر . ويبدو أن عبد الملك ، وأخويه عبدالوهاب والحكم ، حاولوا إحياء مذهب ابن مسرة وخاوته ، وكونوا في نجانة مجموعة من المؤمنين به ، وقد حكم عليه بالإعدام والصلب ، وأورد لنا ابن حزم قصة صلبه في كتابه «الطوق » .

و الأدب:

وفى هذا القرن شاعت الأعمال الأدبية المشرقية فى الأندلس ، فقد أدخل أحمد بن محمد بن هارون البغدادى ، وجاء قرطبة يتجسس للعباسيين، كتب ابن قتيبة ، وأدخل فرج بن سلام وكان مهتما باللغة والشعر والطب وتربطه بالجاحظ صداقة وطيدة ، كتاب « البيان والنبيين ، ، ورسائل

وكتبا أخرى للجاحظ أيضا . وأدخل عثمان بن المطنة ، وكان يعمل مؤدبًا لأولاد الأمراء ، وعاش فى الشرق مدة ، ديوان أبى تمام ، وكان معجبا بشعره . ويعطى كتاب «العقد الفريد » لابن عبد ربه صورة صادقه لثقافة الأندلسيين المشرقية فى هذا العصر ، وماكانت عليه من شمول وعمق . *

ولم يحدث أن اهتم خليفة بالثقافة كما اهتم بها الحكم الثانى ، وكان نفسا عالما موسوعيا ، يمضى ساعات طويلة فى مكتبته بقرأ ، وقلمه فى يده يعلق على مايقرأ ، وقلما تجد له كتابا فى خزانته ، من أى فن كان ، إلاوله فيه نظر ، يكتب فيه بخطه ؛ إما فى أوله أو آخره أو تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده و وفاته والتعريف به ، ويذ كر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لاتكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته ، وعنايته مهذا الفن . ومن حين لآخر يدعو العلماء والفقهاء إلى قصر الحلافة فى قرطبة ، أو إلى قصور حين لآخر يدعو العلماء والفقهاء إلى قصر الحلافة فى قرطبة ، أو إلى قصور ومناقشات أدبية وعلمية جادة ، تمتد فى كثير من الأحيان حتى الفجر .

وكانت مكتبة الحكم الثانى تضم ٠٠٠ و ٤٠٠ مجلد، وتشغل مكانا فسيحا فى قصر الحلافة ، ويحكى ابن حزم فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، نقلاعن تليد الحصى ، وكان على خزانة العلوم : أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدو اوين لاغير .

وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال ورجههم إلى الأفاق باحثين عنها . ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة ، وبعث إلى أبي الفرج الأصفهاني القرشي المرواني ألف دينارعينا ذهبا ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني ، وما لأحد مثله ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أوينسخه أحد منهم .

وكانت المكتبة تسر على نظام دقيق وراق للغاية ، وتضم أقساما مختلفة ، أحدها للنسج ، ويعمل فيه مهرة العخطاطين ، من فتيات وفتيان ، وشهرت من بينهن لبني كاتبة الخليفة نفسه ، وكانت أديبة شاعرة ، نحوية عروضية ، راثعة العخط ، بصيرة بالحساب ، مشاركة ، ولم يكن في قصر العخلافة أنبل منها ، على حد تعبير ابن بشكوال في كتابه « الصلة » وتميزت من بينهن أيضا فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب ، المعروف بالشبلارى وكانت كانبة جزلة ، وخطاطة ماهرة ، وعمرت طويلا ، فعاشت أربعة وتسعين عاما ؛ كتبت فيها مئات الكتب الطوال . وكان هناك قسم للمراجعة والمعارضة يراجع ماخط الناسخون ، ويعمل فيه صفوة من علماء اللغة ، والمعارضة يراجع ماخط الناسخون ، ويعمل فيه صفوة من علماء اللغة ، أمثال : الرباحي إلجياني ، وأبي الفضل بن هارون الصقلي ، وعباس بن عامر الصقلي ، ويشرف عليه العالم اللغوى الجليل أبو على القالى ، صاحب كتاب الصقلى ، ويشرف عليه المتجليد والتذهيب والزخرفة ، يعمل فيهأندلسيون ، وآخرون جاء مهم الحليفة من بغداد وصقلية .

وكان قسم النسخ لايتوقف عن الكتابة ، ينسخ من الكتاب الحيد عشرات النسخ ، محتفظ بها في المكتبة للمترددين عليها ، أو يهديها الحليفة لأصفيائه ، أو لكبار العلماء والأدباء ، أو يوقفها على مكتبات المساجد ، أو على حلقات الدرس للراغبين فيها من الطلاب ، من العاجزين عن النسخ أو الشراء . وإهداء الكتب النادرة إلى الحليفة أقصر الطرق ، وأحبها ، إلى قلبه .

ولم يكن الخليفة استثناء في هذا الانجاه ، فنحن نعرف عدداً كبراً من المكتبات الخاصة ، ومن هواة الكتب ، لانبلغ قدر مكتبة الحكم ، ولكنها مكتبات كبيرة عقياس ذلك العصر، وكل عصر ، ولنأخذ لها مثلا مكتبة قاضى الحماعة بقرطبة ، أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس ، فقد جمع ومن الكتب في أنواع العلم مالم يجمعه أحد من أهل عصر ه بالأندلس، مع سعة الرواية والحفظ والدراية ، وكان يملي الحديث من حفظه ، في

مسجده ، وله ستة وراقين ينسخون له دائما ، ورتب لهم على ذلك رائبا معلوما ، ومتى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طابه اللابتياع منه ، وبالغ فى ثمنه ، فإن قدر على ابتياعه ، وإلا انتسخه منه ورده إليه ». وكانت عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية حسنة الخط ، تكتب المصاحف والدفاتر ، وتجمع الكتب ، وتعنى بالعام ، ولها خزانة عام كبيرة حسنة ، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة .

ولم يقف الأمر عند الحاصة من الناس ، فكان البسطاء أيضا يعنون بأن تكون لهم مكتباتهم في بيوتهم ، في ضوء ماتسمح به إمكاناتهم ، ويقدمونها على مظاهر الحياة الأخرى. ولدينا معلومات عن صاحب كتباب يدعى ان حزم (غير صاحبنا مؤلف طوق الحمامة طبعا) ، ريعلم الأطفال فيه ، عساعدة أبن له يقوم على الصبيان ، وابنة تقوم على الفتيات ، وما يوفره يشترى به كتبا ، وفي ساعات الفراع يقوم على نسخها ، ورغم تواضع حاله كانت مكتبته منظمة ، فيها كتب قيمة ، وأحيانا نادرة ، أتى بها في رحلة كانت له إلى المشرق ، وتتميز بالضبط والدقة وللإفادة منها يتردد ، عليه العلماء والطلاب .

ولكن هواية الأندلسيين الكبرى كانت تتركز في الأدب: والشعر منه بخاصة ، وبلغ في هذه الفترة أوج سمته الجمالي ، وعرف هذا العصر حشدا هائلا من الشعراء ، أنشأ لهم المنصور بن أبي عامر ديوانا خاصا بهم ، يسمى « ديوان الندماء » ، مهمته ترتيب الشعراء طبقات ، وبذل العطاء لهم على مستوى أقدارهم في الشعر وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب ، ولقد صحب المنصور في بعض غزواته أربعون شاعرا ، من كل طبقة ، ليسجلو امايرون شعرا .

من طليعة الشعراء فى هذا العصر ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ ٩٣٩ م) صاحب كتاب (العقد الفريد » ، وبهر القلوب بمدائح ، وغز له ينبي ً عن ذوق وحساسية تفوق مافي مدائحه . وابن هانيء الإلبيري (ت ٣٦٢ ﻫ = ٩٧٢ م) وما لبث أن غادر الأندلس إلى المغرب ، ومات و هو في طريقه الى مصر ، ليلحق فيها بالمعز لدين الله الفاطمي ، ويقول عنه ابن خلكان : وإنه أشهِر المغاربة على الإطلاق ، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة ، وكانا متعاصرين ، أما المعرى فقد شبه شعره الضخم الرائع بأنه « رحى تطحن قروناً » . وكان ابن دراج القسطلي (ت ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م) أعظم الشعراء فى قرطبة على أيام المنصور بن أبي عامر ، وكان كاتباً له ، وللحكم الثانى قبله ، وهومن أصل بربرى ، ذاع صيته ، وأثنى عليه ابن حزم ، وكان واسع العلم ، قادراً على المديح ، يملك زمامالصناعة ، يجود شعره ، ويتكلف أحياناً ، فجاءت بعض أشعاره عسيرة الفهم . ويوسف بن هارون الرمادى (ت حوالی ٤١٣ هـ ٣٠٢٢ م) ، والرمادي ترجمة حرفية لكنيته في اللغة الرومانثية أبو جنبش، وبها كان يدعى أيضاً ، لأن كلمة جنيش Geniza فيها تعنى الرماد ، وهو من كبار الشعراء ، ويقارن بالمتنبي أيضاً ، وكان تلميذاً لأبي على القالى ، وجمع بين تمكنه من الشعر القديم ، ومن الأنماط الشعبية المستحدثة في وطنه، وأعنى بما الموشحات . وجمع بين رقة الشعر وخفةالظل ، وفخامة الأسلوب ، وأورد له ابن حزم في « طوق الحمامة » قصة حب رومانتيكية جميلة . واشتهر من بين الشعراء الأمراء حفيد لعبد الرحمن ، يلقب ﴿ بِالطَّلْمِينَ ﴾ ، الشريف أو الشاعر ، (ت ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م) وبرع في مقطعات النسيب الرقيق ، وكان طليعة شعراء الأندلس في الزهريات .

وبرع من شعراء هذا العصر أيضاً أبو عامر بن شهيد (ت ٤٢٦ ه الله ١٠٣٥ م) ، وهو من بيت عريق ، وكان صديقاً ودوداً لابن حزم ، واحتل في العاصمة مكاناً مرموقاً بشعره الجزل ، ورسائله الفكاهية ، وتتراءى لنا في شعره ، أحياناً ، لمحات ذات وقع حديث ، وخلف لنا رسالة والنوابع والزوابع ، وصلتنا في جانب منها ، وفيها يصور رحلة شاعر إلى الجنة ، فسبق بذلك المعرى ودانتي الإيطالي في هذا الموضوع .

. وكان الشعر بجرى على ألسن النساء ، وبرع نفر منهن فيه ، مثل : عائشة بنت أحمد ، وعشقت أحد أبناء المنصور وتولعت به ، ومريم بنت أبى يعقوب الفيصولى ، وكانت زاهدة ورعة ، واسعة العلم بالأدب . وبينما الفتن تجتاح قرطبة ، وشمس الحلافة توشك على الغروب ، اجتاح العاصمة حديث فتاة أمرة ، تنحدر من أصلاب خليفة ، ولادة بنت المستكفى (ت ١٨٤ هـ-١٠٩١م) صبية وجميلة ، ذكية وشاعرة ومتمردة ، تجعل من قصرها منتدى الشعراء، ومجمع الأدباء، وملتقى علية القوم، تحب وتجاهر ، وتعبر عن عواطفها في صراحة ، ويهيم بها الوزير الشاعر اين زيدون، فتصله وتسعد معه ، وما تلبث أن تهجره ، وكيداً له تصل غيره ، فيندب حظ قلبه معها بقية حياته .كانت ولادة ، فيما يقول ابن بسام ، : « في نساء ا زمانها واحدة أوانها ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، حسن منظر و نحمر ، وطلاوة مورد ومصدر . كان مجلسها في قرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناوًها ملعبا لجياد النظم والنُّر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ، ولكنها على سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب وطهارة أثواب » . غير أنها و لاتخلو من نزق وطيش ، فقد اطرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، لقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها » .

وقد عمرت ولادة حتى جاوزت الثمانين عاماً (ت ٤٨٤ هـ ١٠٩١م) دون زواج ، مع ما كانت عليه من جمال باهر ، وعراقة نسب متصل ، ومواهب فنية عالية ، وتقف المصادر القديمة عند الظاهرة ، تقدم لمحات عنها ، دون أن تمضى بها حتى النهاية ، تفسيراً وتفصيلاً . ويراها الباحثون المحدثون أمراً غير طبيعى ، فيقول عنها غرسية غومث إنها « امرأة رجلة ، بالغة الظرف والأناقة » ، ويرى أ . و . نيكل ، ومن بعده هنرى بيريس ، بالغة الظرف والأناقة » ، ويرى أ . و . نيكل ، ومن بعده هنرى بيريس ، أن صلاتها بمهجة بنت التيان القرطبية الشاعرة كانت مريبة ، وفي القليل اللهي روى من أخبارهما ما يدعم الاتهام . وإلى هذا المنحى يذهب الأديب

العراقى الأستاذ عبد الرزاق الهلالى ، ويتهمها الأستاذ على عبد العظيم بالسادية Sadism ، ويمضى وحده فى هذا الاتجاه .

ومهما يكن القول ، فإن هذه الفتاة الشاعرة المتمردة؛ أثرت الحياة الأدبية والاجتماعية فى قرطبة ، وأوجدت نمطاً أدبياً جديدا ، دفعت به إلى سطح الحياة ، وكان قبلها بأخذ طريقه وراء الظاهر جبانا وخفيا .

وفى مطاع هذا العصر بدأت قرطبة تتغنى بالموشحات، ولو أن موشحات عصر الخلافة ضاعت كلها، وضاعت معها طفولة هذا الفن الجميل الذى أبدعه الأندلسيون، على غير احتذاء، في عالم الفن والشعر.

المؤرخون :

وشهد هذا العصر من المزرّخين الكبار ابن القوطية ، أبو بكو بن عمر (ت ٣٦٧ه = ٩٧٧ م) صاحب كتاب و تاريخ افتتاح الأندلس ، ويغلب على ظن المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الإسبانية ، أن الكتاب ليس من إنشاء ابن القوطية ، ولعله أن يكون سماعاً دونه عنه بعض من كان يحضر دروسه من طلابه المولعين بالأخبار ، وكان ابن القوطية نحوياً أيضاً ، وكتابه في تصريف الأفعال أول كتاب وصلنا في الموضوع . وكان حريب بن سعد (ت ٣٦٩ه = ٩٨٠م) قرطبيا من أصل نصراني ، أسلم آباؤه ، وتلقى تعليا طيباً ، واتخذه الحكم الثاني كاتباً له ، وقد اختصر تاريخ الطبرى ، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس ، وكان إلى جانب اشتغاله بالتاريخ طبيباً .

وأعظم مؤرخى هذا العصر على الإطلاق أبو مروان حيان بن خلف القرظبى ، ويلقب بابن حيان (ت ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦م) ، ومؤلفاته لا تقل عن خمسين مؤلفاً ، وأحدهما ويسمى ، المتين ، في ستين مجلدا ، ولسوء الحظم يصلنا من مؤلفاته هذه إلا أجزاء متناثرة من كتابه ، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، .

ويقول هنه المستشرق الهولندى رينهارت دوزى : ويمتلح العرب في كتب ابن حيان صدق الرواية بقدرما يعجبون بجزالة لغته ،ورنين عباراته ، وأنا أو يدهم في هذا كل التأييد ، ولا أتردد في القول بأن كتبه لو بقيت لألقت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرة، ولصورته لنا أحسن تصوير، ولوجدنا أنها تبلغ من الروعة مبلغا يجعلنا نستغنى جا عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخ هذه العصور . إن ابن حيان سيال الأسلوب ، ومع ذلك لا يتعمر في الإطناب والقعقعة اللفظية ، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التي لا تنتهي. إنه ليسرق التاريخ • ساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ، ويناقشها عن علم وفهم و ذ كاء ، كما سيفعلمن بعده مؤرخون نقدة كابن سعيد وابن خلدون. ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع ، لا يهبط إلى الركاكة التي تشر السخط ، ولا يقع في التفصح والإسراف في تعاقع الألفاظ ، ورغم النزامه السهولة لايهمل جانب الجمال في أسلوبه "، ويبعث في كلامه دائمًا حماسة وغني وطابعاً غالباً من الجد . نعم ، إنه يلجأ في بعض الأحيان إلى التشبيهات وضر بالأمثلة إ. ولكنه – رعم امتيازه بفصاحة القدماء ِ – لايولع بما أولع به معاصروه : وتخرج من هذا كله بأننا لا نجد من بن مؤرخي العرب إلا القليلين بمن تستطيع أن نقارتهم به ، و لن نجد بينهم من نقدمه علمه ، .

وانصرف عدد من المؤرخين إلى كتابة السير ، ووضع المعاجم في طبقة معينة من الرجال ، وأول من نلقى منهم : الحشى ، أبو عبد الله محمد بن الحارث (٣٦١ه هـ ٣٧١ م) ، وهو قبروانى قدم الأندلس ؛ وولاه الحكم الثانى خطة المواريث في بجانة ، وبعد وفاته استقر في قرطبة يعيش على بيع العطارة ، وألف كتباكثيرة عن الفقهاء والمحدثين ، واشهر بكتابه و تاريخ قضاة قرطبة ، وألفه فيا يبدو بإيجاء من الحكم نفسه ، ونشره خوليان ريبير الأول مرة في مدريد عام ١٩١٤ م ، وترجمه إلى الإسبانية ، ويضم من الفوائد ما يجعله أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس ، وقد كتبه وتحت يده مادة طببة من الوثائق المحفوظة في دار الحلافة ، وسجلات

قضاة ، والأوراق الحاصة لبعض الأفراد . وأهم من ذلك كله ما أخذه من الروايات والأخبار التي كان الناص يتناقلونها ، منها ما يحكى في قصر الحلافة وبيوت السروات ، ومنها ما يتناقله الجمهور والقصاص في طرقات قرطبة وأرباضها وأحيانها التي يحتشد فيها أصاغرالناس . وبعضها أخذه من أفواه أهل الأدبوالدين والعلماء والفقهاء مماكان يجرى في حلقات در وسهم ، وبعضها الآخر اختلقه نفر من الساخطين على النظام السياسي والاجتماعي القائم ، ومنها ما هو صدى لماكان يتحدث به أو لئك المولعون بنقد رجال الدين والأنقياء ، ومنها ما هو صدى لماكان يتحدث به أو لئك المولعو ن بنقلونها في لغنهم العجمية أو العامية الدارجة أو صياغة جديدة لها . كل هذه العناصر تتجمع وتتألف منها مادة الكتاب دون أن يضيف إليها المؤلف من عنده إلا قليلا . إنه كتاب يضعنا في قلب قرطبة القرن العاشي ، وأخباره مصوغة في قالب من الواقعية لايبلغ إلى مادة الكتاب غيره من كتب الأدب أوالناريخ . وهو يحدثنا عن أشياء تافهة ، أو يصور لنا مشاهد مبتذلة ، لاجلال فيها ، و لاصلة تربطها إبغيها ، وهذه ويصور لنا مشاهد مبتذلة ، لاجلال فيها ، ولاصلة تربطها إبغيها ، وهذه الروايات المرسلة على عوهنها تعين على دراسة المظاهر الاجهاعية ، ممالايذ كره ويعي به غيرهذا الكتاب .

ومنهم ابن الفرضى ، أبوالوليد عبد الله بن محمد (ت٤٠٢٠هـ ١٠٢٠م) ، من أهل قرطبة ، وكان فقيها و محدثاً وخطيباً وشاعراً ، وجماعاً للكتب، ودر س في القيروان والقاهرة ومكة والمدينة ، وعرض له ابن حزم في « طو ق الحمامة » و استشهد في داره على يد البربر ، عندما اقتحموا قرطبة وانتهبوها ، ولم يعثر على جثته الابعد أربعة أيام ، وقد تحلت و تعفنت ، فوورى النر اب دون أن يغسل أو يكفن. وضاع بعض ما ألفه مثل كتابه : « تاريخ شعراء الأندلس » ، وبقى لنا منها كتابه الذائع الصيت : « تاريخ علماء الأندلس » .

العلوم :

ولقيت الدراسات الفلكية في النصف الثاني من القرن العاشرعناية تامة ، وكان فلكيو الأندلس ، مثل نظرائهم في المشرق ، يؤمنون بتأثير النجوم ،

واعتبارها سببا فيايحدث من شئونهامة بين الميلاد والموت على سطح الأرض، وكان الفلك يستخدم في تحديد قبلات المساجد، وتعيين مواقيت الصلاة على امتداد العام، و الاستيثاق من مو اعيد الأهلة، ولم يكن مسموحا بالتنبؤ وقراءة الطالع، ومع ذلك كانت الجاهير، من و راء ظهر الدولة؛ تقبل على أدعياء الفلك، من المنجمين والعرافين ومن يستخرجون الفأل، والمتنبئين والسحرة وصناع الأحجبة. وكان الفلكيون يعملون في الكيمياء أيضا، وقد از دهرت در اسة الفلك على يد مسامة الحريطي (ت٣٩٨ ه = ١٠٠٨ م)، تحت رعاية الحكم الثاني، وعرض له ابن حزم في «طوق الحمامة»، وإلى جانب الفلك كان أستاذاً في العلوم الرياضية، ومن بينها فن مساحة السطوح، وإليه يعود الفضل في إدخال « رسائل إخوان الصفاء» إلى الأندلس.

وأزهر علم الطبق قرطبة إزهار اعظيا ، وفي منتصف القرن العاشر المراهر به المرافور به المحالية ، قسطنطين الساع ، سفارة إلى عبد الرحن الناصر ، كان بين ما حملته من الهدايا نسخة مكتوبة بالإغريقية من كتاب ديوسقو ريدس Dioscorides في الطب ، ولم يكن في قرطبة من يعرف الإغريقية ، فسأل الناصر الإمبر اطور أن يبعث إليه واحداً من العارفين بها وباللانينية ، فأرسل إليه الراهب نيقولا لكي يقوم بتحديد أنواع النباتات الواردة في الكتاب ، وأبجز ذلك العمل معاونة لجنة بينها : حسداى بن شبر وط ، الذائع الصيت ، وأبي عبد الله الصقلي ، وكان عارفاً باليونانية و يتحدث بها ، وله المام يتركيب العقور ، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهبيم ، ومحمد بن الكتاب يتركيب العقور ، وعبد الرحمن بن إسحاق بن المبيم ، ومحمد بن الكتاب وعلى رأسهم أبو القاسم الزهر اوى ، وعدد آخر من الأطباء وعلماء النباتات وكان لمعرفة الأندلسيين بهذا الكتاب أثر حاسم في تطور در اسات الطب والنبات ، و تميز الذين عملوا في ترجمة الكتاب كأطباء فيا بعد ، في بلاط الحكم النابي ، والمنصور بن أبي عامر .

وأعظم أطباء ذلك العصر ، من غير شك ، أبو القاسم خلف الزهر اوى،

نسبة إلى مدينة الزهراء الشهيرة في قرطبة ، ويعرف في اللاتينية بامهم Abulcasis (ت ٤٠٣ هـ ١٠١٣ م) . وطار ذكره شرقاً وغرباً بالبراعة في الجراحة ، وتعتمد شهرته على مؤلفه المسمى : «انتصريف لمن عجز عن التأليف» ، أى العون لمن ليست له قدرة على استيعاب المؤلفات الضخمة ، ولحص في القسم الأخير منه المعلومات الخراحية التي كانت ماثلة في عصره، واهتم المؤلف بالآراء الحاصة بكي الحروح ، وتفتيت « الحصوة» في داخل المثانة ، وأهمية التشريح والفحص الدقيق . وكان هذا الحزء ، ونشر في اللاتينية باسم الحراحة ، في البندقية عام ١٤٩٧ ، وفي بان عام ١٥٤١ ، وفي اكسفور د عام الحراحة ، في البندقية عام ١٤٩٧ ، وفي بان عام ١٥٤١ ، وفي اكسفور د عام الناس إلى طبقة أبقر اطوج الينوس . وهو أول مؤلف جعل الحراحة عاماً قائماً الناس إلى طبقة أبقر اطوج الينوس . وهو أول مؤلف جعل الحراحة عاماً قائماً بداته ، مستقلاعن الطب ، وأقامها على أساس من العلم بالتشريح ، وتضمن رسوماً للالات الحراحية التي كان يستعملها العرب ، أو نقاوها عن غيرهم وسوماً للالات الحراحية التي كان يستعملها العرب ، أو نقاوها عن غيرهم ه

* * *

فى هذا الجومن الحضارة المصقولة ، والثقافة المزدهرة ، ولد ابن حزم ونشأ ، وتفاعل معها ، غلاما يافعاً ، وصبيا دارسا ، وشاباً قلقاً ، ورجلا يعمل بكل ما أتبح له لكى يوقف انحدار الخلافة وتلاشيها !

شاهد عصر

لا أحد يختار اللحظة التي يولد فيها وقدر لابن حزم أن يجيء إلى الحياة في أشد لحظات الأندلس إقساوة ومأساة وحسها . شهدشمس الحلافة تنحدر نحو المغيب ، وقاوم مااستطاع لكي يبقى عليها ، ورآها تتناثر مزعا، وتقوم على أنقاضها دويلات صغيرة ، يحكمها أمراء صغار ، سوف يدخلون التاريخ تحت امم : « ملوك الطوائف ». وعاصر فوضي هؤلا الملوك وصغارهم ، ورأى دولهم تنتحر في بط ، وتسرع نحو الهاوية في بلادة . وعبثا نجد جوابا لسوال يتردد في الخاطر أحيانا : ماذالوعاش الهاوية في بلادة . وعبثا نجد جوابا لسوال يتردد في الخاطر أحيانا : ماذالوعاش بعدها بزمن ؟ . المؤكد أن حياته وسط هذه الأحداث شاهدا ، ومشاركته فيها مؤثرا ، جعلت منه قمة الفكر الإنساني في مطلع القرن الحادي عشر ، في

الشرق والغرب، في العالمين الإسلامي والمسيحي على السواء. كان سياسياً ورجل دولة، شاعراً وكاتباً ومؤرخاً، مفكراً وفيلسوفاً، وفقيهاً جدلا للدد الحصومة، عنيف الحوار.
ولن أمضي مع حياة ابن حزم تفصيلا، لقد درمها في عمق ورزانة

وتأن المستشرق الإسبانى ، العالم الفيلسوف ميجيل أسين بلاثيوس ، فى كتابه :

ا بن حزم القرطبى » ، وقد أنهيت نقله إلى العربية ، وسأدفع به إلى المطبعة قريبا ، وفيه الغناء ، كل الغناء ، لمن يطلب المزيد . وسأكتفى هنا بالملامح البارزة ، التى تعيننا على فهم إبداع ومحتوى وإشارات « طوق الحمامة » ، وكان مقدرا لهذا الكتاب أن يكون مقدمة له ه أسرة من المولدين :

ينحدرابن حزم من أصول ليست واضحة تماما ، وأشدها احتمالا ،

وهو أمر غيرمو كلد : أنه ينتسب في أمرة من المولدين ، أى أنه ينحد وأصلا من الأجناس التي وجدها المسلمون لحظة الفتح . ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة ، هل هي لاتينية أوقوطية ، أومن بقية الأجناس التي مرت يشبه الجزيرة واستقرت فيها من الأفارقة والفينيقيين والسلتين . ولا يمكن الجزم كذلك بالديانة التي كان عليها أسلافه ، أهي الكاثوليكية أم ديانات أخرى ، أم الوثنية ، و كان لها عباد في القرى النائية لحظة الفتح الإسلامي . وخارج عن العلمية — طبعا — أن يقال : إنه كان إسبانيا ، بالمعنى العلمي أو وخارج عن العلمية في عصرنا الحديث ، فالقومية الإسبانية لا يمكن أن نذهب القومي للمصطلح في عصرنا الحديث ، فالقومية الإسبانية لا يمكن أن نذهب بأ ، في أشد الاحتمالات ، إلى أبعد من أخريات القرن الثالث عشر .

وليس للأسرة تاريخ عريق فى الإسلام ، فلم تكن مع السابقين إليه لحظة اللفتح ، أو ماتلاها من أعوام . كانت كملايين آخرين ، من صغار الفلاحين فى القرى النائية ، تمضى حياتها هينة متثائبة ، بلا ألام ولا أحلام ولا أمجاد . تعيش من الزراعة ، على أرض لها ، فى ضيعة صغيرة ، كانت تسمى على أيام ابن حزم منت لشم Mont lisam ، وأخذت فى الإسبانية المعاصرة صورة منتيخر Montijar ، أو بدون الراء الأخيرة ، فى مقاطعة ولبة ولبة المعادى جنوب غربى الأندلس .

ولم تكن الحياة في هذه المنطقة سهلة ولاميسرة ، ولاتزال حتى يومنا ، محدودة الموارد في الزراء ، قليلة الصناعة ، لايكاد إنتاجها من الحبوب يكفى فلاحها، على حن تزداد العاصمة قرطبة ثراء وتقدما ، وتصبح الحياة فيها أمنية ، تستهوى عامة الناس وبسطائهم ، وتداعب آمال كل طامح ، ويخاصة أحلام أمرة ترغب، وتعمل جاهدة ، في تحسين واقعها الاقتصادى، فترك سعيد ، جد ابن حزم صاحبنا، وابة حيث يقيم ، وجاء إلى العاصمة ، ولا تملك معلومات وافية عن حياة سعيد في قرطبة ، والفليل الذي وصلنا منها غامض و متناقض ، و لدينا أخبار و فيرة عن ابنه أحمد ، والد أبي محمد على موضع درسنا .

كان أحمد ، فيا يبدو ، فطناً ودودا ، مثقفا أديباً ، مستقباً عاقلا، مقتصداً وماهراً في شئون المال ، بارعاً في مواجهة المواقف السياسية المتناقضة ، ذا طموح يقظ ، قادراً على كبح جماحه عند الضرورة ، مسالماً دائما ، ومسلحاً بكل هذه الصفات بدأ يشق طريقه ليكون له في مناصب الدولة نصيب ، وفي هذا الوقت كانت منتديات قرطبة نتهامس حديث نجم بمضى صعدا بلا توقف ، فتي من أبناء الأقاليم يدعى المنصور بن أبي عامر . كان مثل سعيد ابن حزم ريفيا ، هبط قرطبة ذات يوم ، ضائعاً مغموراً يبحث عن المجد ، ويؤمل أن يلقاه في عاصمة الغرب الإسلامي . ولكنه على العكس من سعيد ، ينتمى في أمرة عربية عربية ، ولو أن معلوماتنا أيضا عن أيامه الأولى قليلة وغامضة .

ولم يكن المنصور فرداً فى طموحه وصعوده ، كثيرون كانوا يرقبونه ، وعلى نية أن يتبعوه ، وقد بدأ دم جديد يتدفق فى شرايين الدولة ، فأنى على الأسوارالعالية ، التى أقامها أبناء البيوتات العريقة ، وكانت المناصب الكبرى وقفاً عليهم ، سنة جارية ، وتقليداً محترماً . وهكذا وجد أحمد طريقه إلى مناصب الدولة ، ربما لأنه كان مولى لبنى أمية ، وهذه تحسب له ، وأكيداً لأنه أشاع الثقة فيمن حوله ، بقدرته وحنكته ، ومع البداية واصل سيره قدما، ونجهل خطواته الأولى ، ولابد أنه كان ذا دهاء سياسى رفيع ، لبظل وفيا لهشام المؤيد الخليفة ، وموضع ثقته ورعايته ، دون أن يشر فى أعماق المنصور ، وكان الحاكم الفعلى أو فى طريقه ليصبح كذلك ، روح الشك و الحوف ، بل حاول المنصور أن يربحه ، وأن يضمه الله جماعته .

وقد ترك أحمد منزله ، لأول مرة ، فى بلاط مغيث ، فى الجانب الغربي من قرطبة ، إلى « منية المغيرة » فى الجانب الشرق من المدينة ، مكان قريب من الزاهرة ، المدينة التى بناها المنصور لتكون مقر ألحكمه ، وعظمت فيه ثقة المنصور ، فجمل منه وزيره ، يقول ابن الأبار فى كنابه « إعتاب

الكتاب ، نقلا عن ابن حيان : إن المنصور « استوزره قبل ساثر أصحابه ، في سنة إحدى وثمانين رثلاثمائة (= ٩٩١ م) في خلافة هشام المؤيد بالأندلس واستخلفه أوقات مغيبه على المملكة ، وصير في يده خاتمه » .

تلك هي الأسرة التي ولد بينه ابن حزم ، أسرة ثرية من طبقة الخاصة الوليدة ، طبقة كبار الموظفين ، تعيش في ترف ورفاهية ، وفي مستوى حياة أعلى طبقات المجتمع القرطبي ، ويضغظ عليها في طيات النفس أمران غير ظاهرين : تواضع الأصل، ولا إسلامية السلف ، وكان عليها أن تتحرر منه ، وأن تتغلب عليه ، وفي أشجار النسب منسع ، وهوطريق سلكه قبلهم ، ومن بعد ، آخرون كثيرون . والأمر الثاني : الولاء الموزع بين هشام المؤيد ولى نعمته ، والمنصور راعيه .

طفولة بين الحريم:

ولد آبومحمد، على بن أحمد بن سعيد بن حزم، في قرطبة ، صبيحة الأربعاء آخريوم من رمضان عام ٢٨٤ه ع من وفمبر ٩٩٤م. وطبقاً لما يرويه ابن حزم نفسه، في مواضع مختلفة من كتابه « طوق الحمامة »، صريحاً أحياناً ، وموارباً أحياناً أخرى ، نعرف أنه أمضى طفولة رخية وضعيفة وكسولة ، طفولة ابن وزير ، يشب في أبهاء القصر ، وتحترعاية الحدم ، وبين مناغاة النساء، من القيان و الجوارى والإماء ، على أيدين نشأ ، ومعهن تربي ، ولم يعرف غير هن من الرجال حي حله الشباب ، وكن حاضناته وأستاذاته ، يعرف غير هن من الرجال حي حله الشباب ، وكن حاضناته وأستاذاته ، علمنه القرآن ، وروينه الشعر ، ودربنه في الحط ، ومنهن تعلم أشياء أخرى ليست أقل نفعاً ، ولكنها مؤذية في سن الطفولة . لقد أظهر نه في سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية ، ومناورات القصور ، وحيل النساء فنشأ صبيا مريع على أسرار الحياة الجنسية ، ومناورات القصور ، وحيل النساء فنشأ صبيا على الغيرة ، سيئ الظن بالمرأة و قد خبرها عن قرب ، وأشر ف من أسبا باعلى غير قليل .

أقصى ماعرف من العالم فى صباه شوارع و منية المغيرة ، مى كبار موظفى البلاط ، الملاصق لقصر الزاهرة ، فى إنزهات أغلب الظن أنها لم تكن طويلة ، ولم يكن فيهاو حيدا ، وربماقاد تهقدماه إلى قصر المنصور نفسه ، وكان أبن أبى عامر و دوداً جداً مع الأطفال ، يهش لروئيتهم و يسعد بمحضرهم . وكان أبن أبى عامر و دوداً جداً مع الأطفال ، يهش لروئيتهم و يسعد بمحضرهم . أبو عامر بن شهيد ، قص علينا بعض ماحدث له ، فى رسالة جميلة ، كتبها فيا يعد رجلا ، إلى المؤتمن عبد العزيز بن عبد اللرحمن بن أبى عامر ، وقد أصبح أمير بلنسية ، وأورد النا ابن بسام فقرات طوالا منها فى كتابه و اللخيرة » . يتحدث ابن شهيد عن صلته بالمنصور طفلا فيقول : و إنى انشأت فى حجره ، وبيت فى قصره ، وارتضعت ثدى كرائمه ، واعتجرت رداء مكارمه ، واغتذبت من فيه ، أكلا زقنيه ، وماء علنيه ، فصرت أفراخ نعمائه الحمر واغتذبت من فيه ، أكلا زقنيه ، وماء علنيه ، فصرت أفراخ نعمائه الحمر واصل ، و لحقت بأخوة أبنائه الغر العباهل » .

وكان ابن شهيد ندا لابن حزم ، ويكبره بعامين فحسب، وينتمى في أمرة عربية عربية ، وكان أبو اهما موظفين كبيرين ، وزيرين في قصر الحجابة ، وعلى نفس المساغة من المنصور ، فليس مجازفة إذن أن نتصور أن ابن حزم ، كان يتردد على قصر الحجابة ، ويحظى بحنان المنصور ، والطريق إليه أيسرمن الوصول إلى الحليفة الوقور المحتضر ، وقد دفنه المنصور حياً .

• ثواروعباد جمال:

فى عام ٣٩٧ ه =٢٠٠٢ م، تحققت رغبة المنصور العظيم ، أن يمو تفساحة الوغى ، وأن يلقى الله مجاهدا ، أثناء عودته من حملة قام بها على قشتالة ، وهى الحملة الحمسون من حملاته العسكرية ، وطبقاً لوصيته دفن حيث لفظ نفسه الأخبر ، فى مدينة سالم، ومعة الغبار الذى تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان محتفظ به لهذا الغرض ، وعلى قبره هذا الشاهد :

آثاره تنبيك عن أخباره لاحتى كأنك بالعيان تراه تنا الله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

وتولى الحجابة بعده ابنه عبد الملك المظفر، ومعه أملت الأندلس خيراً كثيراً، وبخاصة فى أيامه الأولى، وكان ابن حزم فى الثامنة من عمره، يطل على العالم قلقا، ويشق طريقه إلى الحياة فى خطى محسوبة، وتعكس مواقفه نضجاً مبكرا. فى بيتهم بدأ غر امياته الأولى مع جواريهم، وقرأ أوليات المعارف من فقه ولغة وأدب، ولقى كبار الأساتذة فى قرطبة، يجيئون إليه أويذهب إليهم، أساتذة تمثلون كل الأفكار، من أشد الناس ورعاً وتصوفاً وزهدا، إلى أكثرهم جرأة وتحرراً وتمرداً. وخلال ذلك بدأ ينمى صداقاته، مع صديان و فتيان من سنه، صداقات عمرت طويلا، وأخذ بعضها شكلا حمها.

وفى الثانية عشرة من عمره، فى عيد الفطر لعام ٣٩٦ ه، ناتقى به فى مجلس الحاجب المظفر ، يشارك فى سماع المهنئين من الشعراء بالعيد ، ولا يقف به الأمر عند هذه المجالس الرسمية، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه ، فهو يحدثنا فى الطوق ، أن ضنا العامرية ، كريمة المظفر ، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتاً من الشعر ، اقترحت عليه أفكارها ، لتصنع لها لحنا ، وتجعل منها صوتا يغنى .

ولم يتجه ابن حزم إلى در اسة الفقه جاداً ومتمكناً إلا شاباً مكتملا، في السادسة والعشرين من عمره ، على ما يقول هو ، حين أخطأ في صلاة الجنازة على شخصية هامة ؛ فكان موضع سخرية الجاضرين. وقد شك غرسية غومث في الحبر، ورآه لوناً من المداعبة ، لأن ابن حزم يجب أن يكون قد درس ألفقه وعلم الكلام مبكرا ، ولاأرى تناقضاً بين الأمرين ، لأن الدراسة النقد لا تعنى عدم الحطأ ، لأن العبادات العملية ـ وصلاة الجنازة ليست مما يصلى كل يوم أوحتى كل شهر ـ تلعب فيها الممارسة دوراً أكبر من القراءة والمدرس ، وإشارة ابن حزم إلى أنه بدأ دراسة الفقه لا تعنى أكثر من أنه راجع ما قرأ ، وتعمق فيا درس ، واستحضر ما كان غائباً من تفصيلات .

وأياً ما كان الأمر ، فقد اختار ابن حزم في هذه الفترة المبكرة من شبابه ، أن يكون واحداً في رفقة من الأصفياء ، ربطت بينهم صداقة وطيدة ، أقلية من العشاق المصقولين ، تنتمي إلى أعلى طبقة في المجتمع القرطبي ، عرض ابن حزم لبعضهم في وطوق الحمامة » ، وأثني عليهم كثيرا ، يتميزون بالأناقة ، ويرتدون أفخم الثياب ، في أحدث الأنماط ، يفتهم الجمال ، وتسهو بهم الطبيعة ، تطربهم الموسيقي ، ويفضلون الأدب، يفتهم الجمال ، وتسهو بهم الطبيعة ، تطربهم الموسيقي ، ويفضلون الأدب، ويتبعون فيه مهجا ثورياً . كان هؤلاء الفتية ، كما تخيلهم غرسية غومث ، ويعشقون النساء الشقراوات» .

كان هو لاء الفتية من الحاصة في قرطبة يقفون عند نماذج الأدب المشرق ، يعرفونها ، ثم يطرحونها ، ويحاولون أن يرتفعوا إلى مستواها . كانوا باختصار يقرأون كثيرا ، ويتمثلون ما يقرأون ، ويرجلون عبر العالم واقعاً أو قراءة ، ثم يبدعون أخيرا . لقد النزموا منهجاً وسطاً ، ينأى عن التحلل الهابط ، ويتجاوز التقليد المميت ، ويزاوج بين حداثة الفكرة ، ودقة الصياغة ، وحرية الاختيار ، وهي القواعد التي جعلت منها الحلافة طابع المجتمع في قرطبة . وكان الأدب الجديد يطمح أن يكون في مستوى الحياة ، وموائماً للتطور السياسي حوله ، وكما يحدث عادة ، جاء ذلك متأخرا . وحين تهاوى نظام الحلافة بغتة ، أطبق على هذا الأدب بين خرائبه ، ولما يعطى إلا قليلا جداً من ثماره ، ثمار مبكرة ، وكثرتها غير ناضجة ، ولكنها شهية من الطراز الأول .

كان أبو عامر بن شهيد رأس هذه الجماعة ، مواضعة وعرفا ، وترك لنا في رسالته «التوابع والزوابع» ، وهي أول رحلة علمانية في التاريخ إلى عالم الآخرة ، ما يمكن أن نعده دستور الجماعة . لقد صحب الكاتب شيطانه إلى عالم الأرواح ، والتقي هناك إبشياطين كبار الشعراء ، جاهليين وياسلامين وعباسين ، وبعض الكتاب ، فأنشدوه أشعاراً لأصحابهم ،

وأسمعهم شيئاً من شعره . وعرض على توابع الكتاب بعضاً من رسائله . وخلال الرحلة ينقد مجتمعه وما يفتقده فيه ، ويعرض آماله ، وما يطمح أن يكون عليه .

فهو يأسى لقرطبة تنحدث لكنة أعجمية . تؤدى ما المعانى تأدية المحوس والنبط ، ليس لسيبويه في كلامها عمل ولا للخليل إليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة ، ويشكو قوماً من المعلمين في العاصمة ، و ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كالمات من اللغة ، يحنون على أكباد غلاظ ، وقلوب كَفَلُوبِ البَعْرَانَ . ويرجعُونَ إِلَى فَطَنَ حَمَّلَةً ، وأَذْهَانَ صَدَّئَةً ، لا مَنْفُذُ لَمَا في شعاع الرقة ، ولا مدب لها ني أنوار "بيان ، سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد النماني من الرقص على الإيقاع ، والزمرعلي الألحان ، فهم يصرفون غرائبها فيما مجرى عندهم تصريف من لم يرزق آلة الفهم · ومن لم نكن له آلة الصناعة » . ويكتب أبياناً ينافس بها الشعراء المشارقة ؛ ويو كد أن الأدب الجيد يعتمد على الموهبة . قبل أن يقوم على معة الثقافة ، أومراعاة قواعد النحو . وأن ﴿ أُولُ أَدُواتُ الْكَاتِبِ الْعَقْلُ ، ولا يكون الكاتب غبر عاقل » . ويعني بالعقل الذكاء في لغتنا المعاصرة . والأدب هبة من الله أ، لا يعلمه أستاذ ، ولا يلتقط من كتاب ، والشاعر يولدولايصنع . وشر الفن ما كان وسطا . « لايحسن فيطرب . ولا يسيء فيلهي ﴾ . وهي قاعدة جريئة في الأدب العربي ، ونيس دونها جرأة في تلك الأيام ما رآه . من أن « لكل عصربيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم نوع من الخطاب ، وضرب من البلاغة . لا يوافقها غيره ، ولا تَهِشْ لسواه ».

وتوفى ابن شهيد . عام ٤٢٦ ه = ١٠٣٥ م ، إثر داء عضال ، عانى مرارته زمنا ، وتحمل عناءه صابرا ، وخانه ابن حزم فى رئاستها ، وكان له دائماً صديقاً وفياً و مخلصا ، فسار على النهج نفسه ، واحترم تقاليد الجماعة وأسلومها .

و أزمة اللافة:

قبل أن تعطى هذه المدرسة الأدبية تمارها ، أو إذا شئنا الدقة قبل أن يخط ابن حزم أى كتاب مهم إه ، إذااستئنينا المقطعات الشعرية وبعض الرسائل الأدبية ، وقبل أن يتولى أية وظيفة سياسية فى مستوى تكوينه وطبقته الاجماعية ، تفجرت الحرب الأهلية فى قرطبة ، وعكرت بعنف صفو الحياة المصقولة ، والهادئة ، لهو لا ء الشبان القرطبيين من عشاق الفن والجمال ، وسوف أدرم هذه « الفتنة » وما كان لها من نتائج بالغة السوء فى فصل خاص ، ويكفى أن أشير هنا لماما ، وفى إنجاز شديد إلى ما أحدثته فى أمرة ابن حزم ، وفى حياته نفسه ، ليبقى خيط الأحداث متصلا .

لقد توفى العامرى الثانى ، الحاجب عبد الملك المظفر ، فى ١٦ من صفر هم ٩٩ هـ ٢٠٠ من أكتوبر ١٠٠٨م ، فونى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وكان مجرداً من المواهب ، فاغتيل فى قرطبة بعد شهور من آتوليه الحجابة ، فى ٣ من رجب ١٩٩٩ه = ٣ من مارس ١٠٠٩م، وعسزل هشام الثانى عن الحلافة ، وبويع بها محمد المهدى، وأعفى أحمد بن سعيد من مناصبه ، وترك « منية المغيرة » حى كبار موظفى البلاط، قرب ربض الزاهرة ، وقد أتى عليه الثاثرون هدماً وتحريبا ، وعاد إلى سكنهم القديم فى بلاط مغيث ، ليواصل الحياة هادئا ، وبعيداً عن صخب السياسة ، واستطاع أن محتفظ ببعض مائه من هيبة ، وسئلتنى به فى العام نفسه ، فى ٢٧ من شعبان ١٩٩٩ هـ ٢٦ من أبريل ١٠٠٩ م يشهد المسرحية الرائعة المحزنة ، لدفن هشام الثانى ، المزيف طبعا! وكان معه ابنه على صاحبنا ، وترك لنا وصفاً صادقاً ومؤثراً لماحدث ، يقول في سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله : « وقد شاهدنا نحن مثل ذاك ، وذلك أننا اندر أنا للجبل ، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ، فوأيت وذلك أننا اندر أنا للجبل ، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ، فوأيت من حكام المسلمين ، ومن عدول القضاة ، في بيت ، وخارج البيت أبي

رحمه الله، وجماعة عظماء البلد، ئم صلبنا فى ألوف من الناس عليه ، ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السعة حتى ظهر حيا ، وبويع بعد ذلك بالحلافة ، ودخلت عليه أنا وغيرى ، وجلست بين يديه ، ورأيته ، وبقى ثلاثة أعوام غيراً شهرين وأيام » .

وفى ١٠ من ذى الحجة ٤٠٠ هـ ٣٣٠ من يولية ١٠١٠ م، اغتيل المهدى بعد خلافته الثانية، وبويع ثانية هشام الثانى , بعد أن قيل لنناس أنه مات ودفن، وبعد أن شهدوا جنازته وصلوا عليه !، وكان الظن أن يعود بنو حزم إلى سابق عهدهم، ومكانهم القديمة ، غير أن الأمور سارت على النقيض . لأن لعبة السياسة المعقدة . والموقف الحدر الذي سار عليه أحمد بن سعيد ، حتى فلك الحين ، جعله يصطدم مع القائد الصقلبي واضح : محسوب الخليفة ، فلاحقه وسجنه وصادر أمو اله . وحينئذ رأت الأسرة ، وقد تمزقت بقايا لعامريين و أن لها الحق ، مع غيرها ، في أن تغضبوأن تقاوم ، فاشتركت في عمل لمناهضة الصقالبة ، ولكن المؤامرة فشلت ، وجلبت على أحمد بن سعيد مصائب كبرة .

ومع هذه الفنن اجتاح الطاعون قرطبة ، وعاث فيها ، وفقد أحمد ابنه أبا بكرضحية له ، فى شهر ذى القعدة عام ٤٠١ه ه = يونية ١٠١١م ، وبعد عام كامل توفى أحمد نفسه صريع هذه الأحداث ، فى ٢٨ من ذى القعدة عام كامل توفى أحمد نفسه صريع هذه الأحداث ، فى ٢٨ من ذى القعدة و٠٤ من يونية ١٠١٢م ، وبعلى صاحبنا ١٨ عاما لما تكمل ، وكان عليه وهوفي هذه السن الطرية ، وفي عنفوان تعاسة أسرته ، أن يواجه الموقف ، وأن يدير دفة الأحداث .

و بقيت كوارث أخرى أشاء هولا ، فنمى نهاية شهر شوال ٤٠٣ هـ مايو ١٠١٣ م ، استسلمت عاصمة الخلافة للبربر ، و دخانها سليمان المستعين . خليفة للمرة الثانية ، وليبقى شهرين فحسب ، ومعه نهبت قرطبة فى قسوة ، وانه كت الحرم ، وعمت الاغتيالات والمذابح ، واجتاح النامير ، بلا حساب ، كل الأحياء ، وأتى البربرعلى بيت ابن حزم فى بلاط مغيث كاملا ، على نحو كل الأحياء ، وأتى البربرعلى بيت ابن حزم فى بلاط مغيث كاملا ، على نحو

ما قص علينا فى صفحة من النثر الجميل ، فى كتابه ﴿ طوق الحمامة ﴾ ، وكان على ابن حزم أن ياجر إلى المرية فى ١ من محرم سنة ٤٠٤ هـ = ١٣ من يولية سنة ١٠١٣ م ؟

• منفی و متآمر :

في وسط هذه الدوامة من الفوضي والتمزق ، كان يحكم المرية خيران ، صقلبي من فتيان العامريين. ووم لمها ابن حزم رفقة صديقه أبي بكر محمد ابن إسحاق ، و أمضيا في البدء أياماً هادئة ، بعيدين عن القلاقل ، فالمدينة أموية الولاء ، لما تزل – اسمياً – تحت سيادة الخليفة ، وأصبحت قبلة العامريين والأمويين الفارين من قرطبة . وأمضى فيها ابن حزم أعواماً ثلاثة لم يتوقف عن تحصيل المعرفة ، وعن تكوين صداقات جديدة ، ففيها كما يحدثنا في « الطوق » اتصل بطبيب يهودى ، يدعى اسماعيل بن يونس ، يعردد على دكانه ، ويجلس إليه في لمة من الأصحاب ، ولسوء الحظ فإن معلوماتنا عن هذا الطبيب معدومة ، لا نعرف عنه شيئا إلا إشارة ابن حزم هذه .

ولكن خيران ما لبث أن رأى مستقبله السياسي فى أن يتخلى عن الولاء لبنى أمية ، وأن يوازر على بن حمود الإدريسي فى الاستيلاء على قرطبة ، فلمخلها فى زفة فى ٢٢ من محرم ٤٠٧ هـ = ١ من يولية ١٠١٦ م . وأصبحت المرية مدينة عاوية لا أموية ، وبربرية لا صقلبية ، ولم يعد خيران ينظر بعين الرضا إلى هذين الشابين الرفيقين المثقفين ، يؤمنان محق بنى أمية فى الخلافة ، الرضا إلى هذين الشرعية ، وتمكينا لهيبة الدولة ، ولا يقبلان هذا مساومة ، فاعتقلهما بهمة التآمر ، وهى تهمة ربما كانت محتملة ، ولو أن ابن حزم أنكر ها على أية حال ، وما لبث أن نفاهما .

ومنفيان فى حصن القصر Aznalcazar ، قرية توجد فى مقاطعة مالقة ، أو مرسية ، غير التى تحمل الاسم نفسه الآن قريبا من سان لوكر San Lucar أو مرسية ، غير التى تحمل الاسم نفسه الآنوي يطالب بالحلافة ، فى أرض بلنسية سمعا من يتحدث عن ثورة قام بها أموى يطالب بالحلافة ، فى أرض بلنسية

شر الأندلس، وأنه أعد جيشاً سوف يزحف به على قرطبة لملاقاة بنى حمود، ليجمع الشمل، ويعيد الخلافة، ويوحد الدولة، فلم يتردد العظة، ابن حزم وصاحبه أبو إسحاق، وكانا في ديعة الشباب، من التوجه شرقا إلى بنسية في أول سفينة بجدان مها مكانا

كان المطالب بالحلافة في هذه المرذ شاباً من أحفاد عبدالرحمن الناصر، يدعى عبد الرحمن بن مجمله بن عبد الملث ، اكتشفه وحرضه على الثورة خيران الصقابي صاحب المرية ، بعد أن نسى أمسه وغير جلده ، وأصبح رسوله إلى منادر التجيبي صاحب سرتسطة ، والذي وقف إلى جانبه ، وزاد فطلب له النون من حليفة كونت برشلونة . وفي ١٠ من ذي الحجة وزاد فطلب له النون من حليفة كونت برشلونة . وفي ١٠ من ذي الحجة عبد الرحمن بالحلافة ، وتلقب بالمرتضى . ولم تستطع قرطبة وقد طاله بها الشوق إلى أمجاد الأمس الزاهر ، ونفد صبرها في انتظار من يطالب بالخلافة ، أن تتحمل المزيد من المعاناة والألم ، فاغتالت على بن حمود في الخلافة ، أن تتحمل المزيد من المعاناة والألم ، فاغتالت على بن حمود في أخره القاسم .

وبينها قرطبة تطوى الضاوع على ثورة صاء ، وكر اهية غير مكتومة لبنى حسود تحرك المرتضى نحوها على رأس بيشه . عن طريق جيان ، وكان ابن حزم ، فيما يرجح ، ضمن هذا الجيش ، وكانت عاصمة الحلافة مهيأة لاستقبال الحليفة ، وكل الظروف تجعل من النصر أملا ممكن التحقيق ، لولا حيانة حيران ومنذر في اللحظة الحاسمة . لقد ظن كلاهما، في البدء ، أن المرتضى سوف يكون مجرد لعبة في أيديهما ، ظلا يحكمان من ورائه ، فلما وجداه ذا شخصية قوية . قادرة على أتخاذ القرار المناسب في اللحظة المناسبة أضمرا له الغدر ، ومن دوقعهما مستشارين وحليفين قدما له نصيحة قاتلة : من الأفضل له ، قبل أن يتقدم إلى العاصمة ، أن يقضى على بني زيرى ، من بربر صنهاجة ؛ وقد استقروا في كورة أن يقضى على بني زيرى ، من بربر صنهاجة ؛ وقد استقروا في كورة

البيرة ، واتخذوا من غرناطة عاصمة لهم ، وكان على رأسهم حينتذ الأفريقي العجوز الداهية ، زاوى بن زيرى ، الذى لم بهزم أبداً ، والذى اضطر بعد قليل ، وفى قمة مجده ، أن يتنازل عن رياسته ، وأن يعود الما افريقية ليموت هناك مسموماً . وقد التقى الجيشان . وتحدثنا مصادر كثيرة عن نتيجة المعركة ، دون أن يقدم لنا أى منها تاريخاً لها ، محدداً ودقيقا .

لقد هجم البربر بشراسة على جيش المرتضى ، وفى اللحظة الحاسمة تخلى عنه خيران ومنذر ، فتمزق جيشه شر ممزق ، وهرب المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وفيها اغتالته عصابة مأجورة من المرية ، على حين توزع القتل والهرب و الأسر جيشه ، وكان ابن حزم من بين الأسرى ، وطبقاً لما يذكره فى كتابه «الطوق» ، كان أثناء الأحداث قد تسلل إلى قرطبة إسرا ، فى شوال من عام ٩٠٤ ه = فبراير من عام ١٠١٩م للقيام باستطلاع الموقف السياسى ، وجس نبض المدينة على التأكيد :

وبعد أن أفلت ابن حزم من الأسر البربرى انسحب إلى شاطبة ، نفس المكان الذى تحرك منه جيش المرتضى التعيس فى ساعة نحس ، وفى شاطبة ، بين على ٤١٧ و ٤١٣ = ١٠٢٢ م ، فيما يحتمل ، حرر كتابه «طوق الحمامة » ، وله من العمر ٢٨ سنة ، استجابة لرغبة صديق له من المرية ، كتب إليه يقترح عليه أن يصنف له رسالة فى الحب ، ثم جاءه فما بعد شخصاً إلى شاطبة لبراه ، ونزل معه فى داره مدة إقامته بها .

• بریق انتصار:

لم تطل فترة خلافة بنى حمود فى قرطبة ، وكانت أشبه بجملة بن قوسين فى تاريخ الحلافة الطويل ، على حد تعبير غرسية غومث ، فقد ضعف أمر القاسم بن حمود ، واضطرب الحبل فى ياه ، وتسلط عليه البرابرة حتى احتقروه ، وأراد هو أن يخلص من سلطانهم فأحل السودافي مكانهم ، واتخذ منهم جنده ، وأخذ يضرب أولئك بهؤلاء ،

فتآمر البربر عليه ، بمعارنة يحيى وإدريس ابن أخيه ، فترك قرطبة ، وهرب إلى إشبيلية عام ٤١٧ هـ = ١٠٢٧ م . وتولى الحلافة مكانه يحيى اللهى انصرف عنه السودان والبربر جميعاً ، فآثر السلامة ، وترك قرطبة كما تركها عمه من قبل ، في ٢١ من جمادى الآخرة سنة ٤١٣ هـ ٥ من سبتمبر عام ١٠٢٣ م . وبينما غن تطوق قرطبة من كل جانب ، بدأت تحاول شيئاً بناء إلى أقصى حا ، وجديداً لم تألفه العاصمة من قبل، بدأت تحاول شيئاً بناء إلى أقصى حا ، وجديداً لم تألفه العاصمة من قبل، إذا لم نقل ثورياً في عالم السياسة المنسطرب: أن ينتخب الشعب الخليفة في المسجد الجامع ، طبقاً الأسمى قواعد الشريعة الإسلامية وأدقها ، أن المسجد الجامع ، طبقاً الأورثاً ، ولا معيناً من سابقه ، ولا مفروضاً بقوة السلاح . وهو تقليد يحدث للمرة الأولى منذ قيام دولة بني أمية في الأندلس .

لم تكن سلطة الحلافة الفعلية في هذه اللحظة تتجاوز أحواز المدينة ، وماذا يهم . . . ألم يحدث شيء شبيه بهذا ، حين انحصر سلطان العاصمة في عصر الأمير عبد الله ، وتحمل الفرطبيون المهانة ، في انتظار أيام مجيدة ، بحملت من قرطبة مصمر القوة والحلال والثقافة ، على أيام عبد الرحمن الناصر ، والحكم الثاني ، والمنصور بن أبي عامر ؟ . إن الأمل آخر شيء مكن أن يفقده الإنسان العظم .

وقع الاختيار على واحد من بين الأمراء الأمويين الثلاثة : سليمان بن المرتضى وقع الاختيار على واحد من بين الأمراء الأمويين الثلاثة : سليمان بن المرتضى و عبد الرحمن بن هشام ، وعلى بن محمد العراقى ، ولم يكن أحد بدءا يفكر فيه على الإطلاق ، اختار وا عب الرحمن بن هشام ، خامس الخلفاء الذين حملوا هذا الاسم ؛ وتلقب بالمستظهر . وكان الخليفة الجديد على حداثة سنه ؛ كما يصفه ابن حيان : « لبقاً ذكيا ؛ يقطاً لو ذعيا ؛ لبيبلا أديبا؛ حسن الكلام ؛ جيد القريحة ؛ مليح العبارة ؛ يتصرف فيا شاءه من الخطابة ؛ بايمة وروية ؛ ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة ، لم يكن في بيته يومئذ

أبرع منه منزلة ، وكان قد نقاته الخاوف ، وتقاذفت بهالأسفار ، فتحنك وتخرج وتمرن فيها ، .

كان المستظهر يطمح أن يعيد إلى ألحلاقة بهاءها ، وإلى قرطبة أمجادها ، فأحاط نفسه مخيرة الأدباء على أيامه ، وجلهم ينتمون إلى جماعة المنقفين الذين أشرنا إليهم من قبل . فكان بينهم ابن حزم ، وابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب ، وأبو عامر بن شهيد ، والشاعر البارع حسان بن مالك ، والكاتب الرائع ابن برد . ولكن هذا الاتجاه أحقد عليه الشيوخ ، وعتر في السياسة ، والمنتفعين بالمصائب ، فضوا يألبون عليه العامة ، ويثيرون الفنن والدسائس بين الحاصة ، ويبيعون الأحلام للطامعين ، فلم يستطع أن يبقى في الحكم أكثر من شهر و تصف ، فقد أعدم في ٣ من ذي القعدة سنة ١٤ ه هن المعجن عن يناير عام ١٠٢٤ م ، وبذهاب الحليفة استقر ابن عزم في السجن من جديد .

• خيبة أمل ، وتغيير الطريق :

في هذه اللحظة أشرق ذكاء ابن حزم وضيئا ، ليقنعه بأن العالم السياسي الذي ينتمي إليه ، و نا ضلمن أجله ، انهي تماماً ، مات و لا سبيل إلى بعثه ، و قدا حتاجت قرطبة إلى سبعة أعوام كاملة بعده لتقتنع بالنتيجة نفسها . وعنده اخرج من السجن ، و الإحساس بالحيبة عملاً داخله ، قرر أن يتخلى بطريقة نهائية وحاسمة عن ممارسة السياسة ، فنبذ الوزارة واطرحها اختياراً ، وأقبل على قراءة العلوم ، و تقييد الآثار ، من شريعة و فلسفة و توحيد و تاريخ ، و ظل موصول السبب بها حتى في أحلك لحظات حياته ، رجل دولة أو مغامراً أو لاجئا ، « و نال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس » ، والشيء الوحيد الذي لم يتخل عنه ، وما كان بوسعه أن يفعل لأنه محمله في دمه ، هو روح المخالفة والأصالة و الجرأة ، ورافقت حياته دائماً . لم يستطع أن يكون تقليدياً مالكي المذهب ، ورأى كبار علمائه مرات كثعرة ، كما هو شأن كبار الفقهاء ورجال الدين عادة ، وفي كل مكان إلا ما ندر ، يتحالفون م السلطان ، ويلتقون مع كبار عادة ، وفي كل مكان إلا ما ندر ، يتحالفون م السلطان ، ويلتقون مع كبار

الموظفين ، ويغيرون مواقفهم على النحو الذى يرضى الحكام ، فأصبح المذهب المالكي يفضلهم هو السائد في قرطبة ، تعليما وشعائر وفنوى . وحوم حول المذهب الشافعي قليلا ، وأقام عبيه زمنا ، ورآه أكثر توفيقاً وتعادلا ، وغم قلة أتباعه ، ومناهضة الدولة لأوليائه ، ثم انصرف عنه ، فقد وجده يلفظ أنفاسه ، وانتهى به المطاف فقيهاً ظاهرياً ، قبل عام ١٩٤٩ ه = ١٠٢٩ ، وصلات وكانت له من قبل صلات بالمذهب ، ورفقة مع السائرين على دربه ، وصلات أدبية ، على الأقل ، مع علمائه .

أوفى مسجه قرطبة الجامع ، إلى جوار أستاذه الظاهرى ، أبى الحيار مسعود بن سليان بن مفلت الشنريني، أخذا يدرسان أصول المذهب الظاهرى ، مع آخر أيام الحلافة ، وقد أصبحت هذه شكار مهلهلا ، حوالى أعيام مع آخر أيام الحلافة ، وقد أصبحت هذه شكار مهلهلا ، حوالى أعيام من ورائهم ، الاستاذين الجليلين بأنهما خطر على العقيادة ، ويفسدان من ورائهم ، الاستاذين الجليلين بأنهما خطر على العقيادة ، ويفسدان تدين الشعب ، فاستشار صاحب المدينة فى أمرهما هشاما الثالث ، آخر خليفة أموى ، ورعاقبل أن يدخل المدينة ليمارس سلطانه : وتقرر منعهمامن تدريس المذهب الظاهرى. ومن تلك اللحظة أصبح ابر حزم عالماً ثائراً ، غير مرغوب فيه ، يواجه وحيدا التخاف والتقليد والجمود ، وتزييف نصوص الشريعة فيه ، يواجه وحيدا التخاف والتقليد والجمود ، وفاسفة مستقيمة ، ولم تفتر خيته أبدا ، رغم كل المصاعب الجمة التى تعرض لها . ومع هذه المرحلة الجديدة مي حياته فيها .

• جهد ثقافي عملا ق :

حتى ولو أخذنافى الاعتبار أنه عمر نسبيه ، فإنه اقام به فى حقل الدر اسات الإسلامية كان فرداً وعملا قا ومتميزا ، ويقول عبد الراحد المراكشى ، فى كتابه « المعجب فى أخبار المغرب، وألفه فى ظل الموحدين وهم ، يناهضون المالكية ، فجاءت أخباره بعيدة عى التعصب، قريبة إلى الواقع ، إن ابن حزم

كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا ، وإنه وصنف في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل ، وغير ذلك من التاريخ وكتب الأدب، والرد على المخالفين له ، محوا من أربعائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله ، إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى » ، وبعض هذه المحالات كما نعرف رسائل صغيرة ، ولو أن ذلك لا يقلل من جهد المولف ؛ ولا من قيمة الرسالة . ومحال أن نقف في هذه العجالة عند هذه المؤلفات محللن ؛ ونحيل الراغبين في هذا إلى الدراسة القيمة التي قام مها ميجيل أسين بلاثيوس لهذه المؤلفات ؛ في كتابه العظيم عن و ابن حزم القرطبي » ؛ وقد نقلناه إلى اللغة العربية ؛ وسوف يصدر عن قريب . ولقد أرى ؛ ويرى غيرى معى ؛ أن الأمر رغم ذلك محتاج ؛ على المدى البعيد ؛ الى جهد آخر متأن ؛ في ضوء ما عثر عليه من مخطوطات جديدة ؛ وما نشر اله أخبراً من تراث .

يكفى أن نقفها عند كتابه «طوق الحمامة »، وسنعرض له تفصيلا فيا بعد ، وأن نشير مربين أعماله إلى مؤلفاته ذات الأهمية القصوى في الفكر الإنساني ، على امتداد كل العصور ، ولم تذهب به الأحداث . ويأتى في مقدمها كتابه المسمى « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » ، وقد أجمل أسين بلاثيوسوصفه بقو له: «إنه أشبه بيوميات دون فيها ابي حزم ملاحظاته ، أو اعترافات تتصل بحياته ، وتأتى الملاحظات في ثنايا الكتاب دون ترتيب يقصد به إلى التربية والتعليم ، ولم يراع في تنسيةها منطقا . وغي إذ نقروه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ ، دقيق الملاحظة ، أثناء تجاربه الواسعة ، وصاغها في قالب مبادئ عامة وحكم ، وأعظم قيمة له الكتاب، وألفه ابن حزم وقد اعتزل الناس في قريته منت لشم ، وصدر عن نفس يشوبها التشاوم والنصوف، أنه يقدم لنا صورة حقيقية وحية لنفسية مسلمي الأندلس في القرن الحادي عشر ، وقواعد الأخلاق التي كانت مرعية في محتمعهم ، إلى جانب الفقرات التي تتصل محياة ابن حزم نفسه » .

ثم كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، و هو تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب ؛ غنى بمادته وأفكاره ، و حاول فيه ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة ، فسبق ابن رشد فى ذلك بقرن من الزمان ، ويعرض لشى مناهب الفكر البشرى فى موضوع الدين ، من الإلحاد المطابق الايؤمن أصحابه بشى ، إلى إيمان العوام يصدقون كر شى . ويرى أن خر العتيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين العقل والنقل ، مما يطابق تمام المطابقة المذهب الظاهرى الذى كان هو نفسه عيه .

وخلف لذا ابن حزم مادة طيبة في التاريخ ، يهمنا أن نشير من بينها خاصة إلى كتب البحميرة أنساب العرب الهوب الهوسالاسالاس قائمة بانساب العرب في المشرق والأندلس في المغرب الإسلامي ، ولمن بالرسون تاريخ الإسلام في المشرق والأندلس وكتاب القط العروس الا ، وهو رسالة موجزة عن تاريخ الحلفاء والحكام في المشرق والأنداس ، وفيا يبدوكان نقاطاً وضعها ابن حزم لينشئ حولها كناباً مطولا. وله رسالة في الهين فضل الأندلس وذكر علمائه الا ، وجاء المقرى بنصها كاملا في الفيح الطبب الا ، وحورها ابن حزم رداً على رسالة تلقاها ابن عمه ، أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم وأول محاولة الإشادة من أديب الأولى أن تاريخ الأدب الأندلسي ، وأول محاولة الإشادة وربما كانت الأولى أن تاريخ الأدب الأندلسي ، وأول محاولة الإشادة بأمجاده ، ورغم قصر ما جاءت شامة بما ألف الأندلسيون في صنوف الآداب والعلوم .

ولابن حزم مؤلفات أخرى ، فلسفية وفقهية أو في علم الكلام ؟ أو التاريخ ، أو الأدب الخالص، وأحيل النارئ بشأنها إلىالكناب الذي أشرت إليه في بداية الكلاء.

• في مواجهة للمواصف:

أنجز ابن حزم هذا السمل العملاق وهو يواجه أعنى العواصف والأعاصير ، هدفاً ذكل أوان الحقد والكر اهبة والتآمر؟ اضطهده صغار ملوك الساو الف،

وكلهم صغار، وأنهمه رجال الدين بالمروق، فلم تلنله عريكة، ولاوهن منه عزم، وبقى وحده، ومعه قلة مؤمنة صابرة من أصحابه وتلاميذه، يواجهون المحنة في صلابة؛ جباههم عالية، وقاماتهم مرتفعة، محركون الأفكار الجامدة، وينبرون العقول المظلمة، ويهزون مسلمات كثيرة متخلفة؛ ومن هنا فإن الجانب الأكبر من مؤلفاته الفقهية والعقائدية، وللاكلاما يقال، جدلا عنيفا مع خصومه، وإدانة صريحة لهم، وكانوا يتمتعون برهاية الدولة وحماية،

كانابن حزم مجادلالا يكل ، جاد الكلمة ، عنيف المناظرة ، واحفط جانب كبير من إبداعه بحرارة الحواروحدنه ، وكان في حيويته هذه ، في القرن الحادي عشر ، «مدرسية Scolastique» حية ومتوهجة ، تفوق ومدرسية المسيحيين في أوربا ، وقد أفر غوا الحوار من محتواه ، ودفعوا به جملا باردة ، لاروح فيها ، مماحكة خواء ، ورغم أنها بداية من عصرها الثاني ، مع الدم الجديد الذي تدفق إليها من الفلسفة الإسلامية عبر الأندلس ، ومع تومام الأكويني ، شهدت فترة ازدهار وحياة ، إلا أنها كانت بهم المعلماء وحدهم ، وقليلا ما تتجاوز آثارها قاعة البحث ، أما في قر طبة القرن الحادي عشر ، فكانت بم الجمهور كاه ، ويتابع صداها شغوفاً . لقد تميزت المحادي عشر ، والبساطة ، ومشاركة عامة الناس على نحو ما .

لقدعاين ابن حزم من ألوان الظلم ما أنضب في أعماقه معين الرقة واللين، وشاهد من مساءات السياسة ما نفره منها ، وأوذى في نفسه وكر امته ، فاعتزل الدنيا محاصراً ووحيدا ، قريته منت لشم ، من بادية ولبة ، يواصل رسالته بنفس القوة التي بدأ بها حياته ، شاباً واعداً ومناضلا عنيدا ، ويبث علمه فيمن ينتابه بباديته تلك ، من عامة المقتبسين منه ، ومن أصاغر المطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، محدثهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ؛ والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى

كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير • لم يعد أكثرها عتبةبابه ، لنزهيد الفقهاء طلاب العلم فيها ؛ حتى أحرق بعضها بإشبيلية ، ومزقت علانية ، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة فى نشرها ، وجدالا للمعاند فيها ، إلى أن مضى لسبيله .

فى رسالة ابن حزم لا فضائل أهل لأنداس " فقرة ، كأنما عنى بها نفسه ، رغم أنه كتب الرسالة فى زمن مبكر نسبه ، ولا يستطبع الدارس لحياته أن يمر بها دون أن يقف عنادها . يقول : « أزها الناس فى عالم أهله ، وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : «لايفقدالنبى حرمته إلا فى بلاه ». . ولا سيا أندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتى به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما فى سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ، ومنتحل مدع . وإن توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط . وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمان قرأ ؟ ولأمه الهبل ! .

ووبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحدطرية بن ، إما شفو فا بائناً يعليه على نظرائه ، أو سلوكا في غير السبيل التي عهدوها ، فهناك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ومها للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل مالم يقل ، وطوق ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ، ولا اعتقده قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرز ، إن لم يتعلق من السلطان محظ ، أن يسلم من المتالف، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف عمز ولمز ، وتعرض وهمز، واشتط عليه ، وعظم يسبر خطبه ، واستشنع هن سقطه ، وذهبت محاسنه، وسترت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتنكسر لذاك همته ، وتكل فسترت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتنكسر لذاك همته ، وتكل بعمل رياسة ، فإنه لايفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب بعمل رياسة ، فإنه لايفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب

﴿ إِلَّا النَّاهِضِ الفَائِتُ ، والمُطفِّفِ المُستولَى عَلَى الْأُمَّدِ ﴾ ﴿

محافظون ومجددون :

هذا الموقف من رجل كان أستاذ نفسه ، حاد الذكاء ، موسوعي الثقافة ، صلب العزيمة بلا حدود ، عنيف المواجهة دون مثال ، لعب دوراً هاما في تطوير الفكر الأندلسي ، وزعزعة المسلمات الأساسية للثقافة السائدة ، والرسمية في الوقت ذاته ، لقد احتضن الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، لونين من الثقافة ، يسير ان في خطين متوازين دون أن يلتقبا : المحافظون وهم الكثرة الغالبة ، والمتحررون . وكان المحافظون وأعنى بهم علماء المذهب المالكي السائد في الأندلس ، وقفوا بنشاطهم الثقافي عند حد التشريع العملي ، لا يتجاوزونه إلى مشاكل الثقافة المتصلة الثقافي عند حد التشريع العملي ، لا يتجاوزونه إلى مشاكل الثقافة المتصلة في مسائل الدين بأنه زندقة . وكان الاتجاه الثاني يتحرك بين قلة مثقفة ، بالعقيدة نفسها ، والهموا كل من يتكلم في المنطق بالزيغ ، وكل تفكير عقلي ولكنها لا تطمح ، ولا ترى لها مصلحة ، في مواجهة المحافظين أو الدخول معهم في خصام ، وارتضت لنفسها أن تقف منهم ساخرة ومتجاهلة ، معهم في خصام ، وارتضت لنفسها أن تقف منهم ساخرة ومتجاهلة ، وقد ظل المالكية حتى القرن السادس الهجرى يقاومون الأشعرية ،

ولكنهم تركوا الأرسطوطالية تتحرك في حرية ، وقد وصلنا كتاب وتقويم الذهن الأرسطوطالية تتحرك في حرية ، وقد وصلنا كتاب وتقويم الذهن الأبي الصلت الداني ، أمية بن عبد العزيز ، المتسوفي عام ٢٨٥ ه = ١١٣٤ م ، وهو رسالة في المنطق ، توجز آراء أرسطو . وكان ابن حزم علماً فردا ، واتجاهاً متميزا ، ولم يكن مالكياً ولا أشعريا ، ولا زاهداً ولا أرسطو طاليسيا ، بل واتهمه ابن حيان بأنه لم يفهم أرسطو ، ومحدود الأتباع كظاهرى ، يبذل جهداً فائتي النظير ، لكى يقيم جسراً بين العقيدة والمنطق .

ومهما يكن من أمر ، فقد نضجت شخصية ابن حزم ، واستكمل عدته ، ومكنت له الأحداث من صقل مواهبه ، وزادته اعتداداً بنفسه ، فمضى فى طريقه ، يتمرد على التقاليد القائمة ، ويثور على الجمود الديني ، ويهاجهم

المذاهب المختلفة ، فقهية وكلامية ، مسلمين وغير مسلمين ، مهاجمة عنيفة متصلة ، كلما أتيحت له الفرصة ، بالمناظرة في المجالس ، وبتأليف الكتب والرسائل، واتسم جدله بقوة الحجة ، ونصاعة البيان ، وقوة الدليل ، ولك موقد ملك إلسانا ذربا ، مسلحا باللغة المواتية ، حتى قال عنه الصوفي الأندلسي ابن العريف : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان ، ، لا يقف عند البيان والبرهان والإقناع ، وإنما يحتد في أحايين كثيرة ، فيتجاوزها إلى التسفيه والتكفير والتفسيق . وهي حدة تعود في جنب منها إلى عصبية مزاجه ، واعتلال صحته طفلا ، ولا أراها مما يعاب عليه جملة ، فهي تأتي منه ، عالمها ، في موضعها ، وقولة الحق تحتاج دائماً من المؤمن مها إلى صوت مرتفع ، لتوقظ نائما ، وتذبه غافلا . يقول عن نفسه :

ولقد أصابتني علة شديدة ، ولدت على ربوا فى الطحال شديدا ، فولد ذلك على من الضجر ، وضيق الحلق ، وقلة الصبر والنزق ، أمرا حاسبت نفسى فيه ، إذ أنكرت تبدل خقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ، وصح عندى أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده » .

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وعاماء عصره ، وكان منه ما أسماه ابن حيان و أنه يجهل سياسة العلم ، وجعلها مصدر معظم أخطائه . ونحن نكتب عن حياة عظيم ، مرت عل وفاته أكثر من ألف عام ، وعاش في بيئة جد مختلفة ، يستحيل علينا أن نجزم ، أوحتى نرجح ، ما كان عليه أن يتبعه من سياسة في ملاقاة معاصريه .

مناظرات وملاحقه:

لا نعرف، كما أشرنا من قبل. شيئاً دقيقاً وموثقاً عن الأعوام الأخيرة من حياة ابن حزم. نعم، نعرف أنه أصبح مثقفاً عنيداً، أخا سفر، جواب آفاق، يتنقل بين دول الطوائف المختلفة. يحاور العلماء وبجادل الفقهاء، ويناظر أهل الكتاب، و عنف دائماً، كما هي عادته. صنع ذلك في قرطبة والمرية وطلبرة وميورقة، وربما في مدن أخرى لم يصلنا خبرها. وفي

ميورقة ، وجاءها لاجئاً بعد عام ١٠٣٩ هـ ١٠٣٩ م وجد الحماية والتقدير في شهخص عاملها الوزير الكاتب أبي العباس ، أحمد بن رشيق ، وكان مولى لبني شهيد ، وتأدب في قرطبة . ووجد أيضاً مزاحمة شديدة في شخص قرطبي آخر ، ثله ، أصغر منه سناً أبو الوليد الباجي ، من كبار فقهاء المالكية ، وكان قد رحل إلى المشرق ، ولبث في رحلته هذه ثلاثة عشرة عاماً ، لقى فيها كبار العلماء في الفقه والحديث وعلم الكلام ، « فبرع في الحديث وعلله ورجاله ، وفي الفقه وغوامضه وخلافه ، وفي الكلام ومضايقه» ، وكان إلى هذا ، كابن حزم ، أديباً يقول الشعر ، ويحسن تدبيج الكلام .

ولما عاد من رحلته وجد ابن حزم مجادلا ، وصاحب مذهب متميز ، تسد شهرته الآفق ، وخصومه من الفقهاء وغيرهم ضائقون به أشد الضيق ، وعاجزون عن ملاقاته أبلغ العجز ، ففرحوا بمقدم أبى الوليدالباجي لل ميورقة ، وأثاروه على ابن حزم ، رغم ما بين الرجلين من إعجاب متبادل و انعقدت بينهما المناظرات في الفقه ، و علم الكلام أيضاً ، وكان أبو الوليد مقدم الأشاعرة في الأنداس ، وابن حزم خصما لدوداً لهم ، وليس ثمة شك في أن ابن حزم وجد في مناظره لوناً جديداً من العلماء لم يعهده من قبل ، وسوف يعترف فيما بعد ، في رسالته عن و فضائل أهل الأندلس » : «لولم يكن وسوف يعترف فيما بعد ، في رسالته عن و فضائل أهل الأندلس » : «لولم يكن لأصحاب المذهب المالكي ، بعد عبد الوهاب ، إلا مثل أبي الوليدلكفاهم » .

لم يتوقف الذين عجزوا يوماً عن مواجهة ابن حزم في ساحة الجدل والمناظرة عن المكيد له ، والدس عليه ، عند سلطات الجزيرة ، فلم بجد بداً من تركها ، وما من أحد في ملوك الطوائف يرغب في أن يستضيف بأرضه عالماً مزعجا ، لابسبب آرائه الدينية فحسب ، وإنما لا تجاهاته السياسية أيضا ، فقد ظل ابن حزم متمسكا بشرعية الحلافة الأموية ، لم يتزحزح عن رأيه أبدا ، حتى عندما أصبحت نظرية مجردة ، لاصلة لها بالواقع ، ولامطمح أن تعود ، ولكنه لم يشارك في اللعبة السياسية المعقدة التي كانت تجرى على أيامه هذه ، ولم محتضن فكر أية جماعة معارضة ، وفي رسالته و التلخيص أيامه هذه ، ولم محتضن فكر أية جماعة معارضة ، وفي رسالته و التلخيص

لوجوه التخليص ، ، وجاءت رداً على سائل يطلب الرأى عنده في قضايا كثيرة . سوَّال عن الموقفالذي يجب على المرء أن يتبعه « منأمر هذه الفتنة ، و ملابسة الناص بها . مع ما ظهرمن تربص بعضهم ببعض ، كانت إجابة ابن حزم : ٥ ... فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر يالمعروف والنهى عن المنكر ، وذم جميعهم . فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه » . ولقد ذم ماوك الطواثف جميعهم في رسالته هذه ، وحمل عليهم في غير هوادة : «وعمدة ذلك أن كلمدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد ، والذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم . وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الحهة التي يقضون على أهلها . ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليمود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لاتبيح ما حرم الله ، .ونحن « نراهم يستعدون النصارى فيمكنونهم منحرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم » ، « وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا ، فأخاوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس . لعن الله جميعهم . وسلط عليهم سيفا من سيوفه ۽ .

ولم يرحم طائفة من الفقهاء على أيامه ، وعلى أيامنا أيضا ! . فتاواهم معدة ، وأقلا مهم مشرعة ، يدعمون بها الطغاة خوفا ، ويبررون لهم المظالم طمعا ، ويسبحون بحمد الحاكم ملقا ، ويشغلون عامة الناس عن الجاد من أمور الدنيا ، بغير العاجل من شئون الآخرة ، « فلا تغالطو أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم ».

وأقسى هجوم خص به ماكما من الطوائف، كان موجها ضد أمير غرناطة، باديس بن حبوس الذكي الدموى الداهية، رأس البربر، وخليفة

زاوى بن حبوس الذي قضي على محاولة المرتضى، على نحو ما أشرنا، وأخذ ابن حزم سجينا ، ذلك أن باديس حمع فساد بقية ملوك الطه اثف وزاد عليه بآن اتخذ وزيره الأول ، ومستشاره الأمن، من الهود ، ابن النغريلة الشهير الذي مكن لأبناء قومه من رقابالمسلمين ، فسيطروا بعون منه على الاقتصاد والإدارة ، ثم أخذته العزة بالإثم « فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل في القرآن اغتراراً بالله تعالى أولاً ، ثم علك ضعفة ثانياً ، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً ، ثم بأهل الرياسة في مجانة عوداً ي . وقد رد عليه ابن حزم قوياً وعنيفاً في رسالته: « الرد على ابن النغريلة الهودى» ، فنقض آراءه ، وفند حججه ، وبين مساوىء قومه ، وأراد لصوته أن يكون عالياً وقاسياً ليبلغ ملك غرناطة ، ودون أن يذكره بالاسم حمل عليه ناقداً ومهدداً ومستَهضا: «إنأملي لقوى ، وإن رجائى مستحكم ، فى أن يكون الله تعالى يسلط على من قرب اليهود وأدناهم ، وجعلهم بطانة وخاصة أن ما سلط على اليهود، ﴿ وهو يسمع كلام الله تعالى : « يا أيها الذين آمنو لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منتكم فإنه مهم » . « وإن من فعل ذلك لحرى أن يشاركهم فيما أوعد الله تعالى في توراتهم ﴿ فَ السفر الخامس ، إذ يقول لهم تعالى . « ستأتيكم ، "وستأتى عليكم ، دنه اللعنة التي أصف لكم ، فتكونون ملعونين في مدائنكم وفدادينكم، وتلعن أجدادكم وبقاياكم ، ويكون نسلكم ملعونا ، وتكون اللعنة على الداخل منكم والحارج» .

هل قنع ابن حزم بهجومه الفكرى ؟ .

فى كتاب « الذخيرة »لابن بسام ، فقرة مثيرة، نقلها عن المؤرخ القرطى العظيم ابن حيان ، جاءت خلال حديثه عن الهزيمة المربعة التي أوقعها باديس ابن حبوس ، أمير غرناطة ، بزهير الصقلبي أمير المرية ، وفيها أن باديس ظهر ، على قوم من وجوه رجال زهير ، فعجل على الفرسان والقواد بالقتل،

واشتمل الأسار على حملة الأقلام ، وفهم وزيره التياه أحمد بن عباس الجاو لهذه الحادثة ، قيد إلى باديس وصدره وصدور أصحابه تغلى عليه ، عما أوقد من هذه النائرة ، فأمر بحبسه ليستخرج منه مالاً ، وشفاؤه الولوغ دمه ، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حملة الأقلام ، عف بادبس عن دمائهم من بين أصحاب السيوف إلا من أصيب مهم فى الحرب ، وأطلق ابن حزم والباجى وغرهما ». ويرى غرسية غومث أن الإشارة هنا تنصرف إلى ابن حزم صاحبنا ، وقد ارتبط بالمرية دائماً ، ولعله أراد أن يثأر لأمره الأول فوقع فى الأصر الثانى ، وكان برفقة أبى الوليد الباجى ، مناظره اللدود والعنيد فى مناظرات ميورقة . بيها يرى الاستاذ الجليل ، الدكتورطه الحاجرى ، فى كتابه مناظرات ميورقة . بيها يرى الاستاذ الجليل ، الدكتورطه الحاجرى ، فى كتابه وابن حزم: صورة أندلسية ، وقد وقع على النص قبل أن تقع عليه عين المستشر ق الاسبانى ، والتفت إليه ، أنها تنصر ف إلى ألى المغيرة .

كان حداء اين حزم لباديس أمير غرناطة ، ورأس البربر في الأندلس ، عنيفاً وجاداً وله ما يبرره ، ولكنه لم يلق به ، وهو رجل مبدأ لا محيد عنه ، في أحضان الحزب المعارض لباديس، وهم بنو عباد في إشبيلية ، مع ما كانوا عليه من سخاء وترف بعامة ، ومع رجال الفكر بخاصة ، وكانوا ، محق ، قادة الجانب العربي في معركة النزاح بين الأجناس المختلفة ، وسادة المنطقة التي استقر فيها بيت آل حزم من قديم ، وجا الراهم وديارهم ، ورغم ذلك كله ، أدار لهم ابن حزم ظهره ، إنه صلب العقيدة ، طاهر السيرة ، يرى الحلافة شرعة ، وفي بي أمية شرعا ، لا يساوم ولا يتراجع ولا يتأول ، ولا يرتضى أنصاف الحلول وكان المتعضد أمير إشبيلية ، وحكم من ١٠٤٢ م ويخفر ولا يرتضى أنصاف الحلول وكان المتعضد أمير إشبيلية ، وحكم من ١٠٤٢ ولا بعيد ، ويدفر المناه أمير غرناطة ، دمويا قاسيا ، يأخذ بالظنة ، ويخفر ولا بعيد ، ولا بد أن رأى ابن حزم فيه كان كرأيه في باديس ، ونجهل التاريخ أو الظروف التي أمر فيها أمير إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم ، التاريخ أو الظروف التي أمر فيها أمير إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم ، والتقطها كل الذين أرخوا له :

دعوني من إحراق رق وكاغد

وقولوا بعلم کی یری الناس من یدری

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس ، بل هو فی صدری

بسبر معی حیث استقلت رکائی

وينزل إن أنزل ويدفن في قبرى

• هزعة دون كيشوته :

وحيداً ضد الجميع ، وضد كل شيء ، وأشد مرارة وتشاؤما من مواطنه كيشوته الإسباني ، بطل رواية مرفانتيس الشهيرة، وعاش على الأرض نفسها ، بعده نخمسة قرون ، وذهب كلاهما ضحية أحلامه ، وقد حدد لنا ابن حزم مُهجهُ في كتابه و الأخلاق والسر في مداواة النفوس ، : ﴿ لَا تَبِدُلُ نَفْسُكُ إلا فيها هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل ، وفي دعاء إلى حق ، وفي حماية الحرم ، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ، وفى نصر مظلوم ، وباذل نفسه فى عرض الدنيا كباثع الياقوت بالحصى» . و ﴿ إِنِّي لَا أَبِّالَىٰ فَيَّا أَعْتَقَدُهُ حَقًّا عَنْ مُخَالَفَةً مَنْ خَالَفَتُهُ ، وَلُو أَنْهُم جميع من على ظهر الأرض ، وإنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثعر من زيهم الذى قدتعودوه لغير معنى ، فهذه الحصلة عندى من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها » . لقد دافع عن الإسلام الحق بعنف ، عقيدة وسلوكا ومنهجاً في الحياة ، عما يومن به دون هوادة ، وفي كل مكان ، وأثار على أعدائه حرباً شعواء متصلة . دافع عن الإسلام في وطنهوبين أهله ، وبعيداً عنه خارج حدوده ، بالموعظة الناصحة ، والشروح الكاشفة ، والمواجهة الحاسمة عند الضرورة ، وحين نظم نقفور فوكاس إمبر اطور بيزنطة ، مزهواً بانتصاراته ، قصيدة ذم فيها الإسلام ، وبعثها إلى الحليفة المطيع فى بغداد ، تولى ابن حزم الرد عليه ، بقصيدة أبان فيها فضائل الإسلام ، وكشف عن تناقضات المسيحية ، وأرسلها إليه ، وأورد لنا السبكي نصها في كتابه «طبقات الشافعية».

وظل حى آخر رمق من حياته يدافع عن شرعية الحلافة الأموية فى الأندلس ، وقد اختفت إلى الأبد ، وشديد القناعة بأن وار الفتنة لايعقد ، وكان يحس بأنه لم يحلق لعصر الطوائف ، وظل يبشر بمذهبه الظاهرى وسط المتاعب والصعاب، و مواجهة الجميع ، ويقاوم نفوذ البود وسيطرهم على الاقتصاد والسياسة ، على نحو ما فعل مواطنه أبو إسحاق الإلبرى ، وكان شاعراً وفقيها ، ودفع بقصيدته الرائعة مسلمى غرناطة موطنه ، إلى الثورة على مظالم بهودها ، فانتقموامنهم ، وأتوا على نفوذهم ، فى يوم عاصف مربع .

وانتهى المطاف بابن حزم وحيدا ، فكراً وإحساساً ورفقة ، شبحا لعصر مضى ، وكان عليه أن ينسحب إلى ديارهم الأولى فى قرية منت لشم ، من وديان ولبة ، فى تاريخ نجهله لسوء الحظ، رفقة أولاده فحسب ، ولم يحدثنا عن أسرته القريبة أبدا ، فى كل ما كتب ، ومع عدد قليل للغاية من تلاميذه الأوفياء .

أية مشاعر حزينة كانت تغدره ، وه يعود إلى قريته فى الريف مهزوما ، مغلوباً على أمره ، قريته التى خرج منها جده قبل جيلين فقط ، مغمورا ينتسب فى أمرة اعتنقت الإسلام من قريب ، وصنع لها والده مجداً موثلا ، يومها كتب فى و الأخلاق والسير » : « أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل ، وهى تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدوأ خرى ولم يتوقف هناك عن العمل ، مضى فى قريته يؤلف كتبه ، وعرر رسائله ، ولو أنها على حد تعبر ابن حيان : و لا تتجاوز عتبة داره ، ، وهو سلسلة وأوضحها كتابه و الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ، وهو سلسلة من الاعترافات سجلها وله من العمر ٢٥ عاما شمسيا ، أو ٢٧ عاما قمريا ، وتوفى يرحمه الله فى ٢٨ من شعبان ٢٥٤ ه = ١٥ من يولية ٢٠٦٣ م :

کأنك بالزوار لی قد تناذروا فیارب محزون هناك وضاحك عفا الله عنی یوم أرحل ظاعنا

وأترك ما قد كنت مغتبطاً ابه وألقى الذى آنست دهرا عمرصد فواراحتى إن كنت لم أتزود

• إللا في النفيضين ﴿:

درج الباحثون على تقسيم حياة ابن حزم الأدبية إلى مرحلتن هما ، فيا يرىأسين بلاثيوس: و واحدة حيى الثلاثين من عمره ، والأخرى مهما حي موته ، وفي الأولى وقف حياته على الأدب والسياسة ، وفي الثانية ترك السياسة ليتفرغ لدراسة الشريعة والعقائد . وهي تفرقة يمكن أن تكون مقبولة كتبسيط نظرى فحسب ، لأن المرحلتين تعايشا واقعا ، على امتداد حياته ، ولهذا ألقينا على حياة ابن حزم كلها نظرة شاملة ، ودون ذلك ليس ثمة مجال لالتقاط نفسيته شابا ، ومعرفة الكثير من إشارات طوق الحمامة ، وإدراك عدد من فقراته يتوقف على الإلمام بها .

ويرى غرسية غومث، ودون أن أمضى معه إلى نهاية الطريق ، أن تلاقى الأضداد فى شخصية ابن حزم ، وازدواجية الصوت عنده ، وتجاور اللطف والحشونة، والرقة والعنف، والنبل والعامية ، دون أن ينوب أحدها فى الآخر ، بجعل منه شخصية محببة لنا (الضمير يعود على الإسبان)، لأنها تضعه إلى جوار عدد من قمم الأدب الإسباني فى عصره الذهبى، أولئك اللين يتجلى فيهم مزاج الشخصية الإيبرية واضحال، مثل الشاعر القرطبى جونجرة Gongora (١٩٦١ - ١٩٢١) ، والموسوعى كبيدو Quevedo ثرفانتيس مؤلف الرواية العالمية الحالدة دون كيخوته ، وأعطانا المثل رائعا، ثرفانتيس مؤلف الرواية العالمية الحالدة دون كيخوته ، وأعطانا المثل رائعا، ولا يتكرر ، كيف تلتقى متناقضات سلالتنا الجذرية فى تركيب إنسانى ومفهوم ، حلو وحزين ، وإلى ذلك ، وفى خط مواز له، يمكن أن نضيف الشموخ الإسبانى، وأعطانا ابن حزم خلاصته فى بيت شعرى ينضح خيلاء ، وفى مرات كثيرة اتخذت منه رمزا للإسلام الإسبانى :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب،

• ثائر على الدوام:

كان ابن حزم متمرداً وثائراً في شبيبته الأدبية ، وفي شيخوخته العلمية ، وحتى آخر رمق من حياته ، مع ظلال مختلفة . توائم كل فَنْرَة ، وقليلون سبقوه في أفكاره ؛ وأقلُّ أولئك الذين ساروا بعده على طريقه ، وحتى أبناوه أنفسهم كانوا عاديين؛، تخلصوا من انبر الأدب ، والتصقوا بعصرهم ،وأشهرهم الفضل أبو رافع ، وأصبح وزيراً لبني عباد في إشبيلية، وشاعرهم المداح ، وماأشد ما كرههم أبوه ! ،ومات في معركة الزلاقة لكي ينتصر المرابطو ن وهم أشد التصاقاً بالمذهب المالكي، وضيقاً في فهمه ، وانصياعاً لفقهائه ، وكانوا أشد الناس ملاحقة لأبيه . ولقد تبعه إلى قريته عدد قليل من الطلاب ، ولكن المدرسة الظاهرية ، وتحديد أسبن بلاثيوش لها في دراسته لابن حزم لا يعلى عليه ، ظلت موضع الملاحقة حتى في المغرب، ولم يبقلها غير حياتها الذاتية بالكاد . وأما الثناء النسبي الذي حظي به ابن حزم في عصر الموحدين ، والتقدير الذي حظي به من علماء عباقرة ، كالغزالي ، وابن عربي ، وابن رشد ، فيعود أكثره إلى ﴿ ظُرُوفَ سَلِّبَيِّهُ ۚ ﴾ كمعارضتهم ۖ لفقهاء المالكية ، أو إلى توافقات عقلية في المقام أ الأول ، أكثر مما تعود إلى تقبلهم لآراء ابن حزم ، وشق علم من بينها مناهضته العنبفة للأشعرية . والحق أن معظم الدارسين على أيامه ، وبعدها ، ﴿ حاول أن يرسل به إلى زوايا النسيان، لأنه اهاجم الجميع ، ولم يقف بهجومه عند المسلمين ، لقد هاجم ، وبعنف كالعادة ، الهود والمسيحيين ، واستطاع هوً لاء فيا بعد أن يردوا له الصاع صاعين ، حين مضى إلى ركاب الله ، وبدأ عصّر الترجمة في الأندلس المسيحي ، فلم يأخذ اسمه طريقه إلى أوربا فى تلك الفترة ، ولم يصبح فى قامة علماء كانوا دونه ، كابن رشد وموسى بن ميمون ، فخفت إسمه ، وتلاشت سيرته ، وظلت مؤلفاته تحت الأرض . لايعرفها إلا عدد قليل للغاية ، و ظل كذلك إلى أن اخترعت المطبعة العربية، وازدهر عصر الاستشراق ، وأفلتت الدراسات الأندلسية في إسبانيا من قبضة التعصب، واستردت القاهرة قيادتها الثقافية للعالم العربي ،

وإنه لمثير حقا، أن العداوة البالغة ، لهذه الشخصية العملاقة فى تاريخ الأدب الأندلسي ، أسهم فيها رجال الدين المتخلفون فى العالم الإسلامي المعاصر ، واضطلع بالجانب الأكبر منها العلم الأوربي ، واشترك فيها عدد غير قليل من الإسبان ، فظل اسم ابن حزم ، وعلمه ، موضع جدل كبر ونقاش حاد ، ولكن أحداً لم يستطع أن يشجبه أبداً ، وعلى الرغم من كل شيء تقاسمته ألقاب جليلة وكريمة : أحسن شاعر ، وأحسن فيلسوف ، وأحسن متكام ، يثق فيه علماء البلاغة ، ومجله وجال الأدب ، ومحترمه المثقة ون .

كان واحداًمن أعظم عمالقة الفكر الإنساني على امتداد تاريخه الطويل أ.

قدر لابن حزم أن يشهد غروب شمس الحلافة ، وأن يشهد مع غروبها ألواناً من الانهيار السياسي والحلقي ، ومن المظالم والجور ، ما لا مثيل له . وأن يعيش سنوات حملت من الحيانة والهوان والأحزان والأدران ، فوق ما حملته حياة المصريين قبل ومع هزيمة ه يونية من عام ١٩٦٧ . ولا يمكن فهم إبداعه وما ينضح به من مرارة ، ولا أسلوبه وما اتصف بد من حدة ، ولا مرى فلسفته واتجاه أعاثه ، ولا مثله العليا وطباعه ومزاجه ، إلا إذا أدركنا حقيقة تلك الأيام ، وكانت أقسى مما خط أي مؤرخ ، وأشد هو لا من تصوير أي خيال ، وهي أحداث دخلت التاريخ تحت امم : فتنة البربر أو البرابر ، وشغلت الربع الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ، وقد عرضنا لها من قبل إشارة وإجمالا عند در استنا لحياة ابن حزم ، ما اتصل منها بنشاطه السيامي ، وما أسهم فيه رأياً وتدبيراً وعملا. ونأتي الآن على هذه الأحداث ، من البدء وتفصيلا :

ورث عبد الرحمن الناصر عندما تولى الإمارة عام ٩١٧م دولة تخكمهاالفوضى والحروب الأهلية ، مزقتها الفتنة والفرقة ، موزعة بين عدد من الرؤساء ينتمون إلى مختلف العناصر ، فتخطى الصعاب و تغلب على المشكلات ، وجعل منها خلافة ، عام ٩٧٦ م ، لها من السلطان والةوة ، والغنى والثروة ، والترف والحضارة ، والعلم والثقافة ، ومن المهابة والخوف عند جيرانها ، ما لم تبلغه يوما قبله ولامن بعد .

وبعد أيام مجيدة ، امتدت حتى بلغث ٤٩عاما ، ما بين إمارة وخلافة ، توفى الناصر في ١٦ أكتوبر عام ٩٦١ م ، وخافه ابنه الحكم الثانى ، بوصاة منه ، وتميز بثقافة واسعة ، لابجاريه فيها واحد من أسلافه ، مكتبته

أحب مكان إليه في قصره ، ومجالسة العلماء والأدباء أقرب إلى قابه من حوار القواد وحديث الحروب ، غاز دهرت الثقافة على أيامه ، وانسع قلبه لعامة شعبه ، فكان و دودا رحيا محبا للسلام . وعلى أيامه بدأ ينمو حوله ما نسميه في أيامنا عراكز القوى ، من خصيان و صقالبة وجوار ، وعرب وبربر ومولدين ، ويهود وآخربن . وعندما لفظ آخر أنفاسه في ٥ من فبراير عام ٩٧٦ م، لم يكن حوله غير الحصيين فائق و جوذر ، و فيا عداهما انت قرطبة ، والأندلس بأسره ، يجهل أن الحليفة قد رحل إلى جوار الله احتفظا بالسر إلى أن يختار الجماعة التي ينضمان إليها ، وكان هذان الحصيان غليظان ، في خلقهما ذعارة ، وفي سلوكهما جفوة ، وطالما شكا الناس منهما ،

وكان الحكم الثانى قد أخذ البيعة ، فى العام الذى توفى فيه ، لابنه هشام ولياً للعهد من بعده ، فبويع بالحلافة بعد كثير من المؤادرات والدسائس ، ولكنه كان طرى السن ، ضعيف العقل ، محدود الذكاء ، خور العزيمة ، فأخذ الأقوياء من حواله بتقاتاون على السلطة ، وكان الفوز حليف فتى عربى فأخذ الأزد ، دخل القصر موظفا بسيطا ، وما لبث أن استرعى أنظار السيدة صبح زوجة الحكم النانى ، وأم الخليفة هشام الثانى ، جارية من الباسك اسمها فى لغتها Aurora ، ذكية وطموح ، قوية الشخصية ، وذات التمايز بالغ على الخليفة ، فاختارته قائما على أموالها ، بعد أن أعجبت به فكرا ومظهراً ، بن آخرين كثير بن تقدموا للوظيفة ، وتوثقت الصلة بينهما ، فتجاوزت الوظائف والأموال ، لتصديح علاقة حب ، عميق وحنون ،

كانت صبح وراء المنصور فى بدء خياته ، رأيا و دعما ومالا ، لكى يصرع فى طريقه إلى السلطة خصومه الأقوياء ، واحداً وراء آخر ، حتى أصبح حاجب الحليفة ، أو رئيس الورراء في لغتنا المعاصرة . وحقق بغيته كاملة إحين أرسل بالحليفة أبنها ، غضاً وطرياً ، عديم الحبرة والتجربة ، إلى عالم النسيان ، داخل قصر فى ضورحى العاصمة ، لا يزور ولا يزار إلا بإذن م

وثيس الوزراء ، وقلة من الناس فى العاصمة تعرفه اسما أو شخصاً ، ومع ذلك فالجميع يحبونه ويوقرونه ، لأنه رمز الدولة والسلطة الشرعية فيها وابن الحليفة العظيم : الحكم الثانى ، وقد دنع المنصور فى طريقه إلى السلطة الثمن غالياً ، تجاوز ذكرياته مع صبح وعارضها ، وأعدم ابنا له تآمر عليه . والحق أن المنصور ، رغم أخطائه العديدة ومنها ما سار فيه على خطى الناصر ، من اتخاذ البربر والصقالبة ، والمأجورين والمرتزقة ، وإقصاء العرب ، أعطى الأندلس ما أعطاه لها عبد الرحمن الناصر قبله ، من الهدوء والوحدة ، والشراء والهيبة ، مما تجاوز الأمم المجاورة وبلغ الحافقين.

فى ربيع عام ١٠٠٢ م قام المنصور بآخر حملة حربية له ، وكانت غاية أمانيه أن يموت مجاهدا ، ويحس فى أعماقه بأن رغبته سوف تتحقق يوما ، ومن ثم فهو محمل معه دواماكفنه ، وقد خاطته بناته ، واشراه من حر ماله ، أمال جاءه إرثاً من أرضهم القديمة، وكان يرىأن بقية ثروته وما يملك ويقبض من راتب مختلط فيها الحلال بالحرام ، ومحمل معه البراب الذى تجمع على ملابسه فى غزواته ، ليدفن معه ، فلا يدخل النار من اغيرت قدماه جهاداً فى مدينة سالم توفى ، فى ١٠ من أغسطس عام ١٠٠٢ ، وفيها مبيل الله . وفى مدينة سالم توفى ، فى ١٠ من أغسطس عام ١٠٠٢ ، وفيها دفن عملا بوصيته : أن يدفن حيث يموت . (١)

وقد ولى ابنه عبد الملك الحجابة ، أو إن شئت الحكم ، من بعده ، وعلى عادة الحلفاء اتخذ المظفر لقبا له ، وواصل سياسة والده ، ولكن الأندلس كان يشهد تغيرا جذريا في حياته ، لقد حل الصراع الطبقي محل الصراع العنصرى ، وظهرت اتجاهات جديدة في الدين والسياسة ، وطفت على السطح الظواهر العامة التي تسبق أية ثورة ظهرت قديما ، أو حتى في أيامنا هذه ، والتي ستودى بالحلافة بعد قليل : سخط عام وعميق ،

⁽۱) أنظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ۸۹ ، هامش رقم ۱۱ ، بتحقیقنا ، دار الممارف ۱۹۷۰

وفساد حقيقي يمتد واقعا أو تصورا إلى الطبقة الحاكمة ، وثروات ضخمة تظهر فجأة «دون مقدمات ، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئا ، إلا صلات مريبة بالحكام ، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين ، وشيوع من يحكمون في الظلام ، أو من وراء ستار ، أو بالتعبير السياسي الحديث ، أولئك الذين يحكمون وليسوا مسئولين لا دستوراً ولا عرفاً ، ومكاسب قليلة ، براقة وخادعة ، تسكر الحاكم ، وتدهب بعقله ، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل ، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله . ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسي خفي ، يأتي بنظام جديد غير متوقع حتى لأولئكم الذين يفكرون في التغيير أو قاموا به .

ولم تطل أيام المظفر ، شهد طلائع الثورة ، وإمارات التغير ، ورحل في زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها ، عام ١٠٠٨ م ، وقدر لأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وأمه من الباسك مثل هشام الثاني ، أن يتولى الحجابة في سن طرية ، لا يتجاوز العشرين عاما ، ويفتقد كل الحصائص والمز ايا التي كانت لأبيه أو أخيه من قبل ، ورعا لهذا أقدم على ما لم يقدم عليه واحد مهما : حدثته نفسه بأن يصبح ولي عهد للخليفة هشام الثاني ، وتحدث بهذا لخاصته ، فأثاوت محاولته بني أمية ، وعامة أهل قرطبة ، فانتهز أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر ، ويدعى محمد بن هشام ابن عبد الجبار ، وكان المظفر قد قتل والده ، فرصة أن عبد الرحمن شنجول في غزوة ضد ألفونسو الخامس ملك ليون ، فقاد ثورة استولى بها على قصر الخلافة ، وفي مواجهة الأحداث ، وليحتفظ هشام الثاني بحياته ، قصر الخلافة ، وفي مواجهة الأحداث ، وليحتفظ هشام الثاني بحياته ، ووليها محمد ، واتخذ لنقسه لقب المهدى بالله ، ولما بلغ الحبو ووليها محمد ، واتخذ لنقسه لقب المهدى بالله ، ولما بلغ الحبو عبد الموحن قبل إلى الحضرة مدلا بمكانه ، زعيا بنفسه ، حتى إذا قرب عن الحضرة تسلل عنه الناس ، من الجند ووجوه البربر ، ولحقوا بقرطبة ، من الحضرة تسلل عنه الناس ، من الجند ووجوه البربر ، ولحقوا بقرطبة ،

وبايعوا المهدى » ، ثم اعترضه منهم ، من قبض عليه ، واحتر رأسه ، فى ٤ من مارس عام ١٠٠٩ م ، وحمله إلى المهدى ، فصلب وإلى جواره قائد حرسه يلعنه ويلعن نفسه ، وذهبت دولة العامريين :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

سعدت قرطبة بالنصر الأموى . وكانت العامة أكثر سعادة ، رأت فيه ، وهي أشد اندفاعا نحو الغضب أو البهجة ، طريقا أفضل ، نحو غد أسعد ، على حين تحفظت الطبقة الوسطى ، وقد أحست بآلام ونتائج الثورة ، قبل أن تقف بجانبها ، وربما راودها أن طغيان العامريين ، وأعطى الازدهار الاقتصادى والمجد العسكرى ، أفضل بكثير من الفوضى ، ومن حكم هؤلاء الجند المستبدين ، يثقلون عواتقهم بالضرائب والمظالم .

وإذا كان المهدى قادرا على أن يأمر بالهب ، فقد كان غير قادر على منعه ، ولما كان يتوقع ماسيحدث فقد أمر بنقل الأشياء الثمينة من مدينة الزاهرة ، مقر العامري ، إلى قرطبة ، ولكن الحبثاء سبقوه و بهبوا كل ما في القصور وماحولها حتى الأبواب، على امتداد أربعة أيام كاملة، ولم يستطع الخليفة أن يصنع شيئاً لمقاومة اللهب ، أو لم يجرو في الحقيقة ، وقد تردد قليلا ، ثم الدفع يأخذ بحظه من الغنائم ، ورغم أن الجماهير سبقته إليها ، كان نصيبه منها كثيراً : مليونا و نصف مليون دنانير من الذهب ، ومليونين ومائة ألف دراهم من الفضة ، وبعد ذلك بز من عثر على صناديق فيها مائتا ألف دينار ذهبي ، وعندما أفرغت القصور من محتوياتها أضرمت فيها النيران ، وعادت المدينة الجميلة كومة من الخرائب والأنقاض .

ولم ترد الجماهير، وهي التي صنعت الثورة ، أن يكون حكامها من القواد القدامي، أو لئك الذين كانوا من شيعة المنصور وجنده ، فجاء محمد المهدى بقواد من الشعب ، من الطبقة الوسطى ، أطباء ونساجين وجزارين وسراجين ، وبدا الأندلس بلدا ديمقراطيا لأول مرة في تاريخه ، لقد

أفلتت السلطة من يد العامريين ومن طبقة الخاصة على السواء .

فى البدء بداكل شيء وكأنه يسير تبعاً لرغبة المهدى، لقد رفعه شعب قرطبة إلى الحلافة ، واعترف به البربر، وتلقى رسالة ولاء من واضح، أقوى الصقالبة ، وحاكم الثغر الأدنى ، ولما تمض على مصرع عبد الرحمن شنجول غير خمسة أيام ، ولم بكن المهدى يتوقع منه ولاء سريعا ، لأن واضحاً يدين بمركزه وثروته للمنصور بن أبى عامر ، والد عبد الرحمن ، ولهذا يدين بمركزه وثروته للمنصور بن أبى عامر ، والد عبد الرحمن ، ولهذا وأسرع المهدى فالتقط القفاز ، وأرسل إليه أموالا ، وملابس شرف ، وجوادا ؛ وبراءة بتوليته على كل الثغور با

والتفت كل الجماعات ، في الظاهر على الأقل ، حول الحكومة منه اللحظة الأولى ، ولوأن الإجماع و قعا أقل قوة و تماسكا مما يبدو للعيان ، كان تيار الثورة يندفع من وراء ظهر السلطة ، فقد أدرك الناس سريعا أن ذهاب العامريين لايعني أن الأمور استقرت ، و المظالم انتهت ، والمفاسد توقفت ، وليس ثمة مايشتكي منه ، في ظل الحكم الجديد . ولم يكن المهدى يتمع بالذكاء أو الفضيلة ، قاس و دموى وأحمق و غارق في المذات ، وزاد فأخرج العامريين من قرطبة ، وفصل أعدادا كبيرة من العمال واستغني عن خدمات جمع كبير من الصقالبة ، وأغضب الأنقياء لأنه قل ما نخرج من القصر ، وفيه يتجاوز نزواته ، واشتدت ثورة هؤلاء حين علموا أنه يقيم حفلات ساهرة ، يدلغ الموسيقيون فيها مائة ، مابين عازف على العود أوالناى، صنيع شنجول من قبل ، وهو ما بنض الناس فيه ، وأطقوا عليه اسم صنيع شنجول من قبل ، وهو ما بنض الناس فيه ، وأطقوا عليه اسم مثل ماكان يفعل سابقوه ، وهك ذا بدأ يدفع بالرأى العام كله إلى

ولم يصنع شيئاً يستبقى به البربر، واختاروا جانبه بإرادتهم، ولم يكن لهم

في الجانب الآخر مكان ، لأن سكان العاصمة يكر هوجم من الأعماق ، ولم ينسوا لهم أبدا أنهم كانوا العمد التي قام عليها الطغيان العامرى ، ولولا مالهم من العصبية لاستأصلهم النامس . وأمر هم المهدى ، ور بما تملقالسكان قرطبة ، ألا يركبوا ولا يتسلحوا ، ورد بعض رؤسائهم من باب القصر ، ولم يكن ذلك حالهم في ماضى الأيام . وأحس البربر ، رغم قوتهم ، أنهم لم يعودوا يمثلون شيئا في الدولة ، وأن قصورهم نهبت دون أن تحاول الشرطة عملون شيئا في الدولة ، وأن قصورهم نهبت دون أن تحاول الشرطة حمايتهم ، فعضى و فلد منهم ، على رأسه زاوى بن زيرى من المقابلة الحليفة ، وشكوا له ماأصابهم ، فخاف موقفهم ، واعتذر إليهم ، وقتل من أنهم وشكوا له ماأصابهم ، فخاف موقفهم ، واعتذر إليهم ، وقتل من أنهم يمن العامة في أمرهم . ومالبث أن شفى من رعبد في وعاد من جديد يظهر بغضهم ، وبحاهر بسوء الثناء عليهم .

كان المهدى يقدر خطر البربر تماما ، رغم ما يمكنه لهم من بغض، وأشد ما يخشاه أن يصبح اسم هشام الثاني ، الخليفة المعزول ، راية تلتقي عندها كل الجماعات التي أساء إليها ، عامدا أو دون قصد ، "ففكر واهتدى إلى حل وسط ، ألايقتل أسيره ، وأن يكتفى بإعلان موته . وفعلا في ٢٦ أبريل بعثة إلى القيم مسيحى ، أو يهودى ، كبير الشيه بهشام ، فأمر المهدى محمل جثته إلى القصر سراي ، وأظهره لأشخاص يعرفون هشاما ، وسواء أكان الميت صورة دقيقة من هشام أم لم يكن ، فالذين شهدوه قبضوا ، وأعلنوا أن هذه جثة هشام الحليفة السابق ، ودعا المهدى بالفقهاءوعلية القوم ، وصلى على الميت صلاة الجنازة ، ودفن في مقابر المسلمين ، م جلال ملكى يليق على الميت صلاة الجنازة ، ودفن في مقابر المسلمين ، م جلال ملكى يليق عليفة مابق ، بيها هشام الحقيقي سجين في أحد قصور وزرائه .

وبعدها ظن الحليفة أنه يستطبع أن يصنع أى شيء ، فأودع السجن في شهر مايو واحداً من أبناء عبد الرحمن التاصر ، متقدماً في السن ، يدعى صايان ، دون أن يعرف السبب ، وترك الناس يتحدثون عن رغبته ، قتل عشرة من رؤساء البربر ، فتجمع هؤلاء بزعامة هشام بن سايان ، ه بايعوه بالحلافة ، واتحذ لنفسه لقب الرشيد ، وأشار ابن حزم إلى ثورته في طوق

الحمامة ، وقد استطاع أن مجمع حوله مربعاً سبعة آلاف مقاتل ، من الناوئين للمهدى ، ومضى جم إلى فحص السرادق ، شهال قرطبة ، وهناك انضم إليهم البربر ، فسار جم جميعاً إلى قصر المهدى، وقد أخطر الحليفة بالثورة وهو غارق في ملذاته ، وانتزع منها بقوة لكى يواجه الأمر ، فآرسل يسأل : ماذا تريدون ؟ . ورد هشام الرشيد : أنت وضعت والدى في السجن ، وأجهل مصبره . فأطلق الحليفة في الحال سراح سليان ، وظن أن الجماهير سوف تقنع وتنصرف ، وخدع نفسه ، لأن هشاما أرسل إليه يسأله أن يتنازل عن الحلافة .

وأراد المهدى أن يكسب الوقت ، فتظاهر بالرغبة فى التحادث مع هشام ، وطال الحوار ، ونفد صبر البربروالعمال ، فانطلقوا يعملون دون انتظار لنهايته ، نهبوا حوانيت سوق الحرس وأحرقوها ، وحينئذ حمل القرطبيون السلاح ، دفاعاً عن بيوتهم ، لاعن الخليفة ، وجاء الجنود لمساعدتهم ، واستمرت المعركة يوماً بأكله ، وفى إصباح الجمعة ٣ من يونية ، فر البربر نجاة بأنفسهم ، فى فوضى منقطعة النظير ، وقد لاحقهم القرطبيون حيى ضفاف وادى أرملاط على حين احتل آخرون منازلهم ، وأخذوا نساءهم ، وأمر هشام ووالده ، وأمر الخليفة المهدى بقطع رأسيهما .

ومالبث البربر أن أعادوا تنظيم صفوفهم ، وأقسموا أن يثأروا لهزيمهم ، أقوياء وشجعان لكن مهارتهم محدودة ، غير أن زاوى بن زيرى كان أمعهم لحسن حظهم ، وينتمى فى قبيلة صنهاجة ، وكانت تحكم جانبا من أفريقية عاصمته القيروان ، وهى أكثر تحضرا ، وأشد ذكاء من بقية أخوتهم ، وقد فهم زاوى أن من الضرورى قبل أى شىء البحث عن منافس فى مستوى المهدى ، لإعطاء التمرد طابعا شرعيا ، فبحث بين أحفاد عبد الرحمن الناصر عن يصلح لهذه المهمة ، فوقع على سليان بن الحكم بن سليان ، لعند عبد الرحمن الناصر ، وابن أخ هشام الرشيد ، وعرض على رفاقه أن يبايعوه خليفة ، فعارض بعضهم ، لأن سليان رجل طيب ، ليست لديه يبايعوه خليفة ، فعارض بعضهم ، لأن سليان رجل طيب ، ليست لديه

الإرادة ليكون رئيس جماعة، ولاالتجربة ليصبح قائد جيش، ورفض آخرون أى رئيس عربى ، وبايعوا سليان ، أى رئيس عربى ، ولكن زاوى أقنعهم فاستجابوا له ، وبايعوا سليان ، واتخذ لقب المستعين، ومنذ البدء لم تكن له أية سلطة على البربر ، اختاروا قوادهم دون مشورته ، لم يكن بالنسبة لهم غير أمير أموى أعارهم اسمه ليعملوا في ظله .

ورحل البربر إلى و ادى الحجارة ، واحتلوا المدينة ، وعرضوا على واضح أن يعملوا معا ، وأن يفتح لهم أبواب مدينة سالم ، ولكن واضحاً رفض ، وتلقى إمدادات من المهدى فهاجمهم ، وطاردوه ، ولم يسعدوا بانتصارهم طويلا ، لأن واضحا قطع عهم التموين ، وخلال أسبوعين لم يكن لديهم ماياً كلونه غير الحشائش ، ولمواجهة هذا الحصار أرسلوا جماعة منهم إلى شانجه ، كونت قشتالة ، يطلبون تدخله ، ويعرضون عليه تحالفهم ، إذا رفض المهدى وواضح الصلح معهم .

وعندما وصل السفراء إلى قصر الكونتوجدوا سفارةمن المهدى سبقتهم البه ، تسوق بغالاو خيولا وهدايا أخرى ، و وعدوه بالتنازل له عن عدد من القلاع والحصون إذا أسرع إلى مساعدة خليفة قرطبة ، وسبحان مغير الأحوال ، لقد أصبح خلفاء قرطبة يتلقون الأوامر من أمراء المسيحيين في الشمال ، فيا يته ل بأخص شئونهم ، وما يتوقف عليه مستقبل بلادهم ! ،

كان شانجة يعرف أخبار جيرانه جيدا ، وأدرك أن بقاء المهدى مر تبط بخيط رفيع ، فوعد البربر بأن يقف إلى جانبهم ، إذا وعدوه بأن يتنازلوا له عن القلاع والحصون التى وعد المهدى بأن يتنازل له عنها ، فوافقوا ، حينئذ صرف شانجه رسل المهدى ، وأرسل إلى معسكر البربر ألف أور ، وخمسة آلاف خروف ، وألف عربة محملة بالأغذية ، وأعد البربر أنفسهم فورا ليبدأوا حملتهم ، وعندما انضم الكونت شانجه إليهم ، أخذوا طريقهم إلى مدينة سالم . وعندما وصلوا أسوار المادينة حاولوا ، ثانية ، أن يكسبوا واضحاً إلى جانبهم ، فام ينالوا منه أكثر مما نالوا من قبل ، واعتقدوا محق أن

عليهم ألا يضيعوا وقتهم ، فأخذوا طريقهم نحو قرطبة ، في شهريولية من عام ١٠٠٩ م ، فتبعهم واضحوهاجمهم ، واضطر بعد أن فقد الكثير من رجاله أن يلوذ بالفرار عائدا إلى قرطبة .

ولم ينتظر وصول العدو ، فخرج يبحث عنه ، والتقى الجيشان فى قنطيش ، فى ٥ من نوفمبر ١٠٠٩ م ، وكانت نتيجة المعركة هزيمة مروعة للقرطبيين، كانوا حشداً غير ملس و لأمنظم ، مابين شيخ ضعيف وحدث غر ، كانوا حشداً غير ملس و لأمنظم ، مابين شيخ ضعيف وحدث غر ، أفاستطاع ثلاثون فار سا من البربر أن يقتحموا صفوفهم ، فولوا هاربين لاياوى بعضهم على بعض ، ووضع البربر السيف عليهم ، وقتلوا منهم خلقا عظيا ، وغرق كثير منهم فى الوادى ، و فنى الجميع السقوط إبعضهم على بعض ، و دخل البربر أرباض قرطبة ، وبات الناس على سطوح أدور هم فى وجل وخوف .

وأدرك واضحى الحال أنهم خسروا كل شيء ، فانسحب مع فرسانه نحو الشمال ، ولاذ المهدى بقصره ، وبعد قليل حاصره البربر ، فظن أنه ينجو بنفسه ، إذا رد الحلافة لهشام الثانى، فأخرجه من السجن ، وأقعده في مكان حيث يراه الناس ، وأرسل القاضى ابن ذكو ان إلى البربر ليقول لهم : إن هشاما المؤيد لما يزل حيا ، وأنه يعترف به خليفة ، وليس هو إلا حاجباً له . وضحك البربر من الرسول ومن الرسالة ، وردو المناعلية : سبحان الله ياقاضى ! ، عوت هشام بالأمس ، وتصلى عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش ، وترجع إليه الحلافة ! وخلال المفاوضات كان القرطبيون يرتعشون لمجرد روئية سلمان المستعين ومعه البر بر يهددون أسوار مدينتهم ، فخرجو اللقائه و اعترفوا المنافة ، خايفة ،

وبينها سليمان يأخذ طريقه إلى داخل العاصمة، ارتكب البربر والقشتاليون كل الحرائم التي تخطر علىالبال، وأفلت المهدى واختفى فى قرطبة، وطاب شانجه من سلمان أن يوفى له بوعده فى التنازل عن القلاع والحصون ، واعتذر سليمان بانها بيست في يد، الان ، ووعده للمرة الثانية بان يتركها له جهز، تصبح ملكه ، وحينئذ غادر كونت قشتالة قرطبة ألم معنوده ، في ١٤ لا نوفير ١٠٠٩ م ، وقد جمعوا ثروات طائلة ، مما نهبوا من أملاك القرطبيين،

أو خلال ذلك وصل المهدى إلى طليطلة ، فاستقباه أهلها فى حفاوة ، فتبعه سايان ، وأرسل إلى أهل طليطلة من يحذرهم غضبه إذا استمروا فى تمردهم عليه ، ولم يستجيبوا له ، وتحاشى أن يقتحم هذه القلعة الحصينة ، فتجاوزها إلى مدينة سالم ، على وهم أنها سوف تسقط يوماً . وخلال سيره ، انضم إليه عدد كبير من الصقالية ، فاستولى على مدينة سالم دون قتال ، لأن واضحاً أخلاها له ، ولجأ إلى طرطوشة ، ومن هناك كتب إلى سليان أنه يعترف به خليفة طالما تركه باقياً فى منصبه ، أراد بموقفه هذا أن يكسب وقتاً ، وأن يفلت من ملاحقة سلمان ، وكان له ما أراد .

رحين أطلقت يد واضح تحالف مع أمراء قطلونية ، ووعدهم بكل ما يريدون ، ورحل إلى طليطلة مع جيشه ، وجيش آخر من القطلان ، انضموا إلى المهدى فيها ، وسار والحميعاً إلى قرطبة ، ثلاثون ألف مسلم وتسعة آلاف مسيحى ، وحين علم سليان استنفر أهل قرطبة للقائم ، فأظهر والعجز ، و جبنوا ، وطلبوا منه معافاتهم ، وآثر البربر أن يكون لهم وحدهم شرف تحقيق النصر ، والتقى الفريقان فى قرية عقبة البقر ، على مسافة غير بعيدة من قرطبة ، فى النصف الأول من شهر يونية عام ١٠١٠ م وقد وضع البربر سلمان فى ساقة الجيش ، وجعلوا معه خيلا من المغاربة ، ونصحوه ألا يترك موضعه حى ولو وطئته الحيل ، ثم تقدموا ، فحمل ونصحوه ألا يترك موضعه حى ولو وطئته الحيل ، ثم تقدموا ، فحمل القطلان عليهم حملة شديدة ، فتراجع البربر لهم ليتمكنوا منهم ، فلما رأى سلمان خيل الإفرنج خرقت صفوف البربر ، قلمر أنهم هزموا فولى هارباً ، على حين كر البربر على العدو . فقتلوا من القطلان صبعين قائداً وأميرهم ، ولما رأى البربر سلمان فارق موضعه الحازوا إلى الزهراء ، وأميرهم ، ولما رأى البربر سلمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سلمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سلمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سلمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سلمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سلمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سلمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سلمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة وأخربه المع وأخربه المعان إلى سالمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة وأخربه المعان إلى سالم وأخربه المعان إلى المعان وأخربه وأخربه المعان إلى المعان وأخربه وأخربه وأخربه المعان إلى شاطبة ، وأخربه وأخرب

مدينة الزهراء ، فنهبوا ما وجدوا فيها ، ودخلوا الحامع ونهبوا حصره وقناديله ، ومصاحفه وسلاسل قناديله ، وصفائح أبوايه .

المهدى خليفة من جديد :

و دخل المهدى قرطبة ، و تعوضت المدينة السيئة الحظ لنهب شامل من القطلان ، كما بهما البربر والقشتاليون قبل تسعة أشهر ، وأخذت له البيعة خليفة للمرة الثانية ، وكان هشام المؤيد أول من بايعه . ثم خرج يلاحق البربر ، وقد انسحبوا نحو الحزيرة الحضراء ، والتقى معهم عند التقاء وادى آره بالوادى الكبير ، على مقربة من رندة ، وفي المعركة حقق البربر نصراً تأروا به لهزيمتهم في موقعة «عقبة البقر» ، وهزم جيش المهدى ، وقتل عدد كبير من القواد الصقالبة ، وأكثر من أربعة آلاف من القطلان ، ولقى عدد كبير من الحنود حتفهم غرقاً في مياة الوادى الكبير .

وعاد المهزومون إلى قرطبة ، وبلع الغيظ بالقطلان مبلغه ، فأرادوا أن يثأروا لهزيمهم من عامة الناس ؛ فقتلوا كل أولئك الذين يشبون البربر على نحوما ، وكل من أراد أن ينتقم من شخص صاح فيه هذا بربرى ، فيقتل دون أن يسأل ، وأخذ جندى قطلونى ابنة رجل من البادية جميلة ، وعرف أبوها ، فحمل شكواه إلى واضح ، وقال إنها ليست بربرية ، فرد عليه ، دعك من هذا، ما إلى ردها إليك من سبيل ، وعلى ذلك عاهدناهم ، فمضى الرجل باكيا إلى الجندى ، وحمل إليه ٠٠٤ دينار ذهبي يفتدى بها ابنته ، فأخذها منه ثم قتله !

وطلب المهدى من القطلان أن يعودوا إلى قتال البربرمن جديد فامتنعوا، زعموا أن ما خسروه من الرجال لايسمح لهم بالعودة إلى القتال ، وتركوا قرطبة في يوم الجمعة ٨ يولية ، ورغم كل السوء الذي ارتكبوه ، حزن أهل قرطبة لرحيلهم ، حي كان بعضهم يلقى بعضه فيعزيه جزعاً وخوفاً من هودة البربر بعدهم . وبدأ المهدى زحفه نحو البربر ، ولكن جيشه فقد إهميته بعد رحيل القطلان ، وبعد مراحل من سعره تغشاه رعب قاتل ،

وامتلأ داخله خوفاً من البربر ، فعاد إلى العاصمة من جديد ، ينتظر العدو فيها ، وأمر بحفر الحنادق حولها ، ولكن القدر أراد له أن يسقط قتيلا بيد الصقالبة ، لابيد العربر .

ÍΙ

لقد كان واضح إلى جانب المهدى ، ولكن صقالبة آخرين ، مثل خيران وعنبر ، ظلوا في الجانب المعارض ، وقد أدركوا أخيراً أن عليم أن يتحدوا إذا أرادوا أن يحقفوا مطامحهم ويستولوا على السلطة ، وقرروا أن يلتفوا من جديد حول هشام المؤيد ، ولنحقيق مخططهم أتولى واضح إثارة السخط بين أهالي قرطبة ، فأرسل الإشاعات تدق كل باب عن حياة خليفة لا يفيق من السكر ، بين ملذاته ونسائه ، وأنه يهاجم علناً فوضى الجند واعتداءاتهم ، ويرضى عنها سراً ، بل ويحضهم علنها ، وعندما أتت الإشاعات على ما بقى للخليفة من شعبية وهيبة ، سارع خيران وعنبر وقواد آخرون من الصقالبة ، كانوا يعملون في جيش سليان بتقديم خدماتهم للمهدى ، وما إن دخلوا قرطبة حتى بدأوا يعملون على إسقاطه ، وفي يوم الأحد ٢٣ من يولية ١٠١٠ طاف الصقالبة شوارع قرطبة على خيولهم يصيحون : و يحيا هشام المؤيد » ، ثم أخرجوه من سجنه ووضعوه على العرش .

فى ثلك اللحظة كان المهدى يأخذ حمامه ، وأعلم بما حدث ، فطار إلى

التماعة وجلس إلى جانب هشام . ولكن عنبر شده بقوة ، وحمله ليكون في مواجهته . وقد أنبه هشام في مرارة ، وعاتبه على ما ارتكب في حقه ، وما عانى بسببه ، ثم أخذه عنبر من ذراعه ، وشده إلى المنصة ليقطع رأسه ، فأمسك المهدى بيده المشرعة ، وفي اللحظة نفسها سقطت عليه سيوف صقالبة آخرين .

لقد اعتلى العرش بمؤامرة ، ومؤامرة أخرى أنزلته عنه ، وعن الحياة ! مع هشام الثانى ، ضعيف ومحاصر ، أصبح الصقالبة أكثر من أقوياء وتولى واضح منصب الحجابة ، وحاول أن يحكم الأندلس على نحو ما فعل من قبل سيده المنصور بن أبي عامر ، ولم يدرك أن الظروف تغيرت كثيراً ، وأنه ليس المنصور . ولم يجد في البدء معارضة من سكان العاصمة ، وعرضت رأس المهدى في الشوارع دون أن تسمع همهمة واحدة ، فليس ثمذ من يحن إلى أيام هذا الطاغية ، وداعب الأمل واضحاً في أن البربر سوف يعترفون بالحليفة الذي رد إليه تاجه ، وأقنع نفسه بهذا ، وكان واهماً ! . . وعندما بعث إليم برأس المهدى يطلب مهم الولاء لهشام غضبوا ، وتدخل سليان لفسه ، وبكي سليان نفسه ، فاضت دموعه غزيرة ، حين رأى رأس ابن عم ، فأخذها ونظفها وأرسل بها إلى عبيد الله ، ابن المهدى ، وكان قسد اتخذ من طليطلة مقاماً

وجد واضح البربر على غير ما توقع ، وعرف أن له أعداء فى العاصمة نفسها ، وأن بعض الأمويين لايرضون حكم الصقالية ، ويرون مصلحهم فى أن يؤيدوا سلمان ، وقد أرسلوا إليه أسراً أن يعود إلى العاصمة ، وحددوا له يوم ١٢ من أغسطس ، وأواجم سوف يسلمونه المدينة ، ووعدهم سلمان بتحقيق رغبهم . وعرف واضح المؤامرة ، أعلمه بها خيران وعندما وصل سلمان إلى أسوار المدينة فى اليوم المحدد ، واجه هجوماً عنيفاً فارتد القهقرى سريعاً .

وظن واضح أن الهزيمة أضعفت البربر ، فعاد يفاوضهم من جديد ، دون أن محقق شيئاً ، و الوقت إنفسه كان سلمان يطلب عون شانجه ملك قشتالة ، حليفه القديم ، ووعده بأن يتنازل له عن عدد من الحصون والقلاع على الحدود بينهما ، كان المنصور قد استولى عليها . ووجد الكونت الفرصة مواتية لتوسيع رقعة مملكته دون حاجة إلى القيام محملات حربية غمد الأنداس ، فأرسل إلى واضح بأن يتنازل له إعن هذه الحصون غمد الأنداس ، فأرسل إلى واضح بأن يتنازل له إعن هذه الحصون

والقلاع ، وكانت في قبضته ، وإلا فسوف يساعِد البربر. ولم يجرو واضح على اتجاذ القرار وحده ، فدعا القاضي والفقهاء والعدول ، وأبلغهم برسالة شانجه ، وطلب منهم الرأى . وأخرس الخوف من روية العربر ، ومعهم القشتاليون لمساعدتهم ، الإحساس بالشرف القومي في أعماق هوالاء السادة ، فكان رأمهم : أن يستجيب لمطالبه ١٠٤ . وفي شهر سبتمبر ، أو أغسطس ، عام ١٠١٠ م ، وقع و اضح معاهدة مع شانجه ، تنازل له فيها عن أكثر من مائتين ،. بين قلعة وحصن . واتخذ بقية أمراء الشهال [من المسيحيين الحادث مثلا يحتذى . إنهم يستطيعون بشيء من النهديد والصخب أن يأخذوا ما يريدون من حصون وقواعد ، فأرسل لهم كونت آخر ﴿ يَطَابُ مُهُم بِدُورِهُ أَنْ يَتَنَازَلُوا لَهُ عَنْ عَلَمُ مِنْ الْحَصُونُ وَالْقَلَاعِ وَإِلَّا انْضِم لسليان والبربر، فلم بجروثوا على أن يرفضه ا له طلبا ولقد ساءت حال القرطبيين بعد العامريين ، وكان عليهم أن محنوا رءوسهم أمام أعداء ديهم ، [وأن يعانوا من نزوات الحاكم ، يُصقَّلبيًّا أو بربريًّا ، إُوأن يتعرضوا النهب والمظالم من أو لئلك وهؤلاء ، وباختصار أن يتحملوا كل النتائج التي تعرض للشعوب حين تذهب إلى النورة ، وتلقى بنفسها في أنون الفتن ، دون أن يكون وراءها هدف واضح محدد، ودون أن تدفعها أفكار سامية وعظيمة !

ضرب البربر الحصار على قرطبة على امتداد شهر ونصف ، نزلوا ربضى شقندة وفج المائدة ، يغيرون على العاصمة ويقتلون ، وواضح وجنده خلف السور لا يتجاوزونه شبراً ، وأصاب الناس ضيم مروع فى الأنقس والأموال ، وزاد الحال سوءاً تفشى المرض والوباء . ثم توجهوا إلى الزهراء ، وأصبحوا سادتها بعد حصار دام ثلاثة أيام فحسب ، لأن قائداً خان واجبه ، وسلمهم أحد أبواب المدينة ، فى ٤ نوفمبر ١٠١٠م، وبدأت المديخة فى الحال ، قتلوا حرم المدينة بأجمعه تقريبا، وجأ سكانها إلى المسجد، ولكن حرمته لم تمنع العربر من اقتحامه ، وأتوا ذبحا على جميع من فيه، دون هرقة بين الشيوخ والشهاب والنساء والأطفال ، وبعد أن مهبوا المدينة هموقة بين الشيوخ والشهاب والنساء والأطفال ، وبعد أن مهبوا المدينة

أشعلوا فيها النار ، ومن ذلك اليوم تحولت هذه القصور ، أغخم ماعرفت أوربا في العصر الوسيط وما بعده ، وحتى أيامنا ، إلى أكوام من الحرائب والأنقاض . وخرب و اضح منية الرصافة ، حرقاً وتدميرا ، وكانت من أجمل ضواحى قرطبة ، خيل إليه أن البربر سوف يقتحمونها ، فسقهم إلى نهما وتدميرها .

ولم يتوقف البربر عند العاصمة ، فأخذوا يغرون خلال الشتاء على ماحولها ، ينهيون ويحرقون ويخربون ويقتاون ، ومنعوا دخول الأغذية إلى العاصمة ، ويرسل إليهم واضح كتائب من الفرسان فلا تلقاهم خوفا ، وإنما ينهبون مافضل منهم في القرى والأقالم ويعودون . ونزح أهل الأرباف إلى العاصمة أفواجا ، خوفاً من البربر ، وصاروا أكثر من أهلها ، ومات أكثرهم جوعابها ، أو مقتولا بخارجها ، وفنيت مواشهم ، وكان من الصعب إيواءهم فمات أغلبهم حوعا ، بعد أن « أكل الناس اللهم من مذابح البقر والغم ، وأكلوا الميتة والجيف ، وكان قوم في السيجن فمات منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشر بون الجمر ظاهرا ، وأصبح منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشر بون الجمر ظاهرا ، وأصبح منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشر بون الجمر ظاهرا ، وأصبح منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشر بون الجمر ظاهرا ، وأصبح منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشر بون الجمر ظاهرا ، وأصبح منها مباحا ، واللواط غير مستور ، ولاترى إلا مجاهراً عمصية » .

وكانت الحكومة في النزع الأخير ، وباع واضح الحانب الأكبر من مكتبة الحكم الثانى ، لبحصل على شيء من المال ، وبدأ الناس ينزحون إلى السواحل والبوادى ، ووقعت أكثر المدن أهمية في يد البربر ، وتعرض سكانها لما تعرض له سكان الزهراء . وتحوات القرى إلى صحارى مجدبة ، وتمضى بك السبل أياما وأياما قبل أن تلقى كائناً حيا ، في طرق كانت من قبل عامرة بالذاهبين و العائدين .

وفى صيف عام ١٠١١م ، أناخ الشقاء بكلكاه على الأنداس بعامة ، وقرطبة بخاصة ، وأخذ ينمو من جوانبه ويشتد ، فاجتاحها الطاعون ، وحدثنا عنه ابن حزم في « طوق الحمامة » ، وأن أخاه ذهب ضحية له ،

وبدت المدينة التعسة كما لوكانت سعيدة بآلامها ، فهي تزيد النار النهابا]، والشقاء ضراما ، بما تختلف فيه ،وتكاتفت الطبيعة على تكثيف آلامها ، فتدافعت السيول ، وفاض نهر قرطبة ، على امتداد أيام ثلاثة ، فهدم في قرطبة وأرباضها نحوألفي دار ، وما لايحصي من المساجد والقناطر، ومات فيه نحو من خمسة آلاف ردماً وغرقا ، وذهبت أمتعة الناس وأموالهم ، وهدم أكثر السور ، وردم كثيراً من الخندق . ونسب الجنود إلى واضح أنه سبب الشقاء الذي يعانون ، وأهرك آخرون أنه بيت النية على الهروب، وأخذ القائد الصقلبي. ابن وداعة ، وكان على شرطة المدينة ويكره واضحا من أعماق قلبه ، يغذى هذا السخط ، وأهنن واضح علانية ، وحمن أحس بضعف موقفه عهد إلى رجل يعر ف بابن بكر أن بحمل رغبته في السلام إلى سليمان ، فأثار عمله أقوى موجة من الغضب ، وعندما عاد ابن بكر من سفارته تلقفته السيوف دون أن يتيحوا له فرصة إعلان الرد الذي تلقاه ، اغتالوه بمرأى الحليفة ومرأى والضح ، واحتزوا رأسه ، وطافوا به البلد ، وحينئذ قرر واضح أن يلجأ بن البربر ، ولكن الجند بقيادة ابن وداعة اقتحموا عليه القصر في ١٦ أكتوبر ١٠١١م، وعاتبوه على ماتكلف من الأموال ، وما عزم عليه من مصالحة البربر ، ثم قام إليه ابن وداعة فضربه بالسيف ، وحمل عليه القوم ، واحتزوا رأسه، وطافوا ﴿ به الشوارع على رأس رمح ، كالعادة ، وألقوا جسده في الرصيف، إلى جانب جثني المهدى وابن عسقلاجة .

ومر عام ونصف قبل أن يجيء البربر، لينتزعوا من الصقالبة ومن القرطبيين متعة الاغتيال المتبادل ، وعبر هذه الفترة اشتد ابن و داعة على أهل الريف ، و هابة الجند وغيرهم ، و دفع بالفقهاء درجات إلى الوراء ، و دعا إلى الجهاد ؟ ولم يعد لدى القرطبين أى شك فى المصير الذى سوف ينتظرهم على يد البربر ، فاز دا دوا كراهية لهم ، وتعصبوا عايم ، وقتلوا كل من أتى على أذكر الصلح معهم ، قتلوا فى الحال

رجلاً من وجوه أهل العلم قال في المسجد الجامع : اللهم أصلح علينا ! ، وقتلوا آخر في المكان نفسه ، قال : إن الله أحب الصلح وأمر به . ومثل ذلك كثير .

يُم وقع في أيدي القرطبيين محارب بربري ممتاز ، في شهر مايو من عام ١٠١٢م ، حباسة بني ماكسن ، كان قد نزل عن جواده ليستريح بعد معركة ساخنة ، فأرسل فيه صقلبي سهما ، وأطبق عليه صقلبيون آخرون ، وأخذوه أسيرا ، وحين عرفوه شفوا غلهم منه ، لطالما احتقرهم وأكثر القتل فيهم ، احتزوا رأسه وأرسلوا به إلى القصر ، وتركوا جثته لعبث العامة ، سحلوه في الشوارع ، ومثلوا به ، مزعوه قطعا ، ثم أسلموه إلى النبران ، وحاول أخوه حبوس أن يسترد جثته فلم يستجيبوا له وقد حزن عليه البربر جميعا، وعزموا على أن يثأروا له، وضاعفوا من قوتهم ، ولكن اليأس أمد القرطبين بقوة خارقة ، وقادهم ابن وداعة في هجوم قوى ، واضطر الىربر إلى رفع الحصار، وعرف أيضًا كيف يصدهم عن إشبيلية ، وسرعان ما ظهر البربر أمام أسوار العاصمة من جديد ، وعلى الرغم من مقاومة القرطبيين المستميتة، استطاعوا أن يعبروا الخندق ، و أن يستولوا على الحانب الشرق من المدينة ، ولكن الحظ ، وللمرة الثانية ، اتخذ جانب القرطبيين ، فأرغموا أعداءهم على الرحيل عن الحي الذي استولوا عليه ، وكان هذا آخر انتصار لهم ، ففي يوم الأحد ١٩ من إبريل ١٠١٣ م ، اقتحم البربر المدينة من الباب المقابل لربض شقندة ، لأن قائدا خائناً باع لهم نفسه وأسلمهم الباب .

ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها أنهاراً من الدماء ، لقد انسحب منها المصقالبة عندما فقدوا الأمل ، واندفع البربر عبر الشوارع فى صياح حاقد ومرعب ، ينهبون هنا ، وينتهكون الأعراض هناك ، ويغتالون فى كل مكان ، وذهب كثيرون من الطيمن والشيوخ ضحية الغضب الأعمى : قتل سعيد بن مناه شيخ متهااك ، اشتر بالورع والتقوى ؛ وكان خطيب المسجد الجامع

ند آیام الحکم المستنصر ، وقتل مروان بن یحیی مناسرة بی حدیرالشهرة ، وکان قد فقد عقله نتیجة إخفاقه فی حب اه ، وقتل ابن الفرضی ، صاحب اربخ علماء الأندلس ؛ وقاضی بلنسیة آیام المهدی ، وکان قد سأل الله الشهادة فی آخر حجة له ؛ فاستجاب الله دعاءه ، وبلغ الضحایا من الکثرة عدداً کبیراً ، حتی أن أحداً لم یفکر فی عدهم ، أو یعط لهم رقماً . وجاءت الحرائق حارة متو هجة ، ساطعة الضوء ؛ تلقی بأنوارها علی هذه المشاهد المرعبة ، واتخذت لها وقوداً من أعظم القصور فخامة و ترفاً ، ومن بینها قصور ابن حزم و آله ، وقد بکه ها شعراً و نثراً فی صفحة رائعة من کتابه ه طوق الحمامة » .

وبعد يومين من احتلال المدينة دخل سليان قصر الحلافة ، وجاء القرطيون الذين أفلتوا من سيوف البربر صدفة ، واصطفوا في طريقه ، يطل الرعب من عيونهم ، وجرحي في أعماق قلوبهم ، ومتلقين له، ومسلمين عليه ، ، فأنشد متمثلا :

إذا ما رأونى طالعاً من ثنية يقولون: منهذا؟ وقد عرفونى يقولون لى: أهلا وسهلا ومرحباً ولوظفروا بى ساعة قتاونى وجيئ بهشام المؤيد، فاعتذر لسليان، وتبرأ من الحلافة، خلع نفسه، وسلم الأمر إليه، وغاب عن الناس خبره، قيل قضى عليه عند دخوله القصر، وقيل فر. واستقر البربر بدءاً فى مدينة الزهراء، وسكنوا القصور التى أفلت من قبضة النيران، وبعد ثلاثة شهور فاضت بهم، فزحفوا على العاصمة، وحكم على القرطبين بالنفى، باستثناء الذين يقيمون فى المدينة، وفى الجانب الشرق، وصودرت أملاكهم لصالح المنتصرين، «ولحق بيونات قرطبة معرة فى نسائهم وأبنائهم».

. . .

على قرطبة ضربة قاصمة لوحدة الحلافة الأندلسية ولم تعد سلطة الخليفة تتجاوز خمس مدن: قرطبة وإشبيلية ونبلة وأكشنبة وباجة. وغاض الأمل في أن تتحسن الحال ، وبدأ البربريتمتعون بالثروات التي نهبوها في قرطبة وغيرها من المدن . ولم يكن سليان المستعين نفسه محارباً ، رغم أنه اضطر إلى الحرب على امتداد أربعة أعوام كاملة ، ومن سخرية القدر أن يكون رئيس هذه العصابات الشرسة التي مزقت الخلافة أميراً مستقيا ، حلواً وكرياً ، وليس هذه العصابات الشرسة التي مزقت الخلافة أميراً مستقيا ، حلواً وكرياً ، ولديه من هدوء النفس ، وفراع البال ، وسطهذا البلاء ، ما يتبح له أن إيعارض أبيات هارون الرشيد الشهرة :

ملك الثلاث الآنسات عناني وحلن من قلبي بكل مكان مانى تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين، أعز من ساطاني

وأن يسبقه معنى ونغماً في أبيات طويلة يصفها ابن بسام بأنها « تشعشعت بها الكؤوس ؛ وتهادتها الأنفاس والنفوس » :

عجباً يهاب الليث حد سناني وأقارع الأهوال لا مهيباً وتملكت نفسي ثلاث كالدمي ككوا كبالظلماء لحن لناظري حاكمت فهن السلو إلى الرضي هذى الهلال، وتلك بنت المشترى فأبحن من قلبي الحمي وتركني لاتعذاوا ملكاً تذلل في الحوى ما ضر أني عبدهن صبابة

إن لم أطع فيهن سلطان الهوى

وآهاب سحر فواتر الأجفان مها سوى الإعراض والهجران زهر الوجوه نواعم الآبدان من فوق أغصان على كثبان نقضى بسلطان على سلطانى حسناً، وهذى أخت غصن البان فى عز ماسكى كالأسير العانى ذل الهوى عز وملك ثانى وبنو الزمان وهن من عبدانى كلفاً من فاست من مروان

لقد كانت غايته فيا أسهم به أن يخفف من قسوة العاصفة ، ولكن فساد قواته وسوئها ، وشهد مظالمها دون أن يستطيع لها دفعاً ، جعلت منه شخصاً بغيضاً إلى الأندلسيين ، لا يرون فيه غير إنسان زنديق وغاصب ، وضعه البربر ومسيحيو الشمال على عرش الخلافة ، وكان القرطبيون يحتفظون لكلا الإثنين ببغض عميق .

وبعد أعوام ثلاثة ، في ١ من يولية عام ١٠١٦ م ، استيقظت قرطبة على ضجيج غاز جديد ، على بن حمود وحلفائه .

ينتسب على فى أسرة إدربس الأول ، مؤسس أسرة الأدارسة فى المغرب، وتربرت أسرته بعد إقامة فى المغرب تجاوزت المائنى عام ، حتى أن العربية استدارت فى لسانه ، وكان حاكماً شبه مستقل على مدينى طنجة وسبتة ، على حين يحكم القاسم . أخوه الأكبر ، الجزيرة الحضراء . ولم تكن مطامع على تقف عند حد ، وحدثته نفسه أن يسعى إلى الحلافة ، ولكى يبلغها تحالف مع الصقالبة ، وانضم إليه جانب كبير من البربركان يرى سلمان إنساناً طرياً ، عارياً من المواهب العسكرية ، وهى الشيء الوحيد الذي يقدرونه ، ووجدوه فى على ، فهم يحترمون فيه شجاعته وفروسيته ، وينظرون إليه كواحد منهم .

جاء على فى جموعه ، وخرج سليان المقائه ، وكانت الدائرة عليه ، وسيق أسراً إلى جانب أخيه وأبيه ، وكان المنتصرون يطدعون فى أن بجدوا هشاءاً المؤيد على قيد الحياة ، وقد سئل عنه سليان فتبرأ من دمه ، ودعا على بهم ، فضرب عنق سليان بيده ، وأخيه من بعده ، ثم أبيهما الشيخ ، وكان تقياً صالحاً ، بعيداً عن السياسة ، لم ينشبث بشىء من الدنيا ! . وحاول على فى البدء أن يكون معتدلا ، واتخذ جانب الأنداسيين ، رغم أنه نصف بربرى ، يستمع إلى شعرائهم مهما ، على قلة ما يفهم مما يقولون ، ويثيبهم سخياً ، وجلس بنفسه لمظالم الناس ، وهومفتم ح الباب ، مرفوع الحجاب ، للوارد والصادر ، يقيم الحدود مباشراً بنفسه ، ولا يحابي أحداً من أكابر

قومه ، ويعارض بشدة ما يقوم به البربر من نهب ، ويعاقب بتسوة على الجرائم ضد الممتلكات العامة مهما صغرت ، وأراد أن يعيد للقرطبيين ما أخذه مهم البربر ، ولكن طموح خران دفع به إلى أن يغير موقفه .

في الأيام الأولى أخلص خبران لعلى ، وكان في مقاطعته المرية يعاقب ويعتقل أو لئلك الذين يأخذون جانب الأمويين ، ومن هؤلاء ابن حزم على ما يقض لنا هو نفسه في كتابه « طوق الحمامة » ، ولو مضى خير ان في طريقه هذه، ووقف عند قدره، لربما أسهم في استتباب الأمن وعودة النظام ، ولكنه طمح في أن يمثل دور المنصور بن أبي عامر ، ولكن علياً رجل لا يقنع يما قنع به هشام المؤيد ، وخيران يعرف ذلك جيداً، ومن ثم عزم على أن يعيد الأسرة الأموية و حكم ياسمها، فبحث عن مطالب منها بالحلافة ، ووجده في شخص حفيد عبد الرحمن الأوسط ، وبحمل اسمه، ويقيم في بلنسية ، ووعد حماعة من الأندلسين بتأييده ، ومن بيهم المنذرحاكم سرقسطة ، وحليفه ريموندو كونت برشلونة. وعرف على أن رفاقه باعوه ، وأن شعب العاصمة يؤيد عودة بني أمية ، فقسا عليهم ، ورمى بهم بين أنياب البربر ، وأباح لهوً لاء أن يتصرفوا في قرطبة أجراراً ، كما لو كانت بلداً عدوا فتح عنوة ، وأعطاهم المثل من نفسه ، فصب على القرطبيين ضروباً من التنكيل والمغارم ، وانتزع السلاحمنهم ، وهدم دورهم ، وقبض أيدى الحكام عن إنصافهم ، وأغرم عاميهم ، وتوصل إلى أعيانهم بقوم من شرارهم ، فتحوا له أبواباً من البلايا أهلكوا بها الشعب ، وتقربوا إليه بالسعاية ، وفاضت لمدينة بالشرطة والجوسيس والوشاة ، وأصبح نصف السكان يتجسس على النصف الآخر، وباع كثيرون أنفسهم للحاكم، وساد العاصمة رعب أسود، وتزامل الفجور والمظالم ، ولزم الناس البيوت ، وتطمرو ا في بطون الأرض، وقل ظهورهم بالنهار ، وخلت منهم الأسواق ، فإذا دنا المساء ، وقل الطلب، : انتشروا تحت الظلام لبعض حاجاتهم .

واعتقل الأعيان ، وصادر أموالهم ، وامنهن بعضهم بالضرب، وفدوا

أنفسهم فأمر بإطلاق سراحهم ، فلما أحضرت دوابهم للركوب استوى عليها ، وأمرهم أن يعودوا إلى بيوسهم راجلين ، وأقسم أن بدمر قرطبة بعد أن يخليها من أهلها أو يقضى عليهم ، وأعفاه الموت من أن يعر بقسمه ، لأن فلاثة من عمار صقالبة القصر ، كانوا قبل فى خدمة الأمويين ، ويتمتعون بثقة على ورعايته ، قرروا أن يضعوا لطغيانه غير المحتمل حداً ، فقتلوه ليلا وهو فى حمامه ، وأراحو قرطبة منه ، وتردد البربربين مبايعة ابنه حاكم سبتة ، وأخيه القامم والى إشبيلية ، واستقر رأبهم على هذا الأخير ، وبايعه الناض بعدستة أيام من موت أخيه »

ودعا خيران ومنذر أنصارهم إلى اجمّاع كبير عقد يوم ٣٠ أبريل ؟ ومثل االفقهاء جانباً ملحوظاً فيه ، وقرر الموتمر أن تكون الحلافة بالانتخاب، واختاروا عبد الرحمن الرابع ، وتاقب المرتضى ، وكان يقيم فى بلنسية . وبعد اتخاذ القرار رحلوا إلى غرناطة ، في طريقهم إلى قرطبة ، وعندما وصلوا إلى أسوار المدينة تبادل المرتضى وزاوىبن زيرى حاكم غرناطة رسائل عنيفة ، وانتهيا إلى أن يكون السيف حكماً بينهما . وعبر الطريق أدرك خبر ان ومنذرأن المرتضى ليس الشخص الذي يبحثان عنه ، ولم يكن حق الأمويين في الخلافة يعنيهما كثيراً ، إنهما يقاتلان من أجل أموى يحكمان باسمه ، والمرتضى دون ما يطمحان ، بل وكان يملى علمهما آراءه ، فبيتا النية على الغدر به ، ووعدا زاوى بأن يتخليا عنه في اللحظة التي تبدأ فيها المعركة ج ولم يقدما على جر ممهما منذ البدء، وقاتلا أياماً ، ولم يستطع زاوى أن ينتصر ، فطلب منهما الوفاء بما عاهداه عليه ، فاستجاباً له ، وأسلماه سيفهما : ولم يوافق القواد على خيانتهما ، وغضب كثيرون . ومن هوالاء سليمان ابن هود وكان قائد الفرقة المسيحية في جيش المنذر ، وتبعهما البعض ، وانهزم جيش المرتضى بعد أن كان قاب قوسين من النصر أوأدنى ، وكان ابن حزم رفقة جيش المرتضى ، ووقع أسيراً . وقاتل المرتضى حتى بعد أن تخلي عنه الجانب الأكبر من قواته ، ودافع في شجاعة نادرة ، وأوشاك أن يقع

فی آیدی أعدائه ثم أفلت هار با ، ووصل إلی و ادی آ ش ، و هناك دس علیه خیر ان من قتله غدراً .

وانتهى خيران بانهيار حزبه ، وبجبنه وعار خيانته ، ولم يعد الصقالبة في حالة تسمح لهم بجمع جيش ، وأصبح البربر أعداؤهم سادة جنوب شرق الأندلس ؛ وحاولت قرطبة أن تأسو جراحها ، تأمل أن تعيش في ظل ملطة أقل طغياناً وأكثر سلاماً ، فقد كان قاسم بن حمود يؤثر السلامة ويميل إلى الراحة ، ولم يضف إلى آلام القرطبيين وتعاسبهم مزيداً ، وأراد لهم أن ينسوا خلافاتهم القديمة فاستقدم خيران وصالحه ، وأعطى زهيراً ، صقلبياً آخر كان والياً على مرسية ، مقاطعات : جيان وقلعة دباح وبياسة .

كان القاسم شيعياً ، أو على الأقل على صلة بالشيعة ، ولكنه لم يظهر ذلك ، ولا غير على الناص عادة ولا مذهباً ، وأمل الناس معه شيئاً من الهدوء ، وكان يعرف أن شعب العاصمة لايحبه ، فترك ذلك للزمن مخفف منه أو يأتى عليم .

كان القاسم يشك في البربر ، فبحث عن التأييد بين حماعات أخرى ، الشرى السود الذين كانوا في خدمة البربر والصقالبة ، وكون منهم جيشاً يحرسه ، وعهد إلى روسائهم بالأعمال الهامة ، فغضب البربر، وعرف أبن أخيه يحيى كيف يركب روح السخط فيهم ، وزحف بهم إلى قرطبة ، وأزاح القاسم عنها ، في عام ١٩٤ه = ١٠٢١م ، وعين نفسه خليفة ، وتلقب للعملي ، واستقر فيها بعد صراع مرير مع أبناء عمومته ، ثم تركها ولحق المحانه من مالقة ، ثم رده القرطبيون ثانية وقتل فيا بعد ، وهو يحاصر إشبيلية ، هوم الأربعاء ٨ من المحرم عام ٤٢٧ ه = ١٠٣٥م وانهزم البربر معه .

وظن القرطبيون أن الأمر خلص لهم ، فاتفق رأيهم على رد الأمر لبنى أمية ، وفى شهر نوفمر ١٠٢٣ م تألفت اللجان ، وبدأت المناقشات ، ووضع الوزراء أمام الشعب ثلاث شخصيات ليختار الخليفة من بينهم : سليان

ابن عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخما المهدى ، ومحمد بن عبد الرحمن العراقى ، وظن الزعماء أن سليمان ، ووضع اسمه على رأس الفائمة ، سيكون الخليفة المختار ، فأعد الوزير أحمد ابن بردة وثيقة البيعة باسمه ، وكان سليمان دون ما تصور أتباعه بكثير ، وعبد الرحمن فوق ماظنوا وتخيلوا .

كان عبد الرحمن لبقاً ذكياً ، وأديباً لوذعياً ، في العشرين من عمره ، ليس في بيته يومثذ أبرع منه منزلة ، نقلته المخاوف ، وتقاذفته الأسفار ، فتحنك وتخرج وتمرن فيها ، وقد نفاه الحموديون أيام دولتهم ، وسرعان أما عاد إلى قرطبة سراً ، فشاهد الفتن الحادثة بين البرابرة وأهلها ، وهم فيها بالوثوب ، وبث دعاته إلى أهلها ، فلم يصح له شيء مما أراد ، وأنكر الوزراء المدبرون أمره ، فتجردوا لطلبه وطلب دعاته ، وسجنوهم ولم يخرجوا من السجن إلا يوم جلوس صاحبهم عبد الرحمن هذا للإمارة . وقد أدرج الهذين يدبرون الحطط منافسا مخيفا لسايان ، ارتفعوا به في أكثر تقدير إلى المدبوي محمد العراق ، ولم يكن هذا يتمتع بأية شعبية .

أما وقدوش الوزراء من النصر فقد دعوا الحاصة والجند والعامة إلى اجماع يعقد في المسجد الجامع لاختيار الحليفة ، وفي اليوم المحدد جاء سلمان أولا، صحبه الوزير عبد الله بن محامس ، في ملابس فخيمة ، وعلى وجهه إبتسامة وضيئة ، وائة ا من اختياره، وتقدم إليه أنصاره فأجلسوه على مرتبة لاتصلح لأحد سواه. ثم أقبل عبد الرحمن في خلق عظيم من الحند والعامة ، وقد تكنفه أميرا الدائرة محمود وعمير في رجالهما ، شاهرين سيفيهما أمامه ، وما أن تجاوزوا عتبة المسجد حتى نادوا به خليفة وسط التكبير والهتاف ، فأسقط في يد الوزراء ، وخذلتهم حيلهم ، ولم يكونوا يتوقعون شيئاً كهذا ، ودخل عبد الرحمن المقصورة فبويع لوقته ، واستدعى سلمان ، وجيء به مهوتا ، فقيل يده ، وهناه فأجلسه إلى جانبه ، ثم وافي محمد بن العراقي أيضا

فقبل يده وبايعه ، وتمت البيعة لعبد الرحمن في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٤١٠هـ ١٠١٨م ، وحينئذ محا الوزير ابن بردة اسم سلمان من وثيقة البيعة ، ووضع مكانه اسم عبد الرحمن الحامس ، وتلقب بالمستظهر .

كان حبد الرحمن يعتمد على الشباب الصاعد من أبناء الحاصة ، فاختار وزراء له ابن حزم ، وابن عمه عبد الوهاب ، وكانا فيها يقول ابن حيان المؤرخ القرطبي الكبير «من أكمل فتيان الزمان فهما ومعرفة ونفاذاً في العلوم الرفيعة » ، وأبا عامر بن شهيد الشاعر الكاتب . وهوالاء رغم ما يتمتعون به من مواهب غير شعبيين ؛ وليسوا محببين إلى الفقهاء والمحافظين لارتقاء سلوكهم ، وتحرر أفكارهم ، واحتقارهم للعادات المتخلفة ، ولم أيغفر له أنصار سليان لعبته ، وانتصاره عليهم ، ونقمت عليه طوائف بغفر له أنصار سليان لعبته ، وانتصاره عليهم الذبن كانوا إلى مصحين معه الخرى اعتقاله أقاربه من بني أمية ، ومن بيهم الذبن كانوا إلى مرشحين معه التولى الحلافة .

ومن جانب آخر ساءت الحالة الاقتصادية ، وأغاض الشقاء الشامل كل بوادر الأمل ، وعمت البطالة ، وأصبح عامة الناس على استعداد فى أية لحظة أن يأتوا بفئوسهم على بناء المجتمع القديم ، واتخذوا من محمد ابن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر رئيساً لهم ، ورأوه أحق بالحلافة من غيره ، رغم أن اسمه لم ينطق به أحد ولا جرى فى خاطر ، لأنه إنسان عادى ، بلا مواهب ولا ثقافة ، ولا يعرف من الحياة غير الموائد الحافلة والنساء الجميلات ، ويرى فى نفسه غير مايرى فيه الآخرون ، فنقم لأن الحلافة تجاوزته ، وبيت النية على الثورة ، ودفع إليها بالعامة ، وكان قريباً منها ، مخالطها ويتودد إليها ، فهى ترى فحشه تقوى ، وجهالته حنكة ، واستهتاره تحرراً ، وفتح شهيهم للسلب والنهب ، وكل ما حولهم بجعل مها حقا مقرراً .

وانضم الحاصة إلى العامة بعد موت سليان ، جمع بينهما ابن عمر ان ،

1

شخصية خطرة ، كان فى السجن ، ورد إليه محمد الحاسس حريته فى لحظة تقوى مفاجئة ، رغم أن أصحابه حلروه منه : «إن مشى ابن عمران فى غير سجنك باعا بتر من عمرك عاما ! » . وبدأ ابن عمران يستميل رؤساء الحرص فاستجابوا له بسهولة ، لأنهم ناقمين على الحليفة ، فقد وصلت فرقة بربرية إلى قرطبة لتقدم خدماتها إلى الحليفة ، قبل إطلاق سراح ابن عمران بيومين ، ولأنه أحس بالحطر محدق به من كل جانب وفى كل لون ، فقد أكرم مثواهم ، وأنزلهم دار الملك ، فأثار ذلك غيرة رجال الحرس ، وزادهم ابن عمران إثارة ، ونزل بهم إلى العامة يقولون : وغي الذين قهرنا البرابرة وطردناهم من قرطبة ، وهذا الرجل يسعى فى ردهم إلينا ، وتحكيم من نواصينا » .

ورغم أن عبد الرحمن لم يكن قد صنع شيئاً بعد ، فقد اجماحت العامة القصر ، وحرروا الأشراف الذين كانوا في سجنه ، وفهم الحليفة أنهم يريدون رأسه فطلب النصح من وزرائه ، ولكن هو لاء كانوا بدورهم يفكرون في حياتهم ، وربما في الجماعة التي من الأفضل لهم أن ينضموا اليها ، وانتصرت الأنانية في أعماق الكثيرين ، فتركوا الحليفة لقدره ، وتسللوا عنه واحدا وراء آخر ، وسرعان ما أدركوا أنهم خدعوا أنفسهم ؛ فقد كانت السيوف بالأبواب تنتظر رءوس الحارجين منهم دون تميز .

وأراد عبد الرحمن أن يخرج من باب الحمام فأظهر له الحرام سيوفهم وأشبعوه سبا ، فعاد للقهقرى ، وترجل عن فرسه ، وتجرد من ثيابه ، حتى بقى فى قميصه واستخفى فى موقد الحمام ففقد شخصه ، على حين أخذ العامة والحرس يطاردون البربر فى كل مكان لجأوا إليه وبدأ الموت يحصد هولاء دون رحمة أو هوادة ، فى القصر أو الحامع ، الموت يحصد هولاء دون رحمة أو هوادة ، فى القصر أو الحامع ، و و فضح حريم عبد الرحمن ، وسبى العامة أكثرهن ، وحملوهن إلى منازلهم علانية ، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان فى مدة تلك منازلهم علانية ، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان فى مدة تلك الفتنة ، .

وانتصر محمد ، وبويع خليفة ، وتلقب المستكفى ، فى ٨ من يناير ١٠٧٤ م ، وقام محمد وعبر على رأسه بالسيوف مقامهما بالأمس من ابن عمه عبد الرحمن فى كل مكان، ابن عمه عبد الرحمن فى كل مكان، فوجدوه أخيراً فى أبزن الحمام، قد انطوى انطواء الحية فى مكان حرج ، فأخرج فى قميص مسود بحال قبيحة ، وجئ به إلى المستكفى فبطش به بعض الرجالة القائمين على رأسه ، فتهلهل وجه ابن عمه ، وأخذ فى تدبير سلطانه .

كانت إمارة المستظهر إلى أن قتل سبعة وأربعين يوما ، لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمت عليه جماعة ، ولاتجاوزت دعوته قرطبة ، وكانت سنه يوم قتل ثلاثا وعشرين سنة هجرية .

وكان على حداثة سنه ذكباً يقظاً ، لبيباً أديباً ، حسن الكلام ، حيد القريحة ، ملبح البلاغة ، يتصرف فيما شاء من الحطابة بلمية ورواية ، ويصوع قطعاً من الشعر مستجادة . وكان فى وقته نسيج وحده ، ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين ، فلم يأت بعده مثله ، وأورد لنا ابن بسام فى القسم الأول من ذخيرته طائفة من أشعاره قالها فى و حبيبة » بنت و مشنف » من سلمان بن الحكم ، وكان يحما ، وحاول خطبها من أمها فلوته ، وهي أشعار جيدة ورقيقة ، وتعكس نفساً شاعرة حقاً .

حاول المستكفى أن يصبح شعبيا ، فتلقى جميع الناس بالإيناس ، واستالهم بالأهوية، ورأى المال عزيزا فظن البشر الرخيص يقوم مقامه ، فكان يقول للناس أجمعين: ارتعواكيف شئم ؛ وتسموا من المناصب ما أحببتم ، فتسمى بالوزارة في أيامه مفردة ومثناة أراذل الناس ، وأخابث النظار ، وزعانف الكتاب والحدمة ، وأخذ الفقهاء أيضاً بحظهم من هذه المناصب ، وجاءوا في ذلك بطامة لم تسمع في الأعصر الحالية ، فأخطأوا وألحقوا بالدين وصمة ، وفتنوا بالمناصب العالية ، وشدوا أيديهم عليها ، واضطربت قرطبة وصمة ، وفتنوا بالمناصب العالية ، وشدوا أيديهم عليها ، واضطربت قرطبة مكثرة ما أصبح فيها من المردة ، وقبض المستكفى على جماعة من بني عمه من على جماعة من بني عمه

وحاشیته ،ومستشاری سلفه ، وفیهم ابن حزم، وابن عمه ، و سجنوا بالمطبق، آ و عاجل ابن عمه عبد العزیز العراقی فخنق ، وأمسی میثا ، ونعاه إلی الناس فلم نخف علیهم اغتیاله . و هرب آخرون حی لایواجهوا نفس المصیر ، و من بین هولاء أبو عامر بن شهید ، لجأو ا إلی مالقة ، وفیها استثار وا حاکمها محیی بن حمود لکی یضع حدا للفوضی السائدة فی قرطبة .

و فكريحيى طويلا ، وقبل أن يقرر اندلعت الثورة فى العاصمة فى ما يو انفق الملا على خلع المستكنى ، ونصحه الحرس بأن يهرب ، فاستجاب لهم ، وخرج على وجههوقد لبس ثباب الغانيات متنقبا بين امر أتين لم يميز بينهما لمرانه على التحنيث (التعبير لابن حيان!) ، وخرج عن قرطبة فات بأقليش ، فكانت دولته سبعة عشر شهراً ، صعابا نكدات ، سودا مشوهات ، فهمها استوصل بقية قصور الناصر بالحراب، وطمست أعلام اقصر الزهراء واقتلع نحاس الأبواب ، ورصاص القنى ، وغير ذلك من الآلات .

وكان المستكفى على أهل قرطبة محنة وبلية ، غفلا عطلا ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا من كل فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استجاز الصدقة ولم يلحقه الاعتقال على امتداد أيام الفتنة تحقيرا لأمره ، فكان يقصد أهل الفلاحة أوان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليما ومخاطبة . وكان معروفا بالتخلف والركاكة ، مشهرا بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عاهر الحلوة ، والجانب الوحيد الذي دخل التاريخ من بابه هو أنه والد ولادة ، الشاعرة الأدبية ، وصاحبة « الصالون » الأدبى الشهير في عاصمة الحلافة .

وخلت قرطبة من أى خليفة أو أمير أو حاكم على امتداد ستة شهور ، نعم كان هناك مجلس للدولة، ولكن حكم، أقرب إلى السوء منه إلى الصلاح ، وما كان لموقف كهذا أن يدوم طويلا، فالنهاية تقترب ، النظام القديم يغرق ، والجديد في طور التجربة، على حين يرى القرطبيون في الخلافة

أنها الشكل الوحيد القادر على إنهاض الدولة من كبونها ، ولكن من الذي يستطيع أن يقيمه ؟ وأين الأمير الأموى الصالح ؟. لقد حاولوا واختاروا أفضل أموى في هذا البيت ، عبد الرحمن الحامس ، ومع ذلك فشلت المحاولة . لابديل إذن يُعن أمير يعتمد على قوات أجنبية ، عنع السلب والاغتيال ، ويفرض الأمن والنظام وبحمى هيبة الدولة ، وليس بين الأمويين من يتوافر على إهله القوات ، ففكروا أن يعيدوا الحلافة بين الأمويين من يتوافر على إهله القوات ، ففكروا أن يعيدوا الحلافة إلى الحموديين وإلى يحيى بن على بن حمود ابالذات ، وبدأوا المفاوضات الى الحموديين وإلى يحيى من على بن حمود ابالذات ، وبدأوا المفاوضات كثيراً وربما داخله شيء من الشك ، فقبل عرض القرطبين دون أن يتحمس له كثيراً وربما داخله شيء من الشك ، فقرر أن يبقى حيث هو ، وأرسل إلى قرطبة قائداً بريرياً مع فرقة من الجنود في نوفير ١٠٧٥م .

وأظهرت الحوادث فيا بعد صدق حدسه ، فكره سكان العاصمة حكم الأفارقة سريعاً ، وأعاروا أسماعهم لصقالبة الشرق ، خيران والى المبرية ، ومجاهد والى دانية ، وكانوا يرسلون إليم : إذا أردتم أن تتحرروا فسوف فساعدكم ، ولم تذهب وعودهم عبثاً . وفي شهر ما يو ٢٠٢٦ زحف هذان القائدان إلى العاصمة في جند كثير ، وثار القرطبيون ، وعزلوا قائد يحيى ، وقتلوا عددا من جنوده ، وفتحوا الأبواب لحيران ومجاهد ، وعندما بدأ الحديث عن الحكومة اختفى كلاهما . خاف خيران من حليفه فيخانه وأسرع عائداً إلى المرية ، وظل مجاهد وقتاً في قرطبة ، ومالبث أن غادرها دون أن يعيد الحلافة ، وبعد رحيله قر رمجلس الشورى أن يتولى ذلك بنفسه ، رغم أن التجار ب السابقة أثبت فشل المحاولة ، لأن أى أمر أموى يلقى بالحلافة على رأسه ، وسط الحماهير الساخطة ، دون أن تدعمه قوات أجنبية ، مقضى عليه بالفشل مسقا .

ومع ذلك رأى المجلس بإيعاز من على بن جهور أقوى الأعضاء نه و ذا ، أن يقدم الحلافة لهشام ، الأخ الأكبر العبله الرحمن الرابع المرتضى ، وكان يَقيم فى حصن البونت لاجئاً منذ و فاة أخيه . وفي شهر أبريل ١٠٧٧ م بايعه أهل قرطبة ، وتلقب المعتضد ، أو المعتمد في رواية ، ومرت سنوات ثلاث قبل أن يستطيع التغلب على الصعوبات التي تحول دون وصوله إلى قرطبة ، ظل خلالها يتنقل من مدينة إلى أخرى ، وفي ١٨ ديسمبر ١٠٢٩م وصلت الأنباء بأنه هشاما سوف يدخل المدينة ، فخرح الحند لاستقباله ، وعلت الأصوات مرحبة به ، وامتلأت الشوارع التي سوف يمربها بالحماهير ، تو مل فيه أن يقيم حكرمة قوية قادرة. وما أسرع ما تلاشي الأمل ، لقد دخل العاصمة في زي تقتحمه العين ، و هنا وقلة و عدم رواء و بهجة وعدد و عدة ، فوق فرس دون مر اتب الماؤك ، بحلية مختصرة ، عار من أية هيبة ، يسير هونا ، والناس بهنئونه ولا يعلمون ما سبق لهم من المكروه به ، لأنهم يتوقعون أن تنهى النموضي

ولكن هشاما الثالث لم يخلق لمثلهذه الآمال العظيمة، فهو طيب و رقبق الحاشية ، كسول ومتردد وضعيف، لايقدر غير لذائد المائدة ، وأدرك الذين اختاروه أنهم أخطأوا الاختيار، وما لبث الجند أن ثاروا عليه وخاعوه ، وأخرج من القصر مع حشمه ، والنساء حاسرات عن وجوههن ، حافية أفدامهن ، إلى أن دخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أياما يتعطف عليهم الناس بالطعام والشراب، إلى أن أخرجوا عن قرطبة ، أياما يتعطف عليهم بالنغور ، ولم يزل بجول بينها إلى أن لحق بابن هود وكان متغلبا على سر قسطة وماردة وأفراغة وطرطوشة ، فأقام عنده إلى أن أو في غير ها من المدائن من باب أولى ! .

و مخاهه انقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتر سلك الحلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الحلائف، وانتر الأمراء والرؤساء من البربر والعرب و الموالى بالحهات ، واقتسموا ، خطبها ، وتغلب بعض على بعض ، واستقل أخبراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالحزى للطاغية (ملك المسيحيين في الشمال)، أن يظاهر عليهم أويستز علكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع إليهم البحر ملك

العدوة ، و صاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى ، فخاعهم وأخلى منهم الأرض (١)

ومع سقوط الحلافة أخذت حياة ابن حزم وجهة أخرى ، على نحو ما أشرنا إليه فى حياته ، لونت ذكره بظلال قاتمة ، ومزجت مشاعره بأحاسيس مريرة ، رغم أنه تخلى عن السياسة والوزارة ، وعكف على اللهر س والقراءة والتأليف و الحوار وطلابه ! .

⁽۱) المقرى ، نفح الطوب ، ج ۱ ص ٤٣٨ ، طبعة د / إحسان عباس .

ابن حزم ... قم إسبانية

للمؤرخ الإسباني : سانتشث البرنس

شهد ثورات قرطبة ، وجاءت نتيجة حيمية الاستبداد العامرى ، ورأى الحروب الأهاية التى تلها ، وعاش فى إسبانيا ممزقة ، تناثرت دويلات تحمل اسم ، الطرائف ، ، وفيا صب التيار الذى تكون خلال حكم المنصور بن أبى عامر ، وكان مستبدا ، وعمل والله ابن حزم وزيراً نه . ومن ثم قدر لابن حزم أن يواكب فترة حرجة ، شهدت الهيار الحلافة القرطبية ، وانحدار الأندلس تاريخياً . وكما يحدث فى أحايين كثيرة عبر التاريخ ، بلغ التطور الثقافي خلال المرحلة السابقة أوجه فى عصر الطوائف ، وهو أشد حيوية وأقل صقلا ، ومعاً حدث الانحدار السياسي والتفوق الفكرى ، وفي قاب إسبانيا هذه ، ممزقة ومشرقة ، رفرفرت شخصية العلامة القرطي خفافة وعالية ، وعكن أن تقارن بأعظم قمم الفكر الإسباني على امتداد كل العصور .

كان ابن حزم متكلماً وفيلسوفا ، فقيها وباحثا ، لغويا ومؤرخا ، شاعرا وناثوا ، عالم نفس وأخلاق ، ورجل فكر وعمل ، سياسيا وحالما . ويمكن أن يوضع إلى جانب أعظم كبار المفكرين والشعراء في العصور الوسطى . ولو قدر له أن يكتب في اللغة اللاتينية أو الرومانئية لمبلغ اسمه من الذيوع والشهرة ما بلغه دانى ، أو القديس توماس الإكويني. ولكن على العكس ، ومن الضروري أن نصرح به ، استطاع أن يبلغ هذه المرتبة العملاقة لأنه كان إسبانياً مستعربا ، ولو كان غربياً خالصاً في الأيام التي قدر له أن يعيشها لكان من الصعوبة البالغة بمكان أن يبلغ القمة التي حلق فوقها فكره ، لأن الثقافة الأوربية خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر ، وانسمت بالفجاجة ، كان ممكنا أن تدمر القدرة الحالقة عند حفيد الإيبريين الإسبان القدامي ، أبناء فرضة نهر ولبة Huelva

إن المعادلة الجبرية بين السلالة والأرض والوعاء الثقافي والتوتر التاريخي والحياة العائلية ، وكلها تلعب دوراً حاسما في ازدهار شجرة العبقرية ، معقدة للغاية ، ولأنها اكتملت حول ابن حزم استطاع أن يصبح على نحو ماكان عليه ، ولهذا نستطيع أن نفهمه فحسب إذا وضعناه وسط سلالته ، وعدنا به إلى أجراء عصره ، وتسربنا إلى أعماق شخصيته .

لقد حاول كربار المستشرقين تحايل هذه العناصر ، وتميز المستشرقون الإسبان من بينهم على نحو رائع ، ومخاصة ميجيل أسنن بلاثيوس ، وإميايو غرسية غومث . ولن أحاول اكتشافه الآن ، وأنا أرزح تحت أعباء سنن طالت ، لأن ذلك يكاد يدفع بي إلى حالة من الوجد أمام أعماله ، أويدعني تستحوذ على حماسة مبتدئ خطرة ، وكلاهما ــ الوجد والحماسة ــ أفسدا الفكر الحاد لبعض المدركات التاريخية في كتب ابن حزم ، وفي الاعترافات التقية المتأخرة للمفكر الأندلسي العظيم . ومنذ أن نشر أسين يلاثيوس شيخ المستشرقين الإسبان المعاصرين ، ترجمته لكتاب: والأخلاق والسر * مداواة النفوس»عام١٩١٦ ، والجزء الأول من دراسته عن ابن حزم وكتابه : ﴿ الفصل في الملل والأهواء والنحل ﴾ ونشره هام ۱۹۲۷ ــ وما أكثر الأمسيات التي شهدت فها أسن بلاثيوس يسود الصفحات البيض پتر جمته للكتاب، في مكتبه من شارع أنتشا Ancha ا-أحسست بالأهمية المتزايدة لهذه الشخصية الإسبانية المسلمة المنقطعة النظر ، وإحدى أفكاره عن الحروب الأهاية : ﴿ نُوارُ الْفَتَنَةُ لَا يُعَقَّدُ ! ﴾ باشرت تأثيراً حاسما علىموقفي منحرب الإخوة المنقاتلين في الحرب الأهلية الأخيرة، ۱۹۳۲–۱۹۳۹والیمزقت وطنی فی قسرة .وتوارد نی ذهنی تفکیر ابن حزم عنها ، وهو مصيب للغاية، وجرىبه قامي في مقدمة كنابي : « حول أصول الإقطاع ، وكتبته في مدينة بوردو بفرنسا ، بينًا الإسبان يتقاتلون في وحشية قليلة النظير . و فيما بعد ، عندما أعددت كتابي عن ﴿ إسبانيا الإسلامية ﴾ كان على أن ألنقى مع ابن حزم مز, جديد . واعترتني دهشة قوية عندما

تأكدت لى إسبانية مزاجه وشغلني الأمر مشتاقا ، فعرضت له في عدد من المحاضر ات ، وفي مقالين أو ثلاثة .

أحد كتب ابن حزم ، وهو وطوق الحمامة ، ترجم إلى عدد من اللغات الأوربية الحديثة: الإنجليزية والروسية والفرنسية والإيطالية، والإسبانية أخيرا. وهذ الساسلة من النرجمات توكد الاهتمام الذي أثاره الكتاب في ﴿ عصرنا خارج دائرة المستشرقين والعاكفين على الدراسات . لقد استطاع الفرطي، علامة عصر الطوائف، أن يصبح معاصراً، وأن يشد انتباه قطاعات عريضة من المهتمين بالظواهر الأدبية ، والمغرمين بالمشكلات التاريخية . وتقدم ابن حزم إلى المقام الأول من الهمّام المفكرين والمؤرخين والمُنتَهُمِينَ والباحثين، وحيى من ذو اقة الأطامعة الممتازة العارفين، بين الآداب القديمة على امتداد كل العصور ، يبرر اهتمامي بشخصه وبموالفاته ، ومع ذلك ذان أحلل لا هذا ولا ذاك . إن اهتماى -كمؤرخ - ينصب على انصهار واستمرار ما هو إسباني فيه ، وشدني إليه [ما يثيره من سوّال حين نضعه دخل النمط الحيوى لشبه الحزيرة الإيبيرية ،وارتباطهبه ، ارتبطات نستطيع أن نقول إنها دارجة مع إسبان آخرين من عصور متفاوتة جدا ، جاءوا قبل هذا القرطي المسلم، أو بعده، بألف عام، وكتابه عن الحبي كن أن يةرأه اليرم ملابين الغربيين في لغامهم القومية . و أنه مشكلة مسبقة تعترض طريقيي ، طرحها و عرض لها على طريقته أورتيجا إي جاسيت.

لقد شرفت در اسة و ترجمة «طوق الحمامة» إلى الإسبانية، والتي قام بها غرسية غوم،، بمقدمة للأستاذ العظيم أورتيجا إي جاسيت ، رحاول فيها أن يقدم تفسيراً حديداً للعصور الوسطى ، وكان قادرا بعمق نظرته ، وحدة ذكائه ، على أن يرى بوضوح، وسط الضباب الذي يحول بين الآخرين ، وأنا أحدهم ، وبين تأمل أسرا، الناريخ والحياة ، وأن يحدد مبدعا مرحلة ذات نتائج مأسوية بالمغة الخطورة في حياة أوربا ، على نحوما فرضها العصور الوسطى ، وكان الأمر ، مع ذلك ، مجازفة خطيرة ، وأو و تيجا

وحده يستطيع المغامرة بمواجهها بأطف وفى نجاح نجح فيما قدم لنا ، وليس مهما أن يكون نظرية لاتقبل الهجوم، وهو نفسه حدد لنا العلم منذ أعوام بأنه مصباح ينير المشكلات موضع النقاش، ولكنها أفكار كثيرة خصبة ، على المؤرخين أن يضعوها فى حسابهم فى قابل الأيام .

لقد حدد أوريتجا فكرته الحديدة عن العصور الوسيطة : و العصور الوسطى الأوربية لاتنفصل في الحقيقة عن الحضارة الإسلامية ، لأنها تقوم بالدقة على التعايش ، إنجابا وسلبا في الوقت نفسه ، بن المسيحية والإسلام فوق رقعة مشتركة تشربت بالحضارة الإغريقية الرومانية ، لقد كتبت هذه الكلمات التي تشير إلى العصور الإسبانية منذ ما يقرب من ربع قرن ، في مقال لى بعنوان : « إسبانيا والإسلام ، و نشرته في مجلة الغرب Occidente التي أسسها أورتيجا إي جاسيت ، ودعمها على امتداد أعوام طويلة ، وانتهيت فيه إلى أن إسبانيا برزت ثمرة اللقاء بين المسيحية و الإسلام على أرض شبه الحزيرة في حالى الحرب والسلم على السواء . وأنا الأنكر خصوبة التعايش بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى ، غير أني الا أقبل القول بأن المنعطف التاريخي للعالم المسيحي ، بكل ضبابه المتراكم ، وتطوره الحاسم ودوره في نهضة أوربا الحديثة ، كان وليد ذلك التعايش . و لكني أتمني بقوة أن يكون لهذه الصيحة العالية التي أطلقها أورتيجا دوى وأن تجد لها خارج إسبانيا صدى ، الأن المؤرخين حتى يو منا لا يقدرون الدورالذي لعبه الإسلام في التاريخ الأو ربى الوسيط ، ولا يعطونه ما يستحقه من اهمام .

و أخشى أن يكون أورتيجا قد ذهب بعيدا حين انهى إلى أن الحرمانية والعربية كانا و جسمين متشابهين للغاية فيا يتصل بموقفهما الحوهرى من الحياة » فى بداية العصور الوسطى. لأن من الواضح أنها مختلفان بدءا ، ولكن أحدا من المؤرخين لم يغامر بإبداء رأيه على غير أساس، وفي غير أناة ، عن نظرية و عدم المجانسة» إن از دراء أو رتيجا إى جاسيت للمؤرخين ظالم ومألوف، وجاء وليد إطلاق اسم هؤلاء على العلماء الموسوعيين الحاص، وهولاء

تعودوا أن يطلوا على التاريخ من وراء غمام، كخيل المصارعين حين تظهر فى حلقة مصارعة الثيران. ولأنه تعودعلى الحرية الرائعة لحركة الفلاسفة، الذين يستطيعون أن يمتطوا سراعا صهوة الأفكار المندفعة، ومن ثم فهو لايستطيع أن يقيم فى دقة مأساة المؤر خين ، تقيدهم الأحداث التاريخية فى قسوة، أحداث ليست هى التاريخ، ولكنها تصنعه وتحدده وتعتقله، وإذا كان بيننا كثيرون يستحقون أن تجلدهم بسياط نقده. فإن ذلك لا يعطيه الحق فى ان ياوح با ضد الحميع.

ويوكد أورتيجا ، وتأكيده مقنع ، و واقع أن الشعو ب ذات الثقافة البدائية (والتشابه في البدائية لايعدل -- في رأيي -- التشابة الحوهرى ، فشمة أنواع كثيرة من الرجود البدائي) كنت تشغل فراغا اجتماعيا ، على رقعة الإمراطورية الرومانية ، وسبقها حضارة بلغت قمة الرقى ، وللسب نفسه كانت اشد تعقيداً وأرقى صقلا ، ولكنه لم يقف عند حد التفرقة بين الاختلافات الكبيرة التي كانت نفصل بين القارتين قديما ، في عالم انعرب والحرمان . اختلافات الكبيرة خصبة ، ذات نتائج تاريخية بالغة الأهمية . ألا يبدر له من الأهمية عكان أن هولاء دخاوا عالماً ثقافياً ، تأثر بالشافة الجرمانية إلى حد بعيد، وهي حقيفة لاتقبل المناقشة ، ولا يمكن أن تنسى في عالم اليوم ، وأنهم دخلوها مخلوقات عارية ، تحت راية الرغبة ذاتها ، ووحدها ، وتدفعهم حقيفة أو الحوف - والحوف ، لكى لاننسى ، عامل تافه في الحدث التاريخي القوة أو الحوف - والحوف ، لكى لاننسى ، عامل تافه في الحدث التاريخي مقدس ، ودون أن يحملوا على أسنة رماحهم ، أو في أطراف سيوفهم "، أى كناب مقدس ، ودون أن يخفوانهمهم القرى في أن يصبحوا سادة البلاد التي فتحوها ، ودون أن يرفعوا علماً أية فكرة خصبة وجذابة وقادرة على أن تثير الحمية في نفوس الجاهير الغربية ؟ .

ولم يكن الدرب كذلك . لم يتوغلوا فى عالم العروبة ، باسم الرغبة الحالصة والوحيدة فى أن يصبحوا سادة بلاد الأعداء ، ولم يدخلوها عراة من الثقافة ، وإنما عبروا حدود الجزيرة العربية ليكملوا وصاة الرسول،

ولينشرو ا محد السيف عقيدة جديدة، ولأنهم ، بوضوح ، حققوا فتوحاتهم تحت راية عقيدة دينية ، وفتحوا صفرفهم فوراً للراغين في اعتناق الإسلام من أبناء الشعوب التي أخضعوها . وكانت خلافة دمشق في الحقيقة إمبراطورية سورية ، وخلافة بغداد إمبراطورية عراقية ، وكلاها محتمى بقبلة الإسلام . ولقد حاول العرب في البدء أن يستر دوا دفة الإسلام السياسية والاقتصادية عن طريق الحرب ، وانتهت بأن أشعل السوريون النار في المدينة المقدسة ، وفيما بعد لم تستطع القلة من العرب التي استقرت في البلاد المفتوحة ، وقد فاضت بسكانها ممن اعتنقوا الإسلام ، دين العرب ، في سرعة عجيبة ، أن تحتفظ الا بالقليل من تكوينها الحياتي الأصلي . و ممكن القول أن أبناء الشعوب المفتوحة هم تلذين صنعوا تاريخ الإسلام ، بيها واصلت أغلبية العرب حياتها في جزبرتهم شبه الصحراوية ، دون أن يتلقوا الحضارة التي صنعها المنحدرون من أصلاب الذين انهزموا أمام الإسلام .

لا أستطبع اليوم أن أقف مع الرأى القائل بأن أوربا الإقطاعية كانت عملا جرمانيا - كما كان يعتقد قديماً - ولكن من الضرورى الاعتراف بأن الجرمان ، بما فيم أولئك الذين ظلوا في مواطبهم البدائية الأولى فيما وراء نهراارين لم يكونوا بمنأى عن هذه المغامرة العملاقة الحلاقة ، على حين كان عمل العرب الحلص في تكوين حضارة وأسلوب الحياة الإسلامية محدودا.

وآسف لأنى استخدمت تعبير «أسلوب الحياة الإسلامية»، لأنى أشك كثيراً فى أنه يوجد فى الحقيقة أسلوب إسلامى للحياة . وقد دفع اعتبار الإسلام وحدة . وهرية وثقافية بأميركوكاسترو إلى أن يرتفع ببناء نظرية بالغة الضعف . ولقد تساءل أورتيجا إى جاسيت منذ أعوام طويلة : يا إلهى !... ماذا تكون إسبانيا هذه عو بالصر خة المأسوية نفسها يمكن أن نسأل : ما الإسلام ؟ . لأنى لا أو من بوحدة التكوين عندالشعوب التي تعبد الله الرحمن الرحيم . لاأستطيع

أن أوافق أورتيجا فيما وصف به ابن حزم من أنه عربى إسبانى، وأجروً على أن أناديه بما هو نقيض لقوله : إسبانى متعرب .

من الواضح أننا إذا احتفظنا بصفة وإسبانى » لمن عاشوا طبقاً لأشكال الحياة الإسبانية المعاصرة ، فإن مؤلف «طوق الحامة» ليس إسبانيا . وأسمح لنفسي أن أرد هنا على التحديد البسيط الذي اعطاه أميركوكاسترو لمفهوم وإسباني » . إذا أطلقنا لفظ «إسباني » على أولئكم الدين فكروا وأحسوا وعاشوا، على نحو ماكان شائعا في فترة ما من تاريخ إسبانيا ، مها تكن ، فإن أسلافنا من ثلاثة آلاف عكن أن ينكروا ، وبحق ، صفة إسباني على أورتيجا اي جاسيت ، وأميركو كاسترو أوغرسية غومث وأنا . لأننا كان فكر ولا نحس ولانعيش على نحوهم.

أعتقد أن الرجل هو التاريخ ، على حين يرى أورتيجا أن الشعوب تتغير معحركة الأجيال السريعة ، وأن الأمس نختلف دائما عن اليوم ، وأن اليوم يغاير الغلا ولا يوجد عصران إسبانيان مهائلان و ذلك يسمح لنا ، بل يضطرنا ، أن نعتبر إسبانيين كل أولئك الذين على امتداد التاريخ ، داخل إسبانيا وخارجها ، فكروا وأحسوا وعاشوا على نحو ما كان مألوفا إذ ذاك ، في إسبانيا الرومانية ، قبل فرياتو Viriato بزمن طويل ، وحتى بعد بريم Prim بقرون عديدة «١».

وأمر آخرلا يمت لذلك بصلة؛ أن يحدد ما إذا كانت هناك ملامح مشتركة ين إسبانيا الماضى البعيد . وأمس واليوم . والموضوع هام لكى تحدد بدقة قدر مافى موالف طوق «الحمامة» من إسبانية حقة . وثمة أخبار مثيرة لرحالة أفريقى من القرن السادس قبل الميلاد ، يروى أن سكان مرسيلية كانوا مغرمين بقص الحكايات والروايات ، ويمكن أن نجد شواهم الحرى كثيرة مشاسة .

⁽١) فرياتو أيبيرى تزعم الثوارفي غرب شبه جزيرة إيبيريا ضد الاستعمار الروماني، فدفع الرومان بمن اغتاله عام ١٤٠ قبل الميلاد .

⁻وبريم ، قائد عسكرى إسبانى ، اشتهر فىالحروب الأهلية التى سمت إسبانيا فى النصف الأولى من القرن التاسع عشر . (أانترجم)

ومهما يكن عدد الذين يمكن أن يتسع لهم هذا الباب ، فإنى لا أومن بأن للأرض أو السلالة تأثيراً حاسما عبر التاريخ ، ولا فى استمرار الحصائص الجماعية للشعوب إلى مالا نهاية .إن التاريخ وليدلعبة معقدة بين قوى مختلفة ، منها الأرض والسلالة ، وكلاهما يلعب ، بالطبيعة ، دوراً فعالا . والتركيب الحيوى للشعوب ليس خالدا ، لأنه يرتبط بالتطور الناريخي الحاص بكل شعب : ثباته أو تغير ماورث من مزاج ، واستمر اربعض الملامح المميزة لشخصيته والإيقاع الذي يسبر عليه في علاقته مع الآخرين أخذا وعطاء .

وليس صعبا و لا أجرو على أن أخط مخاطرة ، لأبها لم تكن كذلك ، فالتاريخ وليس المغامرة هو الذي سهل لطارق بن زياد ، وموسى بن فصر عبور مضيق جبل طارق – أن نوضح أن ، خصائص التاريخ الإسباني الوسيط حددت مسار تقدمنا التاريخي ، وجاء في زحف الساحفاة خلال حرب و الاستر داد اوليغفر لى أورتيجا أن أنقل عنه هذه الاستعارة القديمة التي استخدمها قبلي ، ولو أن محتواها يمكن آن يكون موضع نقاش . فنحن شعب أوربي ، أقرب مايكون عاضيه المتمز إلى أسلافه القدامي ، وقد مضت عليهم آلاف الأعوام وهي خصائص حاولت أن أوضحها مفصلة ، وأو دعتها عليم آلاف الأعوام وهي خصائص حاولت أن أوضحها مفصلة ، وأو دعتها كتاباً ضخما . وحتى خلال الحكم الإسلامي واصل الكثير من هذه الحصائص الإسبانية القديمة حياته ، لأن الإسلام الأندلسي اعتقل في ماضي سكان شبه الجزيرة الإيبرية ، لأسباب احتفظ بها الآن .

ليس السلالة أو الأرض إذن هما اللذان صنعا من مو عف طوق الحمامة» إسبانيا ، وإنما صاغه التاريخ من طين ولبة الإببيرية ، ومن دم إببيرى يتدفق عبر جدوده المولدين ، وهي حقيقة نسيت ، كما نسي من قبل أن نهر تنتو Tinto أقدم نهر إسباني .

وفى شعب يتقدم عبر التاريخ بخطى بطيئة ، ونقول هذا إبراء لذمة الإسبانيين ، فإن ثلاثة قرون غير كافية لتغيير التكرين المزاجى للمجموعة ولشحذو من أن تفكر مثل أميركو كاسترو فى أن إسبانيا إقد تعربت ثقافيا

وحيوياً بعصا سحرية منذ لحظة الفتح عام ٧١١ م. لقد كان التعريب الثقافى بطيئاً للغاية ، ويقول غرسية غومث فيا كتب من قريب : وبعد اكتشاف ه الحرجات ، الرومانئية للموشحات ، وشيء مثر من عبئات العصر الأدبية ، بدأنا ندرك اليوم بوضوح أهمية النتائجالي أدى إليها الازدواج اللغوى في إسبانيا الإسلامية ، وأصبحنا نعرف الرقعة المحدودة التي لاذت بها العربية الفصحي في نطاق الدولة ، وأما التعريب الحيوى لإسبان الأندلس فريما لم يتحقق أبداً ، إذا فهمنا من ، التعريب الحيوى به شئ يتجاوز اتخاذ العادات الحارجية للحياة اليومية . وفي كل الأحوال رأت إسبانيا الإسلامية شعباً يتحرك في تودة ، ليصبح هجين الفكر على مهل ، وطبقاً الإسلامية شعباً يتحرك في تودة ، ليصبح هجين الفكر على مهل ، وطبقاً لما قاله ، وكرره ، كل المستشرقين ،كانت الممافة واسعة بينه وبين لما هو شرقي حقيقي في كثير من مظاهر مزاجه ، ولقد أبرز غرسية غومث ه غربية ، شعور ابن حزم "، وأزاح ابن حزم نفسه السترعها خومث قال :

أنا الشمس فى أفق العلوم منبرة ولكن عبى أن مطلعى الغرب لا، فى ثلاثة قرون لم يكن مسلمو الأندلس قد أهدروا كل تراثهم من المزاج الإسبانى ، ومن ثم كان ابن حزم إسبانيا تعرب ثقافة ، ولم يكن عربيا إسبانيا . ابن أحد وزراء المنصور بن أبى عامر ، ذكناتور الأندلس ، وكان معاصروه وتلاميذه من شبه الجزيرة يرونه حفيداً لمولدين ، أى أنه ينحدر أباً من أصول إسبانية أسلمت ، وكانت الأم إسبانية على التأكيد ، لأن مسلمى الأندلس ، حتى الحافاء منهم ، ولدوا لأمهات ينحدرن من مسلمى الأندلس ، حتى الحافاء منهم ، ولدوا لأمهات ينحدرن من مسلات إسبانية عريقة ، فهم من هذا الحانب إسبانيون جميعاً ، ولكن ابن حيان المؤرخ ، وابن سعيد صاحب « المغرب فى حلى المغرب » ، يصرحان بأن ابن حزم كان كذلك من جهة الأب أيضاً .

يقول المثل الإسبانى: « أنت أشسبه بمن تعيش بينهم منك بمن وللت لهم»، أو هى فكرة لا يمل ترديدها ، فى كلمات أكثر نبلا ، أو لئك

الذين يعتقدون أن النربية تنتصر على الدم في تكوين الشخصية الإنسانية . ولكن حالة ابن حزم تقف عالية في مواجهة هذا القول ، فهومسلم ومتعرب حتى الأعماق ، ولكن روحه واصلت إسبانيم وون أن تنحرف . وما نعرفه عن الداخل الروحي للمفكر القرطبي العظيم قلبل جداً ، وقد توقف بإزاثه تلاميذه ودارسوه، في فطنة أحيانًا، وممز وجة بالغيظ أحيانًا أخرى. وكشف هو عنها في كتاباته ، وألف _ كما قلنا _حول موضوعات و فيرة التنوع ، من كلام و فاسفة وفقه وأدب و تاريخ وغير ها . وَلَكُن شَخْصَيْتُهُ تَبَدُو في قمة توهجها خلال ثلاثة كتب شهرة : ﴿ طُوقَ الْحَمَامَةِ ﴾ ، وفيه يلتقي الشاعر وعالم النفس البرسما لوحة جميلة للحياة العاطفية على أيامه . وكتاب « الفصل بين الملل والأهواء والنحل »، وهو تاريخ مقارن للأ ديان ، وفيه يدلق معارفه الواسعةمن الثقافات ، إسلامية وفار سية وإغريقية ومسيحية ولاتينية ويظهر عمق ذكائه الفلسفي، وقوة عقاه الحلاق. وكتاب « الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، ، وفيه أورد ملاحظاته على نفسية معاصريه موشاة بحكم أخلاقية ، واعترافات ذاتية صادةة ، تجعله صنو دممقريط Democrite ، وسينكا Seneca ، وتارة يشبه القديس أغسطن، أويذكر تيوفراست Teofraste ، أو يسبق في أفكاره بيكون Bacon أو لا بروير La Bruyére ، أو يبدو كما لو كان سافاً للشاعر الإسباني كيبيدو . Quevedo ، أو مواطنه المفكرأونامونو Unamuno (١) .

⁽١) • ديمقريط : فيلسوف إغريقي عاش قبل الميلاد ، وتُنهض فلسفته على السخرية من جنون الإنسانية .

سينكا : (٤ قبل الميلاد – ٦٥ بعد الميلاد) فيلسوف وخطيب ومسرحى إيبيرى ،
 ولد في قرطبة وعاش في روما ، وترك عدداً من إلوالفات الفلسفية والمسر حيات الشعرية وغيرها.

القدیس أغسطین : (۲۰۱ – ۴۳۰ م) ، راهب کاثولیکی ، من شهال آفریقیة ،
 ولد لاب وثنی ، وأمضی شیاباً متهتکا ، ابن من علاقة غیر مشروعة ، واتخذ من الرهیبة

وليس من الصحب أن نكتشف فى الملامح النفسية التى أوردها عنه من ترجموا له ، أو تناثرت فيا كتب لنفسه عن نفسه ، أو فى اعترافاته ، عمق حيويته الإسبانية ، ولكن ... فلنمض فى رحلتنا معه على مهل ! .

• من مدينة الزهر اء إلى الإسكوريال:

لطالما وجدتني مشدوداً إلى الموازنة بين تاريخ إسبانيا الإسلامية وتاريخها المسيحي ! .

ومنذ سنوات رسمت صورة لحقبتين من حياة إسبانيا ، تفصل بيهما قرون عديدة من الزمن ، وألوان مختلفة من الثقافات ، ولقد أبديت اهماماً كبيراً في دروسي ومحاضراتي بمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر تحت جبل العروس، من قبلة الحبل ، شمال قرطبة ، بين عامي ٩٣٦ و ٩٦١م، أي منذ ألف عام ، وما أكثر ما أشرت إلى بنائها تفصيلا ، في ضوء المعلم مات الضافية التي أوردها لنا ابن حيان ، المؤرخ القرطبي العظيم ، فقد ذكر الأعمدة ، عددها ، والرخام الذي استخدم فيها وثمنه، ونفقات قطعه وحمله وألوانه ، وعدد العمال الذين كانوا يشتغلون في البناء ، والدواب التي تستخدم وألوانه ، وعدد العمال الذين كانوا يشتغلون في البناء ، والدواب التي تستخدم

⁼ لباساً ، وأصبح من كبار رجال الدين الكاثوليك ، وبلغ في مجال الكتابة درجة عالية ، ومن أشهر موالفاته : إعترافات .

[•] تيوفراست : (٣٧٢ – ٢٨٧ ق . م) فيلسوف إغريقي .

بیکون : (۱۲۱۶ – ۱۲۹۶م) ، عالم وفیلسوف انجلیزی شهیر ، صاحب الذهب التجریبی نی الدراسة .

[·] لابروير : (١٦٤٥ – ١٦٩٦)كاتب وأخلاق وروائى ومسرحى فرنسى .

[·] كيبيدو : (١٥٨٠ – ١٦٤٥) شاعر وكاتب إسباني .

[•] أونامونو: (١٨٦٤ – ١٩٣٦) ، كاتب إسبانى ، فيلسوف وشاعر ، مسرحى ودوائى ، ومناضل سياسى ، ودنيا واسعة من الثقافة العريضة والعميقة ، غزير الإنتاج ، ويلتقى مع كاتبنا العظيم عباس محمود العقاد فى جوانب كثيرة، ويصلحان موضوعاً شيقاً لدراسة مقارنة (المترجم) .

فى النقل من بغال وجمال ، ومقدار ما تنقل ، وما يدفع لها وللعامل عليها مه كراء ، تجيء وتذهب في قوافل لا تنقطع بين قرطبة والزهراء ، محملة بالرخام والحيار والجص والأخشاب ، وكل ما يتطلبه البناء منمادة وأدوات. ولقد أسعدتى ما أثارته هذه الحقائق من دهشة بن السامعين . ثم وصفت لهم ِ فخامة قصر الخلافة ، وبني بأعلى الزهراء ، والحدائق الخضرة تطوق المدينة من كل جانب ، وتشغل ما بينها وبن مرتفعات الشارات ، وقد آنخذها الناصر « لنزله ، وكرسيا لملكه ، وأنشأ فما من المبانى والقصور والبساتين ما هفي على مبانهم الأولى ، وآخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات ، من آلات السلاح للحرب ، والجلى للزينة ، وغير ذلك من المهن ، . وكانت تضم منازل رجال البلاط ، وكبار الموظفين . وتأنيت وأنا أرسم صورة للبهو الأعظم ، وكان معداً لاستقبال السفراء والوفود وكبار الزائرين ، سقفه من الرخام المذهب ، وفرشت أرضه بالسجاد الفاخر ، وأقام له في رأسه كرسيا من الذهب الخالص ، وتوسطته بركة كبيرة من الزئبق ، وكان في كل جانب من هذا المحلس ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامع على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل حلى تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المحلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أوماً إلى أحد صقاليته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المحلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ عجامع القلوب ، حتى يخيل لـــكل من في المحلس أن المحل قد طار بهم ، مادام الزئبق يتحرك ، • وأنهيت وصفى لمدينة الزهراء بكلمات دامعة ، وقفت فيها على أطلالها ، وأسفت لتدمير السكثير من روائعها فى الثورات الني اجتاحت قرطبة بسبب دكتاتورية المنصور وأبنائه

من يعده.

وحدث الشيء نفسه في مدينة بونس أيرس عاصمة الأرجنتين ، عام ١٩٣٣ ، في محاضرة ألقيها عن و الحياة في قصور خلفاء قرطبة منذ ألف عام ٢٠ وفجأة ومض في داخلي خاطر ، وقفز فسكرى بعيداً ، في الزمان رني المسكان ، لسكى أنتقل إلى قصر ملكى آخر ، لأمراء إسبانيين ،أقيم على نح، ما فعل عبد الرحمن الناصر في سطح جبل آخر ، قريباً من عاصمة إسبانيا على أيامهم .

لقد حلق بى الحيال عالياً ، ومشدوداً إليه ، تجتاحنى مشاعر وذكريات ركنين فى وطنى البعيد والمعبود ، ولحظتان حاسمتان من تاريخه ، وجدتنى أقول :

ولاترد فى خاطرى مدينة الزهراء أبداً إلا وجمح بى حصان خيالى ، والآن ، كما يجدث دائماً ، انطلق بى تذكرها ، بأسرع مما ينطلق الفرس ، أوتندفع الرصاصة ، إلى سلسلة جبال وادى الرمة ، وعبر خيالى ، فى رحلة طائرة رائعة ، أشجار سلسلة جبال ومورينا ، ووديان ولامنتشا ، وقمم جبال طليطلة المتلاحة ، ومنعطفات مهر «تاجه» تطوق المدينة مثل حمائل سيف مفضض ، وقباب مدريد وغاباتها ، وناطحات سحابها ، لسكنى أتأمل فى هوق حزين قصور مدينة ملوك إسبانيا من أسرة أشتورياس : الإسكوريال ! ،

مدينة الزهراء والأسكوريال !، وليس ثمة تناقض أشد حدة مما بيهما فإلى جانب قصور خلفاء قرطبة ضوء أندلسي يعشى البصر ، وأرض ذات أسرار ، وخفرة شبقة ، وبرتقال وزيتون ، وحول قصور ملوك مدريد بلوط وصفصاف ، وأعشاب وزعبر ، وصخور شهباء ، وصقيع وبرد . وفي مدينة الزهراء رخام وفسيفساء، وزخارف فاخرة، وبرك وحمامات ، وقاعات مذهبة ، وفي الأسكوريال رخام ومعمار تحكمه هندسة دقيقة ، وصوامع غبرة ، وممرات عابسة ، وعنف . في مدينة عبد الرحمن الناصر وصوامع غبرة ، وممرات عابسة ، وعنف . في مدينة عبد الرحمن الناصر قصور ومساجد ، خصيان ونساء ، شعراء وجنود ، موسيتي وألوان

متوهجة ، وسجاد وحرير وعطور ، وأقوام تتحدث العربية ، وفي الإسكوريال ، مقر فيليب الثانى ، رهبان وراهبات ، وأغنيات دينية ، وعادثات هامسة كالصلاة ، وأردية سوداء من نسيج قشتالى ، وصمت وهدوء . في وشارات ، قرطبة الماذات وقسوة ، ودم وشهوة ، وعواطف متفجرة ، وفي وادى الرمة المثلج صلوات خاشعة ، ومشاعر مكهوتة وتصوف . وعلى منار مسجد الجليفة صوت المؤذن يدعو إلى الله الرحمن الرحيم ، وألسنة النواقيس في أبراج الدير الملكى ، في الإسكوريال ، وتدعو المؤمنين بابن الإنسان وابن الله إلى القداس . ليس ثمة تناقض أشد الحدة مما بين مدينة الزاهراء والإسكوريال ، ومع ذلك ، وكما يقول بيت من الأغنية الشعبية الأنداسية ، وثمة خيط خفي رفيع يصل بين الإثنين ،

نعم ، مدينة الزهراء والإسكوريال ! . كل واحدة منهما تمثل قمة مرحلة في حياة إسبانيا . كانت مدينة الزهراء ، في القرن العاشر الميلادي ، إحاضرة الأندلس ، وإسبانيا الإسلامية القوة الأولى في غربي البحر الأبيض المتوسط ، تملك مضيق جبل طارق ، وتسيطر على المغرب الأقصى ، ويطلب صداقتها والتحالف مع خلفائها إمبراطور جرمانيا ، وقيصر بيزنطة ، ويرسلان إليها السفراء والهدايا ، وقرطبة إذ ذاك أكبر مدن الغرب ، وأعظمها ثقافة وأكبرها غنى . وفيها نضجت الثقافة الأندلسية الراثعة ، وستأخذ موضع الأستاذ من أوربا الغارقة في الظلام ، وتدفع بها إلى أول وستأخذ موضع الأستاذ من أوربا الغارقة في الظلام ، وتدفع بها إلى أول جبال البرانس اقتصاد بدائى ، وكل النشاطات التجارية والصناعية خامدة ، جبال البرانس اقتصاد بدائى ، وكل النشاطات التجارية والصناعية خامدة ، كان يزدهر في شبه جزيرة إبيريا اقتصاد يستخدم النقود ، وتدعه حياة فاجحة متحضرة ، وصناعات متنوعة ، وتجارة نافقة يتجاوز الحدود لشاطها .

وعندما ارتفع بناء الإسكوريال كنلا فى القرن السادس عشر ، فوق صخور وادى الرمة ، كانت إسبانيا أعظم قوة فى العالم ، اكتشفناً

5-1

وغزو ناع أمريكا، وعندما انتصرنا على الأتراك في موقعة لبانتي lopante (١) ﴿ غير نَا إِلَى الْآبِدِ النَّكُويِنُ الجَغْرِ افْي الحضارةِ الَّتِي كَانَتْ تَعَيْشُ حُولُ البَّحْر الأبيض المتوسط ، وانحسر الإسلام ، وكان إحدى القوى العالمية في مطلع العصر الوسيط ، إلى المشرق وإفريقية ، وبدأت البابوية والإمراطورية ، شمسا سماء العصر الوسيط ، تدوران في فلك الشمس الإسبانية ، ففرنسا خصمنا مقهورة وعاجزة ، وتعانى من تدخل مدريد النشيط ، إ حتى أصبح ً الجنود الإسبان زينة باريس . وفي سلمنقة فتحت مدرسة فيتوريا Vitoria المحال واسعا أمام حقوق الجماهر ، وفي طليطلة يرسم الحريكو El Greco ، وفى أبلة تكتب سنتا تريز ا وخوان دى لاكروث ، وكان ثر فانتيس ولوبي دى فيجا في طو، التكوين ، وأنقذ علماء اللاهوت والمفكرين الإسبان القيم الأخلاقية الحالدة، وكان عصرالهضة ممثلا في شخص مكيافلي Machiavelli وبودين﴿Bodin قد ألقي بها في القاع ، وأنقذت أيضا سيادة الروح بعد . أن هددها انتصار العقل ، وأملت «حركة ٍالإصلاح ، في أن تكون سيطرته على العالم مطلقة . أي أن إسبانيا ولدت الحداثة ، واحتفظت ، مثل ما حدث فى أركا سنتا Arca Santa؛، بقوى كانت ضرورية للرجال في أيامنا هذه ، كترياق لشفاء العقل الحالص من الضلال ﴿. (٢)

عرضت لقمتين من من تاريخ إسبانيا المنتصرة ، حاكمة الشعوب ، ومبدعة الثقافات ، ولكن مدينة الزهراء والإسكوريال ير تبطان أيضا ؛ في ذاكرتي ، موازنات أخرى ، تتصل يحياة وموت عدد من الأمراء الإسبان . فعبد الرحمن

⁽١) ممركة بحرية جرت في خليج لبانتي عام ١٧٥١ [، أبين الحيش الممانى ، "وجيوش أوربا مجتمعة بقيادة دون جوان ملك النمساء، وقد أنزلت الأساطيل الأوربية الكاثوليكية المتحالفة هزيمة فادحة بالأسطول الممانى .

⁽٢) • الجريكو : (١٥٤١ – ١٩١٤) أَ، مِن أَشَهِرِ الرَّسَامِينَ فِي إَسِبَانِيا ، وَلَدُّ فِي جَزِيرِةَ كُويِتَ ، وعَاشَ أِفِي إِسِبَانِيا ، أِوتُوفِي فِي مَدِينَةً طَلِيطَلَةً ، وَلَهُ نَبِهَا مُتَحف خاص – به إيجيع درائع لوحاته .

الناصر مشيد مدينة الزهراء القرطبية أمر بإعدام ابنه عبد الله ، وفيليب الثانى الذى أقام مدينة الإسكوريال قرب مدريد ، سجن ابنه كارلوس ، وتركه يموت سجينا ، بل ويمكن أن أقوم بموازنة بين أمراء بنى أمية الأندلسين فى القرن العاشر الميلادى ، وملوك إسبانيا المتحدرين من أسرة أشتورياس فى القرن السادس عشر . لقد ورث كل من عبدالرحمن الناصر وكارلوس الحامس عن جدودهما ؛ إسيانيا متميزة وفريدة ، وواجه كل منهما مشاكل خطيرة ، وكانا محاربين قويين ، وعاشقين عظيمين ، محبان الحياة والمتع ، وانتصرا كثيراً فى ساحة القتال ؛ وهربا ، كل واحد منهما ، فى يوم مظلم كى ينقذ حياته وحريته . هرب الناصر فى شمنقش Simancas ، وهرب كارلوس الحامس فى إنسبروك ملاسل فى شمنقش Simancas ، وهرب كارلوس الحامس فى إنسبروك من المناقي فما من الحياة بعدها . وورث كل من الحكم الثانى وفيليب الثانى إمبر اطورية قوية عظيمة ، وكانا ينفران من الحرب على نحو متساو ، ولم يحدث أبداً لأى منهما، وهويدفع بحيشه للمعركة ، الدي الضريبة فى ساحة القتال لإله الحرب من دمه أور احته ، وأسهم فى أن دفع الضريبة فى ساحة القتال لإله الحرب من دمه أور احته ، وأسهم فى

سنتا تريز ا : (١٥١٥ – ١٥٨٠) ، راهبة إسبانية ، متصوفة وشاعرة وكاتبة ،
 تعرضت لملاحقة مستمرة من محاكم أ التفتيش ، وتركت وراءها عدداًمن الأعمال الأدببة الجيدة.

خوان دى لا كروث: (١٥٤٢ – ١٥٩١)، لاهوتى وشاعر ومتصوف إسبانى ،
 تأثر فى فكره بالفلسفة الإسلامية ، بدأ حياته يعمل ممرضاً فى مستشفى ، والتقى بسئتا تريزا ،
 واستجاب لذعوتها الإصلاحية .

^{*} ثرفاتتيس : (١٥٤٧ – ١٦١٦ م) ، أعظم روائى إسبانى ، وصاحب رواية * دون كيخوته » الحالدة ؛ ذات الشهرة العالمية .

لوبى دى فيجا : (١٥٦٢ – ١٦٣٥) ، من أعظم كتاب المسرح الإسباني، وأخصبهم
 إنتاجاً ، وترك وراه عددا كبيرا من المسرحيات تتناول موضوعات نخلفة .

[•] ميكافيل : (١٤٦٩ – ١٥٢٧)، كاتب وفيلسوف ودبلوماسي إيطالي، وأشهر موالقاته: • الأمير ، ويدور حول مبدأ الغاية تبرر الوسيلة في الحكومات والسياسة .

بودین : (۱۰۳۰ – ۱۰۹۱)، عالم إقتصاد فرنسی .

فى القتال بنفسه . وكانا محبان الورق والكتب ، فلم يفارق أولهما مدينة الزهراء ، ولا خادرالثاني قصره فى الإسكوريال ، وكان الحكم المستنصر ويبعث فى الكتاب إلى الأقطار وجالا من التجار ، ويرسل إليهم الأمو ال اشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهدوه ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد ممن قبله ولامن بعده » .

وأرسل فيليب الثانى أمبر وسيو دى مورالس Ambrosio de morales في رحلة ثقافية عبر شمال إسبانيا فجمع عددامن المخطوطات والموالفات والكتب لمكتبة الإسكوريال الغنية. وكلاهما عب مجالسة الأدباء والفنانين ، وكلاهما حرمه للقدر من ولى عهد قادر على حكم مملكته العظيمة. فهشام الثانى ولى عهد الحكم ، وفيليب الثالث ولى عهد فيليب الثانى ، كانا على السواء تقيين مصليين ، ضعيفى الإرادة ، حتى أنهما تركا حاشيتهما تتحكمان فيهما . ولا يمكن أن نقارن بهما المنصور العبقرى ، ولا المركز دى لير ما de lerma الأخرق، ولكن لا يمكن الإنكار أن خلفاء هما عجلوا بنهاية الأندلس وإسبانيا ، و دفعو بها إلى الهاوية والدمار . إنهم ، تم ذلك بإيقاع مختلف ، يتناسب مع ما اتصف به كل وزير والدمار . إنهم ، تم ذلك بإيقاع مختلف ، يتناسب مع ما اتصف به كل وزير من عبقرية أوحمق ، فكان صريعاً في إسبانيا الإسلامية بعد المنصور ، بطيئاً في إسبانيا الكافي ليكية بعد دى لير ما .

مدينة الزهراء والإسكوريال، عبد الرحمن الناصر وكارلوس الحامس، الحكم المستنصر وفيليب الثانى ، هشام الثانى وفيليب الثالث ، المنصور بن أبى عامر والمركبز دى ليرما ، ثمة خيط رفيع خفى يربط بيهم دائما ، في ذاكرتي، ولكن هذا التقارب يأخذ خطا متميزا فيا يتصل بعبد الرحمن الناصر وكارلوص الحامس : كلاهما يفيض قوة واندفاعا ورغبة فى العمل ، دلعتهما الآلهة ، ودللهما المحد ، وعاشا حياة عدنية ، أمضياها وهما فى قمة التمتع بالحب والرفاهية ، والقوة والثروة ، وقد عاش الأول أكثر من ٧٣ عاما ، يحكم منها ٤٩ سنة ، وترك مذكرة مثيرة ، كتبها بخط يده ، سجل فيها أيام مروره وصفوه وهى لاتزيدعن ١٤ يوما على امتداد حياته . وعزف فيها أيام مروره وصفوه وهى لاتزيدعن ١٤ يوما على امتداد حياته . وعزف

الثاني عن المحد أخرا وسجن نفسه في ويوست Yuste ، بانتظار الموت .

لقد ولدا لأبوين إسبانين ، ورغم الأصول المشرقية البعيدة لعبد الرحمن لقد ولدا لأبوين إسبانين ، ورغم الأصول المشرقية البعيدة لعبد الرحمن الناصر ، والأصل الفلمئكي لوالد كارلوس الخامس ، كان يوجه مصائرهما آروح إسباني أصيل ، تجمعت فيه كل عواصف الروح الإسباني وصراعه الداخلي ، واندفاعه المتصاعد ، وحماسته الفاترة ، ويأسه القاتم . كان يحكم كل منهما روح إسباني عبقرى ومعقد ومن ثم عاشا أسبرى رغبة نهمة لا ترتوى ، وقلق دائم لايتوقف ، وعاشا معركة داخلية معذبة . ماذا ينقصهما ؟ . . . والمنقصهما كل شيء ، لأن الإسباني الحقيقي الغارق في السعادة مظهرا ، يمكن المنقصهما كل شيء ، لأن الإسباني الحقيقي الغارق في السعادة مظهرا ، يمكن الأمان يتخله أحيانا من كلمات سخسم و ندو Segismundo (۱) المرعبة مثلا ينطبق عليه : و الحياة حلم » .

مدينة الزهراء والإسكوريال! لقد نهبت الأولى وأحرقت خلال الشورات القرطبية ، وأصبحت أرضها الجزينة اليوم مرعى للثيران الهائجة ، واستسلمت جدرانها لأساها العميق. بالأمس عظمة وبهجة وروعة ، واليوم خراب وأنقاض وبو من . ومنذ أعوام اكتشف بقاياها في سفح « سييرا ه ورطبة رجال عصر كان أكثر تطلعا إلى الماضي ، ربما خوفا من الغد ، لهم الملامح قاسية وموسية ، رجال كانوا يبحثون في الأرض عن إبقايا حضارات قديمة منسية ، ربما لأن هاجسا غامضا كان يوشوش في آذانهم بقرب نهاية العصرهم . أما الإسكوريال فلما يزل قائماً . فلتحفظه الآلحة من غضب الرجال ومن حنق زمان لا يرحم !

• إسبانية ابن حزم:

قاومت مؤلفات ابن ﴿حزم مِحن الزمن أكثر مما قاومتها مدينة ﴿الزهراء ، ﴿ اللهُ الرَّامُ الْإِنسَانَى تَتَمَيْزُ بِإِمْكَانَ ۗ الْخُطُوطَاتُ ، لأن رواثع الفكر الإنساني تتميز بإمكان ۗ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهِ اللهُ الله

⁽١) بطل مسرحية والحياة حلم ٥ [[الكاتب الإسباني كالديرون . [(المترجمة])

نسخها إلى ما لا نهاية ، وانتقالها وانتشارها عبر القارات والمحيطات ، حتى قبل أن تخترع الطباعة . وللمغامرة طموح ، ذلك أرأن « طوق الحمامة » ، وقد ترجم اليوم إلى معظم لغات العالم المثقفة ، أنقذه من الضياع ألم محطوطة وحيدة ومشرقية .

ولقد تضاعف وامتد قدر مؤلفات ابن حزم ، والأخبار التي نقلها لنا معاصروه ، والأوفياء له ، عن شخصه ، تسمح لى بالدفاع أعن حقبقة إسبانيته .

لقدأصبحت الكامة التي أرسلها عنه أبو العباس بن العريف المريي مثلاشاع عبر العالم الإسلامي كله : أو لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان »، ولأن الحجاج كان أشد قواد بني أمية في دمشق قسوة ، فليس ثمة مدح أعظم لكلمات ابن حزم القرطبي الحادة ، وقلمه الإسباني الصارم من هذه الكلمات المناحزم القرطبي الحادة ، وقلمه الإسباني الصارم من هذه الكلمات

يقول ابن سعيد (١) ، صاحب المغرب في حلى المغرب إن وكان المعرب عن علمه هذا من خالفه ، على استرسال في طباعه ، وبدل بأسراره، واستناداً إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده ، وليبينه للناس الما ولا يكتمونه ، فلم يك يلطف بما عنده بتعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل المحد يصك به معارضه صك الجندل ، أو ينشقه أحر من الحردل ،

ويقول عنه معاصره ابن حيان، ﴿ المؤرخ القرطبي العظيم : ﴿ ﴿ ... ﴿ حتى اسْتَهَدُفُ إِلَى فَقَهَاءُ وَقَتْهُ ، فَالأُوا ﴿ عَلَى بَغَضُهُ ۚ ، ۚ وَرَدُوا قُولُهُ ، وأجمعوا

⁽١) الواقع أن هذا النص ليس لابن سعيد ، وإنما هو لابن حيان ، وقد نقله هنه صاحب الدخير إن ، ونقله إبن سعيد عن الدخيرة ومنسوباً إليها ، أنظر : ﴿

المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٣٥٤ – ٣٥٥ ، [طبعة دار المعارف ، "الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ .

إبن بسام : الذخيرة إنى عامن أهل الجزيرة ، يقتسم الأولى ، إلهجلد الأولى ، من المدرج) . إ

على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطيهم من فتنته ، وجوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسبرونه عن بلادهم ، إلى انهوا به إلى منقطع أثره ببر بة بلده من بادية لبلة ، وجا توفى رحمه الله سنة ستوخمسين وأربعمائة ، وهو فى ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به ، ببث علمه فيمن ينتابه بباديته من عامة المقتبسين منه ، ومن أصاغر الطلاب الذين لا يخشون فيه الملامة ، محدثهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من النصنيف ، حتى كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير ، ولم يعد أكثرها عتبة بابه ، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة فى نشرها ، وجدالا للمعاند فها ، إلى ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة فى نشرها ، وجدالا للمعاند فها ، إلى

«وأكثر معايبه – زعموا – عند المنصف له ، جهله بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه ، وتخلفه عن ذلك على قوة سبحه في غماره ، وعلى ذلك كله فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه ، ومغيب شاهد علمه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسوال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء أي ولا يقصر عنه الرشاء ، ويتحدث ابن حيان أيضاً عن تعصب ابن حزم الأعمى لأفكاره ، ها

واليك الدليل على لذاعة قلمه ، يقول : ﴿ إِنْ كُلَّ مَدْبِرَ مَدْبِنَةُ أَوْ حَصْنَ وَالْبِكُ الدليل على لذاعة قلمه ، يقول : ﴿ إِنْ كُلَّ مَدْبِرَ مَدْبِنَةَ أَوْ حَصَنَ الله شيء مِن أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع أَنَى الأرض بفساد ﴾ . وينتقد بشدة من بمكن أن نسمهم بالكهنة ، وهم ليسوا كذلك في الحقيقة ، لأن الإسلام لا يعرف نظام الكهنوت ، ولكن يقترب من هؤلاء في واقعهم المسيحي علماء العقيدة أو الفقهاء المسلمين : وفلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه ، واللابسون جلود الضأن

على قلوب السباع ، والمزينون لأهل الشر شرهم ؛ إلناصرون لهم على فسقهم ، .

ولنستمع إليه يعلن الحرب على النفاق والكذب: وما رأيت أخزى من كذاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت المماك ، ولا سفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير الهائم والكذب ، ولا أكدت البغضاء والإحن المردية إلا ينهائم لا محظى صاحبا إلا بالمقت والحزى والذل ، وأن ينظر مما الذي ينظر إليه ، فضلا عن هيره إنه بالعين التي ينظر مما الكلب .

ونبرهن على إسهانيته الكيخوتية (١) من قوله: وحد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم ، وعن الحار المضطهد ، وعن المستجير المظاوم ، وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض ، وفي سائر سبل الحق ، مواء قل من يعارض أوكثر ، والتقصير عما ذكرنا جن وخور ، وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق ، ثم يضيف : و وأما الذي يعيني به جهال عرض الدنيا تهور وحمق ، ثم يضيف : و وأما الذي يعيني به جهال أعدائي من أني لاأبالي فيا أعتقده حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من على ظهر بالأرض ... فهذه الحصلة عندي من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها » .

و نكتشف مفهومه الإسبانى للعلاقة بين الإنسان والله فى قوله: و إذا لم يكن لك مندوحة لله عن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الحلق أو منافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم ، ولا تغضب وبك ولا تنافر الحق ه .

وإليك البرهان على احتقاره للعادات الاجتماعية ، وتفوره من خفة الذين

⁽۱) نسبة إلى دون كيخوته (أو كيشوته) بطل رواية ثرفانتيس الخالدة، وتحمل اسم البطل نفسه، وهو رجل كان يحلم بإشاعة العدل، ورفع الظلم، وتنظيم الكون، ثم رأى أحلامه تتهاوى حلماً وراه آخر

يعبدون الشطارة ، وينسون الطريق المستقيم ، إنه يعترف : « آبى لا أبالى الموافقة أهل بلادى فى كثير آمن زيهم الذى قد تعودوه لغير آمعنى ، فهذه الحصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل آلها ، ولعمرى لو لم تكن فى وأعوذ بالله ! لكانت من أعظم متمنياتى وطلباتى عند خالقى عز وجل . ويقول أيضاً : « إياك وأن تسر غيرك مما تسوء به نفسك فيا لم توجبه عليك شريعة أو فضيلة » . ويضيف ن : « وأما إحكام أمر الدنيا والتودد إلى الناس ما وافقهم ، وصلحت عليه حال المتودد من باطل أوغيره ، أوعيب أو ما عداه ، والتحيل فى إنماء المال ، وبعد الصوت ، وتسبيب الجاه بكل ما أمكن من معصية ورذيلة ، فليس عقلا . ولقد كان الذين صدقهم الله ما أمكن من معصية ورذيلة ، فليس عقلا . ولقد كان الذين صدقهم الله فى أنهم لا يعقلون ، وأخبرنا بأنهم لا يعقلون ، سائسين لدنياهم ، مشرين فى أنهم لا يعقلون ، وأخبرنا بأنهم لا يعقلون ، الكن هذا الحلق يسمى الدهاء ، ، وضده العقل والسلامة » .

ولنصغ إلى ثنائه الإسباني حرفياً ، وإلى ثرثرته الإسبانية العادية: ولكل شيء فائدة ، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ، وهي أنه توقد طبعي ، واحتدم خاطري ، وحمى فكرى ، وجميج نشاطي ، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لى عظيمة المنفعة ، ولولااستثارتهم ساكني ، واقتداحهم كامني ، ما انبعثت لتلك إلتواليف » . ويكتب كاشفاً عن موقفه الإسباني بإزاء الثروة : ووذمني أيضاً بعض من تعسف الأمور ، دون تحقيق بأني أضيع مالى ، وهذه جملة بيانها أني لاأضيع منه إلاما كان في حفظه نقص ديني ، أو إخلاق عرضي ، أو إتعاب نفسي ، فإني أرى الذي أحفظ من هذه الثلاثة ، وإن قل ، أجل في العوض مما يضيع من مالى ، واو أنه كل ماذرت عديه الشمس » .

ويقول معترفاً بغضبه الإسبانى ، وبما بعتمل فى أعماقه من صراع داخلى إسبانى : «كانت فى عيوب إقلم أزل بالرياضة واطلاعى على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين

فى الأخلاق وفى آداب النفس، أعانى مداواتها ، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه . وتمام العدل ورياضة النفس ، والتصرف بأزمة الحقائق ، هو الإقرار بها ، ليتعظ بذلك متعظ يوماً إن شاء الله . و فنها كلف فى الرضا ، وإفراط فى الغضب ، إقلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار ، وتحملت من ذلك ثقلا شديداً ، وصبرت على مضض موثم ، كان ربما أمرضى وأعجزنى ذلك فى الرضى ، وكأنى ساعت نفسى فى ذلك ، لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم » .

﴿ وَاللَّهُ ۚ أَبِوهَانَ شَعْرَى جَمِيلُ عَلَى اعْتَرَازُهُ الْإِسْبَانِي ، في مواجهة الحُسْد ، وهو إسباني أيضاً :

ولكن عيبي أن مطلعي الغرب أنا الشمس في جو العلوم منيرة لجد على ما ضاع من ذكرى النهب ولو أنبى من جانب الشرق طالع ولاغرو أن يستوحشالكلف الصب ولى نحو آفاق العراق صبابة فحينئذ يبدو التأسف والكرب فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم وأطلب ما عنه تجيء به الىكتب فكم قائل أغفلته وهو حاضر هنالك يدرى أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب له ، ودنو المرء من دارهم ذنب فياعجباً من غاب عنهم تشوقوا على أنه فيح مهامهه سهب وإن مكاناً ضاق عنى لضيق وإن زمانا لم أنل خصبه جدب وإن رجالا ضيعوني لضيع

أثنى المؤرخون الإغريق والرومان على وفاء الإسبان فى صداقتهم ، ويقول لنا ابن حزم فيما يتصل جذا الأمراز: • إنى جبلت على طبيعتين الإسهنفي معهما عيش أبداً ، وإنى لأبرم بحياً باجتماعهما ، وأود التثبت من نفسى أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لايشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التي لم تعزف جا نفسى عما درينه ، ولا تتطلع إلى عدم من

صحبته . وعزة نفس لاتقر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإنى لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذى لايكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر ، وحميت تفسى تصبرت وفي القلب ما فيه ، ويضيف ، في نبرة إسبانية أصيلة والحطأ في الحزم خير من الحطأ في التضييع ، وقد سبق كالديرون بقوله و العرض أعز على الكريم من المال . ينبغي للكريم أن يصون جسمه عاله ، ويصون نفسه الكريم من المال . ينبغي للكريم أن يصون جسمه عاله ، ويصون نفسه بعسمه ، ويصون عرضه بنفسه ، ويصون دينه بعرضه ، ولا يصون بدينه شيئا أصلا ، ويمكن أن نضيف إلى ما قال جملة جاءت على لسان بطل مسر حية وعمدة السلمية Alcaldede Zalamea هالك أرواحنا ».

لقد أحسب بسعادة غامرة ، لأن غرسية غومث ، وهو ناقد بصير وعلى معرفة واعية بابن حزم ، ارتأى إسبانية مؤلف الحوق الحمامة ، وأنه فى الحقيقة كان دون كيخوتة من القرن الحادى عشر . قاته قديماً ، واليوم أحاول أن أكتشف الكيخوتية الإسبانية فيه ، قبل أن يعرفها آخرون من شبه إلجزيرة سبقوا ألونسوكيخانو Alonso Quijano ، ومن يسرع لى دراسته يوفر على عملا يشدني إليه ، وأشك أنني سأكمله يوماً .

وضع غرسية غومث جملة : «تناقض جوهرى، عنواناً لفقرة فى مقلمته لترجمة الطوق ، وفيها كتب يقول « هذا التناقض الجوهرى المستمر، والإزدواجية غير المنصرة ، من اللطف والحشونة ، ومن العواطف الرقيقة والجافية ، ومن النبل والعامية ، تجعل ابن حزم من أحب الشخصيات إلينا ، لأنها تجعل منه قريناً لعظماء آخرين من مستواه ، عرفهم عصرنا اللهبى ، وفيهم تبدو الإيبيرية كاملة وقوية ، ولقد أشرنا من قبل عرضا الى جونجرة Gongora وكيبيدو ، ونستطيع أن نذكر آخرين ، ليس من ييهم ثرفانتيس ، قمة مثل لايتكرر ، وفيهم تلتقى تناقضات سلالتنا

الجلرية ، في تركيب إنساني مفهوم ، حلو وحزين.

وأنا أشارك غومث رأيه ، بعامة ، ولقد ربطت أيضاً بن شاعرنا كيبيدو وبنن أديبنا ابن حزم ، وأجرو على أن أقوم عموازنة خاطفة ، فيها بعد ، بينه وبين أو نامونو. لقد وضعت خطاً على مسئوليتي تحت الجملة السَّابقة من كارم غومث ، والتَّى تتصلُّ بدور ﴿الْإِبْبِيرِية ﴾ ، قديمة وثابتة ، في أخلاق ابن حزم ، لأنها يتقف في مواجهة فكرة أميركوكاسترو ، ألى تردمثل هذه الانصالات إلى النفاعل بين ما هومسيحي وما هو إسلامي، وإليها 'ينسب تشكل ما هو إسباني . لم أكتب كامات مترجم «طوق الحمامة » إلى الإسبانية ، لأني لا أعرف ما إذا كان هذا التناقض ممتد إلى أصول بعيدة جدًا ، 'ولكني حاولت ، على الأقل ، وفيا أعتقد استطعت أن أفهم امتداده خلال ماضينا ، عبر طرق تختلف عن طريق كاسترو ، وهي أمشتركة إلى حدكمبير ،؛ وفضلا عن ذلك فإنى أميل إلى عدم الاستخفاف بأن تشابه الصيع الجبرية ، في معادلة يَبن الروح والمشاعر والغرائز،" أو الأرواح الثلاثة بتعبير أورتيجا إي يجاسيت ، يولد تقارب الأمزجة إعند رجال من لحم "وعظم، والذين هم، وكانوا، الفلاسفة والفنانين والكتاب. لأنى أعتقد أن هوالاء لم يكونوا، وليسوا دمى يرمى بخيوطها إكائن ثقافى مجرد ، ولكن من الواضح أن تكرار عدد من أشكال هذه المعادلة الجبرية ، بين القوى الحيوية الثلاث، بين أعضاء جماعة تاريخية. و الإحصاء المطبق في التاريخ ، وأو أنه يبدو متناقضًا ، يثبت أتجاها مزاجيا ـ يصدر بالضرورة عن ملامح جماعية متأصلة في التكوين المعضوى للشعب ، ون تركيب يرتبط وراثة مع المراحل الأكثر بعداً في التاريخ ، وتمضى على امتداده ، كما هو واضح ، تغيراً وثباتا ، في إيقاع ونتائج مختلفة ، كالأنهار ، تتدفق مسرعة أوبطيئة ، وتمضى مستقيمة أو منعطفة ، وفي طريقها تخصب أوتدمر .

وفى موازنة مع كبار الشخصيات الأدبية الإسبانية في العصر الذهبي ،

يمكن ، على نحو ماكتب غرصية غومث ، أن نجعل له من السكرياء الإمباني نصيبا ، وأن نرد إليها أيضا وحدته الآدمية . ويضيف مترجمه: ولقد عرف مو الف كتاب « طوق الحمامة » كتاب « الزهرة » لابن داود الأصفه اني مباشرة . : . ولكن من واجبتا أن نضيف ، أنه بالرغم من الإشارات الحرفية القليلة ، ومن الاتجاه العاطفي المشترك ، فإن والطوق » بدين بالقليل جدا لكتاب « الزهرة » ، لأن النظرية فيه تغربت و تأسبنت ، وفقدت دلالها الرائع و تحذلقها الخنث . . . وماكان يقال في بغداد نثراً رائعا أو شعراً لاينسب لقائل ، كان يكتبه مو الف و الطوق » في شاطبة ساخنا وإنسانيا ، ويتخذ له المثل من حياته ، ومن حياة أصدقائه في قرطبة . لقد مزق مافيه من عاطفة وملل إسبانيين السياج الواقي للنبع ، وشربا منه ، كل على وجهه ، وخلطا هذين المصلين بدمه » .

ياله من برهان بالغ الروعة والجمال ، في جانب إسبانية مؤلف و طوق الحمامة ي أ .

ويدعم غرسية غومث رأيه بنقل صفحة من رسالة ابن حزم فى وفضائل أهل الأندلس ، وهى تذكرنا بلار الماله الاندلس ، الآية فى مرارة إسبانية ، على فقرة من إنجيل لوقا (الإصحاح السادس ، الآية الانحال : وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : ولايفقد النبى حرمته إلا فى بلده ، وولاسيا بأندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتى به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما فى سائر البلاد ؛ إن أجاد قالوا : سارق مغير ؛ ومنتحل مدع . وإن توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط . وإن باكر الحيازة

⁽۱) لار 1 : (۱۸۰۷ – ۱۸۳۷) ، كاتب إسبانى ، نشركثيراً من المقالات ، بتوقيع مسعار في صحف كثيرة ، وكانت مقالاته نقدا عبقريا ، و داميا للتقاليد المتخلفة في عصره . (المترجم) .

لقصب السبق قالوا: متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمن قرأ ؟ ولأمه الهبل ! وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه ، أوسلوكاً فى غير السبيل التى عهدوها ، فهنا لك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضا للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما غل ما لم يقل ، وطوق ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ولااعتقده قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرز ، إن لم يتعلق من السلطان شخط أن يسلم من المثالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض المثالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض عاصنه ، وسترت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتنكسر لللك همته ، وتكل نفسه ، وتبرد حميته ، وهكذا عندنا ، نصب من ابتدأ يحوك شعراً ، أو يعمل بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت، والمطفف المستول على الأمد » .

من الضرورى أن يفرك الإنسان عينيه بعد أن يقرأ هذه الصفحة الحزينة ، ليقتنع في دهشة بالغة لا يمكن إنكارها ، أنها خرجت من قلم ابن حزم ، لقد كتبها المفكر الإسباني ، والقلق يغمره ، بين على قلم ابن حزم ، فجاءت تعكس بلقة المناخ الكريه ؛ الطافح بالحسد ،الذي عاش فيه ، وتساير شموخ إسبانبا المعاصرة ؛ وحتى في عصور أخرى كثيرة من تاريخها في الماضي . لم تزدهر هذه اللبلامة الحبيثة جنوبي جبال البرانس فحسب، لأنها تنمو سريعاً خلال الأزمات وفي لحظات السقوط القومي ، في أي مكان ؛ ولكن لم محدث أنها تأصات وترعرعت وآفت أكلها كما في إسبانيا أهي ؛ مرة أخرى ، ثمرة مرة للسلالة والأرض الإسبانية ؟ لا إنها مرة أخرى ثمرة فاسدة لتأثير تاريخنا العريق والفريد في الإنسان الإسباني منصهراً ، وهذا حق! لتأثير تاريخنا العريق والفريد في الإنسان الإسباني منصهراً ، وهذا حق!

من طين شبه الحزيرة ودمها و كل الأحوال ، مرة أخرى ، دليل آخر واضح على إسبانية ابن حزم ، والذى كتب منذ قرون مضت ، فى مرادة عميقة وتشاوم أسود ، قبل أن تكون روح الإسبان ، كما يدعى كاسترو ، قد أصيبت بعدوى الحزن والحنق من يهود شبة الجزيرة الإيبرية ، عدوى بفسر بها (أى كاسترو) حتى الشعور عأساوية الحياة عند الإسبان ،

• مع ترجمة الطوق :

قلنا من قبل إننا نستطيع اليوم أن نقرأ طوق الحمامة ، جوهرة الأدب الأندلسي ، في اللغة القشتالية بفضل غرسية غومث . لقد عرض ابن حزم نظريته النفسية عن الحب في ثلاثين بابا ، مع ملاحظات دقيقة ؛ وفكر محلق ، يغزو ويشد على الدوام اهمام من يطل بين صفحاتة رغم أن وراء الكتاب ألف عام من التاريخ ، ووراء قار ثه تر اث هاثل من الثقافة الغربية ،

لقد أثار كتاب و الطوق ، كثير آ من المشكلات أمام الدارسين المحدثين ، ولكى يهي غرسية غومث القارىء لجولة أكثر فائدة عبر صفحات الكتاب، قدم له بدراسة عن ابن حزم اتكأ فيها على السيرة التي رسمها له العلامة ميجيل أسين بلاثيوس ، شيخ المستشرقين الإسبان ، وتصرف فيها إيجازاً أو إطناباً أو تقويما ، وفي كل الحالات دفع بين سطورها عزيد من الحياة ، لقد أغرانا إبالصورة السريعة والدقيقة التي رسمها لابن شهيد طفلا ، يظهر أمام المنصور بن أبي عامر ، وسوف يصبح فيا بعد شاعراً عظها ، يظهر أمام المنصور بن أبي عامر ، وسوف يصبح فيا بعد شاعراً عظها ، وصديقاً حميا لابن حزم ، ويسرحون شعورهم على أحدث نمط، وبهمون وصديقاً حميا بكل جديد ، ويعشقون الأدب والفنون الجميلة ، وقد انضم اليم مؤلف الطوق في اللحظة التي تجاوز فيها سن المراهقة، ولقد وعدنا غرسية غومث بدراسة عن ابن شهيد ، صديق ابن حزم ، تنتظرها في صبر نافد ،

وق أوضح لنا المثل الأعلى في الأدب لهذه الجماعة ، ذات الانجاه العربي ، تحتقر كل ما هو إسباني ، ولكنها قومية ، تحاول التغلب على التقليد الأعمى لكل ما هو مشرق. إ

ق وعرض غرسية غرمث للأحداث البارزة في حياة ابن حزم ، ورافق بطله في منفاه ، وفي بريق انتصاره ، وفي خيبة أمله ، وتغيير خط حياته ويشير مأخوذاً إلى جهده الثقافي العملاق ، وإلى صراعه ضد العواصف والأنواء ، وإلى روحيته الصافية ، وتحوله من مهيم إلى مُهمَم ، وموقنه مهزوماً مثل دون كيخوته ، وتعاور الحشونة والرقة عليه ، ونسيان المفكرين والكتاب المسلمين له ، إلى أن رد له العلم الغربي الحديث وبحق مكانته .

ثم حلل كتاب إو الطوق ، متعمقا ، ومحللا بمشرطه الدقيق النافة مختلف الجوانب التي يمكن أن تساعد على التقاط أسرار الحلق الفني عند ابن حزم . ودرس انجاهات المدرسة التي انتمى إليها ، وخطواته الأولى في عالم الكتابة ، ومن آبيها ما كان ميننديث بيدال Menendiz Pidal (1) يدعوه و المقطعات ، والطابع الشخصي الطوق ، وما يقدم من سيرة ذاتية لمؤلفه ، والصدق الأدبي عند مؤلفه ، وما أثاره ويثره من نقاش ، وما يتميز به في شعره من زهد وفلسفة ، في نطاق الشعر الغنائي الأندلسي وعرف بالطيش والشهوة ، والعفة الحالصة المستقيمة وسبق بها الشاعر الإسباني جونجرة . وهو كتاب عن الحب ، ويجب أن يقرأ بحدر ، رخم أنه كتب بنية صافية وطاهرة ، ودون أن يقصد المؤلف من ورائه غرضاً أنه كتب بنية صافية وطاهرة ، ودون أن يقصد المؤلف من ورائه غرضاً فاحشاً . ولكن تهب عبر صفحاته رياح من الشدوذ الجنسي ، ويتدفق عليها فاحشاً . ولكن تهب عبر صفحاته رياح من الشدوذ الجنسي ، ويتدفق عليها خيبة أمل إزاء أفكار ابن حزم وآرائه ومفاهيمه ، لأنها اليوم عادية وشائعة ،

⁽۱) مينندث بيدالى : (۱۸۹۸ – ۱۹۹۸) ، عالم ولغوى ومؤرخ إسبانى ، وله أبحاث هامة وجادة عن تاريخ أسبانيا فى العصر الوسيط ، فى جانبيها الإسلامى والمسيحى (المترجم) .

غير أنها كانت شيئاً جديداً وفذاً على أيامه ، أى منذ ألف عام . وحدة الإحساس بالجمال الحسى ، كقوة مبدعة عجالى الحب والأدب ، والعثور في وطوق الحمامة ، على صدى لأفكار أفلاطونية ، وأصل شعر الحب البغدادى ومفهومه ، أو الحب العذرى العفيف في المشرق ، وانتشاره في الأندلس حين التقطه ابن حزم هادياً لفكرته عن الحب، فيا يرى مترجم والطوق، وما آل إليه أمر هذا الحب فيا بعد ، حين غرق سريعاً في موجة المشهوة العارمة على أيام دول الطوائف .

ولــكن دراسة غرسية غومث لابن حزم وكتابه تحتاج إلى شيء من تعليق ، لنعرف على نحو أفضل ما هو إسبانى فى المفــكر العظيم والشاعر ، والذي ندين له و بطوق الحمامة ، ، إلى جانب الشخصيات الإسبانية العملاقة الأخرى ، التي تنتظم فى عقد منذ سينكا حتى أونامونو .

و بجب أن نشر إلى جملتين مما كتهما مؤلف والطوق ، وقد افتبسهما غرسية غومث، ولا تنس الجملة الى وضعت تحها خطاً فيا مضى ، وهما : ونوار الفتنة لا يعقد ، ولو أنه لأسباب بينة (١) لم يوضحها عندما التقطها، وعلى العكس مر بها سريعاً ، والحماتان تساعدان على فهم ابن حزم، وفهم إسبانيا الإسلامية أيضاً ، وكل تاريخ إسبانيا على اختلاف مراحله ، وقوله : أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولدكن عيبي أن مطلعي الغرب

ولقد جمعت عبارات ليست بأقل منها ارتجافاً فى شموخها ، كتبها مرسيال Marecial ، وابن قزمان ، ورايموند لل Raymund Lull (٢)

⁽¹⁾ يشير المكاتب إلى أن غرسية غومث كان يكتب فى إسبانيا الفاشية ، وقد انتصرت – مؤقتاً – بعد حرب أهلية طاحنة (١٩٣٦ – ١٩٣٩) دمرت إسبانيا تماماً ، وعلى امتداد أيامها ، التي انتهت الآن بموت الجفرال فرانكو و ١٩٧٧ ، كانت الرقابة على الفكر والفن عنيفة وقاسية ، وكان محالا على غرمث أن يوضح فكرته ، على حين أن سانتشث البرنس كان يكتب من منفاه في الأرجنتين .

⁽٢) • مرسيال ً: (٤٣ – ١٠٤ م) شاعر لاتيني ، وقيق وماجن ، ولك في مدينة بيهليس ، قلعة أيوب الآن ، في إسبانيا .

وآخرون من عمالقة الفحكر الإسباني و دبه على امتداد عصوره ، جملا كالتي كتبها ابن حزم ، تبين إلى أى مدى كان كبرياء الأقلية الإسبانية المثقفة يطاول الحسد الحقير الذي يجلدهم من كل جانب ولست أدرى ما إذا كان ابن حزم مصدر هذا الجلد الحاقد أو كان رد فعل ضاء و في المبيئة التما تمت التي وصفها لنا مؤلف و طوق الحمامة » في أستاذية قادرة ومحرورة ، عندما سخر من جمود و قصاب و ضميق أفق فقهاء المالكية في الأندلس ، وكانت الدولة على مذهبهم تقريباً ، و نعتهم بأنهم و أصحاب المذهب القديم ، ما الذي كان في حياة الإسبان الدينية ، قبله و من بعد ، المذهب القديم ، ما الذي كان في حياة الإسبان الدينية ، قبله و من بعد ،

ليستحترا هذا الوصف من ابن حزم ، وكان مؤمناً تقياً ، ومتادياً غيوراً ؟.

لقد أبرزغرسية غومث حرص مؤلف «طوق الحمامة » دائماً على شرفه ، وهذا الحرص حرك في داخلى سؤالا مقاتماً ، وموضوعاً مغرياً ، أما السؤال فهو: ماذا يفهم المسلمون بعامة من كامة الشرف ؟ . وأما موضوع الدراسة الذي عرض لى : إلى أي مدى أثرت غربية ابن حزم في إحساسه القوى بالشرف ؟ .

وأشار المترجم ، محتمياً بكناب ابن حزم ، إلى قضية تأثير الشمر الأناسى في نشأة الشمر الروة نسالى ، وهي موضع إنقاش دائم ، وذكر أن العثور على وخرجات » رومانثية في الموشحات الأندلسية بغر من مادة المشكلة ، ولكنه يصرعلى ما لطوق الحمامة من قيمة ، كنص هام للمتارنة بين المدرستين الشعريتين ، ويميل إلى تجنب المبالغات ،

ابن قزمان : (۱۰۹۸-۱۰۹۰ م) ، شاعر و زجال قرطبی ، ینتمی فی بیت بنی قزمان المریق ، و تراث الا ندلس .
 العریق ، و تراث لنا دیوان زجل کاملا ، الوحید من نوعه الذی و صلنا من تراث الا ندلس .
 و ایموند لل : (۱۳۳۵ - ۱۳۳۵ م) ، فیلسوف إسمانی من قطمونیة ، و کان پجیه المخمذ العربیة ، و فیها کتب بعض مؤلفاته ثم ترجها إلی لغته ، و تأثر بالثقافة الإسلامیة إلی حد بعید .
 (المترجم) *

ويرفض أن يقبل إنكار الشاكين. وأصاب عندما اتخذ موقفاً متعقلا ، لأن ظهوركتاب « قصة المعراج Libro de Escala » أكد فى فحواه نظرية أسين بلاثيوس عن التأثير الإسلامي فى الكوميديا الإلهية لدانتي ، واكتشاف الخرجات، وما حدس به خوليان ريبيرا عن وجود شعر غنائي رومانثي فى الأندلس يمكن أن يؤدي إلى نتائج مشابهة ،

وقله واجه؛ غرسية غوهث أيضاً نظرية أمبركو كاستروعن تأثير ﴿ طوق. الحمامة » في كتاب « الحب المحمود » ، وارتأى أنهما مختلفان جدا ، في خصانص وحياة وأعمال مؤلفهما : ابن حزم وكاهن هيتا . ووازن بن فقرات من و الطوق ، وأخرى من ﴿ الحب المحمود ، ، ولأن بعض هذه المشابهات بمكن أن بجيء وليد الصدفة ، والبعض الآخر يتصل بالجانب الأكثر إنسانية وشيوعاً في (الطوق) ، ومن ثم فالقول بتبعية الكتاب الثاني للأول مباشرة ابتسار ومغامرة . وأميل إلى أن أذهب بأبعد من ذلك إنكارا، وأشك أن أياً من الموازنات الخارجية التي قام بها غرسية غومت جاء صدفة ، لأن مصدرها ، فيما أرى، أن كلا من المؤلفين اندمج في بيئة حياتية تقترب كثيراً من بيئة الآخران، إلى ما بين الموضوعين نفسهما من تشابه . وفي فصل طويل من كتابي الذي أشرت إليه من قبل ، عارضت رأى أمر كو كاستروالراثع والملهم في كاهن:هيتا»،وشرحت رأيبي منخلاله ، وازددت به اقتناعاً بعد أن قرأت ما كتب غرسية غومث : « لابد أن كتاب ابن حزم الراثع كان محدود الانتشار ، فهو كتاب خاصة وصعب ، وتفصله عن كتاب (الحب المحمود » هوى حقيقية ، واختلافات فكرية»، وهذه الكلمات الدقيقة ، فيما يبدو لي ، تعكس رأيه السديد ، وتناقض ترخصاته الجدلية واللطيفة ، آلان قلة انتشاركتاب ابن حزم ، وصعوبته وأرستقراطيته ، لا تتفق مع الانتشار الواسع الذي يجب أن يكون عاناه ، عبر طرق ملتوية ، لكي يمكن أن يبلغ كاهن « هيتاً » .

وأرفض أيضاً انتراض كاسترو منأن ابن حزم ٥ كان يتحرك في عالم

مشبع بروحانية متصوفة» وعن الرأى الذى يقول بأن ابن حزم كان يمز ج الحب الإلهى بالحب الإنساني كتب كاسترو : « لا يوجد شيء في كتابات ابن حزم المتصلة بالعقيدة شيء عن الحب الإلهي في مفهومه الدقيق، بمعنى يلتقي مع مانفهمه نحن من استخدام هذا المصطلح ، ولا عكن أن تكون في الفقه الظاهرى » ت

ويرى غرسية غومث أننا حتى ولو استبدلنا كلمة هإلمى » بتعبير «وضعى» لا يمكن أن يتفق مع كاسرو ، وأنا أشاركه هذا الرأى . وأعتقد أن رأى غومث فى نظرية زميل مدريد القديم (أى كاسرو) غيركافية ، وأشهر إلى ما يظن أنه طريق المسلمين الإسبان بين ظلال ساهرة ، وافتراضه أن مفهومهم للحياة أنها تدفق أو انزلاق بين عالم هراب وظاهرى ، نظرية يدعمها كاسترو ويتخذ من استعارات طوق الحامة . إما أناحار أو ابن حزم . والقرطبيون من جيله يتقدمون على صفحات الطوق ، نحطى ثابتة على الطريق ، فى جو صفو وشفاف ، وأعين مفتوحة للغاية على الحقيقة ، ومشاعر تنضح دفئا وإنسانية ، بلا ساتر ولا ظلال ولارموز . واستعارات جميلة فحسب ، يلفها بخار رقيق من شعر ، لا بين الإسبان المسلمين ، وقص لنا ابن حزم حكاياتهم الغرامية ، ولكن بينهم وبيننا . ضوء ساطع فى مدينة من الجنوب ، وواقعية بذيئة و تافية أحيانا ، وذلك هو الجو الحياتي الذي عبر القرطبيون خلاله في « طوق الحمامة » ، والعالم حولهم لايتلاشي ، لأن حماسة حرة تدعمه ، على نحو ما يريد أميركو كاسترو .

لاأدرى ما إذا كنا نحتاج إلى الوقوف طويلا ، وفى تأمل وباهمام أكبر ، عند افكار ماسينيون عن الإبداع النبي عند المسامين ، وقد ترجم غرسية غومث هذه الدراسة منذ أعوام ، أفكار ما أكثر ما رجعت إليها ، وأفدت منها، أفدت منها كثيرا، وأتاحت لأميركو كاسترو أن يتعمق فى بعض القضايا التي درسها، وربحا لغرض لم يتوقف ليدرس مستوعبا موضوع هامين: أهمية طوق الحمامة لمعرفة الحياة فى قرطبة على أيام الخلافة ، ونظرية الحب عند ابن في حزم والمسلمين الأندلسيين. وقداهم المستشرق الفرنسي الكبير ليفي بروفسال،

الحسن الحظ ، بالموضوع الأول ، وشغل غرسية غومث ، وأورتيجا إلى جاسيت ، إبعدت فكرهما المعهود .

ولقه سبق ليفي أبروفنسال في مقاله: ﴿ نَزَهُمْ بِلا رَابِطُ خَلَالُ طُوقٍ الحمامة ۽ غرسية غومث عندما حاول تحديد الشخصيات الواردة في الطوق ا، الظاهرة والمغمورة ، والنقط بعض الأخبارالي وردت في الكناب عنتاربخ الأندلس ، وعن الحياة في قرطبةخلال عصر الخلافة . وليس من إهدفي الآن الحديث عن دقة إهذا التحديد ، "اولقد أظهرت أن ابن أبي عامر الختل الأعصاب ، والذي رأى فيه أمركوكاسرو أول « دون جران » ، لم يكن حفيداً للمنصور إبن أني عامر ، كما افترض كلا المستشرقين ، إليفي بروفنسال وغرسية غومت ، نعم تهمنا الأخبار الأخرى ، ولقد أنكر أسن بلاثيوس أن و طوق الحمامة ، دراسة نفسية ، وأوضح قيمته الناريخية وأفاد منها ، على حين يصرغرمية غومث وليني بروفنسال على أنه دراسة نفسية، وحاولًا أن يفيدا من المعلومات التي جاء إبها ابن حزم هنا وهناك، وحول نفس المسرح المذى جرت عليه الأحداث ، تراجم لآخرين أو لنفسه ، يأتى بهامثلا يدحم به تأملاته الدقيقة عن الحب. ومع ذلك يعترف المستشرقان الشهران كلاهما بأن الأخبار التي جاء بها طوق الحمامة عن أعاصمة الحلافة قليلة وموجزة، رالشيء نفسه بمكنأن يقال عما يقدمه لنا عن الأشياء بعامة. لقداعتاد ابن حزم، خلال أعوام صباه على الأقل ، أن يدقق النظر في الرجال أكثر مما يتوقف عند الأشياء التي يتحرك بينها هو"لاء ، ولم أر واحداً بين كل الذين اقتربوا من الطوق وقف عند هذه الملاحظة . وواقعيته ، وكناب ابن حزم كتاب راقعي رغم أنه دراسة نفسية ، واقعية روح أكثر منها واقعية أشياء خالصة ، واقعية عميقة الإسبانية أيضاً. ولقد أبرز دمسو ألونسو Damaso Alonso (١) ربحتي ماهو إسباني من هذه الواقعية ، بمناسبة حديثه عن ﴿ الْأُسْلُوبِ وَالْإِبْدَاعِ

⁽١) شاعر وكاتب وناقد ولغوىمعاصر ، وهو ا لآن رئيس المجمع الملكي اللغوى الأسباني.

في ملحمة السيد (۱)، ولكنها لم تكن مصحوبة عند مو الفنا بقدرة متكافئة، التلتقط في حساسية الواقعية الشفافة للأشياء التي في عالم ما حولنا . وليس في «الطوق » فقرة واحدة نستطيع أن نجد فيها حتى ولاظل واحدة من تلك السهرات الحمراء ، الواقعية التي نصطام بها أكثر من مرة في كتاب « الحب المحمود » لكاهن « هيتا » ، رغم محاولة أميركوكاسترو الفاشلة لربط كتاب القسيس القشتالي بكتاب الشاعر القرطيي .

• ابن حزم و الحب:

يو كلد أورتيجا إى جاسيت أن فقه اللغة العربية لم يصل بعد إلى تحديد دقيق لما يمكن أن يفهم من كلمة «حب» إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ، وطرح موضوع الحب بوصفه نظاماً واكتشافاً وقواعد إنسانية ، عندما عمر بأبيات ابن حزم الرائعة التي أهداها إلى صديق له ، ويقول فيها : أو دك وداً ليس فيه غضاضة وبعض مودات الرجال مر اب وأعضتك النصح الصريح وفي الحشا لودك نقش ظاهر وكتاب فلوكان في روحي هواك اقتلعته ومزق بالكفين عنسه إهاب فلوكان في روحي هواك اقتلعته ومزق بالكفين عنسه إهاب إذا حزته فالأرض جمعاء والوري هباء وسكان البلاد ذباب يأوافق على أن الرجل تاريخ ، وكذلك أفكاره ومشاعره ، ولكني أعتقد يأوافق على أن الرجل تاريخ ، وكذلك أفكاره ومشاعره ، هناك بعض الميول الفكرية أنه إلى جانب التغير الدائم في أفكاره و مشاعره ، هناك بعض الميول الفكرية والعاطفية تتجاوز حاود الزمن و القارات ، و ثمة غايات مثالية في الحياة ، علامات مضيئة تنبر الطريق أمام تقدم الرجال التاريخي ، إلى غد لما

وفى مقابل ما يفصل بين نظرية الحب عند مسلمى الأندلس، ونظريتنا نحن الإسبان الكاثوليك، أوضح أورتيجا إى جاسيت عدداً من التوافقات غير قلبل: كثير من علامات الحب الكاشفة «بهت يقع، وروعة

⁽۱) ترجمت فص الملحمة ، وقدمت لها بدراسة مستفرضة ، بعنوان : « ملحمة السيد » » ونشرتها دار المعارف بالقاهرة عام ۱۹۷۰

تبدوعلى المحب عند روية من عب فجأة ، وطلوعه بغتة »، وتأثير الحب الأول في الغراميات التالية ، و الاختلاس قمة الحب ... و بعض هذا التشابه يمكن ، مع أورتيجا ، رده إلى تأثير « مفاتيح الإيماءات الحسمية ويوجد داخلنا تحت تصرفها لنعبر عن نفسها » . ولكن عدداً من هده التوافقات أوتلك يمكن تعليلها دون أن ترد إلى هذا التأثير . أليس ممكنا أن نشك ، لنكمل نظرية أورتيجا ، ونختار أحياناً ، على العكس من مفاتيح الإيماءات التي تخدم الرجل ليعبر بها عن داخله ، انسجامات مختلفة لكي نحي بعض هذه المشاعر نفسها ؟ . لأنه فيما عشنا من الحياة ، أورتيجا وأنا، ولو أن تاريخي – وأستعبر الكلمة التي استخدمها أورتيجاعندما وازن بين عمره وعمر غرسية غومث – اقصر من تاريخه ، فقد كان أستاذاً وازن بين عمره وعمر غرسية غومث – اقصر من تاريخه ، فقد كان أستاذاً طرائق الحب ، وتجديداً في الإيقاع العاطفي القديم ، ولكني الأدرى ما إذا كانت أفكار الحب الجوهرية قد تغيرت حقا ، منذ أيام شبابنا – آى ! – البعيدة .

ورغم نائحات النقدم الحالية ، والظن بأن هذا يتم فى خط مستقيم ، وليس فى نسق تصاعدى مستمر ، فإن الرجل يتقدم ، ومع الرجل أفكاره ومشاعره ، نحوغايات مضيئة لما تزل بعيدة ، وحسبوا وقد تغشاهم سر اب أحمق ، أن هذة الغايات الأخيرة فى متناول اليد ، نمضى إليها عبر منحنيات حازونية معقدة ، ولكن دون أن ينحرف بنا الطريق أخيراً ، ولو أننا نعتقد أحياناً أننا نتقهقر حما نحومواض بليدة ، وبالطبيعة محدث هذا فى الحب أيضاً ، و عكن أن يبرهن عليه من يكتب ، فى غد أراه بعيداً ، التاريخ المقارن لأفكار الرجال عن الحب ، على نحوما كتب ابن حزم ، منذ تسعة أقرون تقريباً ، تاريخه المقارن عن الأديان . الله المنازية المنازية

نظرية ابن حزم ومسلمي الأندلس عن الحبلما تزل تنوء بالشذوذ المجنسي، هل كان مفهوم الحب هذا عاماً أيضاً على امتداد الخلافة،

وهي أقل تشبعا بالتقاليد الإغريقية والرومانية ، وأقل عدوى بالمشاعر المنتصرة في بلاط الأندلس؟ يبدو ليأنها تنتمي إن مجدوعة تقاليد البحر الأبيض المتوسط، والتي استقرت وتأصلت في إسبانيا الإسلامية على امتداد تاريخها . ولم يدرس المستشرقون ولاغبرهم - تي الآن ، وكاسترولايشك في أهمية المشكلة، السلسلة الطويلة من النتائج التاريخية للإسلام في إسبانيا، ولإسبانيا المسيحية، التي أدى إلمها اعتقال شبه جزيرة إيبريا عام ٧١١م ، وسط العالم القديم ، وظل أشد سرعة في حياته الألفية، وكان البحر الأبيض، ذو التاريخ العريق ، في خدمتها طريقا ومحورا ، وقدجعل منه الإسلام صلة تقارب بعد أن كان الهوة التي تفصل بين عالمين ثقافيين مختافه بن خالال قرون. وقد تأقلمت الحضارة الأوربية ، وبقيت إسبانيا متصرة في المنطقة، لأن الإرث الحيوى الكلاسيكي القديم ، واصل سبره على نحو أكثر تفجراً وقوة . ومن ثم حتى ولا مفهوم الحب المنتصر في ق طبة الخلافة، على أيام ابن حزم، بجب أن تكون له بالضرورة أصول عربية ، وتأريخ حيوية ماكان في إسبانيا قبل الإسلام ينتطر من يدرسه ، وقد حاولته في كتابي : ﴿ إسبانيا لغز تاریخی ، ، باستثناء ما یسمی بالحب العذری ، أو الحب البغدادی إذا شئت ، وشق طريقه نحو أقلية رفيمة الدوق من عباد الجمال ؛ ولكني إلاأعرف ما إذا كان الإحساس بالحب، وعنه كتب طوق الحمامة ، قد تأصل حقاً أم لا ،

نكى نفصل الحب الطروب Clortez : ونشأ في فرنسا مع نهاية القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر ، عن الحب العذرى ، وكان هذا أصلا لذاك فيما يرى المستشرقون الإسبان ، كتب أورتيجا : ﴿ إِن الحب الطروب ؛ حتى وهو شعور تاء ، طافح بالأشواق ، لا يتطلب تخليا ، وإنما يعكس رغبة كاملة » : ولقد قلت في كتابي ﴿ إسبانيا الإسلامية ﴿ : ﴿ توجد مسافة شاسعة بين مفهوم الحب عند ابن حزم والحب الصوفي العذرى، لأن ذلك لا يتطاب العزوف عن الرغبة » و بعد أن قرأت ﴿ طوق الحمامة » في

ترجمته الجديدة ، مازلت عند شكى في أن مؤلفه كان يطبق الحب العذري، أو البغدداي فيها يقال ، في حياته الحقيقية ، وإذا شئت لم يتخذه صراحة حتى ولا في الحانب الأدبي من حياته ، يقول في كتابه ﴿ طُوقَ الْحُمَامَةُ ﴾: ، إن الوقو ف عند حد الطاعة لمعدوم إلا مع طول الرياضة ، وصحة المعرفة، ونفاذ النمييز ، ومع ذلك اجتناب النعرض للفَّن ، ومداخلة الناس جملة ، والجلوس في البيوت ، و بالحرى أن تقع السلامة المضمونة ، أو يكون الرجل حصوراً لا أرب له في النساء». وبعد أن ذكر عدداً من الحالات المشرة في مقاومة الرغبة أضاف ﴿ وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون القبيح ، ويرق الدين ، حتى يرضى الإنسان في جنبوصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح ، . وعن نفسه يقه ل : ﴿ يعلم الله ، وكفي به علما : أني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، تقى الحجزة ، وإنى أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط، ولايحاسبني ربي بكييرة الزنا مد عقات إلى يومي هذا ، نعم ، إن فقه اللغة لم محدد مفهوم الحب في إسبانيا الإسلامية ، ولكنه سجل موقف الفقه المتسامح بإزاء الجماع المشروع عند المسلمين ، وقد كتب ابن حزم نفسه يقول: « لولا مكان هذا العنصر من الإنسان ، وأنه غير مأمون الغلبة ، لما خفف الله عني البكرين ، وشدد على المحصن ﴾ . وفي الباب الذي كتبه في «الطوق» وخصه بقبح المعصية ، اعتبر اللواط والزنا فحسب من الكبائر ،

ثم يقول فى كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » : وحد العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التى لاتحل لك فما عدا هذا فهو عهر ، ومانقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى فهو ضعف وعجز ، وأشار أسين بلاثيوس إلى أن ابن حزم فى معاداته للصوفية يعتبر العذرية عيب، والرهبنة نقيصة .

لو قرر أورتيجا أن يتسرب على مهل، حاملا عدسة مكبرة ، إلى كتاب و طوق الحمامة ، مكتشفاً ، ليدرس نظرية الحب في قرطبة الخلافة ؟

وقد أحس الرغبة في أن يقوم بها ، لحركة النسيج الجوهرى للكتاب ، فيما أرى ، أن ينظر إلى التفاصيل ، إذن لأنكر على ابن حزم و صفة عدرى ، ودون عدسة مكبرة يبدو واضحاً أن القرطبيين من عصره لم يكونوا كذلك أيضاً

لقد وشي ابن حزم نظريته عن الحب بأخبار مختلفة ، آنخذ منها مثلاً يدعم بها آراءه، وبأشعار جمية استدعتها المناسبة . و الأخبار التي جعل منها نموذجاً محتذى ، ترك سبرته العاطفية تتحرك حولها ، وكذلك الحياة العاطنية لأصدقائه ، ولقرطبيين آخرين كثيرين ليسوا دائمًا معروفين له . هذه الأخبار النموذجية التي وشي جا ابن حزم تأملاته عن الحب ، واتخذ منها مثلا ، لاتسمح لأميركو كاسترو بتأكيده الغريب من أن موالف الطوق كان يسرب حيانه الخاصة من خلال حياة الآخرين، وترجمة غرسية غومث تحت إمرة القراء الذين يتحدثون الإسبانية ، ومثلها الترجمات الأخرى في اللغات : الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، وبوسع الذين يتكلمون بها ، أويعرفونها ، أن يعودوا إليها ، وكلها تناقض نظرية كاسترو المغامرة . إن ابن حزم يذكر في كل خطوة الحبر الذي يمكن أن بدعم نظريته ، يشمر إلى أحداث وقعت في حياته ،أو في حياة الآخرين ، طبقاً لواقع كل حالة ، ولكن دون أذيتوغل في تراجم بعيدة عن ترجمته، وَيُوْكُدُ صَدَقَ الوقائع بشهادة شخصية منه ، لأولئكم الذين عرفهم ، أو يأتى بها متصلة الإسناد حتى يبلغ به من شاهد الحادث الذي ألمح إليه . وعندما يطل ابن حزم على حياة الآخرين فإنما ليؤكد ، في الواقع ، صدق ما يروى من أخبار .

ومجموعة الأشعار التي جاء بها في ٥ الطوق» تكون ديواناً كبيرا ، والجانب الأكبر منها ذو طابع فلسفي عميق ، وتفصلها طبيعة موضوعاتها الغزلية ، وألف هام من الناريخ ، عما ندين به لأونا مونو ، وأحياناً تقترب منه بثرائها وعمق تفكيرها . ولكن أونامونو لم يقع أبداً على كلمة نابية ،

أو تعبير فاحش ، أو فكرة خارجة ، وهو ما محدث لا بن حزم أحياناً ، فهو مثلا عندما يشير إلى حفيد الشاعر الجزيرى ، يقول عنه ، إنه و رضى بإهمال داره ، وإباحة حريمه ، والتعريض بأهله ، طمعاً في الحصول على بغيته من فتى كان علقه » ، أو «رشا» فيا يقال أحياناً ، وهى لفظة لطيفة ، تتردد كثيراً في الشعر العربي ، وتطلق على الغلمان ، فإذا تجاوزنا هذا الفرق فإن عمق الفكرة في القطع الشعرية الأندلسي الإيبيرى الذي عاش في القرن الحشرين ، تكمل الحادي عشر ، وللإيبيرى الباسكي الذي عاش في القرن العشرين ، تكمل التقارب بين هاتين القمتين من قمم الفكر الإسباني .

• غنيت بياقو تة الأندلس:

لقد اقتربنا من الربط بين ابن حزم والقمم الفكرية الأخرى في الأدب الإسباني ، وكما برهنا كان ابن حزم إسبانيا روحاً ودما ، وجدبراً بأن إيضم إلى خير من مجسدون الإسبانية ، على اعتداد كل العصور ، تطلع إلى المشرق كموطن لنسبه وثقافته ، واللهب إحساسه ببغض جارف لمسيحية شبه الجزيرة الإيبرية ، ولأنه إسباني حتى النخاع قفزت سهام فكره ، ونبال مشاعره ، فوق ورعه وثقواه ، لتواصل اندفاعها الثقافي والشعورى إسبانية خالصة ، إسبانية ألفية تضرب جذورها بعيداً في أعماقي ما قبل التاريخ وسأظهر ذلك يوما على نحو ما كان عليه، وأكرر ما قلت وكتبت التاريخ وسأظهر ذلك يوما على نحو ما كان عليه، وأكرر ما قلت وكتبت أفي مرات كثيرة ، عدد كبير من شخصيات الإسلام العظيمة في إسبانيا ، شخصيات الإسلام العظيمة في إسبانيا ، شخصيات الإسلام العظيمة في إسبانيا ، الإسباني ،

ولنذكر أن الملامح النفسية التي ينسبها إلى ابن حزم من كتبوا سيرته ، والصفحات التي خط عليها نفسه جانباً من سيرته ، تؤكد إسبانيته في عم : الشموخ ، والعاطفة ، والعنف ، وطلاقة اللسان ؛ واستقامة الكلمة ، والوفاء، وتحليق الروح نحو الله ، والقسوة في نقد الوطن ، وحب الحقيقة ، وشده الحاق ، والحماسة التي تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعا عن أذكاره وشرفه،

والنضال من أجل المثل العليا على نحو ما ناضل «دون كيخوتة » ، واحتقاره للمثروة فى مواجهة الشرف ، وكراهية النفاق ، واحتقار الماق ، والصلابة فى الشدائد ، وعبادة الصداقة ، وجود يبلغ حد السرف ، وسهولة الغضب، والبلاغة ... إنها إسبانية عريقة ، وتؤكد فى وضوح ، على الرغم من أسين بلاثيوس ، صدق ما قاله ابن حيان وابن سعيد عن أصوله الإسبانية ، وعن جدوده المسيحيين .

كان ابن حزم إسبانياً فى أخفى طيات أعماق روحه ، ومن العدل أن نضعه بين أسمى قمم الفكر الإسبانى على امتداد كل العصور ، لأن حجم وتعقد ونفاذ إنتاجه الأدبى والفلسفى والفقهـى والعقائدى يعطى له هذا الحق .

ليس ثمة حياة تشبه الآخرى ، إذا درسناها بوعى ناقد وجاد ، نعم، توجد بعامة مقابل ذلك أرواح متآخية ، أرواح شقيقة بين كثيرين من كبار الرجال في كل الأزمان، وفي كل البلدان . وتتقارب خاصة أطياف الأبناء الأكثر عبقرية في كل شعب ، تتقارب في خصائصها الجوهرية ، لأنها عندما تعرض النفسية القومية ، الدائمة والمتميزة ، ونمط حياتها الحاص ، فإنما تعكس دائماً الصورة نفسها في الجانب الآخر من المرآة .

سينكا مثلا لم يشعر أبداً أنه إسباني ، وحتى كتب مرة ضد البطل القومى الإسبانى العظيم فرياتو ، ولكنه ولد فى قرطبة ، وأثر أصله الأنادلسي فى إرثه المزاجى وفى تكوين شخصيته . وترد دراسات مومسن Mommsen فى إرثه المزاجى وفى تكوين شخصيته . وترد دراسات مومسن بواسييه G. Boissier ، بعض ودراسات أخرى معاصرة . وكلها دقبقة وموضع ثقة عظيمة ، بعض خصائص أعمال سينكا إلى أصوله الإسبانية . ويمكن أن نكتشف اليوم ملامح جديدة لإسبانيته ، حيوية ونفسية ، وأشرت إليها وأذا أدرس لغز إسبانيا التاريخي . ويتسع الأمر للظن بأن الألوان الى طبعت مذهبه الرواى تعود إلى صفحات كتابي الذي تعود إلى إسبانيته هذه ، وألح على القارى ء في أن يعود إلى صفحات كتابي الذي

ستظل هذه السلسلة مقطوعة إذا لم نضمها الحلقات الإسبانية الإسلامية ، وأحدهم مؤلف «طوق الحمامة » ، ولقد قلت من قبل : لو أن ابن حزم كتب مؤلفاته في اللغة اللاتينية أوالرومانثية ، للمع اسمه اليوم إلى جانب كبار الشخصيات الغربية في العصر الوسيط مثل : دانتي وتوماس الإكويني ،

وإذا كان ابن حزم بمثل حلقة السلسلة التي تبدأ منذكتاب إسبانيا الرومانيين حتى المفكرين الإسبان المعاصرين ، فإنى أتخيل مع ذلك أن هذا القرطبي المسلم ، وهوشاهد ناطق على أزمة الحلافة الإسبانية في القرن الحادى عشر ، يقترب بخاصة من أونامونو ، ذلك الباسكي القوى الذي عاصر سقوط الملكية الإسبانية ، في آخر الثلث الأول من هذا القرن . وأكرر لا توجد حياتان متشابهتان ، وإنما روحان متآخيان ، ولكن روحي هذين الإسبانيين الممتازين كانا توأمن ،

تعرف أوربا وأمريكا الفكر الملب لكاتب إسبانيا العظيم ، ذو التاريخ البعيد ، والكلمة المهاجمة ، والمطرقة العنيدة ، والقلم الحاد ، والاهتمامات الفكرية الحرة والمتنوعة والودود، وتمكنه المذهل من الموضوعات التي يعالجها ، وتمكنه من اللغة العربية ، وجدله القرى ، وعشقه للأحاديث الجادة ، وطلقات هنا وهناك ، وذكاو و الفطن ، واحتقاره للمسلمات والعادات الاجتماعية وكراهيته القوية للنفاق والرياء ، وأمانته الزوجية ، وحملاته على الفجور ، ورفضه الحاد والدائم ، وإصراره وتشدده في محاربة المظالم كلها ، ومقاومته المعنيفة ، وخلافه مع الذين حوله ، وحبه الحار المتدفق الناقد لإسبانيا . ومع ذلك ليس صعبا أن نقيم صلة قوية بين روح أو نامونو الملتب ، على نحو ما هو معروف لنا جميعاً ، وبين صورة ابن حزم الحلقية القومية ، كما تطل ما هو معروف لنا جميعاً ، وبين صورة ابن حزم الحلقية القومية ، كما تطل

واضحة من الآراء المختصرة والناقدة التيسجلها عنها معاصروه ، ومن سلسلة

الاعتر افات الذاتية التي خطها بقامه وعلى الجانب الآخر من هذه المرآة المردوجة الاعكن أن نكتشف في كل خطوة و الامح كثيرة من التحليل النفسي لأو نامونو المعتذكر الإطراء الذي يضرب به المثل ، لكلمات ابن حزم الصارمة ، ولقلمه الحاد ، وثناء ابن حيان و ابن سعيد على استقامة سلوكه ، وشمول معارفه ، وتطرفه في نقده للأندلس وطنه ، وإخلاصه دون تخفف ، ونقده اللاذع ، وتعصبه المنفعل في ونقرأ ثانية الكلمات الحادة للمفكر الأندلسي العظيم ضد الطغاة والقساة والفقهاء المنافقين ، وضد الكنب والرياء ، ودفاعه الحارعن واكتشافه المخلص المهمة بها أعداؤه ، وسخريته الجارحة من المداهنة والحيل ، واكتشافه المخلص لما يعتمل في داخله من صراع لكي ينتصر على غضبه ، وثناؤه المستطاب على الصداقة ، وكاماته الجميلة تعكس إحساسا مشوبا بكبرياء عنيف وصارخ . وتصريحه الجلي بأنه انتفع و بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ، وهي أنه : توقد طبعي ، واحتدم خاطرى ، وحمى فكرى ، وتهيج نشاطي ، فكان ذلك سببا إلى تواليف لى عظيمة المنفعة ، ولولا استثارتهم ساكنى ، واقتداحهم ذلك سببا إلى تواليف لى عظيمة المنفعة ، ولولا استثارتهم ساكنى ، واقتداحهم كامني ، ما انبعث لمن أنه أونامونو : و الحظ في الحزم خير من الحط في النضييع ، والخياف النضييع ، ما الخياف النفية في الخياف الخياف الخياف النضييع ، عدر جت من قلم أونامونو : و الحظ في الخير مخير من الحطأ في النضييع ، قد خرجت من قلم أونامونو : و الحظ في الخير مخير من الحطأ في النضييع ،

تقارب هذين الروحين الإسبانيين النوأمين ، يمضى إلى ما هو أبعد من الهذا . لقد تربى ابن حزم فى الإسلام المستقيم ، واتخذ من الظاهرية مذهبا ، وترى أن أى مسلم مومن بمكن أن يستقل فى البحث بنفسه ، خلال النصوص القرآنية ، عما يجب أن يعتقده ويعمل به ، وهو ما أصبح الدراسة المستقنة عند أوناه ونو ، ويراها أصل ومفتاح كل تفكير حر . وكلاهماكان يفيض داخله بتدين عميق وقاق يهزهما من الأعماق . ولم يحاول عالم القرن العشرين أن نحفى الصراع الذي يعتمل فى داخاه ، ويقول عنه الشاعر المشادو : «أن يكون منشئاً ويقول ، فيما أرى : الذي ، ويؤكد الشجاعة الإسبانية ، ولقد اكتشف قضية الندين فى دقة ، وتساح بثقافة واسعة لمو اجهة هذه المشكلة الكبرى . وحاول القرطبى المسلم فى العصر الوسيط قبل الإسلام فى المشكلة الكبرى . وحاول القرطبى المسلم فى العصر الوسيط قبل الإسلام فى

المشرق ، وقبل « المدرسية » المسيحية بزمن طويل فى الغرب ، وفى دقة أعبقرية ، أن يوائم بين العقل والعقيدة فى كتابه : « الفصل فى المللوالأهواء والنحل » وهوكتاب فى تاريخ الأديان المقارن .

والصفة القاسية: « دين القدامي » ، والتي نعت بها ابن حزم الأعمال الحاشعة في عصره يمكن أن تخرج من شفتي أونامونو.

وإذا كان أونامونو رجل امرأة واحدة ، وأحس بالنفور من و الدون جوانية ، ومن الفجور ، فإن الحب الرومانتيكي لابن حزم دفع بالمستشرقين إلى الحلاف حول أصل هذا الحب العاطفي لابن حزم ، ومن على شاكلته . هل هو حب عنسرى مشرق أم حب إسباني مستعرب ؟ . وكان هذا الحب بنرة خصبة أثمرت حب الفرسان في العصر الوسيط ، وربما كان ممكناً أن يكتب أستاذ سلمنقة ، أونامونو ، هذه الكلمات التي خطها القرطبي المسلم : « وما أستاذ سلمنقة ، أونامونو ، هذه الكلمات التي خطها القرطبي المسلم : « وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء في غيره ، ولا خلقن لسواه » .

ويتفقان أيضاً في حب الأبحاث المتصلة باللغة ، وأصبحت المتعة عند أو المونو « رغبة ملحة » وباهظة ، ولم تدع ابن حزم أيضاً يفلت من رشق سهامها ، فخصها مهتماً بلمحات نفاذة من فكره . وندين له بالفضل عن المعلومات المتصلة بالحلافات الصوتية للهجات العربية في إسبانياً ، وبتأملات حادة عن أصول اللغات السامية ، وبأفكار عيقة تتصل بها ، وقد أعاد نبريخا حادة عن أصول اللغات السامية ، وبأفكار عيقة تتصل بها ، وقد أعاد نبريخا دام الإمر المورية » . واللغة تسر في ركاب الإمر المورية » .

⁽۱) نبر يخا: (۱ ۱۶۶ – ۱۰۲۲) ، عالم إسبانى متخصص فى اللغات القديمة ، وأمضى حياته فى إصلاح تعليم اللغة اللاتينية ، وكتب حول موضوعات متعددة ، ووضع كتباً عدة فى قواعد اللغة الإسبانية ، واللغة اللاتينية ، واللغة العبرية ، عدداً من المعاجم ، ولكن أفضل مؤلفات : فن تعليم اللغة القشتالية .

وأونامونو يمكن أن يرد على المتعصبين ممن هاجمواكتبه ومنعوها ،على نحو ما كانت تصنع محاكم النفتيش ، بما قال ابن حزم من شعر فى ظروف مشاسة :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس بل هو فی صدری

يسير معى حيث استقلت ركائبي

وينزل إن أنزل ويدفن في قبرى

دعوني من إحراق رق وكاغد

وقولوا بعلم کی یری الناس من بدری

والا فعردوا في المكاتب بدأة

نکم دون ما تبغون لله من ستر ا

لقد أمضى هذان العظیان الإسبانیان شبابهما فى أتون من الصراع الدموى، ابن حزم فى قرظة ، بعد العام الألف من التاریخ المیلادى بسنوات قلیلة ، هزتها الثوزات ، و دمرت مدینى الزهراء والزاهرة ، وطوقها البریر فی ضراوة ، وأونامونو فى « بلباو » فى القرن الناسع عشر ، تحاصرها و تقاتلها جیوش دون کاراوس (۱). و لقرعاش رجل الباسك القوى بدایة الحرب الأهلیة الإسبانیة الأخیرة ، و عالى و یلاتها ، و شهد القرطبى المسلم من جانبه معارك المصبرالي لا تنتهى فى سنواته الأخرة ، والتى دمرت الأندلس فى النصف الأول من الترن الحادى عشر ، و كان رد الفعل عند كليهما و احداً ، نفس الروح النبيل فى مواجهة الماسى القومية الكبرى التى عاشها جيلاهما ، و أحس :

⁽۱) أحد المطالبين بعرش إسبانيا ، وأدخى سنوات عديدة فى حروب متصلة لا تنتهى فى السبانيا و مدينة قا بلباو ، عاصمة مقاطعة فسكايا فى شمال إسبانيا إحدى ثلاث مقاطعات للباسك ، أو الباشكنس كما تسميهم المراجع العربية ، وهم من أصل غير لاتيني و يتحدثون لغة غير إسبانية وغير لاتينية ، و يطالبون الاتن بالاستقلال ، و يخوضون من أجله معارك طاحنة مع الحكومة المركزية . (المترجم).

كلاهما بالتعاسة نفسها ، مولمة وظافحة ، أمام تمزق وطنهما على مرأى منهما ، أندلس الأول وإسبانيا الثانى . وأصاب الفياسوف المسلم و فكره أكثر من مكروب ، حين أدان الخلاف الدموى بين الإخوة ، في عبارته الجميلة ، والعميقة المعنى في الوقت نفسه ، وقد نقلناها من قبل ، والتي تعجب المفكر الحر في عالمنا الحديث ، دون ما شك ، إذا عرفها : « نواد الفتنة لا يعقد » .

وكلاهما ، مسلم قرطبة والباسكي من بلباو ، أحبا إسبانيا بعمق ، على الزغم من نقدهما العنيف لها ، ويقول متشادو عن أونامونو : « روح جنسه القاسي لما يزل نائما ، و يمكن أن يستيقظ يوماً تحت طرقات هراوته الحديدية ، و يمكن أن يقول الشيء نفسه عن ابن حزم : وكلاهما ، ابن حزم وأونامونو ، كان واقع إسبانيا يشيع الألم في أعماق قلبه ، وسبق كلاهما كل شعوب الأرض في كبريائهما المتشابه ، فأونامونو صاح يوماً ، كلاهما كل شعوب الأرض في كبريائهما المتشابه ، فأونامونو صاح يوماً ، دفاعاً عن وهن وطنه : « فليخترعوا هم ! » ، والشاعر القرطبي كتب هذه الكلمات :

ويا جوهر الصين سحقاً فقد في غنيت بياقوتة الأندلس يا قوتة الأندلس ! ، أصاب ابن حزم كبد الحقيقة شعراً ، حين شبه وطنه الإسباني بهذه الجوهرة الكريمة التليدة . ياقوتة الأندلس ! ، شعلة من عاطفة متأججة ، أو حب ملتهب ، و دم يغلي في العروق يدفع إلى الحياة والعمل ، أوير اق فوق كل البحار والقارات ، دون كيخوته يدافع عن مثل عليا مجنونة ، ومضات تطهر خطايا الإرادة ، وتحرق في الوقت نفسه حصاد الفكر . غنيت بياقوتة الأندلس ! ؛ واجب كل إسباني أن يهمهم بها الآن ولو للحظة ، ففها شفاء للذين يعبدون كل ما هواجني . ويا قوتة الأندلس البست ياقوتة المسلمين ولا المسيحيين ، وهي أخيراً ، يمكن أن ترمز إلى الحياة التي ليست ركوداً شاحباً ، وإنما اندفاع خالق ! .

قلت فيا سبق إن ابن حزم لم يكن الحاقة الإسلامية الوحيدة في السلسلة.

التي تبدأ مع سينكا حتى يومنا ، كان ثمة مسامون كثيرون يمكن أن تضمهم هذه القائمة من البراث الرائع ، أسهموا عما هو إسباني بين من أمزجتهم ، في بناء الحضارة العربية وثقافتها العظيمة ، وأكملوا رَسَالَة جوهرية مَن الحفاظـ على الحياة الفكرية وتنميتها في عالم حوض البحر الأبيض المتوسط ، على حين كانت المسيحية تاب بطيئة عبر منطقة مظلمة من منعطفات التاريخ، ومن ثم فإن ثقافة الغرب لم تخسرك الجهد الخلاق للمفكرين والفقهاء والشعراء والعلماء في إسبانيا الإسلامية، لأن هذه وقد تمثلت الثقافة الإسلامية المشرقية ، التي احتفظت بما هو جوهري من الحضارتين الهلينيةو المفارسية، أضافت إليها أفكارها المشبعة بما هوغربي ، وعبرت بها إلى الأقليات المثقفة شمالي جبال البرانس ، بفضل ترجمات « مدرسة المترجمين » في طليطلة ، فقدمت خدمات هائلة لأوربا ، مصدر ثقا تنا العريقة . وعندما أتأمل سمو الفكر عند ابن حزم ، في كتابه : ﴿ الفصل في الملل والأهواء والنحل ﴾ • وسبق به بما يقرب من نصف أ ف ع م المغامرات الأور بيةالشبيهة، و لأعمال الثقافية الأخرى المماثلة ، لعظماء آخرين من أبناء الأندلس ، مثل ابنحزم إسبانيين أصولا وروحاً ، يتمفز دائماً في أعماني سوال محمر ، ويؤكله دواماً نظريتي فيما يتصل بالانحراف المأسوى لقدر إسبانيا نتيجة اعتتاقها الإسلام ؛ كلها تقريباً . كيف لا نسال مام إ بانية ابن حزم الواضحة ، وإسبانيين آخرين في مثل قامته ، وأمام سمو عبقرياتهم ، ماذا كان يمكن أن يصبح عليه عمل المفكرين والمؤرخين ورجال العقيدة والفقهاء والعلماء والكتاب من الإسبان ، في إنضاج الثقافة الغربية خلال العصر الوسيط، لو ظلوا منتمين لها ولم يبتعدوا عن هذا الجر الثقافي ذات يوم من عام ٧١١م ؟ وعندما أحصى الأعمل التي قاموا بها على امتداد حياتهم ، وكل إسبانيا الإسلامية ، و هم على هامش العالم الغربي المجاور ، وبعيداً عن مركزه ، طوال مصور النباور الحاسمة ، أحس بالغم دائماً ، لأني أدرك الأذي الذي لحق بوطنی عندما فتحه الإسلام وحکمه .

غرامیات ابن حزم ومشکلة الحب العذری فی الأندلس

في عام ١٨٤١ اكتشف المستشرق الهولندى الحكبير رينهارت دوزى. Reinhart Dozy (١٨٨٠-١٨٢٠) ، المتخصص في الدراسات الأندلسية ، النسخة الوحيدة من مخطوطة «طوق الحمامة في الألفة والآلاف» لابن حزم ، المفكر الأندلسي العظيم ، بين العديد من المخطوطات العربية و الشرقية في مكتبة جامعة ليدن بهولندا ، وعكف عليها قراءة و دراسة ، وأفاد منها في كتابه الرائع : « تاريخ مسلمي الأندلس ظيلا قراءة و دراسة ، وأفاد منها في كتابه وقف طويلا عند اعتراف مفصل مثير لابن حزم ، تضمن في صراحة بينة خطاه الأولى في عالم الحب . وكانت مفاجأة مذهلة ، أفقدت العالم الأوربي الكبير توازنه العلمي ، وربما للمرة الأولى على نحسو ما سنرى بعد قليل ،

يقول ابن حزم في اعترافه :

و وإنى الأخبرك عنى : أنى ألفت في صباى ، ألفة محبة ، جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت سنة هشر عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودمائتها ، عدعة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار . لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها ، غير راغبة في اللهو .

وعلى أنها كانت تحسن العود إحسانا جيداً ، فجنحت إليها ، وأحببها

حباً مفرطاً شدیداً ، فسعیت عامین أو نحوهما أن تجیبنی بكلمة ، وأسمع من فیها لفظة – غیر ما یقع فی الحد یث الظاهر إلى كل سامع – بأبلغ السعی فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة .

* فلعهدى بمصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دور الروساء، تجمعت فيه دخلتنا و دخلة (۱) أخى - رحمه الله - من النساء ، و نساء فتياننا، ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدرا من النهار ، ثم انتقان إلى قصبة كانت فى دارنا ، مشرفة على بستان الدار، ويطلع منها على جميع قرطبة و فحوصها (۲) ، مفتحة الأبواب ، فصر ن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن .

« فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه ، أنسا بقر بها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هى إلا أن ترانى فى جوارها ، فتترك ذلك الباب الذى صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ، وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها . واعام أن قيافة النساء فى من عيل إليهن أنفذ من قيافة مداج فى الآثار .

ه ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائز نا(٣) وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأمرتها ، فأخذت العود وسوته في خمر وخجل لاعهد لى بمثله ، وإن الشبيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس ابن الأحنف ، حيث يقول :

إنى طربت إلى شمس إذا غربت شمس ممثلة فى خلق جارية ليست من الإنس إلا فى مناسبة فالوجه جوهرة والجسم عبهرة كأنها حين تخطو فى مجاسدها

كانت مغاربها جوف المقاصير كأن أعطافها طى الطوامير ولا من الجن إلا فى التصاوير والريح عنبرة والسكل من نور تخطو على البيض أو حدالقر ارير

فلعمرى لكان المضراب انما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ، ولاأنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها(٥)

نقل دوزى النص كاملا ، فى فرنسية راقية ، اشفافة ومثيرة فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل ، ثم عقب عليه بقوله :

و يلاحظ دون ما شك في القصة التي انهينا من قراءها ، ملامح عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب ، الذين يفضلون بصفة عامة ، الجمال المثير ، والعيون الفاتنة ، والابتسامة الآسرة ، والحب الذي كان يحلم به ابن حزم يختلط ، دون ريب بما هو حسى جذاب ، وعند ما يكون الحبيب المنشود اليوم غيره بالأمس ، يصبح الإحساس أقل قسوة ملكن فيه أيضا ميل إلى ما هو أخلاقي ، من رقة بالغة واحترام وحماسة ، وما يأسره جمال رائق وديم ، فياض بالكرامة الحلوة لكن بجب ألانسي أن هذا الشاعر الأكثر مسيحية ، بين الشعراء المسلمين ، ليس عربيا خالص النسب ، إنما هو حفيد إسباني مسيحي ، الم يفقد كاية طريقة التفكير والشعور الذاتية لجنسه . هو لاء الإسبان المتعربون يستطيعون أن يهجرو ا دينهم ، وأن يبتهلو المحمد بدل المسيح ، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامي في الدين والوطن ، بدل المسيح ، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامي في الدين والوطن ، ولكن يبقى دنما في أعماق أرواحهم شيء صاف رهيف وروحي ، غير عربي (1) .

نشر دوزى كتابه و تاريخ مسلمى الأندلس ، الذى ضمنه هذا الرأى ، عام ١٨٦١ م، ولأن الرجل حجة فى الدراسات الأندلسية ، وصاع القصة فى نثر فرنسى بليغ ، فقد أصبح كتابه مرجعاً ، ورأيه عقيدة ، وفكرته الصواب قاطعاً ، وتابعه فيه جمهرة الأوربيين من بعده ، إلى قريب من مهاية الثلث الأول من هذا القرن حين نشر الراهب الإسبانى ميجبل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios (1980 - 100)

دراسته العميقة عن العالم القرطبي الجليل، وكان أسين بلاثيوس عالما ثبتاً وحجة في الفلسفة الإسلامية ، وقف عليها حيانه : نشر مخطو طات، ودر اسة تراث، وحرر فيها عدداً هائلا من الرسائل والأبحاث، وترجم إلى الإسبانية أمهات كتب الفلسفة الإسلامية في الأندلس بينها كتاب : والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم وجعل من دراسة حياة المؤلف كالمقدمة لترجمته ، وجاءت الدراسة والترجمة في خمسة أجزاء كبار (٧).

عرض أسين بلاثيوس لفكرة دوزى ، كما أوردناها ، وناقشها تفصيلا، ووجهة نظره تستحق أن نوردها كاملة ، ولنا عليهما استدراك وتعليق .

يقول: ﴿ الفكرة التي دافع ، عنها دوزى بوضوح فى تعليقه هذا ، وفى أمكنة أخرى من كتابه : ﴿ تاريخ مسلمي الأندلس ﴾ ، يمكن أن نوجزها ، لتسهل مناقشتها ، في النتماط التالية :

- و إذا الإطار الذي رسمه ابن حزم لحبه في هذه الترجمة الذاتية، في لهجة صادقة وسلامة, نية نطرية ، يظهر لنا من نفسية البطل شعوراً ممتازاً ، أشد رقة وكمالا من الحب الحسي غير المحنثم . ويمكن اعتبر ابن حزم في هذا الجانب مثلا استئنائياً نمو ذجياً للحب الروحي والعفيف ، الذي يسميه علماء النفس الحب الإفلاطوني أو الرومانة يكي .
- إن النفسية التي تكابد هذا الحب ليست من خصائص الجنس العربي،
 ولا الأدب الإسلامي، وكالهمها في عواطفه الغرامية يستمد إلهامه غالباً من الرغبات الجنسية المبتذلة.
 - إن حب بن حزم الرومانتيكي ، وبالتال كل جباته العاطفية ، لا يمكن يفسيرها إلا في ضوء أنها ورائه نفسية ، وارتداد منه لخصائص جنسة المسيحي والإسباني ،

« فيما يتصل بالنقطة الأولى من هذه النقاط ، أبادر إلى القول ، قبل كل شيء ، بأن روعة الأسلوب الأدبى لدوزى ، وقد تجلت في ترجمته الجميلة

لقصة ابن حزم السابقة ، مقارنة بترجمة خوان فالبرا (٨) تثير في أعماق روح القارئ العلمانى ، ، غير اليقظ ، فحكرة أن ابن حزم كان ضحية ذلك الحب الأول لأيام شبابه ، يبكى بلا أمل ، بقية حياته ، الحظ التعس لقلبه المصدود . و عمنى آخر أعطى النغم الرومانتيكى لهذا الحب القصة مزيداً من القوة ، لأن دوزى تركنا فى مهارة نتخيل أنه الحب الوحيد فى حياة ابن حزم ، على حبن أنه لا يمكن أن يجهل ، وقد استفاد من كل كلمة فى النسخة المخطوطة لطوق الحمامة ، أن ابن حزم لم يصبر طويلا ، وهو يمثل الدور الرمانتيكى لعاشق يائس ، إذ سرعان ما جفف دموعه ، لينسى فى حب آخر ، أكثر مهولة ، أحزان حبه الأول ،

يقول: وكنت أشد الناس كلفا ، وأعظمهم حباً ، بجارية لى ، كان فيا خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية المتمنى ، وغاية الحسن خلقاً وخلق وموافقة لى ، وكنت أباً عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمها الليالى ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، سنى حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هى دونى فى السن ، فقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أنجر دعن ثبابى ، ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، واوقبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وببعض أعضاء جسمى العزيزة على مسارعا طائعاً ، وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسبت ذكرها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عفى حيى لها على كل ما قبله ، وحرم ما كان بعده .

و ليس هذا الحب الثانى هو الأخير لأيام شبابه ، فبعد ذلك بأعوام ، عندما استطاع أن يعود إلى قرطبة وسط مغامراته السياسية الواسعة ، يحدثنا عن نفسه : وقد ضمنى المبيت ليلة فى بعض الأزمان عند أمرأة من بعض معارفى مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قرابتها ، من اللاتى قد ضمها معى النشأة فى الصبي ، ثم غبت عنها أعواما كثيرة ، وكنت

تركم احين أعصرت ، ووجدتها قلد جرى على وجهها ماء الشباب ، ففاض و انساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحبرت ، وطامت في سهاء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقات ، والبعثت في خديها أزاهير الحمال فتمت واعتمت ... ، (١٠)

إذن لم مخفق ابن حزم فى حبه مرة واحدة ، بل مرات ، ومن هــــــانه الزاوية الجـــــايدة ، التى م يرد دوزى أن يضعها أمام عبن القــــارى ، يفقد الحب الفتى لبطلنا ، دون شلك ، درجات من مثاليته وأفلاطونيته ، لكن لا يمكن الإنكار أنه ينطوى على مشاعر رقيقة لم تفقد توهجها بعد ، ولا تعرف ما هوحسى . ومصدر ذلك تعاسة مزاجه ، أو بمعنى أدق ، جاء نتيجة ميل فطرى عنده ، ويعترف ابن حزم نفسه بأن لديه دائماً قدرة بالغة ، وعزو فأ عن كل ما هوجنسى (١١) . ويرى أن اجتماع الأرواح ، وليس التقاء الأبدان ، هوالذى يبقى على الحب (١٢) . لقد كانت روحية عشقه حقيقة واقعة وظل صداها يتردد ، بعد قرن كامل من وفاته ، في خمريات الشاعر العربيد ابن قزمان القرطبي ، وهو يصن لنا سهراته ولهاليه الحمراء (١٢).

لكن ليس صحيحا أن حبه الأفلاطوني بجب أن يعد شيئا شخصيا، وطابعا يتصل نخلاقه ، وأنه استثناء واضح في نفسية الإسلام الإسباني ، ذلك أن المحقائق التاريخية في كنابه وطرق الحربامة ، وهي مسام بها وليست موض شك ، لأن مولفه يؤكد ذلك حرفياً في مقدمة الكتاب ، يقول : و كلفتني اعزك الله سأن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يتع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لامتزيداً ولا مفتناً ، (١٤) وأغلب فصول الكتاب تتكون من روايات معاصرة عن شخصيات تأكر بأسمائها وألقابها وهي شاهد حي على الجذور العميقة التي بنها الحب الرومانتيكي في الأرواح وتعترضك في كل خطوة ، على امتداد صفحات الكتاب ، أسماء خلفاء ووزراء وقواد ، وشخصيات من أعلى طبقات الأرستقر اطبة العربية ، وفقهاء وأدباء وشعراء ورجال ، وباختصار من كل الطبقات المنتقة في

المجتمع القرطى ، وهم يهتدون فى حياتهم الغرامية بهذا الروح المثالى الراق نفسه ، تشيع البهجة فيهم نظرة عابرة مسن فناة أحلامهم ، أو مجرد زيارة شريفة وخفية ، وتبتل صامت إلى المعبود فى محراب الروح الخفى وتقديس يكاد يكون دينيا لما خلف من أشياء وحاجات شخصية يحتفظون بها تذكرة . ويبلغ نهاية الطرف المقابل للحب الأفلاطونى ، فيروى بالدموع عند احتداد الخيبة ، رسائل يطلب فيها صدقة من حب ، أو يكنبها بدمه ، أوينهى فى قسوة مأساة حبه المصدود ، مضنيا الحبيب شيئاً فشيئاً ، أو ينطفىء بغنة نور عقله ، فى انتجار غرابى مجنون (١٥) .

عند مانقرأ هذه الصفحات الزاخرة بالشعر ، يمكن أن نفهم من مجموعها نفسية تلك الحضارة القرطبية ، وهي تقدم لنا في قمة توهجها ، الدلاثل على رقيها النقافي والعاطفي ؛ وهما دائما طلائع أى انحدار . لم يكن إذن حب ابن حزم الأفلاطوني وايد عدوى سلالية فحسب ، أو أنه تلقاه من نفسية أسلافه المسيحيين ، لأن من أبطال الغزل الرومانة بكيين كثيرين جدا ينحدرون من أصول عربية خالصة ، ولا يمكن أن تجرى في دمائهم الحصائص الموروثة التي نفترض أنها عند ابن حزم ،

ولقد حفط لناهطوق الحمامة» عن الرمادى أبوعمر يوسف بن هارون من كبار الشعراء الغنائيين الملهمين في عصر المنصور بن أبي عامر ، وهو كندى القبيلة ، يمنى الأصل ، رواية لطيفة ، ثابتة الوقائع ، جديرة بأن تروى لما فيها من عاطفة عميقة : « كان يوسف بن هارون مجتازاً عندباب العطارين بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، و تخلل حبها جميع أعضائه ، فانصر ف عن طريق الجامع ، وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو الفنطرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض ، فلما صارت بين رياض بني مروان رحمهم الله ، المبنية على قبورهم في مقبرة الربض ، خلف النهر ، نظرت منه منفردا عن الناس لا همة له غيرها ، فانصر فت إليه ، فقالت له : مالك تمشى ورائى ؟ ،

فأخبرها بعظيم بليته بها ، فقالت اله : دم عنائ هذا ولا تطلب فضيحتى ، فلا مطمع لك في ألبتة ، ولا إلى ما ترغبه سبيل . فقال : إلى أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مباح لك فقال لها ياسباتى : أحرة أنت أم مماوكة ؟ قالت : هملوكة ، فقال لها : ما اسمك قالت : خلوة (٢١). قال : ولمن أنت ؟ . قالت له : علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال . فقال له — المحال السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال . فقال له — المحال السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال . فقال له — المحال السابعة من كل جمعة . فقالت له : أما أن تنهض أنت ، وأما أن أنهض أنا ، فقال لها : المضى في حفظ الله فيهضت نحو القنطرة ، ولم مكنه أنباعها ، لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما يمكنه أنباعها ، لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما لحستها أم أرض باهنها ، وأن قلبي منها لأحر من الحمر . وهي خلوة لحستها أم أرض باهنها ، وأن قلبي منها لأحر من الحمر . وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره ، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في صبيلها إلى سر قسطة في قصة طويلة (١/) .

لقد تأثر دوزى بما هو شائع معاد عن حسية الحب عند الجنس العربي أكثر مما تأثر بما هو حق (ما زال أسين بلاثيوس هو الذى يتكلم) وهذه الأفكار المطروقة وليدة دراسات جزئية وسطحية وجانبية الادب الإسلامي ، وهي مضطربة ، مثانها في ذلك خرافة لا نقل عنها انتشارا، وهي عجز الجنس السامي عن الدراسات الفاسفية . لقد كرس الاستشراق الأوربي أغاب جهده ، في البدء ، بل وحتى كل جهده ، لدراسة شعراء الجاهلية ، وأدباء الإسلام في العصر الكلاسيكي ، وخدع أو اثل الباحثين منهم ، بما كان يتراقص في هذه النماذج من عبادة وثنية للشكل والجمال الحسى ، دون أن يكون المبهم متسع من الرقت لكي يستوعبوا ، والجمال الحسى ، دون أن يكون المبهم متسع من الرقت لكي يستوعبوا ، أو حتى يبدأوا ، تحليل المعاني العظيمة للادب الإسلامي ، وما زال مطويا لم ينشر ولم يدرس بعد ، ومع ذلك ،جرءوا على أن يستخرجوا من مطويا لم ينشر ولم يدرس بعد ، ومع ذلك ،جرءوا على أن يستخرجوا من المقدمات الناقصة والخادعة نتائج عامة وفجة ، وأن ير تفعوا بها إلى مرتبة

القانون التاريخي أو الاجماعي ، ولكن خلال قرن مضى (كتب أسين بلاثيوس كتابه عن ابن حزم بين عامي ١٩٢٦ – ١٩٢٨) حللت جوانب جديدة عديدة للنفسية العربية ، ومن الممكن الآن تكوين فكرة أكثر شمولا ودقة عن ذي قبل .

ومن جانب آخر ، وكمقابل لهذا الانجاه الحسى ، ظهر منذ العصر الجاهلي لون من الغزل العاطفي ، عفيف وروحي ، كالحب المسيحي ، ففي الصحراء العربية ، قريباً من اليمن ، عرقت قبيلة بدوية كيف تسمو بفهمها إلى أدق ما يمكن أن يتصور من الحب البشرى . فبنو عذرة يفضاون الحزن الحلو المستسلم المشوق في الحب الأولاطوني ، على العواطف الحادة للغزائز الحيوانية البهجة ، ويعرفون كيف يموتون من الحب ، قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأرواح العفيفة أن القسد تغيى أعظم شعرائهم إلهاما ، في قصائد تفيض رومانتيكية ، وبالحلاوة المرة أن للرغبة الكظيمة إلى الأبد ، وكان جميل بن عبد الله العذري ، إلى المرغبة المخاب عن من بني هذيل ، النموذج الكامل الذي تتحقق فيه العفة المثالية . لقد مات من الحب دون أن يجرو يوماً على أن يمس بيذه عجوبته بثينة .

إن عبادة العفة والعذرية ، و هما من خصائص الرهبنة المسيحية الشرقية في العصور الوسطى ، لا يجب أن تكون بمنأى عن هذه الحركة الرومانة كية ، و الراهب المسيحي شخصية شائعة في القصيدة الجاهلية ، وكانت الصوامع والأديرة تتناثر عبر صحر او ات الجزيرة العربية ، وكان قرى الحجيج فيها تقليداً مرعبا ، والتعايش والعرفان يؤديان إلى النقليد ، و الحق أن شيئا كثير ا من ذلك في تخلف في الأدب الديني القرن الأول الهجري إن حكايات رهبانية ، و عاذج لأبطال متقشفين مما يوجد في كتاب و حياة الآباء Vitae Patrum انتقلت في مرعة كبيرة للغاية إلى التراث الأدبي الإسلامي وأحد هذه الأمثلة ، وربما كان أروعها حيما ، عبر سريها البلاد الإسلامية التي تفصل موطنه عن الغرب ، حتى وصل

إسبانيا ، إنها حكاية راهب مسيحى من طيبة أحرق أصابعه بالنارليقاوم محاولة امرأة عارية . وقد قص ابن حزم الحكية في « طوق الحمامة »، بعد أنجر دها من طابعها المسيحى (١٨).

والحب العدرى والعفيف لبى عدرة ، والمطهر هكذا شيئا فشيئا بحرارة الزهد البدوى الإسلامى، والسابق للصوفية ، أخد شكاه النهائى فى بغداد قريبا من القرن الثالث الهجرى، الناسع الميلادى، كنموذج مثالى للحب السامى، وحتى للفضيلة الدينية . وكان البلاط العباسى، وقد بلغ قدرا عاليا من الثقافة المصقولة ، يعانى فى الوقت نفسه من تفاقم المشاعر المريضة ، وهو طابعكل المراكز الحضارية الكبرى، وقد عانت منه قرطبة بعد وفاة ابن حزم بقرن من الزمان . وفى نوادى بغداد الأدبية كانت هذه الرومانتيكية التقليدية تباشر تأثيرا قويا على النفوس، حيث شاع الحديث المنسوب إلى إنبى : ومن عشق فعف ومات، مات شهيدا ، وهذه المثالية المعالية ألهمت روحا عظيما واسع فعرف كيف يرفع حيثة تمثالا أدبيا خالدا للحب الأفلاطونى بكتابه « الزهرة » . فعرف كيف يرفع حيثة تمثالا أدبيا خالدا للحب الأفلاطونى بكتابه « الزهرة » . فعرف كيف يعتل منها مثلا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعها، لتصبح وأنها تخضع لمثير دائم ، يتوقف على قدر ها من التركيب الفسيولوجى . ومع ذلك ، عرف كف بععل منها مثلا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعها، لتصبح ذلك ، عرف كف بععل منها مثلا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعها، لتصبح ذلك ، عرف كف بععل منها مثلا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعها، لتصبح ذلك ، عرف كف بععل منها مثلا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعها، لتصبح ذلك ، عرف كف بععل منها مثلا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعها، لتصبح ذلك ، عرف كف بعل منها مثلا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعها، لتصبح ذلك ، عرف كف بعها منها مثلا أعلى ، بالعزو من المرتبد أملا أعلى .

ومهما تكن خصائص الجنس البعيد لابن حزم ، التي نسبه إليها دوزى ، فقد تهاوتكلها أمام هذا العرض . وإذا كان ثمة أثر من مشاعر مسيحية حقيقية يمكن أن ينبض بها قلب ابن حزم ، العدواللدود للمقيدة المسيحية ، وللأخلاق الإنجيلية ، فليست بالتأكيد المشاعر التي ورثها عن أجداده عبر دمائهم ، وإنما تلك التي اكتسبها لاشعوريا ، وعلى الرغم منه ، بفعل عدوى لامحيص عنها ، لجو المثالية المسيحية القوى ، والذي ازدهرت فيه الحياة الأدبية الإسلامية في المشرق طوال حياتها ... ، (١٩)

تلك يهى وجهة النظر غير العربية ، كما يعرضها مستشرق هو لندى غير مهم فى حياده ، وعرف بكرهه لرجال الدين ، وبعده عن التعصب . وكما تصورها راهب كاثوليكي إسباني ، عرف بغزارة علمه ، وتمكنه من العربية ، وبمعالجته للقضايا العلمية والأدبية في موضوعية لاتحدها إلارسالته كرجل دين تخضع كل كتاباته إلمر اجعة السلطات الكنيسية ورقابتها .

لكن دوزىكان متأثرا بما كان شائعا فىأوربا على أيامه ، من أن السمو فى الحب وليد المسيحية ، فطبق هذا الاتجاه فى دراسته لابن حزم ، وكتابه وطوق الحمامة » . وحاول أسين بلاثيوس، فى مهارة ذكية، أن يرد الغزل العذرى كله ، لاالأندلسي منه فحسب ، إلى أصول مسيحية .

ونظرية كليهما ينقضها واقع الأندلس، فهما يعرفان جيدا، أن مسيحية الإسبان عند الفتح كانت رقيقة، وأن علم الناس بها خارج رجال الدين كان مشوشا. وأن جانبا لابأس به من السكان كانو ا وثنيين. و إذا كان من المرجح أن ابن حزم ينحدرمن أصول إسبانية، فمن المرجح أيضا أن أجداده لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية عند دخول الإسلام، لأنه من المنطقة الفقيرة، في جنوب غربي إسبانيا، وغالبية أهلها عند الفتح كانو ا من الوثنيين. وعلى أي حال فإن ما كان يجرى في الجانب العربي و الإسلامي من الأندلس من مظاهر الحب الحسي، كان يجرى مثله، وأفحش منه، في الجانب الإسباني المسيحي، ولم تجر في حروقهم دماء عربية، ولا اتخذ جدودهم الإسلام دينا.

كان ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاء إلى الحياة بعد عامين من وفاة ابن حزم (ت ١٠٦٣) ، ملكاكاثوليكيا ، أفنى حياته يقاتل من أجلها ودفاعا عنها ، ولكن الكاثوليكية بطقوسها لم تمنعه من أن مجمع بين ست زوجات ، في وقت واحد (٢١) . وكان على علاقة جنسية مع أخته أراكة Urraca وتذكر ذلك المصادر العربية المعاصرة له صراحة (٢١) ، وتتحدث عنها الأغانى وتذكر ذلك المصادر العربية المعاصرة له صراحة (٢١) ، وتتحدث عنها الأغانى في الشعبية الإسبانية منكرة أحيانا ، ومتشفية أحيانا أخرى . وكان إزيك الرابع ملك قشتالة (ت ١٤٧٤) إسبانياً حتى آخر قطرة في دمه ، كاثوليكيا من أخص

به قدمیه إلى قمة رأسه ، وكان شاذ جنسیاً مخنئاً ، یلاحق من لا بخضعون لرغباته المخبطة من حاشیته بالقتل والسجن والنفی ، ولم یر حرجا فی آن بعین عشیقته كتالین سندوفال رئیسة لدیر راهبات القدیس بطرس ، فی ضواحی طلیطلة ، بعد أن طرد رئیسته السابقة ، متحدیاً أوامر المطران ، وقرار حرمانه من الكنیسة (۲۲) . ومن الثابت أنه كان عقیماً لایلد ، وأنه طلق زوجته الأولی رغم كاولیكیته و تزوج ثانیة ، وأن زوجته الثانیة جاءته ببنت نسبت إلیه ، وكان معروفاً أن أباها الحقیقی أحد رجال الحاشیة ، ولم یكن إنریك هذا حالة شاذة ، فهو نفسه بشك أنه ابن حقیقی الحاشیة ، ولم یكن إنریك هذا حالة شاذة ، فهو نفسه بشك أنه ابن حقیقی لابیه الخاشیة ، ولم یكن إنریك هذا حالة شاذة ، فهو نفسه بشك أنه ابن حقیقی لابیه المنسوب إلیه : خوان الثانی (۲۲) .

وكان فليب الثانى (١٥٢٧ – ١٥٩٨) أعظم ملوك أسبانيا ، كاثوليكياً متعصباً ، ضيق الأفق فى مفهومه الدينى ، وله العديد من العشيقات ، وأولاد كثيرون غير شرعين ، كما كان أبوه من قبل(٢٤) ، ومنالشاتع أن كارلوس بن فيليب الثانى ، كان على صلة غرامية بزوجة أبيه إيزابيل، ولذلك مسجد ، ومات فى السجن فى ظروف غامضة ، مسموماً أو مذبوحا أو مخنوقاً ، فبكته ايزابيل بكاء مرا ، فأصدر لها فيايب أمرا إمراطوريا بأن تكف عن البكاء هليه (٢٥).

ويقص علينا رحالة ألماني طاف بالجانب المسيحي من الأنداس في القرن الحامس عشر . آنه وجد الشدود الجنسي شائعا في قشتالة ، وقشتالة هذه من أشد مقاطعات الأندلس في العصر الوسيط ، وحتى أيامنا هذه ، تعصبا للكاثوليكية ، وتعلقاً بالإسبانية . حتى أن اللغة القومية تنسب للكاثوليكية ، وتعلقاً بالإسبانية بدل الإسبانية ، لأن خجتهم إليهم في أحابين كثيرة ، فيقال اللغة القشتائية بدل الإسبانية ، لأن خجتهم هي التي سادت بعد متقوط دولة الإسلام في الأندلس (٢٦) . ويلاحظ أن من العسير علينا عند دراستنا لهذا الأمر في الحانب المسيحي من الأندلس الحصول على معلومات كافية ، لأنه لم بكن يتمتع بما يتمتع به الجانب الإسلامي من حرية في الإبداع والنسجيل والنشر : لأن شرة به الذينية على المؤلفات من حرية في الإبداع والنسجيل والنشر : لأن شرة به الذينية على المؤلفات

كا ت عنيفة وقاسية ولا تسمح بالإشارة إلى مثل هذه الأشياء(٢٧) .

6 Q W

ويقول مؤلف كتاب : و تاريخ إسبانيا وأمريكا، اقتصاديا واجماعياً »، وصدرت الطبعة الأولى منه في برشاونة بإسبانيا عام ١٩٥٧ ، وخضع لرقابة الدولة والسكنيسة على السواء : • شهد القرنانالرابع عشر والخامس عشر أشد فساد شهدته الكنيسة الإسبانية ، ومخاصة في مملكة قشتالة ، والدراسات الا قام بها أوليز روبير Ulises Robert أظهرت الحالة المؤسفة التي انتهى إليها عدد كبير من الأديرة البندكتية . حيث يعيش الرهبان مع عشيقاتهم ﴾ ويربون ويعلمون أولادهن في الأديرة نفسها .وثمة تعلمات أصدرها مطران أوفييدو في القرن الرابع عشر يمنع فيها الرهبان من السَمَاح لعشيقاتهم ، أو أولادهن ، أو الراهبات ، أن يتواجدن على أبواب الأديرة ، أو يعشن فيها ضيوفاً على الرهبان . وثمة وثيقة أخرى نشرها فوشيه دلبوس Fouché-Delbos تشعر إلى السمعة السيئة التي كان يتمتع يها رجال الدين الدومينيكان في القرن نفسه ،مما يؤكد أن الأوامر الخاصة بالسلوك المستقم قد تنوسيت سريعا . وفيما يبدوكان فساد الأخلاق عاما فى كل الأديرة ، إلى حد كبير ، وفيما يتصل بسلوك رجال الدين خارج الأديرة ، هناك أدلة وافية للمجزم بأن الفساد كان أكثر شيوعا في قشتالة منه في أرجون ، والبلاد الأوربية الأخرى . ففي منتصف القرن الثالث عشر (أي ماثتي عالم بعد وفاة ابن حزم) شاعت أغان تتحدث عن رجال الله ين ممن قاض بهم الشبق ، وفي كتاب (الحيل)، قصة رئيس دير أخفى عنده أمرأة متزوجة ...

و و نعرف من قرارات مجمع شنت ياقب Santiago عام ۱۲۸۹ م ، أن من الشائع بين رجال الدين في المدينة ،أن يعيشوا على نحو ما يعيش العلمانيون، يرتدون أفخر الثياب، ويأكلون في الحانات، ويلعبون والزهر علانية ، ويحدلون الأسلحة ، ويأخلون محظهم من حياة الليل ، ويتشاجرون مع

الأهالي والجنود ، وهذا المجمع نفسه أصدر قرارا بمنع رجال الدين من اتخاذ العشيقات علانية ، ومن أن يوففوا أنفسهم على كتابة الرقى ، أو قراءة الطالع ... ».

ه وفى عام ١٣٨٠ م ، أصدر مجاس سورية تقراراً يحول بين أبناءالرهبان من عشيقاتهم وبين أن يرثوا آباءهم . لكى يحول بين نساء أخريات مستقيات ، أرادل و عدواوات ، أن يصبحن لهم عشيقات ، وأن يقعن فى الخطبئة . . » ، وبعد سبعة أعوام أصدر مجلس بريفييسكا قرارا بمعاقبة أى امرأة تصبح علناً عشيقة لواحد من رجال الدين ... تعاقب فى كل مرة تستسلم فيها له » .

و بمضى بنا الكانب إلى القرن الجامس عشر فيقرر: ١ إن عدداً كبيراً من الاديرة لم يكن إلا موضعاً لحياة اللذاذة والمرح ، وعدد كبير من أديرة الراهبات سقط إلى الحضيض ، وإذا لم تصبح بيونا للدعارة فعلا ، فقدكان بينها وبين أن تصبح كذلك خطوة و حدة ، ١ وخلال حصار مدينة فوسة بينها وبين أن تصبح كذلك خطوة و حدة ، ١ وخلال حصار مدينة الدير توبيخا لقائد الجيش المحاصر ، لأنه سمح لضباطه بأن ينسوا واجباتهم توبيخا لقائد الجيش المحاصر ، لأنه سمح لضباطه بأن ينسوا واجباتهم المعسكرية ، وأن يمضوا الليل مستمتعين في دير « سنتاكلارا » للراهبات ، المعسكرية ، وأن يمضوا الليل مستمتعين في دير « سنتاكلارا » للراهبات ، المسلطات المدنية لمكي تساعده على طرد راهبات هذا الدير بالقوة ، ماعدا الرئيسة ، لأنها و حدها حافظت على كرامتها بين هؤلاء الراهبات الرئيسة ، الرئيسة ، وقد أوقعن الرعب في قلب رئيسة الدير ، وأصبحت عملياً السيرة الدين ، وقد أوقعن الرعب في قلب رئيسة الدير ، وأصبحت عملياً

لا وتكرر فى أديرة كثيرة ، فى قشتالة وأرجون ، المشهد الذى حدث فى غوسة ، وقد دافع رهبان سلمنقة عن أنفسهم مستخدمين كل شىء حتى الأسليحة ، قبل أن يغادروا الدير ، بينما الرهبان الفرنسيسكان فى المدينة نفسها خرجوا مجرون فى الشوارع رفقة عشيقاتهم ، أما رهبان طايطلة

فقد خرجوا فى مشهد دينى ، يطوفون الشوارع ، ويرفعون الصلبان ، ويترنمون بنشيد الحروج .. وأخيراً فإن ما يقرب من ٤٠٠ راهب أندلسى هددوا بأنهم سوف يهاجرون إلى شمال إفريقية ، ويعتنقون الإسلام ، قبل أن يتخلوا عن عشيقاتهم » (٢٨)

و يمضى المؤلف يعدد أحداثاً أخرى كثيرة من هذا القبيل، ويطول في الحديث لو أشرت إليها جميعا، ولكنى أكتفى منها بما أوردت وأدعها إلى حديث آخر. فقى العام الذى سقطت فيه دولة الإسلام فى الأندلس، لا يعاير ١٤٩٢، كانت الملكة إيز ابيل تستقبل مغامراً إيطالياً يدعى كولون، أوكولومبوص، يعرض عليها مغامرة يريد لها تمويلا، وقبلت الملكة، ومفى كولون فى مغامرته، وكانت النهاية اكتشاف العالم الجديد، ومعه أصبحت إسبانيا أقوى دولة فى العالم، لا تغيب الشمس عن أملاكها، كاقبل عن بريطانيا فيا بعد، وتدفق الإسبان على العالم الجديد، وغاصة من مقاطعة الجوف، فى الحنوب الغربي من إسبانيا، و بعض القرى خلت من مقاطعة الجوف، فى الحنوب الغربي من إسبانيا، و بعض القرى خلت من مرعب، وملل يتجاوز الوصف. أن نساء تعسات، حياتهن جافة مرعب، وملل يتجاوز الوصف. أن نساء تعسات، حياتهن جافة ومنسيات، لا أمل لهن فى أن يرين أزواجهن مرة أخرى، دون أن يعنى هذا أن إحساسهن بحاجهن الجنسية قد هدأ، وحولهن فى كل مكان تظاهرات دينية: صلوات، ودعوات، وسحر.

والحقيقة المرة أن رجال الدين أصبحوا سادة والفراخ ، كثيرون عرفوا كيف يقاومون الرغبة فى داخلهم ، وليسوا جميعاً . . . إن العناصر التى تتركب منها الشهوة بسيطة للغاية ، بسيطة مثل ذكاء أوالثاث الأشقياء أنفسهم : قليل من الدين ، وكثير من الهيجان ، يتخفى تحت ستار الكهانة ، وجسد يلهب شهوة ورغبة . وفى مدينة يرينا Llerena ، ومايتبعها من قرى ، قام ثمانية من رجال الدين ، فى مطلع القرن العاشر، أطلقوا على أنفسهم اسم والمتنورين وجوهر محاولتهم فى مطلع القرن العاشر، أطلقوا على أنفسهم اسم والمتنورين وجوهر محاولتهم

أحط ما عرف من اتجاهات الفرق الدينية ، ، لأن دعوتهم لا تذهب الى أبعد من إشباع شهواتهم الحدية ، وقد استطاع أحديم ، الآب تشاميثو Chamizo أن بهتك عرض ثلاثين امرأة ، ممن بهتن يتلقين على يديه مبادى السعوة الجديدة ، وربحا كان ينقص هوئلاء، وغيرهن ممن لقين المصير نفسه ، القدرة على إدراك الاخراف الذي يكمن وراء هذه للدعوة ، ولكن من المركد أنهن وجون فها فسحة ليشبعن رغباتهن ، وقد تركت الأساليب للني اتبعت معهن إصراراً وهوساً واضحاً فهن جميعاً ،

و ونبت يرينا كان و احدا من أشد الحالات شهرة ، ولو أنه جاء متأخراً بالنسبة لحوادث أخرى . وكانت قضية هؤلاء و المتنورين ، تقلق المسئولين منذ زمن . وأول و متنور ، في زمن الكاردينال ثيسنيروس ، كان من طائفة الكاثوليك الفرنسيسكان ويدعى أوكانيا Ocara ، وادعى أنه يتلقى لوحى ، وأن الوحى أشار عليه بأن يضاجع ألواناً من النساء ، لكى هملن منه بأنبياء ، وقد انهى به المطاف إلى سجن تحت الأرض ، وماليث أن سارع بالارتد اد عن دعواه (٢٩)

وتكذشف إسبانيا أمريكا . وتصبح هذه من أملاك النتاج الإسباني ، ويتدفق عليها الإسبان من كل لون ، مغامرون ومقاتلون ولصوص ومجرمون وباحثون عن الثراء ، ومعهم أو حتى قبلهم رجال دين ينشرون المكاثوليكية هناك بن سكان العالم الجديد ، وماكان من هؤلاء فيا وراء الإطلنطي شيء فوق انتصور ، كأنما كانوا غرائز انطلقت من عقالها . لاتهدهد منها تقاليد ولاحدود ولا قيم ، وقد صووت الكانبة البيروانية كلورندا ماتو Clorinda Matto ، وهي كاثوليكية ، في روايها : كلورندا ماتو محدد فله المحدود و في الم

السيامي طمعوا جميعاً في زوجة الرجل الهندى وبنتيه ، واستطاعوا أخيراً أن يقنعوا السكان بالهجوم على منزلهم وتدميره ، ودفاعاً عن بيته قتل الرجل الهندى وزوجه ، وخلف وراءه بنتين عشق ابن الحاكم إحداهما ، وعند ما أراد أن ينزوج مها لم يستطع ، فقد اكتشف أنهما أخوان ، لأن القسيس كان أباً لهما، أباً غير شرعى ، لأنه كان عشيقاً لزوجة الحناكم معا .

تلك وقائع أوردها كتاب إسبان معاصرون وكاثوليك ، ولنا علما محفظان :أولهما أن ماكان محدث أسوأ بكثير مما تحدثوا عنه، وأعرف قراءة وواقعاً ما هو أشد تهتكا . وثانهما أننا لا نقع في الحطأ الذي يقعون فيه تعصبا ، فنرى رجال الدين في المسيحية كلهم كذلك ، إنني شخصياً أعرف بينهم أناساً علا الإيمان قلوبهم ، وتتميز حياتهم بالطهر ، ووهبوا قواهم ونشاطهم لكل ما هو فاضل وجميل في الحياة .

إن ربط العفة بالمسيحية ، والتبذل بالإسلام ، فضلا عن محالفته للواقع التاريخي يتنافي مع بسائط إلى منهج علمي ، مثله في ذلك : القول بأن مسلمي الأندلس الذين انحدروا من أصول رومانية ، كانوا أرقى في عواطفهم من الذين عبروا إليه المضيق فاتحين أو وافدين في واللسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام في الأندلس ، فقدوا شيئاً فشيئاً الإحساش بأصولهم التي الحدروا منها ، حتى أن بعضهم صنع له شجرة نسب عربية ، ترفعه إلى قبائل معروفة ومشهورة ، مقابل أثمان دفعوها ذهبا . وحافظ آخرون على ألقابهم الرومانية الأولى ، فكان هناك بنو أنجلين Banu Angelino و بنو شبريق اللهن صنعوا لهم نسباً عربياً ، والذين احتفظوا بألقابهم الرومانية ، وبين اللهن صنعوا لهم نسباً عربياً ، والذين احتفظوا بألقابهم الرومانية ، وبين الوافدين على الأندلس ، عرباً أو بربرا ، لقد صنعهم الإسلام على هواه ، الوافدين على الأندلس ، عرباً أو بربرا ، لقد صنعهم الإسلام على هواه ، وصاع منهم مجتمعا متجانسا .

وياتي أميركو كاسترو Americo Castro ، أحدكبار المفكرين الإسبان المعاصرين ، فبزيد الأمر دقة ووضوحا : وإن تحليل دم الأندلسين عمل علماء الأحياء ، وليس من صناعة المؤرخين . فلم يكن الأندلسيون (يعني بهم المماليك المسيحية في شمال الأندلس إسباناً ، ولم يشعروا بهذه الإسبانية أبدأ قبل القرن الثالث عشر الميلادي ؛ وكان الذين يتقاتاون أو يتوادون على بطحاء الأندلس ، إما مسلمون أو مسيحبون ، . وإن تاريخ شبه الحزيرة الإيبرية في العصور الوسائي ، لا يمكن أن برى بوضوح ، ما دام عمة مستشرقون كبار ، وآخرون غير مستشرقين ، يواصلون الحديث عن و جنس إسباني ، واصل وجوده في إسبانيا وراء لذين هم من دم عربي ، . « إن المستشرقين الإسبان يطبقون مفهوم الإسباسة على كل الأندنس، مهما تكن الأجيال ألَّى تفصل بين الأنهاسيين المسلمين وأصولهم السيحية ، فإذا ذهب مسلمو الأندنس ليقاتلوا في المغرب سموهم إسبانا ، وابن حزم إسباني ، وتغايب هذه الفكرة يعني أن المسلمين تنقصهم الشخصية التاريخية الصريحة، فهم جميعاً يصبحون بربراً في المغرب ، ومصريين على ضفاف النيل ، « ثم ينتهى إلى هذا القانون الاجتماعي : « النابين يتكلمون لغة جماعة إنسانية ، ويعتقدون دينها ، ويطبقون نظمها السياسيةوالإدارية ، يصبحون جزءاً منها ، مهماكانت الظروف التي عاش فيها أسلافهم »(٣١).

أما قول أسين بلاثيوس بأن الحب العذرى نشأ بين بنى عذرة نتيجة تأثير مسيحى ، فينقضه أن بنى عذرة هولاء كانوا بدوا ، يأخذون الدين مأخذاً سهلا، وقلما يبلغ من عقولهم ونفو سهم مبلغاً قويتاً يتأثرون به، ويكيفون حياتهم وفتى مثله ، ولوكانت المسيحية وراء هذه الظاهرة لكان أولى أن تكون على نحو أوضح ، وأسبق ، فى نجران أو الحيرة أو بين الغساسنة ، حيث استقرت المسيحية زمناً ، وباشرت سلطانها على النفوس ، وأصبحت دين الأمرة الحاكمة ردحا من النومان .

ويبقى بعد ذلك ، أن نشأة الحب العذرى في الأدب العربي بعامة ،

ما تزال أرضاً بكراً تنتظر من يبحثها فى ضوء مناهج البحث المتطورة ، علنا نصل فها إلى جديد مقنع ومفيد .

- ه الهو امش و التعليقات :
 - (١) أسرتنا وأسرة.
- (٢) الفحوص : الوديان والسهول والجبال المحضرة التي تحيط بقرطبة .
- (٣) لفظ و عجوز ، كان يطلق في الأندلس على أية فتاه متزوجة ، حتى ولو كمانت شابة ، و مازال هذا الممنى مستخدماً في كل من المغرب والجزائر وتونس حتى الآن .
 - (٤) نوز صاحبة هباس بن الأحنف .
 - (ه) أقرأ القصة كاملة ف :

ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف ، ص ١٤٤ و ما بعدها ، تحقيق مؤلف هذا الكتاب ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ .

- (6) Dazy, R.: Histoire des Musulmans d' Espagne, Tomo Il, pag. 263, Trad. Espagnole, Buenos Aires, 1940.
 - (٧) ترجمنا هذه الدواسة إلى اللغة الدربية ، رسوف تأخذ طريقها إلى النشر قريباً .
- (A) Juan Valera (A) ووائى إسبانى ، وقد ترجم إلى الإسبانية كتاب المستشرق الألمانى فون شاك : « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقاية ، . وشهرت ترجمته بأنها ذات لغة رصينة ، وأسلوب أدبى رفيع ، وقد تضمن الكتاب القصة التى نحن بصددها .
 - (٩) القصة كاملة في : ابن حزم ، طوق الحمامة ، بتحقيقنا ص ١٣٤ .
 - (١٠) القصة كاملة في المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ -
- (۱۱) أنظر مثلا كتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، ص١٠٢، وكتاب طوق الحمامة بتحقيقنا ص ١٠٢، وتتاب طوق الحمامة بتحقيقنا ص ١٠٥، ونص عبارته فيه ، (إنى أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حلات أمنزرى على فرج حرام قط ، و لا يجاسبني ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومي هذا).
 - (١٢) الأخلاق والسير ، ص ٨٦ .
- (۱۳) دیوان ابن قزمان ، ج۱ ص ۲۷۲ ، الزجل رقم ۵۳ ، تحقیق غرسیة غومث ، مدرید ۱۹۷۲ ، والفقہ ، المشار إلیها هی :

یتعجب ا**بن** حزم وقتا ینشد ریشتهمی کل حینا یقصد

فمدحى له من سيخاه يتولد :

فاز من جسر و ثدم من قصر

من كان كريماً أن ثنائي يظهر .

- (١٤) طوق الحمامة ، ص ١٦ ، طبعة دار المعار ف بتعقيقنا .
- (۱۵) أورد أبن حزم في كتابه (طوق الحمارة) بنه لكل واحدة من هذه الخالات ، أنظر : تفصل ۱ ، ص ۵ -- ۱۱ ، والفصل ۹۰ ص ۳۰ -- ۳۱ ، والفصل ۲۰ ص ۸۰ -- ۹۵ ، والفصل ۲۶ ص ۵ ۹ -- ۹۶ ، والفصل ۲۸ ص ۲۰ -- ۲۱ .
 - (١٦) هكذا في الأصل ، وأظنها ﴿ حلوة ﴿ ، وجذا النَّمَى الأَخْبِر تُرْجِهَا أَسِنَ بِلاثْيُوسَ .
 - (١٧) المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٢٤ .
- (١٨) الأصل المسيحي للقصة ورد في كتاب الحياة الآباء Vitae Patrum من تأليف Rosweyde وأوردها ابن حزم مفصلة في كتابه الطوق الحمامة » ص٥ ١٨ ظبعة دار المعارف بمحقيقنا ويلاحظ أن الذي روى القصة الابن حزم طبيب بهودي .
- (١٩) أنظر بقية رأيه في كتابه : ابن حزم القرطبي ، الجزء الأول ، وقد توجمناه إلى الحلة العربية وسوف ينشر قريباً .
- (20) William C. Atkinson: Histoire d'Espagne et du Portugal. p. 81, Paris 1995.
 - (٢١) ابن عذاري ؛ البيان المغرب ، جري ، ١٥ .
- (22) Maranon Gregorio : Ensayo Biologica so-bre Enrique IV, p. 24. 9 edicion, Madred 1960.
 - (٢٣) للرجع أنسابق ص ٣٤ ، ٢٩ .
- (24) Fornicles Salvador: La Espana del Siglo MVI pag. 88; Buenos Aires, 1954.
- (25) Pfandai Ludwig : Juana la loca, p. 181 ss., Madrid, 1959.

- (٢٦) المرجع السابق ص ١٠.
- (27) Maranon, op. cit., p. 187.
- (28) Historia de Espana y América: Social y Economica, dirigida por : J. Vicens Vives 3 ed. p. 149 ss., Barcelona1271.
- (29) Fedrico Revilla : El sexo en La historia de Espana, p.158 ss., Barcelona 1975.
- (30) Lévi-Provencal, E. : Espana Musulmana, p. 47. Madrid, 1950.
- (31) Amèrico Castro: La Realidad historica de Espana, pag. 191 ss., 2 edicion, Mexico, 1962.

مقدمة لطوق الحمامة .

للفيلسوف الإسباني الكبير : أور تيجا إي جاسيت

صداقتي لإميلبو غرسية غومث مترددة : تتأرجح بين أن تكون أخوة وبين أن تكون أبوة ، الأبوة تأتى من أن عمرى أكثر اتساعامن عمره ، وتعود الأخوة إلى أن طريقنا واحدة ، وعندما نتحدث عن فلان نتفق .

وعندما يتفق إثنان أو آكثر فى رأيهم عن فلان ، يتفقون فيا عدا ذلك ، والمعكس صحيح أيضا ، ولايتطلب الاتفاق ، وحتى لا يفضل ، أن يكون الرأى متطابقا . ولسنا بصدد اتفاق الآراء ، وإنما توافق الحياة ، فليس فى الدنيا من تماثل آراؤه مع آخر ، إذا كانت لديه آراء حقا ، لأن الرأى شيء ذاتى للغاية ، وغير قابل للانتقال . وعندما تكون لدينا فكرة مشتركة تأتى المخاطرة الكبرى فى ألا تكون رأيا ، وإنما عكس ذلك تماما ، أن تكون شيئا مكرورا ، والشيء المكرور موضع ، والموضع عام ، إنه المكان الذى يتفق فيه الناس كثيرا ، ويتميزون ، وتختلط عايهم الأمور ، شيء لا يمكن أن يحدث إلا عندما يصبح الأفراد معادن ، ويفقدون صفهم الإنسانية ، لأن الرجال فى أصلهم ، وحقيقهم ، اجماعيون إلى حد كبير . و و المدرسيون ، أنفسهم ، وإحساسهم بمثل هذه الموضوعات متواضع للغاية ، يعرفون الشخص بأنه غير قابل الانعزال ، ويرون أن الآراء ممكن أن تختلف إلى حد بعيد ، بأنه غير قابل الانعزال ، ويرون أن الآراء ممكن أن تختلف إلى حد بعيد ، في أنها كانت موضع التفكير من نفس المستوى . وأخيرا فإن معاناتنا عندما نتعامل مع الغير ، نجى ء عادة من أننا المستوى . وأخيرا فإن معاناتنا عندما نتعامل مع الغير ، نجى ء عادة من أننا نفكر و نشعرونحن فوق مستويات مختلفة .

[•] كتب أورتيجا إى جاسيت هذه الدراسة كمقدمة الترجمة الإسبانية ، لكتاب وطوق الحمامة » ، وقام بها الهستشرق الإسبائي إميليو فرسية غومث ، وصدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٥٢ ، وأعاد نشرها في كتابه «دراسات من الحب» ، وهوكتاب واسع الانتشار ، وبلغت طبعاته ، في سلسلة واحدة ، حتى كتابة هذه السطور خمس عشرة طبعة ، فيما أعلم . (المترجم) .

وهذه بالدقة إحدى الهبات السحرية التي يملكها الحب، وعنها يتحدث هذا الكتاب في عمق . إليه – مثلا – تعود الظاهرة الرائعة في أن المرأة عشيقة المرجل، تبدو صفاتها أرفع بكثير من صفاته ، ولاندرى كيف ، ألحرد أنه عاشق يرتفع إلى مستواها، أو العكس . وقد التقط الشاعر الألماني الكبير جوته ، في بيتين من شعره ، في جاية كتابه الحالد و فاوست ، صورة هذا المستوى . فالأنوثة الحالدة حقيقة محلقة ، وعندما يحب الرجل يرتفع إلى مستواها ، لا بقوة الصعود نفسها ، وإنما بقوة الجذب ، فهو مجذوب إلى عالم أكثر سمواً. ولا يذكر أحد على أن المرأة ، إذا كانت شيئا ، تكرن جذابة ، جذابة بالضرورة ، ولكن جوته يسترعى انتباهنا بأن جاذبيتها دائما ، قامم ، قمة ن

ما هو أنثوى بجذبنا إلى أعلى

وبذلك سقطنا من باب مسحور في عمق هذا الكتاب ، وقد بذل إميليو خرسية غومث جهداً كبيراً ومضنيا في ترجمته ، وهو دين في عنق الإسبانيين فهض به متعاونين ، لأن هذا الكتاب أروع ما خط عن الحب في الحضارة إلاسلامية ، ولأنه وليد فكر وحياة إسبانيين، وكتبه عربي السباني على أرض إسبانية ، وقد ترجم من زمن إلى لغات أخرى ، ولكن أحدا لم يجرو قبل غرسية غومث على أن بمسك بمادته ؛ ويدفع بها خلال اللغة الإسبانية .

ومن الواضح أنى حين أدعو ابن حزم عرابياً إسبانياً ، فإنما أنسبه الى العربية المجادا ، وإلى الإسبانية بصورة غير جدية ، ودون أن أحرل بين الآخرين وبين أن يصنعوا ما محلى لهم ، ولست مستعداً من جانبي أن أغامر فأدعو وإسبانيا ، في بجدية كل من يولد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية ، حيى ولوكان من دم إيبيري أصلا ، وحتى لوكان قد عاش فيها كل حياته . فالأرض و الجبلة الدموية اليبيري أصلا ، وحتى لوكان قد عاش فيها كل حياته . فالأرض و الجبلة الدموية تأتى في آخرة أثمة الحصائص التي يمكن أن تحدد قومية الإنسان . لأن هذه خلاصة الواقع الناريخي ، وإنما تكون لهما فعالية فحسب ، حين تحتلان منه خلاصة الواقع الناريخي ، وإنما تكون لهما فعالية فحسب ، حين تحتلان منه المكان الأول ، قبل كل الخصائص الأخرى، والدليل عليه ، بسيطاً وشهيراً ،

يتمثل فى أن بالإمكان أن يصبح المرء إسبانياً ، بأقصى ما تحتماء الكلمة من معنى ، دون أن يكون قد رأى الأرض الإسبانية مطلقاً . وعلى النقيض ، يمكن أن يكونه ، وبالمستوى نفسه ، دون أن تجرى فى عروقه نقطة من دم جنسنا ، أو فيه منه شيء قليل للغاية .

ويصدق ذلك في عصرنا الآن ، لأن إسبانيا ، منذ وقت طويل ، حققت كامل قوميما ، أعظم بكثير جداً عما كانت عليه خلال القرنين العاشر والحادي عشر، عندما بدأ الشيء الذي يدعى وإسبانيا ، ينبئق فحسب وكل هذه الصفات القومية تعنى ، إذا أخذت بمعناها الدقيق ، الانباء الأصيل لمحتمع محدد ، وكان مجتمع الأندلس العربي مختلفاً ، وشيئاً آخر غير المجتمع ، أو المحتمعات غير العربية ؛ التي كانت تسكن إسبانيا إذ ذاك (١).

ولكن ذلك لا يلغى ، كما قلت ، علاقاتنا مع عرب الأندلس، أو الإسبانيين، ولا يعفينا من بعض الواجبات فيما يتصل بتاريخهم ، واجبات عمادها ، في النهاية ، الفائدة التي تعود علينا من وراء القيام بها ، لأننا بهذا نغذى ذات جوهرنا ، ونثرى حاضرنا ، ونعلى من قدر إسبانيتنا . لأن مجتمعنا عايش على امتداد قرون طويلة هذا المحتمع الأنداسي ، وجها لوجه ، في احتكاك مباشر ، من المقبلات والسهام ، والأخد والعطاء ، والتأثير والتأثر ، وإحدى المحجلات الكبرة التي تعيب الدراسات التاريخية أنها في أوج تقدمها ، لم تستطع أن نجاو ، ولو من بعيد ، حقيقة العلاقات بين كلا المحتمعين ، وذلك هو سبب التأرجح المنظرف بين الآراء ، عن التأثيرات المحتمعين ، وذلك هو سبب التأرجح المنظرف بين الآراء ، عن التأثيرات بين حانب وآخر ، والذي أشار إليه غرسية غومث في مقدمته . ومن الحق أن نعيرف بأن المستشرقين الإسبان ، ابتداء من خوليان ريبيرا ؛ تقدموا خطوات هامة على طريق المحاولة ، وأظهروا في دفة كبيرة كيف تعايش خطوات هامة على طريق المحاولة ، وأظهروا في دفة كبيرة كيف تعايش

⁽١) لكى لاتبقى الفكرة فامضة ، أضيف أنى أفهم من «مجتمع» بجموعة من البشر يحكمها فظام معين من العادات.

الأندلسيون والإسبان ، ولكن القضية لأنمكن أن تنقدم كثيراً إذا لم تؤخذ على نحو أكثر عمقاً . ومن الضرورى بمكان في الحقيقة أن نحدد بالدقة قركيب المجتمعين ، تحديداً منفصلا وجيداً ، لكي نستطيع فيا بعد أن نظهر التكامل والتلاقي بيهما ،

ومع ذلك ، لا عكن أن نفف بالقصية عند حدود إسبانيا وحدها ، فهي أكثر انساعا ، لأن الجانب الأكبر من أوربا كانت له أيضاً صلات مستمرة مع الحضارة العربية ، وتجاور مباشرة معها ، ولكن المؤرخين الأجانب أيضاً لم يسكبوا شيئاً من الوضوح فوق هذا العمل ، وهو إحدى الحقائق الكبرى فى تاريخ الغرب ، وكان ذلك التقصير أحد الأسباب الحوهرية التي عاقت الذكاء الأوربي الوسيط : وليس ممكناً أن نفهم حدثاً تاريخياً ، مهما يكن ، إذا لم ننجح فى تأمله من وجهة النظر التي تظهر ، على نحو أفضل ، معناه الأكثر دقة ، أى من تلك التي تدرك متذوقة ، وبكل على نحو أفضل ، معناه الأكثر دقة ، أى من تلك التي تدرك متذوقة ، وبكل نظرة إلى الواقع من خلال مساحة جزئية ، مهما بتكن عيقة ، يشوهه نظرة إلى الواقع من خلال مساحة جزئية ، مهما بتكن عيقة ، يشوهه أو يزيفه آلياً . وعلى أية حال فهند أعوام طويلة ، وإميليو غرسية غومث شاهد عظيم على ، وأنا أرى أن الغصر الأوربي الوسيط لا يمكن أن يرى بوضوح إذا نظرنا إليه وقد ركزنا تاريخ تلك القرون في تطور المجتمعات المسيحية وحدها .

إن العصر الأوربى الوسيط، فى حقيقته ، لا ينفصل عن الحضارة الإسلامية ، لأنه يقوم بالدقة على التعايش ، إنجاباً وسلباً فى الوقت نفسه ، بين المسيحية والإسلام ، فوق رقعة مشتركة ، مشبعة بالحضارة الإغريقية الرومانية ، ومن هنا فإن وجهة النظر الوحيدة المناسبة من عدم المبالاة أمام هذين المتحدرين من حياة العصر الوسيط ، متأملين ظاهرها المزدوج ، واختلافها وحدة واتفاقاً ، يحملان فى داخلهما نموذجين مختلفين : والسبب القوى فى هذا أن كلا العالمين المسيحى والإسلامى وجهان له الم جغرافى واحد ،

يشكل تاريخياً من الثقافة الإغريقية الرومانية ، والإسلام نفسه يجي امتداداً للمسيحية (وناسخاً لها !) (١) ولكن هذا الامتداد ماكان ممكناً أن يتضج بدوره لولم تتلاق الشعوب الأوربية والشعوب العربية ، عن مساحة احتلمًا الإمبراطورية الرومانية على امتداد قرون من الزمان . فالعرب والجرمان شعوب خارجية ، تعيش علىحافة هذه الإمعراطورية، وتاريخ العصور الوسطى هوتاريخ ما يجرى بين هذين الشعبين ، تبعاً لتوغلهم في عالم الإمبر اطررية الرومانية : مقيمين فيه ، وممتصين جواتب من ثقافته ، جاسئة ونخرة . والعصر الوسيط ، في جانب سنه ، نستي من التالمي العصلافي ، تلقى الشعوب ذات النقافة البدائية المثقافة القديمة ، والدوابق المسيحية الإسلام ليست إلا حالة خاصة أن مجال هذا التلقي ، أحدثته نفس الآلة التاريخية التي حملت عرب الفرن الناسع على تلقى أرميطو وأبقراط وجالينو وإقليدس و ديوفان وطلميوس ، وما اكثر ما ننسي أن العرب قبل محمد عاشوا سبعة قرون تحيط بهم من كل الجوانب شعوبكانت ، في قليل أوكثير ، مشبعة بالثقافة الهلينية ، وعاشت تحت الإدارة الرومانية، لا في سوريا فحسب ، حيث هبت نوق العرب عاصفة القديم الكبرى ، وإنما في فارس وبكترانيا والهند . وعلى النقيض من ذلك ، ظلمت أوربا في جانبها الشمالي متحررة من التأثير الإغريقي الروماني ، واستطاعت أَن تحتفظ لزمن أطول بأصولها البداثية سالمة .

أطوار هذا التلقى تتشابه فى البدء كثيراً ، والاختلاف الوحيد فى تلك الفترة ، وهومهم دون شك ، يتمثل فى أن العرب تقوا والقديم ، في شكاء الإمبراطورى الرومانى الشرقى ، وتلقاء الأوربيون فى صيغته الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأدى هذا ــ مثلاً لل أن العرب الميراطورية الرومانية الغربية ، وأدى هذا ــ مثلاً لل أن العرب الميراطورية في مرهة فائقة أن يكون لهم أرسطو الخاص بهم ، و على النقيض استطاعوا فى مرهة فائقة أن يكون لهم أرسطو الخاص بهم ، و على النقيض

⁽١) الإضافة التي بين القوسين من عندى . لتوافق الجملة وجهة النظر الإسلامية (المترجم) .

فإن المسيحية التى جاورت الإسلام كانت النسطورية ، ومسيحية القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وهما وجهان قدعان للعقيدة المسيحية . وفى الأطوار التالية أخذ التلقى شيئاً فشيئاً ملامع أكثر نميزاً ، إلى أن توقف في القرن الثالث عشر بين العرب ، فجفت حضارتهم وتحجرت ، وقنعت بالقرآن ، وركنت إلى الصحراء ، ولأن الصحراء تطوق العالم الإسلامي من الشرق والجنوب كانت تدفع فوقه من حين لآخر بموجات من النمسك العنيف بالمدين ، وكان البدو حملتها ، وآخر الموجات وصولا، وحدثت من قريب حركة الوهابيين في نجد ، وقد أطبقت بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، وبقيادة ابن سعود ، على الجزيرة العربية ، واستولت على مديني مكة والمدينة .

فكرقى إذن أنه عندما بدأ ما يدعى بالعصر الوسيط ، كانت الجرمانية والعربية جسمين تاريخين متجانسين إلى حد بعيد ، فيا يشكل اللبنة الأولى لحياتهما ، وفيا بعد، وشيئاً فشيئاً ، أخذا بنمايزان تدريجياً إلى أن وصلا في هذه القرون الأخيرة إلى تباين جنس . والرأى المعارض ، وهو الشائع دفع به جيل تلقائى بلا تفكير ، وهوشىء بحدث كثيراً في عالم المو رخين ، لا تهم رسموا لتلك القرون صورة بالغة الخلف عما نجده الآن عند مجموعة هذه الشعوب أوتلك ولكن ذلك بدوره ماكان ليقع لو تمت تحليلياً عملية اعادة بناء التركيب الأسامى للحياة الإنسانية في العصر الوسيط ، إذن لبدا لهم ساعتها إلى أى مدى كان حاسماً ، في تكييف ساوك الإنسان وفي الحياة ، في العين أن شعوباً ذات ثقافة بدائية واحدة ، جاءت ليميش في حيز اجماعي، حيز الإمبراطورية الرومانية ، حيث سبقت إلى الوجود حضارة وصلت حيز الإمبراطورية الرومانية ، حيث سبقت إلى الوجود حضارة وصلت الحظ فإن حد الحضارة توقف نموها ، وبالتالى أوج تعقدها وصقاها . ولحسن الحظ فإن هذه الحضارة توقف نموها ، وبالتالى أوج تعقدها وصقاها . ولحسن الحظ فإن وبالتالى فقدت بالضرورة جانباً كبيراً من ثرائها الوفير، وعادت اختصاراً لل كانت عليه في سابق أيامها . تذكر مثلا ، في المحال الثقافي ، الثقافة لل كانت عليه في سابق أيامها . تذكر مثلا ، في الحال الثقافي ، الثقافة وسابق أيامها . تذكر مثلا ، في الحال الثقافي ، الثقافة و المحال المحال المحال الثقافي ، الثقافة و المحال المحال المحال المحال المحال الثقافي ، الثقافة و المحال المحال

الإغريقية الرومانية قريباً من القرنالخامس الميلادي ، لقد انحصرت وتركزت الملخصات والموسوعات والمناجم ، وأولم تكن هكذا لأصبح الصدام ، ويدعوه البوم عاماء الأجناس البشرية من الأبجلوساكسون الاصطدام الثقافي ، مقرطاً وعنيفاً ومحتلف النتائج إلى حد بعيد ، ولضاعت الشعوب الجديدة كما لوكانت في غابة مرعبة من فيض الحياة الكلاسيكية . ولحسن الحظ- ، وأعيد القول ، فإن هذه تعرضت اللاختصار ، على نحو ماني طبعات الدلفين ، سواء أكان الدلفين عربياً أم جرمانياً (١) .

وفصل الآن إلى الملاحظة المثمرة حمّة ، ومعها نضع يدنا على مفتاح ذكاء العصر الوسيط ؛ ولم نر أبداً من عبر عنه . فالثقافة الكلاسيكية حتى وهي متقلصة ، وجفت أنسجتها ، كانت ترمز إلى مجموعة من أشكال حيساة بالغة التعقيد إلى حد بعيد ؛ وأرق من الحياة التقايدية لتلك الشعوب المغيرة ، ولم يستطع الجرماني ولا العربي فهمين جيدا ، لا لأنها المعقدة ورقيقة فحسب ، ولكن لأنها المحدرت من أصول بعيدة عنهما ، أوحت بها تجارب تاريخية تختلف عن تجاربهما ، ولكنها من جانب آخر فرضت عليهما في بعض المحالات لأسبب عملية ، كما في الإدارة ، ودائماً بسبب مكانها الفريدة . ولست أعرف ، أخيراً ، ما إذا كان يمكن القول بأن الإمبر اطورية الرومانية كانت الحدث الأعظم أهمية في التاريخ حتى وقتنا هذا ، ولكني الرومانية كانت الحدث الأعظم أهمية في التاريخ حتى وقتنا هذا ، ولكني يلقى بثقله عاينا . ويمكن القول أن هذا أدى إلى از دواجية درامية في أسس يلقى بثقله عاينا . ويمكن القول أن هذا أدى إلى از دواجية درامية في أسس عندما التعني من الأشكال أمامه ، وكل واحدة منهما مثل مجرى ، تغرى الإنسان مختلفتين من الأشكال أمامه ، وكل واحدة منهما مثل مجرى ، تغرى الإنسان

١ - الدنفين نقب كان يطلق في فرنسا المنكية على ولى العهد منذ عام ١٤٣٩ م ، مم أصبح يطلق على الطبعات الممتازة للأدب لكلاسيكي اللاتيني التي تطبع ليستخدمها الدلفين ، ابن نويس الرابع عشر ، وكانت تحذف منها النصوص ذات المجون الشبق ، وتطلق الأن سخرية على الطبعات التي تنخضع لرقابة المكنيسة أو غيرها .

بأن يتدفق معها عبر سلوكه الحياقي . والأنماط الموروثة من ماضيه [تكشف على الأقل ، هن حياته اليومية ، ولكن هذه لا تترك الأثر بأنها [وحياة ، لأنها المحادة حالصة ، وعندما نخرج عن عاداتنا التي اكتسبناها عن طريق العدادة الحالصة فحسب ، ولا نقف عندها آليا ؛ نصنع قضية والحياة هي وعندما نبحث عن النقيض المقابل وللحياة المعتادة في نبحث عن والحياة كما يجب، وأشكال الحياة الإغريقية الرومانية تبدو ، لمكاننها ، أمام الشعوب الجديدة في ملامح والحياة كما يجب في مواجهة والحياة كما هي عادة ، ولهذا كانت الحياة في العصر الوسيط بالغة الإئارة أله المها حياة من طابقين دون النسجام أكاف بينهما ، فهناك في أسفل طابق العادات القديمة المتأصلة أن السجام أكاف بينهما ، فهناك في أسفل طابق العادات القديمة المتأصلة أن وهسلما وفوقها طابق السلوك النموذجي ، ذلك يعاش حقيقة ، وتلقائياً أن وهسلما السلمة إندفاعات مقلدة ، والعلاقة بين الإنسان وما يصنع ليست في التلقائية ، ولا في هذا الإحساس الصادق ، وإنما في (الرغبة أن يكون غير ما هو

كائن . فالجرمان والعرب عكفوا على تقليد الإغريق والرومان ، فى عاولة لصياغة أشكال حياتهم فى الإدارة والقانون ومفهوم الدولة والعسلم والشعر (۱) . والدين نفسه أخذ عندهم جوانب مثيرة من الانسجام مسع البيئة . فالإسلام امتداد للمسيحية ، بطراؤيقة مختصرة للدلفين الذي يعيش أفى الصحراء ، وهسيحية الجرماني أيضا ليست إلا تقليداً لمسيحية آباء الكنيسة ،

هذا النركيب الأساسي لحياة العصر الوسيط كان وراء حدث بالغ أو الإثارة والروعة ، وراء و المدرسيين مثلا ؛ أعنى وراء الفلسفة الي غرسها إلخامعات الغربية بقرة خلال ذلك العصر ، وهو حدث مازال ينتظر من علو غوامضه ، لأن أحداً لم ينظر إليه حتى الآن في ضوء و فلسفات ا

١ - لا أود بهذة أن أقول أن كايهما متساويان في الإفادة من هذة الفروع ، فعلى حين أن العرب - مثلا - تشربوا العلوم الهليئية في اللحال ، ظلوا جامدين في مواجهة الشعر القدم ، وكان الأوربيون على النقيض منهم تعاما . .

مدرسية وأخرى كثيرة وماشهر بهذا الاسم ليس إلا حالة خاصة في طبقة تاريخية واحدة ، من المدرسية في طابعها الشامل ، وأثمرت ولا نزال تعطى ثمارها في كثير من العصور والأمكنة و تطلق المدرسية على كل فلسفة متلقاة ، في مواجهة كل فلسفة مبدعة ، وأطلق لفظ ومتلقاة وعلى كل فلسفة تنتمي إلى محيط ثقافي يختلف ، ويبتعد في الحير الاجماعي أو الزمن الناريخي ، عن الفلسفة التي يتعلمها أو بطبقها .

والذين بجهلون من أية مادة تتكون الآراء يعتقدون في سهولة تسربها من شعب إلى آخر ، ومن حصر سابق إلى عصر لاحق ، بجهلون أن ما هو أطول حياة في هذه الآراء ليس ما نفكر فيه بوضسوح ، ثم يجئ ثمرة الإحساس بالتفكير فيه ، وإنما الغاية التي نفكر في ظلها ، ومما يبقى مما ذكرنا عند استخدامها . وهذه العناصر غير المرثية ، والحفية ، هي أحياناً نسيج شعب تكون خلال آلاف الأعوام . وهذا العمق النابض بالآراء ، والذي يبقى علما فياضة ومغذية ، لا يمكن أن ينتقل ، كأى شيء هو حياة إنسانية حقيقية . إن الحياة لا تنتقل أبدا ، إنها قدر تاريخي !

الانتقال الكامل للآراء خادع إذن ، إنما ينتقل والساق ، ، وو الزهر، فحسب ، وربما متدلياً من الأغصان ، ثمرة تلك السنة ، وهو الشي النافع مها فى تلك المحظة مباشرة . ولكن فى تربة المصدر ما هو حى من الآراء، يبقى جذرها ، والنبت الإنسانى أقل تابلية للانتقال من الأشجار بكثير ، إنه تحديد مرعب ، ولكنه حتمى ومأسوى!

والادعاء بأن أولئك الرهبان من ذوى الرءوس الحليقة ، كانوا قادرين على إدراك المفاهيم الإغريقية ، كفكرة الوجود مثلا ، جهل بالبعد المأسوى الدى يصحب الحاث التاريخي كالحيط الأحمر يمضى مع كل حبال البحرية البريطانية . وعندما تتلقى فاسفة بعيدة عنا ، فإن الجهد العقلي يستغل قيادته ويعمل ، لا لكى يفهم المشكلات ، والأشياء كما هي ، وإنما لكى يصل

لفهم ما فكر فيه آخرون حولها ، وعبروا عنه فى تعريفات معينة . والمتعريف ليس كلمة من اللغة ، وإنما رمز مصطنع ، ولهذا لايفهم دون زيادة . وقد وضع عقتضى تحديد ما ، ويجب أن نصل إليه وفى ذهننا هذا ، وهو بدوره مكون من ألفاظ ، ومن هنا فإن « المدرسية ، كلها ليست إلا تجريداً للمعرفة لتصبح محرد مصطلح (١).

ولم يكن أوائل ، المدرسن ، رهبان الغرب ، وإنما عرب المشرق ، فقد تعلم توماس الإكويي على أرسطو عن طريق ابن سينا وابن رشد ، وفضلا عن ذلك فإن ملامح المدرسية أشد وضوحاً في الحضارة الإسلامية مها عند المشعوب الأوربية الوسيطة . وهذه الشعوب ، حتى وهي في دور المراهقة ، كانت تملك منذ زمن مبكر جداً ، ربما بفضل تركيها الجرماني ، أسلوبا خالفاً لم يكن عند العرب أبدا ، ولهذا تجمد هولاء في اللحظة التي توقفوا فيها عن التلقي . وما بهمنا هنا إبراز الطابع المدرمي المشترك بين الحضارتين ، والذي يعود إلى التكوين المزدوج ، غير الطبيعي ؛ للحياة الإنسانية خلال والذي يعود إلى التكوين المزدوج ، غير الطبيعي ؛ للحياة الإنسانية خلال للعصر الوسيط ، ليس من الحم ، إذن ، أن نبحث عن سبب هذا الطابع في نزوعات سلالية مزعومة ، لأن لا النوع ، في إحدى المحموعةين من الشعوب ، يختلف عنه في المجموعة الأخرى ، ولكن كليهما خضع لضغط الظروف المختلف عنه في المجموعة الأخرى ، ولكن كليهما خضع لضغط الظروف الحياة فوق تربة تحتلها ثقافة عظيمة ، وغريبة عليه .

هذا الرأى عن الحياة فى العصور الوسطى هو ، لاأكثر ولا أقل ، ما يجب أن يكون عليه أى رأى ، أى مشروع مربعات هائلة ، علينا أن نخلط فوقها واقع الحياة العربية الأندلسية ، وليست إلاكتاب الحب هذا ، وقد نسجته يراع ابن حزم . لأن الكتب، بالمعنى الدقيق للكلمة ، أعمال الرجال ،

١ - أستخدم هنا فقرات من كتابى و فكرة المبدأ عند ليبئز و تطور نظرية الاستدلال الومن ثم فإن والإنسانية عدوة المدرسية ، لم تكن بدورها إلا مدرسية ، ذات شمار مختلف ، ولكن النتائج متشاجة ، و لا تزال تلقى بثقلها على العقل الأوربي .

وليست زوائه تباتية في الأشجار، أو رواسب جوية ، وقد وقف الكتاب على الحب، وفي منهج حديث ، على نحو ما أدعو وأصر عليه من زمن طويل، وأول ما يتطلبه الكمال أمام نص أن تضع نفسك في موقف واضح من الشيء الذي يتحدث عنه . من الضروري أن تنتهي من هذا التحديد اللغوى الحرق المنالص، وأعتقد أنه أدى ميمته في ربط نص بآخر، وهكذا إلى ثم ما لا نهاية، ونحن نطلب تحديداً لغوياً عمليا ، ومن ثم يجب أن تبدأ ، أمام هذا الكتاب المتيت ، وقد شغل بالمهمة الإنسانية العظمي ، التي تسمى الحب، بأن توضح قليلا ما هية هذا الذي ء ولكن ذلك مستحيل الآن ، وهنا ، لا لأنه يحملنا بعيداً فحسب ، وليس من المناسب كتابة وسالة، أخرى عن الموضوع الذي بعيداً فحسب ، وليس من المناسب كتابة وسالة، أخرى عن الموضوع الذي تعمق فيه القرطي الصالح ، بل لأن كثيرين من حولنا الان مقتنعون تماماً بأن العالم خلق لصالح ، الراهبات ، والحديث عن الحب حرام Tabu ، ثمن الحب حرام Tabu ، ثمن الحب عرام المناه وغون علموحهم ،

أول فضول أحسب به ، وأنا أطل بين صفحات وطوق الحمامة ، تقصى ما إذا كان الحب عند العرب نفس الحب الذى بيننا. والظن بأن ظاهرة كالحب ، موغبة في الإنسانية ، وجدت دائما ، وتوجد إلى الأبد، على صورة مما أنفة ، خطأ فادح ، كالاعتقاد بأن الإنسان ، مثل المعدن والنبات والحيوان، له طبيعة ثابتة ودائمة ، وجهل بأن كل شيء فيه تاريخي ، نعم ، كل شيء فيه ، حتى ما ينتمى منه فعلا للطبيعة ، كما هو الحال فما ندعوه غرائز.

وليس ثمة شك أنه يوجد في الإنسان - وشكراً لله لا مجموعة باقية من الغرائز ، بينها هذه الجاذبية الجنسية المثيرة بين شخص وآخر ، ومن الواضع أن ذلك موجود دائماً ، ولكن من الفروري أن تضع في حسباننا أن بقية الغرائز حتى ولو كانت فعالة في الإنسان ، لاتوثر ولا تعمل منفصلة أبداً . وحتى غريزة و حفظ النوع ، وهي الأقوى بين كل الغرائز، تبدو متداخلة مع أشد المواضعات غموضاً وإنسانية في نوعيتها ، كالشرف والإيمان بعقيدة مع أشد المواضعات غموضاً وإنسانية في نوعيتها ، كالشرف والإيمان بعقيدة

دينية واليأس ، وتستطيع هذه أن توقف عمالها ، وهذا التوافق بين ما هو طبيعى وما هو ثقافي مجمل الغريزة متناقضة ، ويحولها إلى عظمة تاريخية ، تولد يوماً لتختفى في يوم آخر ، وبينهما تعانى من أشد التغيير اتعمقا .

ولسوء الحظـ فإن فهم هذه الحقيقة مضطرب ، ولأنها أساسية بجب أن تكون متألفة ، وقد جرت العادة ، معيبة ومتأصلة ، أن نطلق كلمة الحب وحدها على أشياء بالغة التباين ، وهو نفس الحِطأ حين نطلق كلمة شعر فحسب على ما أبدع هومبر ، وما أنشد فرلين ، على حين أننا ، في الحقيقة ، بصدد المهمامات لاتكاد تتساوى ، وفي الحالة التي نحن بصددها نجد الموقف اللغوى تعساً على وجه خاص؛ لأن كلمة حب amor تطلق في اللغات الرومانثية romances على هذه المحموعة من المشاعر ، وهي كلمة ، بالنسبة لنا غامضة إلى حد بعيد ، لأنها تنحدر عن أصل ميت لا معنى له ، أخذته لغاتنا من اللاتينية ، ولكن الكلمة ليست لاتينية ، لأن الرومان تلقوها بدورهم من لغة الإثروسك Etrusco (١) ، وهي اليوم لغة مجهولة وغامضة ، وهذا الواقع اللغوى بليع جداً بنفسه ، ماذا يعني أن يطلق الرومان على حقيقة بالغة الشفافية ، وإنسانية عالميا ، فيما يبدو، مثل التو تر العاطفي ، كلمة ذات أصل أجنبي ؟ . هل يعني هذا أن الرومان هؤلاء يطلقون لفظ وحب ، و من ثم كان هذا بالنسبة لهم نظاماً جديداً ، شيئًا يشبه تغيير النسق في الحياة الحاصة ؟ لو أن شيئًا حدث شبيهاً بهذا ، يصبح دليلاعلي أن هذا الحديث لغوى • وحينة؛ يسأل كل واحد منا نفسه ، أى شيطان هذا الذي اخترعه الإتروسك ، وانكب عليه وصقله أولئات الذين تلقوه عنهم ، ولأسباب ترتبط بمعانى الكلمات ، وتخفى علينا ، فإن لفظة وحب، تطلق على هذا الهدف السامي . والتاريخ ، إذا عرفنا كيف ننظر فيه ، ملىء بأبواب مسحورة مثل هذه . ومايعرف من حياة : الإستروك بوضح في كفاية أن (الحب، كان في حياة ذلك الشعب شيء

⁽١) الإتروسيك : شعب مجهول الأصل عاش في توسكانيا في نهاية القرنالثامن قبل الميلاد.

يختلف الغاية عما صوف ينتمي إليه بيننا ، وربما عندما نطاق لفظ حب ، على مشاعرنا الأكثر دفئاً وصفاء تجاه أمرأة ، إنطلق عليها دون أن تعرف شيئاً قبيحا . وكان شعب الإتروسك واحداً من أشد الشعوب شهوانية على ظهر البسيطة ، وكانت شهوانيته مرعبة ، مغيظة ويائسة ، ولدى أفراده عيقرية أن عوتوا من شدة الشهوة .

في صفحة ١٥ من كتاب ابن حزم تقرأ هذه الأبيات(١):

وأمحضتك النصح الصريح وفى الحشى لودك نقش ظاهر وكتاب فلوكان في روحي هواك اقتلعته ومزق بالكفين عنه إهاب ومالى غير الود منك إرادة ولا في سواه إليك خطاب

أودك ودأ ليس فيه غضاضة وبعض مودات الرجال مراب إذا حزته فالأرضجمهاء والورى هباء ، وسكان البلاد ذباب ﴿

والقارىء غير المسئول ، وهو الأكثر شيوعاً ، يتزحلق بعينيه عبر هذه الأبيات ، ويعتقد أنها مفهومة ، لأنها لا تضم رموز؟ رياضية مهمة ، ولكن القارىء الحيد ينتهى من قراءتها ولديه انطباع ، يكاد يكون دائمًا ، أنه لم يفهمها تماماً . والحقيقة أن هذه الأبيات إ لا يمكن أن تفهم بدقة ، الأننا لا نعرف ماذا بريد للوالف بكلمة وحب ی ، أو دود ی . 1

لا أظن أن فقه اللغة العربي أصبح على قدر من التقدم والدقة في إ دراسة معانى الألفاظ ، وأننا نستطيع معه أن نصل إلى تحديد ما كان يفهمه المحتمع الأندلسي من كلمة وحب، في القرن العاشر الميلادي ، ١٠ عندما يسمع هذه الكلمة أو يقرأما ، لأنها ، وأعيد القول ، كانت تعنى شيئًا مختلفًا إلى حد بعيد . يكفي أن نلحظ أن الشاعر يتوجه مذه ﴿

⁽١) أرقام الصفحات في الأصل تشير إلى القرحة الإسبانية ، أما هنا ، وفي المواضع التالية ، فقد جملتها تدود إلى (طوق الحمامة) في نصه العربي ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا، القاهرة م١٩٧٠ .

الأبيات إلى رجل ، وطبعاً أعرف أنه يوجد بيننا أيضاً حالات من الشدوذ الجنسى ، حب الرجل لرجل ، ولكن المسلم به فى أوربا أن كلمة وحب ، تعنى أولا ، وبالتحديد ، شيئاً يودعه الرجل فى المرأة ، أو ترسله المرأة إلى الرجل ، أما حب الرجل لرجل ، والمرأة لامرأة ، فلا نفهمه ، دون أن أزيد شيئاً . بل علينا أن تمارس عملية صعبة تقوم على تجريد الكلمة من معناها الأول ، وأن نحاول خبط عشواء أن نلبسه معنى آخر مختلفاً ، لكى نتصور عشق الرجل لرجل ، وقد أثبت أغرسبة غومث فى مقدمته لهذا الكناب أن الحب لا يبالى بالتباين الجنسى ، وذلك كاف لكى نتصور الحب العربى حقيقة شديدة الاختلاف عما باشرناه ، ونباشره ، معشر الغربيين . وأيضاً لا يمكن القول أنه يشبه باشرناه ، ونباشره ، معشر الغربيين . وأيضاً لا يمكن القول أنه يشبه المجنس ، ومعناه الأصلى عنده حب الرجل لرجل ، وهو – أى أفلاطون – على النقيض منا ، لا يفهم جيداً ما يمكن أن يكون حب رجل لا مرأة .

لست أهدف من وراء كل هذا ، إلا أن أدفع بمزيد من الحيوية ، بأشد الطرق إيجازاً ، إلى الإحساس بأن موضوع الحب هذا خطير للغاية ، ولا يوجد حب طبيعي نضع في مواجهته ، كمقابل له ، الغراميات الشاذة ، نعم ، يستطيع الذين يتخذون الرأى المقابل لهذا الحكم ، الزهو إلى حد كبير بعقائدهم الأكثر سمواً ، وبدل أن يحتموا في طبيعة مفترضة ؛ تنصح بحب تراه طبيعياً ، وترفض أنواعاً أخرى منه تراها شاذة ، أن يتحدثوا في حماسة عن ألوان معقولة منه ، وألوان أخرى غير صحيحة ، عما هو مستقيم وما هو غير أخلاقي ، والحب ، كما الكلور في المعدة ،

هذا الكتاب ذو العنوان الجميل (١) يبدأ بأفكار فلسفية مختلفة عن الحب ، ذات طابع (مدرمي ، خالص ، وكان ممكن أن تقال بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان ، في لانبنية هزيلة ، على لسان أي راهب في الغرب. ففي صفحة ٢١ تلتقي عنده بأفكار استخاصها مما قال أرسطو ، وفي صفحة ٢٢ نصطدم (عدرسية ، تقليدية متحذلقة ، ﴿ وَفَي صَفَحَةً ٢٣ مُحَدِّدُ لَمُنَا أُسْبَابِ الحَّبِ ؛ فَيَاجِأً إِلَى الْجَانَبِ الآخر مَن المدرسية ، أعنى الأفلاطونية . ومن المؤكد أن ابن حزم في هذه النقطة صوب فكر أبن داود ، وقد سبقه في محاولة وضع و نظربة الحب، ، ويتبح لنا هذا التصويب إدراك التقدم الذي أحرزته الأوساط العربية في معرفة أفلاطون ، على امتداد قرن ونصف من الأعوام . وفي الحق أن ابن داود ، ويدعى أنه أفلاطوني ، ارتضى في جد مضحك القولة الساخرة لتفسير الحب ، ووضعها أفلاطون على لسان أرستوفان البالغ السخرية ، وطبقاً له : ﴿ أَنَ اللَّهِ ، جَلَّ ثَنَاوُهُ ، خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطها أيضاً فجعل في كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقى الجسد الذي فيه النصف الذي قطع، من النصف الذي معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس في ذلك حسب رقة طبائمهم ۽ (٢).

⁽۱) فيما يرى غرسية غومث فإن كلمة الاطوق » تعنى عقد ، ولكن أليس من الأنضل أننا بصدد ما يدعى في الغرب ، منذ الإغربق ، العنق Cuello الحمامة » ، وكان رمزا لثروة لا تنفد من الألوان ؟ ففي صفحة ١٠٩ أجد هذه الفقرة : لا إنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر اللحب فقط ، و هذا أمر كان يطول جدا ، إذ الكلام فيه يتفنن كثيرا » .

 ⁽۲) آثرت أن أجيء بنص ابن داودكاملا ، لتبدو فكرته ، أي فكرة إفلاطون ، أكثر
 وضوحاً ، وقد نسبها ابن داود إلى (بعض المتفلسفين) ، دون أن يذكر اسم أفلاطون
 صراحة . أفظو :

كتاب الزهرة ، النصف الأول ، ص ١٥، الطبعة الأولى ، تحقيق لوبس تيكل وإبراهيم طوقان ، بيروت ١٣٥١ هـ ١٩٣٣ .

وقد اتخذ ابن حزم الأندلسي من هذا الكلام والمدرسي ، المطروق أطارا فحسب ، هالج من خلاله موضوع العشق في دقة ، وهو في هذا ليس و مدرسياً ، على الإطلاق : وتفيض كتابات ابن حزم بذكرياته الذاتبة ، وذكرياته عن غره ، يقصها بطريقة مباشرة دقيقاً وقوياً ، ومحلل في مواطن أخرى ، واضحاً وفطناً ومدهشاً ، مواقف مختلفة تتصل بالحب . وليس مهما أن أنقل هنا فقرات من النصوص التي سوف يجرى بينها القارىء ، وأكتفى بأن أشير من بينها إلى عدد من الفقرات يبدو لى مفيداً أن أو صى جا: فى صفحة ٧ مجموعة رقيقة من الأشياء التي تدل على أن اثنين في حالة عشق ، وفي ٧٩ نلتقي بأسباب تحكن الحب من النساء ، إنهن ، فيها يرى ابن حزم : • متفرغات البال ، إلا من الحب ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شأن لهن غيره ، ولاخلقن لسواه ، وفي صفحة ٤٤ حديث عن تفاوت . ردالفعل عند ممارسة الحب ، وما يترتب على ذلك سلباً وإبجاباً ، وهي مشكلة حقيقية ، وشائعة بين الجنسين ، وتهم أطباء اليوم كثيراً ، وفي صفحة ٤٧ إشارة إلى تأثير الحب الأول في الغراميات اللاحقة ، مما يعبد إلى الذاكرة ما ذكره ديسكارتDcscartes (١)عن نفسه، وكيف أنه أحب أول مرة حولاء ، فظل يشعر دائماً بالميل والاهمام بكل النساء الحوليات، وفي صفحة ٩٠ إحساس واضح عا للحب من تأثير تافذ على الكيان الإنساني لا يدانيه شيء . وتدرك معه في صفحة ٩١ أن الحلسة في الوصل قمة الحب ــ ويالها من حقيقة كبرى ! ــ وفي صفحة ٩٦ وصف رائع للقاء غير منوقع بين حبيبن ، محكيه صاحبه وأعضاؤه تضحك كلها بهجة ، وفى صفحة ١٧٢ قصة البحار وآلته وسكينه ، والعائدات] من الحج ۽

لا يمكن أن نستقصى أفكار ابن حزم ، وهو يعرض ثنا ماكانت عليه ملامح الحب الأندلسي في أيامه ، ولا أن ندرك حقيقتها التاريخية ،

⁽۱) فيلسوف ورياضي وعالم طبيعة فرنسي (١٥٩٦ – ١٦٥٠) (المترجم).

ولا نستطيع أن نقارن بينها وبين الحب عند شعوب أخرى . إنما علينا أن نتمعن جيداً ما يقصه علينا ، وفيا محدده لنا ، وفي الملامح المميزة لطريقة ﴿ الحب ثلك ، وصوف يبدو لنا للوَهلة الأولى ، أنه لا يوجد خلاف ، وهو نفس ما محدث لنا عند نقرأ الكتاب الوحيد ، الدقيق والحجة ، عن الحب عند شعب بدأى : ﴿ الحياة الجنسية عند البدائين ، ، لموالفه مالنوفسكي Malinowski (۱) ، ونعرف منه أنه لا يكاد يوجد خلاف إ بیننا و بین و تروبریاند Trobriand ، ، شعب بدائی للغایة یعیش فی في جزيرة غينيا الجديدة ، في الواجبات العاطفية ، أكثر من أنهم مجهلون ، مثل شعوب آسيا ، تأثير القبلة الحلو ، وعلى النقيض يستلذون عض الأهداب ، أمراً يبدو لنا غريباً وغير مألوف . وهذا الظاهر ، و هو ذاني محت إلى حد كبير ، يه فع إلى عقولنا بتحذير جوهري ، في أن العواطف الإنسانية ثرية بقدر هائل لا يصدق ، في تباتُّها وفي حيوانها ، ولكن لا تستطيع وفقاً لطبيعتها أن تعبر عن نفسها ، وإنما تعتمد على الأعمال ﴿ والملامح الجسدية ، ومجموع مفاتيح هذه الملامح الجسدية التي تجدها عواطفنا تحت تصرفها ، لتعبر بها عن نفسها ؛ محدود للغاية إذا قورن بالتنوع الوفير لأشكال الحياة في مشاعرنا . ومن هنا عليها مع الملمح تفسه أن تظهر حقائق حنوناً ، بليغة التباين ، رغم أن كل الغراميات إذا تأملناها من بعيد تبدو متشابهة .

أعمال قليلة ، كهذا الكتاب ، أناحت لى متعة عظيمة ، ولقد الفتحمت صفحانه بمجهر أحاول ، مبتاراً بما يقصه علينا وما يفسره لنا ، الوصول إلى صيغة مميزة لما كان عليه الحب عند هولاء العرب المصقولين في القرن العاشر الميلادي ، وما تعني بالنسبة لنا ، وهو موضوع محتاج إلى مزيد من الوقت ومن الفراع ، لأنه يستطرد بنا إلى موضوعات تنتمي إلى عالم العلاقة بين الرجل والمرأة ، وعنها ، ولو أنه يبدو أكذوبة ، كل شيء نقريباً في انتظار من بدرسه أو يقول عنه شيئاً .

⁽١) عالم أجناس بريطاني الجنسية ؛ يولندي الأصل (١٩٨٤-١٩٩٢) (المترجع).

وإذا أردنا أن نضرب مثلا بالغ الروعة للإهمال الذي تعانيه هذه النماذج الإنسانية من الحب ، يكفى أن نتوقف لحظة عند الكلمات الأخيرة الفترة السابقة : وما يكون الحب اليوم بالنسبة لنا ، عن أى ويوم ، يتحدثون هنا ؟ لأننا لا نستطيع أن نقول إن العشاق الأوربيين منذ خمسين عاماً وعشاق اليوم شي و احد أو متطابق ، رغم أن المسرح واحد ، وأن البعد بين الاثنين قصير جداً ، ومع ذلك فإن مسافة الحلف بين حب تلك الأيام وحب الأجيال الجديدة واسعة إلى حد بعيد ،

لقد تسلطت الحروب والثورات على عقول الناس ، فلم يعيروا اهتمامهم الموضوع واضح ، وهو أن التغيير الأبعد غوراً في شكل الحب الأوربي ، منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، حدث في هذه المسافة القصيرة ، وفسدت خلالها ، في كثير من الحالات ، التقاليد العالمية المتنوعة ، وربما كان أبلغها فسادا ، ووقع صامناً دون دوى ، وعلى نحو لم يحدث مع أى شيء آخر ، وبطريقة جذرية عنيفة ، ما حدث في أساليب الحب . ومنذ تلك الأيام أخذت نماذج الحب نتطور على نحو مستمر ودقيق ، كجنس أدبي ، أخذت نماذج الحب نتطور على نحو مستمر ودقيق ، كجنس أدبي ، وهو كذلك على نحو ما ، حتى بداية هذا القرن . ولهذا مرت العلاقة بين الرجل والمرأة بعصر من الاضطراب العنيف ، وليس من موضوعنا هنا أن نتعمق فيها دراسين .

لكى نعرف جيداً ما هية الأشياء يجب أن نمشى معها على مهل وأن نضع بعضها في مواجهة البعض الآخر ، ومع المقابلة تتوهج خصائص كل واحدة وهكذا من الأوفق لنا الآن أن نضع طرائق الحب الى اكتشفها ابن حزم ، والذى ندعوه بالحب الأنداسي ، في مواجهة حب البدو ، وينتشر بين القبائل الى تحتفظ اليوم بأصوفا العربية في نقاء كامل ، وتعيش في الصحراوات العطشي لشرقي شبه الجزيرة العربية ، على ضفاف الحليج العربي ، لقد نشر العطشي لشرقي شبه الجزيرة العربية ، على ضفاف الحليج العربي ، لقد نشر ديكسون مهدون في سورية ، وأرضعته بدوية تنتمي لهذه بعن هذه القبائل ، وقد ولد ديكسون في سورية ، وأرضعته بدوية تنتمي لهذه القبائل ، واعتبر كواحد من أبناء القبيلة الأقوى نفوذا ، وهو محدثنا كيف

أن هذه المنطقة من الجزيرة العربية ، وعلى نحو ما كل شبه الجزيرة ، لا تعرف الحيانة الزوجية . صحيح أن سهولة الطلاق لاتدع فراغاً بمكن لهذه أن تأوى الحيانة الزوجية . صحيح أن سهولة الطلاق لاتدع فراغاً بمكن لهذه أن تأوى الميه ، ومن جانب آخر تمضى المرأة محجبة ، وقد أخفت رأسها تماماً ، ولا يستطيع من يصنف نفسه حبيباً لها أن يعرف منها أكثر من مجرد رويتها على هذا النحو ، و إلا فسوف يرى نفسه مضطراً لأن يشك فيها ، فالمرأة إذن تدخل عالم الحب مثل كائن مجهول ، ولهذا لا مجال للدهشة إذا انطوت ليلة الزفاف على كفاح عنيف بين الزوج والزوجة ، عنف يبلغ حد أن تتعرض الزوجة غالبا لكسر واحد من أضلاعها أو أكثر .

كيف يمكن أن يكون الحب الذي ينحرك بين مثل هذه العادات ؟ والملك الحالى للجانب الأكبر من الجزيرة العربية ، ابن سعود العظيم ، وهو مسلم متشدد ورئيس الوهابيين المتشددين ، قص على ديكسون أن عنده ، حتى وقت الحديث ، أكثر من أربع مئة أمرأة ، لم ير وجه واحدة منهن وبالنسبة لنا معشر الغربيين ليس سهلا أبداً أن يكون حب بدون وجه ، لأن الوجه بالدقة هو المكان حيث يتدفق الحب الحقيقي ، ومن ثم وجب أن يعني كثيراً بظاهرة أن الوجه الأنثوى لايثير الشهوة في الرجل ، على حين أن بقية بظاهرة أن الوجه عملها كله ، حتى البدين ، عثل دائماً إثارة خطرة وصريعة . وربما كانت جسمها كله ، حتى البدين ، عثل دائماً إثارة خطرة وصريعة . وربما كانت علمها تقوم بواجب يتجاوز حد الحنان، ولكنها تقريباً تأتى في المقام الثاني ، عندما تكون الشهوة قد اندفعت عبر محالات عاطفية .

والقضية المتاريخية السكبرى اللي تتخذ من هذا الكتاب منطلقاً ، يجب أن يكون واجبها مهاجمة القول بتأثير العرب في شعر الغزل الأوربي الوسيط بعامة ، وفي شعر وتقالبد النروبادور مخاصة ، وهي نظرية شائعة ، وموطن نقاش في الموقت نفسه . وهذه القضية عش زنابيز لم يحاول أحد حتى الآن أن ينظمه .

ففي نهاية القرن الحادي عشر ، ومضاع القرن التالى ، بدأت في فرنسا طريقة الإحساس الرجل بالمرأة ، ليس له صلة مباشرة لا بالثقافة القديمة،

ولا بقرون العصر الوسيط السابقة ، يسعد الرجل حن يعتبر المرأة شيئاً أسمى منه ، ويخضع لها خاشعا ، وتقوم العلاقات العاطفية بين الجنسن على فكرة والفي ، الذي يبدأ في اللحظة نفسها بإعلام المحتمع ، والمرأة سيدة ، والرجل تابع لها ، والشهوانية التي تتنائر هنا وهناك في أشعار الغزل ؛ تأخذ في أسلوب شعراء التروبادور بعامة طابعاً شارداً فحسب ، وعلينا أن نو كلا ذلك إزاء إصرار بويفو Briffautl على التقاط النصوص الجريئة (١) . ومشاعر التروبادور نحو المرأة تتطلب البعد ، فيا يبدو من نصوصهم ، وتبدو الحبيبة بالضرورة نائية المقام ، ويتردد بكثرة أنها كالثريا بعدا ، وليست في متناول اليد ، وبالتالي ليست موطن مداعبة ، له ليست شيئاً وليست في متناول اليد ، وبالتالي ليست موطن مداعبة ، له ليست شيئاً يداعب ويستمتع به ، وإنما شيء يبتعدون عنه في ألم ، ويشتاقون إليه دائما . ومن ثم يزهر شعر التروبادور الأنين والشكوى ، وبعرض الحب دائما . ومن ثم يزهر شعر التروبادور الأنين والشكوى ، وبعرض الحب كألم لذيذ، أو جرح محظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و و دال كألم لذيذ، أو جرح محظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و و دال كألم لذيذ، أو جرح محظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و دال كألم لذيذ، أو جرح محظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و دال كألم لذيذ، أو جرح عطوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و دال كألم لذيذ، أو جرح عطوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و دال كألم لذيذ ، أو حد عظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و دال كألم لذيذ ، أو حد عظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و دال كألم لذيذ ، أو حد عظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و دال كألم لذيذ ، أو حد عظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى و دال كألم لذيذ ، أو حد عظوظ ، و حد الأرض القمر ه إلى التروبادور الألم التروبادور التروبادور الألم التروبادور الألم التروبادور الألم التروبادور التروبادور الألم التروبادور الألم التروبادور التروبادو

ملامح حب البروبادور هذه لها خصائص أخرى كثيرة ، لا أستطيع أن أضيفها هنا ، وكانت سبباً فى أن نبحث لها عن أصل فى صورة الحب الدى أز دهر بين العرب قبل ابن حزم بقرن من الزمان ، ويطلقون عليه عادة و الحب البغدادى ، ولكن حب بغداد هذا ليس إلا واحداً من التأثير ات التى حدثت فى جماعات كبيرة ، وأتخمت ثقافة على مائدة الأفلاطونية التى شاعت فى ذلك القرن ، وبين هذه الجماعات تشكلت أسطورة قديمة تتحدث عن قبيلة بنى عذرة ، وفها يموت الرجال من الحب ، لعزوفهم عن التمتع بالمحبوبة . هل يمكن حقاً تفسير الحب عند المبروبادور يما يقابله من أشكال الزهد المتطرفة ذات المحتوى العاطفى ؟ وهنا محق لى أن أشكو من الطريقة التى عولجت بها كل القضايا التى

⁽¹⁾ Robert Briffaut, Les Troubadoudrs et Le Sentiment romanesque ,1945, pp. 92 - 94.

مـــزاج ابنىحـــزم من خلال الطوق

صورة له بقلمه

لست أعرف فقياً كابن حزم ثرك الآخرين يدسون عيونهم وعقولهم في أعماقه ، ليروا على هدى من اعترافاته ، وفي ضوء ما يملي لهم من حياته كيف هو ومن يكون ، ولقد حطم كل الحياء المصطنع ، وأني على كل الأسوار العالبة ، التي تعزل الفقه عن الحياة ، حين يقول الفقهاء للناس شيئاً ويصنعون شيئاً آخر ، أوحين عسكون نخناق الناس تضييقاً ، جرياً وراء فهم قاصر ، أونفاقاً للسلطان ، أوعناً وراء زائل من عرض الدنيا ، وبحعلون من سماحة الشريعة قيرداً ، ومن وعها حموداً ، وكان هذا هو الفارق الكبير بين ما يجرى في الحياة الإسلامية واقعاً ، وما يكتبه الفقهاء في مؤلفاتهم نشريعاً ، أويلقونه في حلقهم درساً ، أويبشرون به بين الآخرين واعظن .

لقد تركنا ابن حزم نطل على حياته من خلال مؤلفاته كلها بعامة ، وعرى نفسه فى كتابين محددين بخاصة ، خط أحدهما وهوفى ريعان الشباب، يفيض تحدياً ويلتهب حماسة ، ويعترض بكل ما أوتى من قوة أحداثاً كباراً تجرف فى طريقها الحلافة ، نظاماً وأشخاصاً ، وكان يراها شرعة قائمة ، يلوذ بها الحائف ، ويستظل فيها المظلوم ، ومعها تقوم الدولة ، وتطمئن الجماعة ، وتنطور الحياة ، فدافع عنها ، عن الشرعية الدستورية فى لغة السياسة الحديثة ، بكل قدرته ، وبما هو قوق طاقته ، ثم رآها تنبار ، وينهار معها المجتمع والدولة وكل القيم الجميلة ، فأشعل الحرب على كل أمير خائن ، وكل فقيه مرتش ، وكل شاعر منحل ، ولم يلتي السلاح الإ جداثاً محمولا على الأكتاف ، إلى وحاب الله الواسعة ، وكان هذا الكتاب هو : طوق الحمامة ،

أما الكتاب الثانى فقد خطه حين أدار ظهره لعالم الحديمة حوله ، وقد أثقل كاهله النضال على كل الحبات ، ورأى القيم التي عاش لها وعليها تهاوى واحدة وراء أخرى ، فلم يستسلم لها ، واتسحب إلى قريته منت لشم ، من بادية لبلة ، وقنع بعاحه وكتبه و طلابه ، وكان بعن ما خطه مها ، في هذه الآبام ،كتابه : والأخلاق والسير في مداواة النفوش ، وهو مجموعة رائعة من الاعترافات الذاتية ، خطها ابن حزم وقد حنكته لتجربة ، وصقلته الأحداث ، وصهرته المعاناة ، وهدهد الزمن من جموحه ، وإنها لمتعة رائعة حقاً أن يقارن الإنسان بعن تجارب وأفكار ابن حزم في وطوق الحمامة ؛ ، ولما يتجاوز الثانية اوالعشرين من عمره ، وبين أفكاره شيخاً على أبواب السبعين ، وسنضع يدنا على الحقيقة بيضاء ناصعة : إن أفكار وآراء ابن حزم على امتداد نصف قرن من الزمان نقر بباً ، رغم كل ألوان المعاناة ، لم تنغير شيئاً .

ايس من قصدى هذا الموازنة بين الكتابين ، ولا إأنا بصدد دراسة الكتاب الثانى ، فالملك مكانه من فرصة قادمة إن شاء الله ؛ وإنما أحاول أن أحرض صورة لجانب من مزاج ابن حزم ، فى زهوة شبابه ؛ كما رسمه لنا بقامه ، فى كتابه وطوق الحمامة ، .

. . .

لاتكاد تمضى محطوات مع ابن حزم في طوق الحمامة حتى تجد نفسك أمام فيض من ذكريانه ، عن نفسه وعن أصدقائه ، وآخرين مجهولين ، وكلهم من العشاق ، زفراتهم حارة ، وأحاسيسهم صادقة ، يخلطون المداد بالدمع أوالريق ، ويستخدمون في التراسل الحمام والعيون والرسل ، ويعانون من الوشاة ، ويموتون من الحب. وهو إلى جانب ذلك معرض حافل بالحديث عن شيوخ ابن حزم ، والشخصيات المامة في قرطبة ، والإشارات التاريخية ، والأحداث الهامة : والحفلات الحاصة ، وتخطيط وبالإشارات التاريخية ، والأحداث الهامة ؛ وكلها تتحرك نابضة

بالحياة ، وتمضى مهاسكة مثل هناقيد العنب ، وهو قبل ذلك كله سبرة ذاتية المموالف، خطها بقلمه ، واعترافات مجلصة ألقى بها فى جرأة وصدق غبر معهودين فى الفكر العربى على أيامه وما بعدها إلى أيامنا .

هل تصلح اعترافات ابن حزم وثيقة لتصوير ماكان عليه مزاجه ؟ . لاعكن القول بداهة أن ابن حزم حدثنا عن كل شيء في حياته ، لأن هناك منطقة في حياة الإنسان تظل سرا مكتوماً إلى الأبد ، لاتنجاوز طيات ضميره ، ومحملها معه إلى القبر ، نجد ذلك عند ابن حزم ، وعند غيره ، وكل ما هناك أنها تضيق عند البعض ضيقاً كبيراً ، فلا تمس إلا أشياء محدودة مغرقة في الحصوصية ، وتتسع عند آخرين حتى تشمل كل شيء محدودة مغرقة في الحصوصية ، وتتسع عند آخرين حتى تشمل كل شيء في حياتهم ، ومن جانب آخرلم يكن قصد ابن حزم بكتاب وطوق الحمامة ، والواقع أن أيا من أشد خصومه ، وفي أعنف المعارك التي خاضها ، لم يجرو والواقع أن أيا من أشد خصومه ، وفي أعنف المعارك التي خاضها ، لم يجرو وتاريخ حياته شاهدعلى ما حدث به عن نفسه . ولم يكره ابن حزم في حياته شيئاً كما كره الكذب والكذابين ، وأدان هذه الحصلة اللميمة بأعنف ما علك من وسائل التعبر .

يقول عن نفسه: و وما أحيبت كذاباً قط ، وإنى لأسامح فى إخاء كل ذى عيب وإن كان عظيا ، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل ، وآخذ ما فاهر من أخلاقه ، حاشى من أعلمه يكذب ، فهو هندى ماح لكل عاسنه ، ومعن على جميع خصاله ، ومذهب كل مافيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلا ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل عنده خيراً أصلا ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاستنار به ، والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ، ولا إلى كيانه حيث كان . ومارأيت قط، ولا أخبرنى من رأى ، كذاباً ترك المكذب ولم يعد إليه ، ولابدأت بقطعية ذى معرفة إلا أن أطلع له على الكذب ، فحينثل أكون أنا القاصد إلى مجانبته ، والمتعرض لمنا كنه ه

وهو يرتفع بالكذب إلى مرتبة الكفر ، بل إن شات يرى الكفر شعبة من الكذب ، لإنه إخبار عن الله بغيرها هو عايه ، ويورد ، هلى غير عادته ، الكذب ، الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، الدالة على فضل الصدق وبشاعة الكذب ، ويأنى بشواها تاريخية ، ويعدد أفراداً شهروا بالكذب على أيامه ، وبرى الواشى والناقل والنمام شرجيع الناس ، « وإن النميمة لطبع يدل على نبن الأصل ، ورداءة الفرع ، وفساد المطبع ، وخبث النشأة ، ولابد لصاحبه من الكذب. والنميمة فرع من فروع الكذب، ونوع من أنواعه ، وكل نمام كذاب ، وهو أصل كل فاحشة ، وجااب كل سوء ، ولايقت ابن حزم بدوره عند الأفراد ، وإنما يتجاوزهم ، قى نظرة متفدمة ، ليدرك دوره في تدمير حياة الأمم و الجماعات : « ومارأيت نظرة متفدمة ، ليدرك دوره في تدمير حياة الأمم و الجماعات : « ومارأيت أخرى من كذاب ، وما هلكت الممالك ، ولا هلكت الممالك ، ولاسفكت المدماء ظلماً ، ولا هتكت الأمام والكذب » .

ويفرق الناص بين الناصح والنمام ، و هما صفتان متقاربتان في الظاهر ، متعاونتان في الباطن ، أحدهما داء و الآخرى دواء ، والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما في فليس ناقلا من نبه غاذلا ، أو نصح صديقاً ، أو حفظ مسلماً ، أو حكى عن فاسق ، أو حدث عن عدو ، مالم يكن يكذب أو أو يتعمد الضغائن . و لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضى في الديانة ، إو يتعمد الشغائن . و لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضى في الديانة ، وتوى به النشتيت بين الأولياء ، والضريب بين الإخوان ، والتحريش والتوبيش والترقيش .

وهو رجل مجدد، یکره النقلید، ویاف آن یسیر فی طریق سار فیه الآخرون، ومن هنا کانت صرخته فی بدایة الکتاب: و دعیی من أخبار الآخرار علم ، الآعراب والمنقده بن ، فسبیاهم غیر سبیانا، وقد کثرت الآخرار علم ، وما مذهبی آن أنضی مطبة سواء، ولا أتحلی محلی مستعار، .

وكان إحساس ابن حزم بطبقته واضحا ، إذ تحدث عن أبيه ذكر : وأيام وزارة أبي ، أو د إلى أن توفى أبي الوزير رحمه الله ، ، « وأبام دولتنا وامتداد ظلنا ، وعندما يعرض لواحد من أبناء الحلفاء يلحقها يقوله وهو صادق فيا يقول ، وكان لى صديقا ، وعندما يتحدث عن أبي عامر، حفيد المنصور بن أبي عامر ، يقول : إن دارهم ملاصقة لدارنا! ولأنه كان من أبناء الصفوة لم يهم أبداً بالطبقة الدنيا في قرطبة ، ولم يلق بالا لل حياة المستعربين أو المولدين ، أو الطبقات الشعبية باختصار ، ولم تتسرب الى كتابه و طوق الحمامة ، لفظة رومانية واحدة. والمرة الوحيدة التي عرض فيها لواحد من غير طبقته كانت في بهاية الكتاب ، في الحاتمة منه ، حين احتاج لمثل يغير به في الصبر على المكاره ، وتحمل شظف العيش ، فذكر أن احتاج لمثل يغير به في الصبر على المكاره ، وتحمل شظف العيش ، فذكر أن ميسورا البناء جارهم في قرطبة ، يصبر عن الماء أسبوعين حمارة القبظ ، ميسورا البناء جارهم في قرطبة ، يصبر عن الماء أسبوعين حمارة القبظ ، عاصمة الحلاقة ، يقف على أكتاف الطبقة الدنيا ، وتحت أقدام العلبقة الوسطى ، برب من الأولى ، وتصده الغانية ، فلا ينسب واقعاً في مهما ،

وكان ابن حزم حفها بالصداقة ، يرى فها السند عند الشدة ، ورواء المروح لحفاة البجة ، أصدقاؤه لداته ، في عمره ومن طبقته ، أبناء كبار المرفقة والبيوتات العربيقة ؛ ومرت على قلبه ألو ان منهم . هناك من عرفهم ، أو عرفوه ، شهرة وتراسلا ، فلما التقيا تأكدت بيهم المودة واتصلت وتمادت ، ومن كان له على ود أكبد، وخطاب كثير، وما تراهياً ، منح الله له لقاءه ، فما هي الاأيام قليلة حتى وقعت المنافرة عظيمة ، والوحشة شديدة ومتصلة . ومنها ما بدأ منافرة ووحشة واننهي صداقة وودا ، كالذي جرى بينه وبين أبي عامر ، حفيد المنصورين أبي عامر ، وكان وكانت المكراهية شديدة بينهما في البدء ، ولم ير أحدهما الاخر ، و وكان أصل ذلك تنقيلا محمل إليه عنى ، وإلى عنه ، ويؤكده الحراف بين أبوينا أصل ذلك تنقيلا محمل إليه عنى ، وإلى عنه ، ويؤكده الحراف بين أبوينا الاجماع به فصار لى أود الناس ، وصرت له كذاك ، إلى أن حال بيننا الموت ، في في اله الموت ، إلى أن حال بيننا الموت ، في المان ، وصرت له كذاك ، إلى أن حال بيننا الموت ،

ولم يكن أصدقاؤه من معدن واحد ، في فترة قلقة سياسياً واجتماعياً ، شبط بالمرء في لحظات من العرش إلى اللحد ، وترتفع به من عامة الناس إلى قمة المحد ، فمهم من تغير مع الدنيا ، أقبلوا عليه حين كانت منه مقبلة ، وأعرضوا عنه حين أدارت له ظهرها ، لقد اتصل به محمد بن وليد ، وانقطح إليه حين كان أبوه وزيرا ، فلما اقتحم الربر قرطبة ، وتغيرت الأحوال ، خرج محمد بن وليد إلى بعض النواحي ، واتصل بصاحبها ، وعرض جاهه ، وحدثت له وجاهة ، وحالة حسنة ، وحل ابن حزم تلك الناحية في وحلة له ، فلم يوفه حتمة ، وثقل عليه مكانه ، وأساء معاملته وصحبته ، وكلفه حاجة فلم يقم فيها ولا قعد ، واشتغل عنها بما ليس في مثله يشغل . ومن الوزراء من عرض جاهه فأمسك عن ابن حزم ، فلما ذهبت أيامه ، وانقضت دولته ، عاد يبدى له من المودة والأخوة فلما فير قليل .

وكان يرغب في أن يكون أصدقاؤه معه ، إلى جواره ، في أى المواقف يختار ، وعتب على أبي السرى عمار بن زياد صديقه ، لأنه أكثر من عذله في نحو نحاه ، وأعان عليه بعض من لامه في ذلك الموجه ، ويعقب ابن حزم على ذلك الموقف : « وكنت أظن أنه سيكون معى ، مخطئا أو مصيباً ، لوكيد صداقتي ، وصحيح أخوتي به » ، ولقد تمسك بالصداقة رغم كل الهزات التي تعرض لها ، والتي جعلت جانباً من الذين أحاطوا به ينفضون من حوله ، نجاة بأنفسهم أو تقية أو محناً عن الحاه والمغانم ، وكان بأخذ من أصدقائه ما ظهر له من أخلاقهم ، فلا يأتمس لهم عيباً لا يراه ، ولا بواخذهم بنقيصة ما ظهر له من أخلاقهم ، فلا يأتمس لهم عيباً لا يراه ، ولا بواخذهم بنقيصة أمر أخيات على أحيات على ما يغلبك عليه » . ويبقى على أسرار هم معه ، حتى ولو جاءت النظيعة ، وسقطت المئونة ، وأفشى صاحبه عا يعرف من أمر ال عنه .

كان أبو بكر محمد بن إسحاق أظهر أصدقاء ابن حزم ، وبتردد في

صفحات الطوق كثيرا، وبروى عنه ابن حزم عدداً من الأحاديث و الأقاصيص عمد ويدعوه دائماً ﴾ و صاحى، ، وكان أبوه فيا يبدو ، مثل والدابن حزم ، من وزراء المنصور ، ولا نجد له في كتب النراجم ، الني بين أيدينا ، غير سطرين خصهما به الضبي إتى كتابه والبغية ، و واليه توجه ابن حزم برسالته ين و فضائل أهل الأندلس ، ، وفيها يناديه ﴿ وَأَمَا بَعَدَ ، يَا أَخَى أَبَا بَكُرُ ﴾ ملام عليك سلام أخ مشوق طالت بينك وبينه الأميال والفراسخ ، وكثرت الأياموالليالي، ثم لقيك في حال سفر ونقلة ، ووادك في خلال جولة ورحلة ، فلم يقض من مجاورتك أربا، ولا بلغ في محاورتك طلباً .: . ؛ وقد صحب ابن حزم في هجرته من قرطبة مضطهداً ملاحقاً، حينًا اقتحم العربر العاصمة وتهبوها ، ومعهما صديق ثالث لهما، أبو عامر الذي أشرنا إليه من قبل، وكان ثرياً وجها، شريفاً ونبيلا، تضرب به قرطبة المثل في الملاحة فيقال : وأحمل من وجه أبي عامر ۽ . ويقص علينا ابن حزم في الطوق مشهداً إنسانياً موسيلًا ومؤثراً : لقد فر الثلاثة محياتهم وحريبهم من قرطبة ، ثم استقر بهم المقام في مالقة ، وفي هذه المدينة آثر ابن أبي عامر أن يرحل إلى شرق الأنداس ، وتخلف صاحباه فمها يدبران أمرهما ، ولحظة الفراق وقفا على شاطئ البحر الأبيض بلوحان له مودعين ، وفي أعماق كل منهما ، والحوادث الهوج تعصف بالأندلس ، أنهما لن يرياه ثانية ، فجعل أبوبكر يبكى لحظة وداعه. وهم وقوف على ساحل البحر ، ويردد بيت أبي عطاء السندى متمثلا :

ألا إن حيناً لم تجد يوم واسط عليك بباقى دمعها لحمود

وجمل ابن حزم بكثر التفجع والأمى ، وعينه لا تساعده ، فأجاب أبا بكر ببيت له ارتجله ؟

وإن أمرأ لم يفن حسن اصطباره عليك وقد فارقته لجليد

وكان ابن حزم شحيح الدمع، ويعلل ذلك بأنه أصيب بخفقان فىالقلب، فأدمن على السكندر، فإذا عرضت له المصيبة الفادحة تفطر قلبه، وفاض

بغصة أمر من العلقم ، تحول بينه وبين توفية السكلام حتى مخارجه ، وتكاد تشوقه نفسه أحياناً ، واسكن عينه لا تستجيب له ألبتة إلا فى الندرة ،بالشيء اليسعر من الدمع .

وابن حزم رقبق الإحساس ، سريع المثاثر ، يهوى الشكل الجميل ، أو الصورة الحسنة فيما يقول ، وبعى جيداً ما محدثه في الأرواح من هزة ، وما يثيره في النفوس من رجة ، لأن والنفس الحسنة تواع بكل شيء حسن » ، ويرى في إثارة الحمال سلطا آلايقاوم ، والقرآن السكيريم محدثنا عن افتتان المصريات بالحمال الذي كان عليه يوسف ، وما أحدثه في أعماقهن من أثر لقد راودته أمرأة عزبز مصر ، والتي هو في بيها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت اك ، قال : معاذ الله إنه ربي ، أحسن مثواى ، ووقالت : هيت اك ، قال : معاذ الله إنه ربي ، أحسن مثواى ، ووقالت : هيت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، وشاع خبرهما ، ووقال نسوة في المدينة : أمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، والله لغين مثكا ، وآ تت كل واحدة منهن مكينا ، وقالت أخرج علمين ، فلما لهن مثكا ، وآ تت كل واحدة منهن مكينا ، وقالت أخرج علمين ، فلما وأينه أكبرنه ، وقطعن أيدين ، وقان : حاش لله ، ما هذا بشراً إن هذا الا ملك كريم ، و

ولقد عاش ابن حزم فى ببئة عامرة بالصبايا الجميلات، وأحب فى سن مبكرة للغاية، صبا قلبه ولما ينجاوز الخامسة عشرة من عمره، وكان فى حبه غربياً عصرياً للغاية، يتميز عن الروح الشرقى والعربى تماءاً، فلا يؤمن بالحب مع النظرة الأولى، ويعجب ممن يدحى أنه يحب من نظرة واحدة فقط، ولا يكاد يصدقه، ويجعل مثل هذا الحب ضرباً من الشهوة، لا ينفذ للى حجاب القلب، ولايتمكن من صحيم الفواد، فالشهوة تسقط على المرء مع أول نظرة، والحب محتاج إلى زمن ومعاناة وفهم متبادل، ويقول المرء مع أول نظرة، والحب عتاج إلى زمن ومعاناة وفهم متبادل، ويقول عن نفسه معترفاً: ه ما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل، والحب عن نفسه معترفاً : ه ما لصق بأحشائي حب قط الا مع الزمن الطويل، والحب

متوحد دائمًا ، فإذا رأيت من إيحب اثنين في الوقت الراح، ، فاعلم أنها تا الشهوة ، تسمى على المجازحياً .

والتفرقة بين الحب والشهوة نظرة عصرية للغاية ، وما ذال في ذهبي صور من أيامنا الأولى في إسبانيا ، عرب وشرقيون ، نطل على عالم جديد لم تكن لنا به صلة من قبل ، اللفاء فيه سهل ، والاختلاط متاح ، والحلوة محكنة ، وإذا بالواحد منا يقول لأول فناة جميلة يلقاها : إنبي أحبك ، أو تنظر إليه في دهشة : كيف وما النقينا إلا مند ساعات ؟! تقصد تشهيبي؟، ذلك شيء مختلف . ولم نكن قد قرأنا ابن حزم بعد ، لأن أحداكم مدنا إليه في دراستنا، لم يشر به أحد علينا ولو كمصدر نقرأه أونعود إليه في أبحاثنا ، في دراستنا، لم يشر به أحد علينا ولو كمصدر نقرأه أونعود إليه في أبحاثنا ، ولم أن أدهب إلى إسبانيا دارساً ، لم أكن أعرف أن ما قالته لى أول فتاة قبل أن أذهب إلى إسبانيا دارساً ، لم أكن أعرف أن ما قالته لى أول فتاة إسبانية عرفها ، قاله ابن حزم قبلها بما يزيد عن تسع مائة عام ساسانية عرفها ، قاله ابن حزم قبلها بما يزيد عن تسع مائة عام ساسانية

وما من ضرورة تدعو إلى أن جرب المحب بأشواقه ، خوف أن يدم فافسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعم من صفات أهل البطالة ، يفر منها ويتفادى ، وليس هذا بصحيح ، و فيحسب المسلم أن يعفت عن محارم الله عز وجل التي بأنيها باختياره ، ومحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن ، وتمكن الحب ، فطبع لا يومربه ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الحطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ، وأما الحبة فخلقة ، وإنما والمعال الإنسان حركات جوارحه المكنسبة ». ولم يجد ابن حزم حربجاً في أن يعترف بعدد من غرامياته ، على غيرما هومعهود في أيامه وما بعدها ، يعترف بعدد من غرامياته ، على غيرما هومعهود في أيامه وما بعدها ، وحتى يومنا هذا ، حدثنا عن حبه لنعم ، جاريته الشقراء ، أكثر من من مرة ، مصرحاً باسمها تارة ، إومفهما أخرى ، ومن خلال قصائده أحياناً وبدأ حياته العاطيفة معها في سن مبكرة ، وكانت فيا يبدو لى أول من أحب ، وأصبحت الفتاة امرأة على يده ، فيا يقول عن نفسه و وكنت من أحب ، وأصبحت الفتاة امرأة على يده ، فيا يقول عن نفسه و وكنت

أبا عشرها 1 ، وتكافأت المحبة معه ؛ وتركت فى أعماقه ذكريات لاتنسى، وتصد بأخرى زمناً طويلا ، ولم ينته حبه إلى غاية ، وخشى مع الثالثة أن يقع فى مهاوى الفتنة فأمساك عن المردد على بيتهم ،

وأعطانا، خبراً و عجرباً الله صورة دقيقة للسعادة التي تغمر أعطاف المحب الناجح ، وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البين ، ورغبا عن الهجر ، وبعدا عن الملل، وفقدا العذل ، وتوافقا في الأخلاق ، وتكافيا في المحبة ، وأتاح الله خما رزقاً داراً ، وعيشاً قاراً ، وزمناً هادياً ، وكان اجتماعهما على مايرضي الرب من الحال ، وطالت صحبتهما ، وانصلت إلى وقت حلول الحمام المذي لا مرد له ، ولا بد منه ، وولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ؛ ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبرى الدول ، عكن المتغلبين على الرؤساء ، ولا أعظم صروراً بما هو فيه ، من محب أيقن فما رأيت أشد تبجحاً ، ولا أعظم صروراً بما هو فيه ، من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق عيله إليه ، وصحت مودته له ؛ .

ويدعنا نفهم دون مواجهة ، وفى غير مواربة ، أن حبه ليس عذرياً وكالمة عذرى لاترد على امتداد كتابه ولامرة واحدة ، وليس فاجرا فى اللوقت نفسه ، ولقد اعترف بأنه بلغ مع د نعم، غايته ، وكان فى غر امياته لمماً لايتوقف عند حد ، يقول :

و ما رویت قط من ماء الوصل ، ولا زادنی إلا ظمأ ، ، و لقد بلغت من النمكن بمن أحب أبعد الغایات التی لابجد الإنسان و راءها مرقی ، فما وجدتنی إلا مستزیدا ؛ وحین یکون مع من بحب لابحول بخاطره فن من فنون الوصل ، إلا و جدته مقصراً عن مرادی ، وغیرشاف و جدی ، ولا قاض فنون الوصل ، إلا و جدته ، و و جدتنی كلما از ددت دنوا از ددت و لوحاً ، وقد حث زناد الشوق نار الوجد بین ضلوعی ، ویری التوافق فی ممارسة الحب یقویه ، و إذ الاعضاء الحساسه مسالك إلی النفوس و مودیات نحوها ، الحب یقویه ، و إذ الاعضاء الحساسه مسالك إلی النفوس و مودیات نحوها ، ا

ويرد العفة إلى أسباب موضوعية ، إلى طبع يميل بالرجل أو المرأة إلى غير هذا الشأن ، واستحكست معرفته بفضل سواه عليه ، فهو لايجيب دواعي الغزل فى كلمة ولا كلمتين ، ولافى يوم ولافى يومين ، ولوطال على هولاء الممتحنين ما امتحنوا به الجادت طباعهم ؛ وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك . وإما بصيرة حضرت فى ذلك الوقت ، وخاطر تجرد انقمعت به طوالع الشهوة .

ويقرر حاسماً وصرمحاً : ﴿ وبالجملة فإنى لا أقول بالمراءاة ، ولا أنسك نسكاً أحجمياً ، ومن أدى الفرائض المأمور بها ؛ واجتنب المحارم المبي عنها ، ولم ينس الفضل فيا بينه وبين الناس ، فقد وقع عليه اسم الإحسان » ، ورأى ابن حزم أن يقطع السبيل على كل راغب قى النيل منه ، أو متخذاً من اعترافاته سبيلا إلى أنهامه ، فكان بيانه القاطع : ﴿ يعلم الله ، وكفى به علما ، أنى برى ء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقى الحجزة ، وإنى أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا ، مذ عقلت إلى يومي هذا ﴾

وكان ابن حزم يحترم أسرار الناس ، أو ما نسميه في عصرنا بالحياة الحاصة للآخرين ، فلما كلفه صاحبه أن يكتب له في الحب ، وأدرك أن ذاك يختاج إلى أمثلة وشواهد يلتقطها بما رأى بعينه ، وأدرك بنفسه ، وحد به الثقات من أهل زمنه ، لم يترك نفسه على سجيها في رواية الأحداث ، لأنها تعس الجانب الشخصي البحت من حياة الناس ، وهو ملك لأصحابه وحدهم ، ليس من حق أحد أن يشار كهم فيه ، أو يطل على أداخلهم منه ، ويربأ بالحياة الحاصة لرجال الدولة ، من الأمراء والخلفاء بما ينفر دون به في قصورهم مع عيالهم ، أن تكون محالا للقول . ولكنه نذكر من لا ضرر في تسميته ؛ ولا يلحقه والمسمى عيب في ذكره ، إما لأن خره ، أما لأن خره ، غير منكر لنقله ، أما الآخرون فقد أكبي عنهم ، لأن في ذكرهم

عورة لا يستجيز كشفها ، أو النّها تدس صديقاً ودوداً ، أو رجــلا جليلا .

وهو يتمدر ميحن الدمن الدمنية ، يرودها مثلا ، وقسد بذكر معها أسماءهم ، والكنه لا يتشنى فيهم ، ولا يجدها وسيلة النيسل منهم ، والتراوع في أعراضهم ، أو التفاعر عبد بالتصلاح والتقي ، ويورد قصص أولئك الذين انحرفت بهم عواطنهم ، أر يعشقون صورة الجمال الكامل في وجوه الغلمان ، فلا يرفع في رجوهم موطه الفارع ، أويلاحقهم بالسب القارص ، ولا يزيد قوله عن : دعنه الترعن الجميع ، .

وبقيم ابن حزم على الوفاء لمن عرف ، وبمن الله كل عهد تقادم حتى ليغصه بالطعام ، ويشرقه بالماء ، ولا على شبئاً إذا عرفه ، ولا يسرع فى أنسه مع أول لقاء ، ولا يميل إلى استبدال ما يألف من الأخوان ، أو الأشياء من مركوب ومطعوم ، ورثاؤه المبارهم فى بلاط مغيث ، وقد أخبر بانتهاب البربر لها ، مثال صادق لهذا الشهور ، إلى ما فيه من تصوير دقيق لمنازل البربر لها ، مثال صادق لهذا الشهور ، إلى ما فيه من تصوير دقيق لمنازل حزم ، وما آلت إليه ، وما تعكس من حنين جارف وارتباط بالمكان. من عت إلى باقية واحدة ، ووهبني من المحافظة لمن يتدمم منى ولو بمحادثته من عت إلى باقية واحدة ، ووهبني من المحافظة لمن يتدمم منى ولو بمحادثته ساعة حظا . ويقع فراق الأحبة ، وإنه الشجى ساعة حظا . ويقع فراق الأحبة من ناسه موقعا أنها ، ويعتر ف : و ما نتفعت بعيش ، ولا فارقني الإطراف منذ ذقت طمم فراق الأحبة ، وإنه الشجى يعتدنى ، وواوع هم ما ينفك يطرقني ، و القد نفص تذكرى ما مغمى كل يعتدنى ، وواوع هم ما ينفك يطرقني بينها ، ويتعزى بأبيات من الشعر يترنم بها ،

وظل یعانی مما یفرضه علیه الوفاء، مما یصطدم أحیاناً بعزة نفسه، واحترام ذاته وکرامته، ووعنی أخبرك: أنی جبلت علی طبیعتین لایمنشی

معهما عيش أبداً ، وإنى لأبرم محياتى باجتاعهما ، وأود التثبت من نفسى أحيانا ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لايشوبه لا تلون ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة لا التي لم تعزف بها نفسى عماد ريته ، ولا تنطلع إلى عدم من صحبته . وعزة لأنفس لا تقر على الضيم ، مهتمة لأقل ماير د عليها من تغير المعارف ، موثرة للموت عليه ، فكل و احدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإنى لأجفى فأحتمل ، واستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذي لا يكاد إيطبقه أحد، فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى ، نصبرت ،

وماشيء أثقل على نفس ابن حزم من الغدر ، و ولعمرى ما سمخت نفسى قرط في الفكرة في إضرار من بيني و بينه أقل أذهام ، وإن عظمت جريرته ، وكثرت إلى ذنوبه ، ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السومى إلا بالحسني .

وابن حزم واسع الصدر في القضايا العلمية والاجهاعية ، عنيد الحوار ، يناقش ويدلى برأيه ، ويسمع وجهة نظر معارضه ، لا يضبق بها ، و لا يفقد هدوء ، بإزاء محدثه ، يفاتش أبا عبد الله من أهل القيروان ، وكان طويل اللسان جدا ، مثقفاً للسوال في كل فن ، أيام كان لاجئاً في المرية ، حول الحب ومعانيه ، وماذا يصنع محب كره المحبوب لقاءه ، وتجنب قربه . يرى ابن حزم : وأن تسعى في إدخال الروح على نفسك بلقائه وإن كره ، ويرى أبو عبد الله : وبل أوثر هواه على هواى ، المقائه وإن كره ، ويرى أبو عبد الله : وبل أوثر هواه على هواى ، الحوار على النحو الذى أور ده ابن حزم في الطوق ، عالم قرطبة يقف على أرض صابة من الواقع ، وأديب القيروان يتشبث بما هـو نظرى ومن أرض صابة من الواقع ، وأديب القيروان يتشبث بما هـو نظرى ومن رجل جدلى ، ولا جدل في الحب ، وأدب القيروان يتشبث بما هـو نظرى ومن رجل جدلى ، ولا جدل في الحب ،

وكان ابن حزم يفرق بين الصلات الشخصية ، والخلافات الفكرية

والعقائدية ، لقد تعرف خسلال إقرمته بالمرية على طبيب بهودى ، يدعى إمهاعيل بن يونس ، وتعود أن يختمف إلى دكانه ، ويصف اليهودى بأنه كان بصيراً بالفر اسة محسناً لها . واست أشك في أنه تعرف بها إلى يهود آخرين ، فقه كانت المرية في تلك الفترة من التاريخ ، أى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، موطناً خركة نقافية وأدبية مزدهرة ، وموطناً ليهود كثيرين ، علماء وأغنياه ، وأرجع أنه تعرف فيها إلى صمويل ، أو إساهيل ، بن النغرلة ، قبل أن تؤهله مواهبه العالية لأن يصبح وزير باديس بن حبوس أمير غرناطة ، ويسيطز على مصائر اللدولة يصبح وزير باديس بن حبوس أمير غرناطة ، ويسيطز على مصائر اللدولة واستهتاره ، فتأتى عليه وعلى نفوذ اليهود ثورة عارمة ، لعب الشعر فيها دوراً رئيسياً (١) . وقد وقف ابن حزم موقفاً متشدداً من اليهود ، حين طما طغيام السيامي ، وتجاوز واحد الأدب فاستطالوا عل المسلمين ، واستباحوا مقدساتهم ، وناقش اليهودية كعقيدة وواعياً عنيفاً ، وأميل إلى أن بداية در استه المهودية بدأت في هذه المرحلة من حياته .

وكان له فى المرأة رأى عرضنا له من قبل ، ويعرف ابن حزم للأستاذية جلالها وقدرها ، فلا يتحدث عن أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى ، إلا وأردف قائلا : أستاذى .

وبرئ ابن حزم من عادة الشراب ، وكانت شائعة على أيامه ، ووجد كثيرون مندوحة لهم فى المذهب العراقى ، وأوجز ابن عبد ربه انجاهم فى فى بيته الشهير :

ديننا ، في السماع ، دين مديستى ، وفي شربنا الشراب عراق وجاء رفضه له عرضاً حين تحدث عن مذهب الشعراء المجددين في ذم البكاء على الدمى ، والثناء على اللذات ، وأن الحسن بن هانئ ، أبا نواس ،

١ - أنظر : غرصة غومث ، مع شعراء الأندلس و المتنبى ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ،
 صفحة ١١٧ زما بعدها ، القاهرة ١٩٧٤ .

أكثر فى هذا الباب وافتخر به ، ﴿ وَهُوَ كَثِيرًا مَا يَصِفَ نَفْسُهُ بِالْغَدُرِ الْصَرِيحِ فى أشْعَارِه ، تَحَكَماً بِلسانَه ، واقتدارا على القول » . ثم يشجد ابن حزم قريحته بأبيات على مذهب أبى نواس فيقول :

خل هذا وبادر الدهر وارحل في رياض الربي مطى الغفار واحدها بالبديع من نغمات الله عود كيا تحث بالمزمار إن خيراً من الوقوف على الدا ر وقو ف البنان بالأوتار وبدا النرجس البديع كصب حائر الطرف ماثلا كالمدار لونه لون عاشق مسهام وهو الاشك هائم بالهار

ويعقب على هذه الأبيات بقوله: «ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس طبعاً لنا ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقا ، وكساد الهمة لنا صفة ... ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ ». والحق أن الطوق عرض لأنوان من الحب مقبولة وشاذة ، حلالا ومحرمة ، ولمكن حديث الشراب ومجالسه وألوانه لا ترد فيه أبدا.

المرأة في قرطبة من خلاك طوق الجمامة

مع قلة الوثائن وغيبة الشواهد تختلف الآراء حول المرأة الأندلسية اختلافاً بيناً ، وفي دوائر المستشرقين بخاصة ، لأن أبحاث الدارسين العرب في مجال الأندلسيات لما تزل محدودة ، وقلبل جدا بينها من يقول شيئاً نافعاً ، أو يضيف إلى ما تعرف جديداً ، لأن الاهتمام بالأندنس ، تاريخه وحضارته وأدبه ، جاء متأخراً ، والقائمون عليها الإن ، وهم قنة ، أمامهم سنوات مضنية من العمل ، لكي يزيدوا عن هذه المنطقة من تراثنا غبار الإهمال ، ويعبدوا أمام الأجيال القادمة طرائق البحث ، من نشر المخطوطات ، وتوفير ويعبدوا أمام الأجيال القادمة طرائق البحث ، من نشر المخطوطات ، وتوفير المصادر ، و دراسة اللغة الإسبانية ، وكل تخصص في مجال الأندلسيات دون المنكن منها ، ثماره عقيمة ، وحظه من النجح محدود .

حاول المستشرقون إذن أن يدرسوا وضع المرأة الأنداسية ، وبذاوا جهوداً طيبة ، وقد أخفق بعضهم على ما سنمر ف ، في جانب من آرائه ، قلبل أو كثير ، لأن عقدة التعالى على العرب ، أو البغض الإسلام ، كانت تحكم أبحائه . وضل الطريق آخرون ، لأن دلالات النصوص البعيدة ، والحي تعتمل على تذوق اللغة ، وإدراك الفروق الدقيقة بين معانى الألفاظ المختلفة ، كانت تفلت مهم ، وهو شيء طبيعي ؛ فأدى هم ذلك إلى أحكام خاطئة وجائرة أحيانا ، ولكنهم في كل الأحوال أسدوا إلى هذا النراث يدا، يستحقون عاما أن نقول لهم شكرا ، ومن عمل وأخطأ ، خير ممن لا يعمل سيئاً على الإطلاق .

ايس فى نبتى ، ولا بإمكانى أيضاً ؛ أن أنتبع آراءهم جميعاً ، ولكنى صوف أحاول أن أعطى صورة لهذه الانجاهات المحتلفة ، فى خطوطها العامة، موجزة نعم ، ولكنها كافية لكى نعرف كيف يفكرون فى هذا الحانب ، وأبن نقف منهم .

كان المستشرق الألماني ، البارون فون شاك Von Schack أول من تحدث في النصف الثاني من القرن الناسع عشر في كتابه : و شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية Poccie und Kunst der Araber in Spanien und sicilien إسبانيا وصقلية الأولى منه في برلين عام ١٨٦٥ م ، عن المرأة الأندلسية ، وجاء حديثه عها كقدمة الفصل الرابع من الكتاب، وأوقفه على الأندلسية ، وجاء حديثه عها كقدمة الفصل الرابع من الكتاب، وأوقفه على دراسة شعر الغزل في الأندلس ، وانتهى فيها إلى وأن وضع المرأة في إسبانيا كان أكثر وراً عما كان عليه في بقية المعموب الإسلامية الأخرى، فأصمت كان أكثر وراً عما كان عليه في بقية المعموب الإسلامية الأخرى، فأصمت اللائي بلغن شهرة واسعة لدورهن في عال العلم ، أو مزاحمهن الرجال في أللائي بلغن شهرة واسعة لدورهن في عال العلم ، أو مزاحمهن الرجال في تعرف المرأة أبداً في المشرق الإسلامي: فعلى حينان الحب هناك ، باستثناء حالات نادرة ، ينهض على الشهوة ، كان هنا ينطلق من تعاطف روحي حيق ، وعلاقة نبيلة بين المرأة والرجل، وكثيراً ماكانت عقرية المرأة وثقافها عيق ، وعلاقة نبيلة بين المرأة والرجل، وكثيراً ماكانت عقرية المرأة وثقافها أشد جاذبية العاشقين من جمال جسمها وسحرمفاتها ، وعادة يكون الميل المشترك إلى الشعراً و الموسيقي الحيط الرفيع الذي فربط بين قلبين عاشقين ه .

ثم جاء المستشرق الإسبانى الجليل خوليان ريبرا (١٨٨٧ – ١٩٢٧ م) فعرض لجانب من قضية المرأة ، فى بحثه الذى ألقاه فى المجمع الملكى الإسبانى : عند اختياره عضواً فيه عام ١٩١٢ م ، وكان عن و ديوان ابن قزمان ي : ولم تكن المرأة موضع دراسته بدءاً ، وإنما عرض لها عند حديثه عن اللغة التى كان يتكلمها سكان الأندلس ، وهو أول من اكتشف بين الباحثين المحدثين أن الأندلسيين كانوا يتكلمون لغتين عاميتين مختلفتين معا ، العربية والرومانثية ، وأذا نحينا المبالغات التى شابت بحثه ، وكان فيه رائدا ، وتحكمه حماسة علمة وصادقة ، فإن النتائج التى انتهى إليها كانت فتحاً جديداً فى عالم الأندلسيات .

تحدث ريبيرا عن دور المرأة البالغ الأهمية فيأسبنة المسلمين القادمين من

إلى المشرق أو من شمال إفريقية ، وفي إشاعة اللغة الرومانية والإبقاء هلها ، والحفاظ على الحصائص البيولوجية الإسبانية ، والتقاليد التي كان عليها الإسبان قبل الفتح الإسلامي بعامة ، وفي مجال الحياة العاطفية والأمرية على نحو خاص القد جاء العرب أو العرب أو العرب أو العرب أو أفر اداً مهاجرين ، و تزوجوا في الأندلس من نسائها ، جواري أو حرائر ، و في كل الأحوال كن يتحدرن ، في الأندلس من نسائها ، جواري أو حرائر ، و في كل الأحوال كن يتحدرن ، في الأعلم الأغلب ، من أصول إسبانية ، ونشأ أو لا دهم هجناء في بيت مخلط ، في الأعلم على الأقل في مناخ إسباني و يمضي ربيع المعيداً مع فكرته لينهي بها إلى أن العرب القادمين إلى الاندلس فقدوا خصائصهم السلالية كجنس سامي ابتداء من الجيل الثالث ، وانحذ من إلا مويين أمراء الاندلس وخلفائه مادة لتحليله و مثلا .

و لاأحد يشك ، فيا يقول ، أن الأصرة الأموية الى استولت على الإمارة في إسبانيا تنتسب إلى أعرق الأصول العربية ، وإذا حاول متخصص في علم الأنساب أن يقيم نسباً لهشام الثانى المؤيد فسيلتقى بقائمة طويلة من الأصماء الحربية . إلى أن يبلغ بها أكرم القبائل وأعرقها في الحزيرة العربية ، بل وصوف تتصل بنسب الرسول عليه السلام ، فهو هشام الثانى ، ابن الحكم الثانى المستنصر ، ابن عبد الرحمن الثانى ابن عبد الأول ، ابن عبد الأول ، ابن عبد الرحمن الثانى ، ابن الحكم الأول ، ابن هشام الأول ، ابن عبد الرحمن الأول الداخل ، ابن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان ، حتى نهاية السلسلة ، أي أننا إذا نظرنا إلى هشام الثانى المؤيد من خلال نسبه الأبوى فحسب ، وجدناه عربياً خالص النسب الماساني المؤيد من خلال نسبه الأبوى فحسب ، وجدناه عربياً خالص النسب

و لكن الطبيعة تسلك طريقاً آخر غير طريق الزهو الإنساني، لأن أي وليد ليس نتاج أبيه فحسب، وإنما لأمه نصيب منه أيضا، وقصيب أكبر بالتأكيد، لأنها حملته في بطنها تسعة أشهر وأرضعته عشرا. ولوأعددناسلسلة النسب من جانب الأم، لخرجنا بالطباع آخر مخلتف للغاية.

و نحن تعرف يقيناً أن كل الأمويين الله ين تولو الإمارة في الأندلس هنحدرون من أمهات حشيقات أو جوار ، أي من ساء لسن من أصل حربي ، وطبيعي ألا تولد الجواري من السلالة الحاكمة ، وإنما بين السلالات المغلوبة ، من الشعوب التي فتحها الإسلام : كان عبد الرحمن الأولى الداخل ، ابناً لجارية بربرية ، وهشام ابنه ولداً لجارية إسبانية ، أهدتها إلى أبيه ابنة يوسف الفهري ، وعلى هذا النحو تلتقي بهم جميعاً ،

و وإذا أردنا أن نحدد العنصر السلالي بطريقة رياضية ، وأخلتا في اعتبارنا جانب الأم ، وأضفنا إليها ما يعادلها من جانب الأب ، نجد أن نصف عبد الرحمن الداخل كان بربرياً و النصف الآخر عربياً ؛ هذا إذا افترضنا نقاء سلالته السابقة تماماً ، وبلغة الأرقام يصبح ٥٠٪ منه عربياً ، و وه منه بربرياً ،

« وابنه هشام الأول ابن جارية غير عربية ، فيه ٥٠٪ من سلالة أمه ، و٢٠٪ من بربرية أبيه و٢٠٪ فحسب كل ما تبقى له من العروبة .

و وإذا مضينا مع أحفاده على هذا النحو ، فسنجد أن الحكم الأول ليس فيه من العروبة إلا ١٢٠٥٪ ، وعهد الرحمن الثانى ٢٠,٥٪ ، ومحمد ٢٠,٥٪ ، وعمد ٢٠,٥٪ ، وأخوته المنظر وحبد الله ٢٠,٥٪ ، ومحمد ولم يتول الإمارة ، ٢٠,٠٪ ، وحبد المستنصر ٢٠,٠٪ ، فإذا وصلنا إلى وحبد الرحمن الناصر ٣٠,٠٪ ، والحكم المستنصر ٢٠,٠٪ ، فإذا وصلنا إلى هشام المويد تهبط بنا النسبة إلى ٢٠,١٪ ، أى أن نسبه محفل بالأسماء العربية ، أما إذا درسناو الأمر وياضياً فليس قيه من السلالة العربية ما يصل إلى أما إذا درسناو الأمر وياضياً فليس قيه من السلالة العربية ما يصل إلى أما إذا درساو الأمر وياضياً فليس قيه من السلالة العربية ما يصل إلى أما إذا درساو الأمر وياضياً فليس قيه من السلالة العربية ما يصل إلى

وقد تساءل خوليان ريبيرا عن السلالة التي ينتمي إليها الأمويون في ضوء نظريته هذه ، فدرس في أناة وثائق بيع الرقيق ، ووجد أن الغالبية العظمى بينون من شمال إسبانيا ، من خاليسية ، أو جليقية في المصادر القديمة ، أو من مقاطعة ليون ، أو من أشتورياس ، أو من قطلونية ، وانتهى إلى أن هوالام الأمويين كانوا ، طبقاً لنظريته السابقة ، إسبانيين دماً ، ولم لا ؟ ألم بكن

عبد الرحمن الناصر أحمر الوجه ، أشقر الشعر ، أزوق العينين ؟ !

وهي دراسة فيها الكثير من المتعة ، ومن رياضة الدهن ، ولكنها تبسط الأمور بأكثر مما نجب ، ومما تحتمل ، وتجال من المتضايا الاجهاعية المعقدة المنشابكة شيئاً ذهنياً بجرداً ، كما أو كانت لعبة شطرنج أو تمارين هندسية ، من المنبي قال – مثلا – إن الإبن يأتي إلى المدنيا احاملا من خصائص أمه وأبيه نسبة متساوية ، وه / لكل منهما ؟ . ليس هناك قاعدة علمية واحدة أله نسب متفاوت ، أحياناً ، إلى حد كبر . لصالح الأب أو لصالح الأم ، أمه بنسب تتفاوت ، أحياناً ، إلى حد كبر . لصالح الأب أو لصالح الأم ، وأحياناً تعود به هذه الحصائص ، من أون العينين ، وطول المقامة ، وشكل وأحياناً تعود به هذه الحصائص ، من أون العينين ، وطول المقامة ، وشكل أو الأبوى ، دون أن يكون في أبيه أو أمه شيء مما فيه . ﴿ ونعرف أن المناخ الاجتماعي بجوانبه المخالفة ، والظروف الطبيعية في إمظاهرها المناخ الاجتماعي بجوانبه المخالفة ، والظروف الطبيعية في إمظاهرها المناخ وروم هما ، "

يُنحن إذن مع خوليان ربيرا في اللمور الذي نعبته المرأة الإسبانية ، بوصفها هذا ، في مجال الحياة الأندلسية ، وكان واضحاً ومقدراً ، إلكننا لانتابعه في لعبة الأرقام التي اعتمدعليها ، وأدارها في مهارة ، وسذا جة في الوقت نفسه ، لأن العلم والشواهد التاريخية ، والغلواهر النفسية والاجتماعية ، تقف في الجانب المقابل منها ،

أما سانتشيث البرنس فبصدر في دراساته لتاريخ الأندلس، وهي كثيرة المحمية ومتنوعة، هن روح قومي متشدد، يضلمعه أحياناً جادة المصواب، ولست أديد أن أعرض لكل ما قال ، ودراساته تقوم هلي أن المسلمين جاءوا الأنداس خاواً من كل شيء؛ وأن الذبن كانوا يقيمون على بطخاء الشبه الحزيرة الإببرية قبل مجيء المسلمين ، وراعم أرقى ثقافة وعادات شبه الحزيرة الإببرية قبل مجيء المسلمين ، وراعم أرقى ثقافة وعادات وتقاليداً ، هم الذبن أعطوها الصورة الوضيئة خيمارتها المزهرة والراقية ،

و بحسبى أن أشير إلى كتاب محدود الحجم بين دراساته ، نافع ومفيد ، وزحمه بمصادر لا حد لها تتجاو ز مادة الكتاب نفسها ، عن وإسلام وزحمه بمصادر لا حد لها تتجاو ز مادة الكتاب نفسها ، عن وإسلام إسبانيا والغرب El Islam de Espanay el Occidemte)، ونشره تحت صور مختلفة ، وآخر طبعة له فيم أعلم صدرت في مدريد عام ١٩٧٤، في السلسلة الثقافية الشهيرة : ومجموعة أو سترال ، التي تصدرها دار و إسباسا كالبي ، وكان قبلها محظورا على الناشرين في إسبانيا ، أن يطبعوا أو ينشروا له شيئاً ، لأنه جمهوري ، وكان رئيس حكومة المجمورين في المنفى .

تدور مادة الكتاب كلها عن إسبانيا ما قبل الإسلام ، وما أسهمت به إسبانيا الإسلامية في مجال الثقافة والمعمار والموسيقي في إنهاض أوربا ﴿ والعالم المسيحي في الغرب ، ولن أقف عند هذا كله ، لأنه خارج عن نطاق القضية التي أعرض لها هنا ، إنيا بهمني منه إشارته إلى قضية المرأة في الأندلس ، ويعرض لها قليلا ، وإشاراًته إلمها عابرة ، ولكنه بأتى بها ﴿ إِ فَي صُورَةً قَاطِعَةً ، وَهُنَا مُوضَعِ الْخُطُورَةِ . فَهُو يُرَى أَنَ الْأَنْدُلْسِينَ وكانوا يتيحون للمرأه حرية فريدة في خروجها للشارع إن من الصعب ربطها بالعادات الإسلامية ، والدليل عليها ما أورده ابن حزم في كتابه اطوق المحمامة » ، وروايات تاريخية أخرى معروفة ، فهم محترمونها ويضعو نها موضع التقدير، وكلاهما إرث إسباني خالص ، وقد أشار هنري ببريس إلى موقف المرأة المسلمة المتمنز بالنسبة للمرأة المشرقية ، وبلغ الأمر بليفي بروفنسال أن صرح بأنهن كن في أيامهن تلك ، على نحو ما يعتر ف به لهن اليوم في المغرب الأقصى، بن البيوت الإسلامية ذات الأصل الإسباني ، من حتى مشاركة الرجل فى كل تصرفانه ، وكما بلغ التأثير مساسى شبه الجزيرة الإيبيرية أدرك المسلمين الإفريقيين، وعلى المكسيزيد الأمروضوحاً ما تعرفه ﴿ عن دور المرأة في إسبانيا البدائية ﴾ .

📳 🛭 وكان المستشرق الفرنسي هنرى ببريس أكثر تعقلا من غيره ، فقد

تحدث عن و المرأة والحب ، في فصل خاص من كتابه القيم: والشعر الأنا-لسي حَقَّى القرن الحادي عشر: جوانبه العامة، وموضوعاته الرئيسية، وقيمته وثيقة ، وحاول فيه أن يستنطق قصائد الشمراء وإشاراتهم ، وانتَهي إلى أن الإسلام استطاع أن يسم المجتمع الأندلسي وبطابعه في بعض مظاهره الحارجية دون أن يشكله بعمق ، واستطاعت المرأة رغم كل الضواغطالدينية أن تلعب دوراً رئيسياً ، أوضح مظاهره هذا القلق الذ تثيره * فكرالرجل ، ولم تكن المرأة الأندلسية و منزوية على نحو ما كانت نظم الإسلام تريدنا أن نراه في كل امرأة مسلمة. وأنمة وقائع غديدة توكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية . فالرمادي يتجول في يوم جمعة ، بين رياض بني مزو ان في قرطهة، ويلتقي بفتاة شابة تأخذ بمجامع قلبه فيحادثها ، ولايدعها تمضي إلابعد أن يحصل منها هلى موحد بلقاء في يوم الجمعة التالية . وكانت هذه الفتاةالشابة تسمى و خلوة ، وكانت تضع خماراً على النأكيد ، ولكن كيف نتصوو رجلايستطيع أن يتحدث طويلاوعلانية إلى امرأة ، على قارعة الطريق ، دون أن يتعرض لنظرات شذرة ، او لم يكن الجنس اللطيف يتمتع بحرية حقيقية ؟ ، ويستشهد بوقائع متعددة ، في قرطبة وغير ها ، وردت في طوق الحمامة ، أو نفح الطيب ، أوقلائد العقيان ، وفي مصادر أخرى، دون أن يجزم برأى قاطع . و دعا إلى التفرقة بين ما هو غربي أصيل، وما هو شرقي و افد، ورد حدداً من مظاهر حرية المرِّ أقالي المناح المسيحي الذي تحرك عليه الإسلام ق أرض شبه الجزيرة الإيبيرية 🏤

وموقفنا من مثل هذه الآراء أن إلقاء أحكام عامة ، في قضية اجهاهية كهذه بالغة التعقيد ، تمس مجتمعاً متعدد السلالات والأديان والطبقات ، عرضة يقامخطا الجسم، فالمرأة اليوم في مصروبلاد عرببة أخرى تتمتع بحرية واسعة إلى ترحد كبير ، تذهب إلى الجامعات ، وإلى بلاد أجنبية لتتعلم ، أو تتاجر ، أو السياحة و و تلبس أحدث نماذج الأزياء ، دو ن نظر لغير متطلبات العصر ، و ثمة فتيات أخريات قميدات البيت ، يوثرن الا أزه اء ، أو يراد لهن ، يغطين الرأس ، قريلبسن الساتر قمن الثباب ، ويرين مخاطبة الرجل ﴿ إِثْمَا ، فهل يعقل أن نرسل عن الأندلس حكماً عاماً ، استنادا إلى رواية وردت في كتاب ، أو بيت من الشعر جاء في قصيدة ؟ .

وإذا أخلنا العربية السعودية ، وأخالها من أشد البلاد العربية محافظة في قضية المرأة ، ويراها المستشرقون مثلا أبلغ لما هوأسوأ من المحافظة ، وتجاوز فا فلسطح إلى العمق ، الشكل الحارجي إلى واقع الحباة ، فسنجد من الحطأ إرسال حكم عام عليها ، لأن المرأة في البادية غيرها في الحاضرة ، وهي داخل الجزيرة غيرها في الحارج. ولقد أتيح لى في بعض رحلاتي إلى أوربا أن التقى بفتيات سعوديات ، كن مثلا عاليا في الشخصية والثقافة والأناقة والجمال ، في مستوى أرقى ماوصلت إليه المرأة في عالمنا المتحضر ي

إنما تجيء أخطاء المستشرقين من المقارنات الحاطئة ، ومن دراسات تقوم في جلها على كتب الفقه، وهي لا تقدم ما يحدث في واقع الحياة ، وإنما تعكس في الكثير من الحالات مطامع أصحابها وعقلياتهم وانحرافاتهم أيضا ، ولورجعوا إلى واقع المرأة العربية ، في حياتها اليومية ، خلال عصر الهضة الإسلامية ، قبل أن تزحف على الإسلام ظلامات الفكر الأوربي الوسيط، لوجدوها تعمل إلى جانب الرجل ، وموضع الرحاية والتكريم منه ، وعلى مستواه من حماية القانون ، واذن فالقول برقي المرأة الأندلسية الأنها تنحدر أصول غير عربية فيه مجافاة الواقع ، وحدوان على العقل .

والذين يلمحون لأسباب دعائية غير علمية إلى أن المسيحية كانت وراء هذا القدر من الحرية ، يتناسون رعامدين أن إسبانيا لم نكن وحدها البلد المسيحي الذي اجتاحه الإسلام ، فمثلها كان الشام والعراق ومصر وشهال إفريقية ، في جانبه الساحلي على الأقل ، والذين يتشبثون بأسباب الحضارة الرومانية ، ينسون أيضاً أنها كانت في الشام والإسكندرية أوضح منها في السبانيا ، وهذا إذا صلمنا جدلا ، وهو أمر غير مسلم ، أن مستوى المرأة

فى الحضارة الرومانية كان أرقى منه فى الحضارة العربية أو الإسلامية ، وهو أمر ليس عليه شاهد من أحداث الناريخ .

وإذا أخذنا الذلك مثلا من مقاطعة بروفانس ، في جنوب فرنسا ، على أيام ابن حزم ، وستصبح أرقى بلد أوربي في تلك الفترة ، وبتأثير أندلسي ليس هنا بجال درسه ، فسنجد مثلا أن و الزاوج يتم بين السيدين ، في ضوء مصالحهما الإقطاعية ، أكثر منه تحقيقاً ارغبة الشاب أو الفتاة ، ومع الزواج يملك الزوج جسد الفتاة كله ، ولم يكن في حاجة أبداً لأن يترضاها في ملك الزوج جسد الفتاة كله ، ولم يكن في حاجة أبداً لأن يترضاها في شيء بملكه قانوناً، وله حق تأديبها مادياً ، يضربها حين لا تتقبل أو امره ، أو تثيره أنه تزعيعه ، شريطة أن يكون هذا باعتدال ، وألا يؤدي إلى موتها . وكانت التقاليد قاسية جداً على المرأه في حالة الحيانة ، فالمرأة المخطئة تسجن في الدير طوال حياتها ، وإذا ضبطت متابسة ، فإن الزوج يأتي بأولادها في المدير طوال حياتها ، وإذا ضبطت متابسة ، فإن الزوج يأتي بأولادها في المشهدوا لحظة إعدامها . أما الزوج المخطى ء فكان على النقيض ، يخرج سالماً من أوسع الأبواب ،

وكان العصر الأورني الوسيط ، بتأثير المسيحية ، عدواً لدوداً الممرأة ، ولم يعطف عليها رجان الكنيسة أبداً ، ولا تأتى في كتاباتهم إلا مقرونة بوصف مسيء ، فيهي : ذكرى مزعجة ، والطريق إلى النار ، وسلاح الشيطان ، وحارس جهنم المتقدم ، وشبع إبليس ، وسهم الشيطان ، وغيرها من المنعوت ، نجد ذلك عند سان يوحنا ، وسان أنطونين ، وحنا الدمشقى ، والقديس جيروم ، وغيرهم . وسار على طريقهم من بعدهم كل المدعاة ، والقديس جيروم ، وغيرهم . وسار على طريقهم من بعدهم كل المدعاة ، معلقة في وجه المرأة ، ومعلفة بالقسوة ، وكان الفرسان الحديديون ، العائدون من الشرق الأوسط ، بعا، الحروب العمليمية ، أو من الأندلس بعد غاراتهم في الدين هناك ، أول من اعترف بها أو رحلاتهم أو مساعدتهم لرفاقهم في الدين هناك ، أول من اعترف بها إنساناً لطيفاً . لقد عاش هولاء يتفون بالجدارة ، لايشغارن المسهم بغيرها ، إنساناً لطيفاً . لقد عاش هولاء يتفون بالجدارة ، لايشغارن المسلمية إلى المنابية إلى المنابية إلى المنابية المنابقة المنابية المنابقة المنابقة المنابية المنابقة المنا

النتائج المنظرة من الاستيلاء على الأرض المقدسة ، وامتلاك بيت المقدسه فقد أدى الاصطدام بين الشرق والغرب إلى نتائج هائلة ، في المجالين الاقتصادي والاجماعي على الأقل ، فترك الشرق ، وكان أغنى ثروة وأرقى حضارة ، تأثيراً واضحاً في حياة الصليبيين ، ومرعان ما شذبت هذه الأعداد الكبيرة ، بقدر لا يتصور ، فدرجت على تذوق النرف ، وتفتح عقلها وخبالها على ألوان من الحياة الراقية كانت تفتقدها تماماً ، وفي حروب دينية كهذه لم يعفوا عن حمل الثروات والغنائم ، وما أسرع ماغيروا عاداتهم عندما عادوا إلى أوطانهم . وعاصرت الحروب الصليبية نمو التجارة في البجر الأبيض المتوسط ، وفي المواني الإيطالية بخاصة ، وشهدت أيضاً از دهار المعارض التي تحمل كل منتجات الشرق : السجاد والمرايا والتوابل والاقمشة الجميلة ، وتحمل امم دمشق موطن صنعها .

وشهدت بدایة العصر الوسیط احترام المرأة فی أوربا ، وارتفاع الكنیسة إلى مستوى الفرسان ، وشعراء التروبادور من هولاء هم الله بن انتقلوا بها من محلوق لا یلعب فی الملاحم وفی الحیاة دوراً أكثر من عبادة الله والسید والوطن ، إلى شیء جمیل محترمونه ، ویتغنون به ، ویغنون له ، ویعتبرون التسامی به ، والتدلل له ، والدوب صبابة فی حبه ، خطقاً كریماً ، وعادة مرحیة ، وشرفاً لا یبلغه غیر الفرسان :

كيف وجد المسامون المرأة في شبه جزيرة إيبع يا غداة الفتح الإسلامي ؟ سوال من الصعب الإجابة عليه ، لأننا تفتقد الوثائق التي تساعدنا على تحديد موقف المرأة ، والبناء الأسرى الذي كان سائداً في المجتمع الغربي بين القرنين الثامن ؛ وتم الفتح الإسلامي في بدايته ، والقرن الحادي عشر وعاش فيه ابن حزم جل حياته ، ومعه بدأت دول شمال الأندلس المسيحية تأخذ شكل مجتمع متمعز، رغم حاجتنا الشديدة إلى هذه المعرفة ، ذلك أن المرأة الأنداسية في جمهرتها الغفيرة هي أولا وقبل كل شيء

إسبانية ؛ سواء أكانت حرة أم رقيقة ، زوجة أم عشيقة ، مولدة أم مستعربة . والقليل الذي وصانا عنها ناقص ومضطرب ومتناقض :

والحضارت التي تركت في أوربا تأثيرا واضحاً ، وهي : ما قبل الرومانية والرومانية والجرمانية والمسيحية كانت توجه المحتمع الغربي نحوالنضييق على المرأة ، وتضع علم؛ قبوداً لن نلتقي ما في الحياة الأندلسية فيما بعد ، وكلها تؤكد تميز الرجل، فالفتاة تخضع لأبيها ، وإلى الأكثر قرباً عند **غبابه ، ثم لزوجها فيما بعد ، وفضلا عن ذلك كانت روما تعرف وأد** البنات. ويبدو أن المرأة تمتعت بين القرط ، وهم الذين حكموا ﴿ الْأَنْدَلْسَ لحظة الفتح الإسلامي ، بقدر أكبر من الاحترام ، فنعرف أن سن الرشد لها في القرن السادس الميلادي كان مساوياً لسن الفتى ، وأنها أهل لأن تتولى الوصاية على أبنائها إذا كانت أرمل ، وأن تنزوج ثانية إذا أرادت ، ويتوقف الزواج على موافقتها ، ويصبح المهر الذي يقدمه الزوج آحقاً لها ، ومنذ القرن السابع نجدها في القانون القوطي تتساوى مع الرجل في الميراث . ومن المؤكد أن هذه الحقوق ظلت نظرية في جانب منها ، وافتصرت في جملتها على طبقات اجتماعيه معينة وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحقوق دون ما تتمتع به المرأة العربية والمسلمة ، واقعاً ونظرياً بكثير . وينبغي ألا ننسي أن العنصر العربي على قلته ، أعطى إسبانيا اللغة والعادات والنظم والذين، ونماذج الحياة المشرقية ، ولون المجتمع الأندلسي ممثاه ، وكلها عربية ، وفها يوى أمبركوكاسترو : «التعريب اللغو**ى محمل** معه القشريق الحنقي واللعقلي ، وعاينا أن نضع في الاعتبار دائماً أن تطبيق لغة سامية وانتشارها ، وإجلائها لهجة مشنقة من اللاتينية ، لا بد أن يؤدى لى عدد من النتائج من بيها تطو برالعقلية ».

* * *

عادًا تحدثنا نصوص وطوق الحمامة عن المرأة ؟ لقد عرض الباحثون الكتاب كثيرًا بوصفه دراسة في الحب وعن المحبين ، لكن أحداً لم يقف

طويلا إزاء ما يمكن أن يضيفه إلى معرفتنا بالحياة الاجتماعية في الأندلس خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وسندرس هنا صورة المرأة في قرطبة من خلال الطوق لالكي ندهم فكرة أوتناهض أخرى، وإنما لنصل إلى تصور قريب عماكان عليه حالها واقعاً في الحياة على أيام ابن حزم :

وعندما يتحدث ابن حزم عن المرأة في قرطبة فإنما يفعل ذلك خبيراً بهن، عالماً بأمورهن ، فهوفيا محدث عن نفسه: «شاهدت النساء، أمرارهن ما لا يعلمه غبرى ، لأنى ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيدين ، ولم أعرف غيرهن ، ولاجالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب ، وحين تفيل وجهى »، واهم بالبحث عن أخبارهن ، وأنسن منه الكنان فكشفن له عن أمرارهن ، وأطلعنه على غوامض أمورهن ، وأشرف من أسبابين على غير قليل، فشب يعرف الكثير من أمرارهن ، وحيل الجوارى ، وأكسه دخائل القعمور ، ومؤامرات النساء ، وحيل الجوارى ، وأكسه ذلك شكاً فين ، وسوء ظن في جهنهن ، ولكنه لم يورد لنا كل ما عرف ، ولم يحدثنا بكل ما معم ، فأبقى على عورات يستعاذ بالله مها في طي السكنان ،

وأول ما نلحظ فى حديث ابن حزم أنه يقف عند نساء الطبقة العالية ، أى فتيات الأسر التى ينتمى إلى طبقها ، وحتى الجوارى منهن يتصل حديثهن برجال هذه الطبقة ، ولم يعرض لنساء مشرقيات إلا نادراً ، فى مجال الموازنة ، أو بالهقة فى ثلاث حالات على وجه الحصر : عرض لقصة جرت فى القاهرة ، حين أحب العزيز الفاطعى خليفة مصر ، جارية شغلته عن مولد ابنه المنصور ، ولذي أحب العزيز الفاطعى خليفة مصر ، ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم والذى سيصبح فيا بعد خليفة مصر ، ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر بالله ، وحكاية موجزة لقرطبى كان فى بغداد ، هام بعراقية ، وتزايد عليه أسرها ، وخشى الفتنة ، فخرج إلى البضرة ومات بها عشقا . والحكاية الاخيرة رواها أبو بكر محمد بن بقى الحجرى عن نفسه ، فقد اللتقى فى

· بغداد بابنة وكيلة الحان الذي ينزل فيه ، فأحيها وتزوجها ، ولــكنها فارقته لسبب لا أرى ذكره مناسباً هنا(۱) .

والم يتعرض للمرأة في الطبقة الوسطى أو الدنيا ، ولا نجد لديه ولا إشارة واحدة ، حتى ولو من بعيد ، عن المرأة المستعربة أو اليهودية ، وهو أمر طبيعي من رجل لا يكتب محثا ، وإنما يدفع بذكرياته، وما رأى أو سمع ، من خلال دراسته عن الحب ، وما كان لأى من هاتين الطبقتين أن ترتفع إلى مجلس ابن حزم ، خارج نطاق الدرس، ولم يجلس فيه أستاذاً إلا بعد سنوات من تأليفه و الطوق ، ، أو يعير أحداثها نصيباً ، من اهمامه ، وبداهة كانت تحب وتعشق وتتحرك قرحياتها العاطفية داخل قيم ، قد تلتقي أو تختلف مع مثل الطبقة العليا ، ولسكلها متأثرة على التأكيد بوضعها الاقتصادي والطبقي الذي تعيش فيه .

يهدف كتاب « طوق الحمامة » إلى تحليل المشاعر العاطفية ، ومواقف العشاق ، ويأتى الحديث عن المرأة فيه بوصفها ط. فا في هذه القضية ، وليدعم ابن حزم آراءه أورد عدداً من الوقائع الغرامية حدثت فعلا ، ولو أنه يصعب علينا في أحوال كثيرة أن نحدد نوع المحبوب : أهو فتاة أم غلام ، أو تعرف ظروفه الاجتماعية ، وأحياناً ترد القصص فضفاضة ، يعسر علينا أن نستنتج منها شيئاً محدداً و دقيقاً ، ويتعمد ابن حزم ذلك ، حفاظاً على أصرار الناس ، واحتراماً لحياتهم الشخصية ، وكثيراً ما يكنى عن الأسماء ، لأنها و إما عورة لا نستجيز كشفها ، وإما نحافظ في ذلك صديقاً و دوداً و رجلا جليلا »، واكتفى بأن يسمى من لا ضرر في تسميته ، ولا يلحقه والمسمى عيب في ذكره ، وإما لاشنهار لا يغنى عنه العلى و ترك الثبين ، وإما ارضا الخبر فنه بظهور خره ، وإما لرضا الخبر عنه بظهور خره ، وقاة إنكاره منه نقله » .

١ -- أنظر صفحة ١٣٨ من كتاب صوت الحيامة ، بتحقيظنا ، دار المماوف بالقاهرة ١٩٧٠ .

والقصص المتصلة بالحوارى أكثر من تلك التي يرد فيها ذكر الحرائرة وكلمة «جارية ، في كتاب « الطوق ، تستحق وقفة مستأنية . لقد وقف أورتيجا إي جاسيت في مقدمته التي ترجمناها، وأوردنا نصها فيها مضى من صفحات عند كلمة و الحب ، وتساءل عما إذا كان فقد اللغة العربية قد توصل إلى تحديد دقيق لمفهوم اللفظ عند حرب الأندلس في القرن الحادي عشر ؟ وبدورى أوجه السؤال نفسه : ترى ما هو مفهومهم ، ومفهومنا ، لكلمة و جارية ، عند ما ترد في نصوص وطوق الحمامة ، ؟ .

تجيُّ المرأة القرطبية محبوبة خلال « طوق الحمامة » في ثلاثين موقفًا ، وكلهن ينتمين إلى الطبقة العليا دون شك ، وفي خمسة وعشرين منها نجد أنفسنا . بإزاء حب المؤلف نفسه ، أوحب واحد من أصدقائه ، أو شخصية معروفة له ، لواحدة يصفها بأنها « جارية » ، وفي الحالات الحمس الباقية يشير إلى نساء حراثر صراحة ، من الطبقة نفسها ، على قدر كبير من الثقافة والرقى والصقل، لايقل عماكانتعليه الحواري، ويلعين في الحياة العاطفية والاجتماعية دوراً ملحوظاً ومتقدماً . وفيما يتضل بالأحداث العاطفية المتصلة بالجواري نحن بإزاء لونين مهن : حالات ينص فيها ابن حزم صراحة على أنهن جواري تجري عليهن أحوال البيع والشراء ، أو يدعنا نفهم ذلك يقينا ، وفي حالات أخرى صمت وتركنا في حبرة ، ولوأن جو الأحداث مجعل من الموَّكد أن ﴿ الجارية ﴾ في مثل هذه الروايات فتاة حرة ، وأن اللفظ بجيُّ صفة لها ، إيماء إلى ما هي عليه من ثقافة وصبى وجمال ، وأحياناً تأتى في سياق من المستحيل معه أن تكون أمة رقيقة . والسكثرة الغالبة من المستشرقين أقامت دراستها على أن لفظ وجارية ﴾ يعنى دائماً أنها رقيقة مشراة ، والقلة تجاوزت اللون الاخير ، الذي مرضنا له ، دون أن تتوقف هنده أو تبني علیه حکماً ،

إزاء هذا الواقع بدا لى من المفيد أن نحدد أولا معنى كلمة و جارية]. - إذا عدنا إلى المعاجم العربية ، وهي بداية اطريقنا لتحديد المحتوى ، وجدنا أ

أبها تعنى فى القاموس المحيط الله وزيادى : « فتية النساء » ، و في ديوان الأدب الفاراي : « التى نهد ثاريها » ، وتوسع المصياح المنبر الفيوى ، وتميز من بين كل المعاجم بأنه يشير إلى الدلالات الفقهية للألفاظ ، فلكر أنها والشابة الخفها ، والجارية السفينة ، سميت بذلك لجريانها فى البحر ، ومنه قبل للائمة جارية ، على القشبيه ، لجريانها مستسخرة فى أشغال موالها ، ثم توسعوا حتى سموا كل أمة جارية ، وإن كانت عجوزاً لا تقدر على السعى ، تسمية بما كانت عليه » . فأنت ترى أن كلمة جارية يراد بها لغة ، فى الأصل : « النتاة السكاعب الشابة » ، وأضيف أنا ، أنها كانت تطنق فى قرطبة على الفتيات والشابات من الحرائر أبضاً ، ممن بجمعن هذه الصفات ، وصفات أخرى ارتبطت بالجوارى فى تلك الأيام ، من التربية كله البائية ، والتقافة الواسعة . والعواطف المدافئة ، والقسكن من الموسيقى ، العالية ، والثقافة الواسعة . والعواطف المدافئة ، والقسكن من الموسيقى ، كبياض المبشرة ، وشقرة الشعر ، و زوقة العينين ، مما حدثنا عنه ابن حزم نفسه ، وسنعرض له فيا بعد ،

إذن أيست كل جارية و رقيقة و في كتاب الطوق و وتجاهل هذه الحقيقة أدى إلى أخطاء فادحة في تقيم وضع المرأة الأنداسية ودورها و فراميات ابن حزم الثلاثة و التي تحدث عنها في الطوق و تدور حول جوار في إحداها يقول و أحببت في صباى جارية ... و أعببت في المان خارية ... و أعببت في المان خارية ... و أعببت في المان أنها للم تنتقل معهم و ولكننا سوف نجد في منتصف المطريق من القصة و انها لم تنتقل معهم و حين تركت أسرته منية المغيرة إلى مساكنهم القديمة في بلاط مغيث و لأسباب لم يفصح عنها و اكتفى بقوله و ولم تنتقل بانتقالنا للمور أوجبت ذلك و .

أما في القصة الثانية فيقول : وكنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً مجارية لى ، كانت فيما خلا اسمها نعم ... ، وتلحظ هنا أنه أضاف الجارية لناسه ، وأعطانا اسمها ، وتركد نفهم في لباقة أنه بلغ محبه لها غايته ، فمرف الحياة معها لأول مرة ، وأصبحت هي على يده امرأة ، وكانت المودة بينهما متكافئة ، وأن الموت الحرمها منه فتية ، كان حين ماتت في سن العشرين ، وكانت هي دونه ، وأقام بعد وفاتها سبعة أشهر حزيناً عليها ، و لا يتجرد عن ثيابه ، (١) ، وأنه بكاها طويلا ، على شحيح دمعه ، وجمود عينه .

وأما القصة الثالثة : فجرت في بيت امرأة من معارفه مشهورة بالصلاح والتقوى ، ومعها حجارية من بعض قراباتها ، . . ، من اللائى قد ضمها معه النشأة فى الصبا ، ثم غاب غها أعواما ، تركها حين أعصرت ، وعاد فوجدها جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليا ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت فى وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقلت ، وانبعث فى خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت ، وكانت من أهل بيت صباحة ، وظهرت على صورة تعجز الوصاف ، وطبق و صف شبابها قرطبة ، وبات عند المرأة التى يعرفها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب شبابها قرطبة ، وبات عند المرأة التى يعرفها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عند الجارية ، على جارى العادة فى التربية ، وكاد قلبه أن يصبو ، ويثوب عنه الجارية ، على جارى العادة فى التربية ، وكاد قلبه أن يصبو ، ويثوب اليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل ، وامتنع بعد ذلك من دخول المده المدار ، خوفاً على لبه أن يزدهيه الإحسان ، رغم أنها وجميع أهنها ممن لاتتعدى الأطماع إلين ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل .

فابن حزم ، كما ترى ، يستخدم فى مغامراته الثلاث لفظاً واحدا ، ومع ذلك فأنت لاتشك أنك فى المغامرة الثانية أمام جارية أمة ، أحبها وتركت فى أعماقه ذكرى آسية ؛ ولكنها ذكرى موصول استمتع ، حزين على ماضاح منه . على حين يتحدث فى الثالثة عن فتاة حرة يقينا ، تنادى جارية ولالا،

⁽۱) التعبير لابن حزم ، ومعناه في لغة المواطف، الخاصة غير ما يفهم من ظاهره تماما ، إنه يعني أن ابن حزم لم يمارس ، الحب طوال هذه الشهور السبعة ، على تحو حلال طبعاً ، مع زوجة له ، أو جارية ملكتها يمينه ، وليس المراد منه ، كما يفهم من حرفيته ، أنه لم يغير ثيابه طوال هذة المدة . والتعبير مستخدم حتى الآن بين عدد كبير من القبائل العربية المقيمة في أعلى صعيد مصر ، وبعضها قدم من المغرب .

لأن الجاربة لاتحجب، يرهى مرضع الطمع، وليست لها عائلة تنسب فيها، وإنما لها سادة يتصر فوان في شأنها، وفتاته هنا على النقيض من فلك كله، من بيت كريم ولها أهل، وليست مضمعا لأحد، فاختصر الطريق وأمسك بنفسه عن الزلل، والمتنع من الرّدد على بيهم، ويرجح بك الظان الأولى رجحاناً لا يبلغ عند البقين، أن الجارية فيها حرة وليست من الإماء، لأن ابن حزم الشهاها، وتابعها في إعرار، وصدته في لطن، وبقى على الرغبة فيها عامن كاملين، ولو كانت من الجوارى حقا، تباع وتشترى، لاشتراها لنفسه، أو لا شتراها له أبوه، أو لا فصح عن رغب هذه على الأقل و لقد عرض لنفسه، أو لا شتراها له أبوه، أو لا فصح عن رغب هذه على الأقل و لقد عرض لنفسه، أو لا شتر الماء الجوارى العاشقات أو المعشوقات.

وقد تتبعت استخدام اللفظ، في وقتنا اختضر، في بعض مناطق من العالم العربي، فوجدت القبائل العربية التي استقرت في أعلى الصعيد من جنوب مصر، قادمة من المغرب في القرن الحادي عشر الميلادي وما تلاه، والأندلسيين الذين استقروا في الجزائر أو المغرب أو تونس، بعد طردهم من وطنهم عام ١٦٦٣م، ما زالوا يستخدمون الكلمة في حياتهم الأسرية، ينادئ بها الرجل زوجه تدليلا لها وتودداً إلها: يا جارية ! .

وتحدث ابن حزم أيضاً عن فتيات حرائر ، يذكرهن يأسمائهن حين الايسى و ذلك إليهن ، ولا يمس الفاعدة التى اختطها لنفسه في أول والعلوق، وأشرنا إليها من قريب ، وكرون ينتسن في الطبقة العالمية التي ينتمي إليها ، ونعرف من روايته أنهن لسن دون الجواري ثقافة وتمكناً من المعارف العامة ، وإجادة للفنون الجميلة وإقبالا عليها ، فهو يحدثنا عن ضي العامرية ، كريمة المظفر حبد الملك بن أي عامر ، الذي ولى الحجابة بعد أبيه ، وكان يقرب منه هيبة ونفوذاً وإن قصرت أيامه ، وتعرف أنها تعزف الموسيقي ، وتصنع الألحان لنفسها وتطلب من ابن حزم أن ينظم لها شعراً تلحنه ، وتتغنى هيه .

وعرض ابن حزم مرة وأحدة لحالة في أسرتهم ، وذكرها بالاسم ،

حين حدثنا عن الحب العنيف المتبادل بين أخيه أبى بكر ، وزواجه عاتكة بنت قند ، وكانت فيا، يقول : لا مرمى وراءها فى جمالها، وكرم أخلاقها، وكان أبوها قائد الثغر الأعلى على أيام المنصور ابن أبى عامر ، وقد شفها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، وأنحلها شدة كافها به ، وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه ، لايلهيها من الدنيا شى ء ، ولا تسر من أموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير ، إذا فاتها اتفاقه معها ، وسلامته لها . فلما توفى فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة عام ٤٠١ هـ - ١٠١١م ، وهو ابن اثنتين وعشرين صنة ، لفها السقم والمرض والذبول إلى أنماتت بعده بعام ، ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهي كذلك لم يكن لها غيره .

وتستطيع المرأة في المحتمع القرطبي إذا فاضت مشاعرها أن تعشق ، وأن تعبر عن عشقها ، وأن تأخذ زمام المبادرة ، وأورد لنا ابن حزم مثالين لهذا ، فتاتين حرتين ، وكليهما من طبقته على جارىعادته ، ذكر امم الأولى ومن أحبته ، لأن غرامهما انهى بالزواج ، وفارق الزوج والزوجة مذه هذه المدتيا في زمن متقارب ، قبل أن يحرر كتابه بسنوات ، فلم يجد في ذكر الأسماء حرجا ، وهي عاتكة بنت قندوأخوه أبو بكر ، على نحو ما ذكرتا من قريب . أما المثال الثاني فعن فتاة من و ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد ، وأطلق عليها لفظ و جارية ، ، رغم أبها حرة من بنات القواد ، وأطلق عليها لفظ و جارية ، ، رغم أبها حرة أكبداً ، لأن صاحبها كانت فيا يبدو على قيد الحياة ، وهو يكتب وطوق الحمامة ، فلم يرد أن يكشف حالها ، ولأن الشاب الذي عشقته كان ألحمامة ، فلم يرد أن يكشف حالها ، ولأن الشاب الذي عشقته كان وكان الفي من أبناء الكتاب ، وبلغ بها حبه مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط ، واشهر الأمر وشاع جداً ، حتى علمه الأباعد ، إلى أن تدوركت بالعلاج ،

وكان الذين مجمعون إلى المركز الاجتماعي/المرموق، صباحة الوجه، ورجاحة العقل، واكتمال الصورة، وارتقاء السلوك، يصبحون مهبط

الأطماع ، وقبلة الفتيات ، ومحدثنا ابن حزم أن أبا عامر ، ابن المظفر عبد الملك الحاجب الثانى للعامرين ، وحفيد المنصور بن أبى عامر ، كان جاراً لهم ، وبيته ملاصق ابيهم ، حين كان آل حزم يسكنون منية المغيرة فى الجانب الشرق من قرطبة ، ويصفه بأنه و من أهل الأدب والحدق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم ، والمنصب الفخيم ، والجاه العريض و ، وحسن الوجه ، إذا صار إلى بيهم تخطفته عيون الفتيات ، وتزاحمن على روياه ، ومات كثيرات من محبته ، عيون الفتيات ، وتزاحمن على روياه ، ومات كثيرات من محبته ، الأمن علقن أوهامهن به ، وخاص ما أملنه فيه ، ويقدم لنا ابن حزم واحدة مهن ، جارية تسمى عفراء و حرفها وعهدها لا تتستر عجبته حيث علمت ، ولا تجف دموهها ، ويضيف أن أباعامر أخبره بأنه و على اسمها فضلا عن غير ذلك و ت

ويقص حديث امرأة مرية النشأة ، عالية المنصب ، غايظة الحجاب ، رأت في من أبناء الكتاب عابراً قرب منزلها ، فعلقته وحلقها ، وتهادياً المراسلة زماناً على أرق من حد السيف ، ويتركنا ابن حزم عند هذا القدر من القصة لايزيد شيئاً ، لأن بطابها معاصرين له ، والمعاصرة حجاب ، ويعتدر لنفسه : ولم أقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد ، ويدعو الله لهما ، ولجميع المسلمين ، أن يسبل حليم ميره:

كانت المرأة الأندلسية إذن تتمتع بقدر من الحرية لابأس به ، إذا قيس الأمر بأحوال تلك الأيام ، وهي حرية نتحرك في نطاق تقاليد العصر نفسه ، ومن الحطأ أن نوازن بيها وبين واقع المرأة في العالم المتحضر على أيامنا . مثلا لم يكن طابع الحياة الاجتماعية يسمح بالاختلاط في دائرة واسعة على النحو المعهود بيننا ، ولكن الرجال والنساء كانوا يلتقون في ساحة الدرم ، وفي السمر العائل ، وفي الحفلات الاجتماعية ، وأعجبني ساحة الدرم ، وفي السمر العائل ، وفي الحفلات الاجتماعية ، وأعجبني ابن حزم حين رد حجب الفتيات عن الفتيان الأجانب عن الأمرة في البيوت

إلى جارى العادة وحدها ، فهو يقول عن الفتاة الجديلة إلى التقى بها عند سيدة من معارفه بأنها : ولم تحجب على حارى العادة فى التربية ، والمعادة تختلف من طبقة إلى أخرى، وتتمايز بين جماعة وجماعة ، وتتغاوت من جبل إلى جيل ، وهو نفسه محدثنا عن جارية اشتد وجدها بغى من أبناء الرؤساء ، عقبف ومتصاون وبعيد عن المعاصى ، ولا هلم عنده ، وكر غمها ، وطال أسنها ، وضنيت محبه ، وهو بغرارة الصبا لا يشمر ، و معنعها الحياء من إبداء رأبها إليه ، وكانا إلفين فى النشأة ، فلما تمادى الأمر شكت ذلك إلى امرأة صائبة الرأى ، كانت تشى بها لأنها قامت على تربيبها ، فنصحتها بأن تعرض له بالشعر ، فنعات المرة بعد المرة وهو لايأبه بها ، فنصحتها بأن تعرض له بالشعر ، فنعات المرة بعد المرة وهو لايأبه بها ، معه ، فى بعض الليلى منفردين ، فلما حان قيامها عنه ، بدرت إليه فقبلته معه ، فى بعض الليلى منفردين ، فلما حان قيامها عنه ، بدرت إليه فقبلته وفت فى عضده ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهراً ، إلى أن جذت جملها وفت فى عضده ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهراً ، إلى أن جذت جملها على النوى منها ، النوى منها ، فهمت وسقط فى يده ، على النوى منها ، فهمت وسقط فى يده ، وهد النوى منها ، فهمت وسقط فى يده ، وهد النوى منها ، فهمت وسقط فى يده ، على النوى منها النوى منها ، المناه بنهما دهراً ، إلى أن جذت جملها على النوى منها ، النوى منها ، المناه بنهما دهراً ، إلى أن جذت جملها على النوى منها النوى منها النوى منها ، المناه بنهما دهراً ، إلى أن جذت جملها على النوى منها النوى منها المناه بنهما دهراً ، إلى أن جذب بينهما دهراً ، إلى أن جذب بينهما دهراً ، إلى أن جذب بينهما منه النوى منها النوى منها المناه الم

وسيدات الطبقة التي مها ابن حزم وخرها ومقصورات ، وو محجوبة ، لاتعنى على حد تعبيره ، ولكن كلمة ، و مقصورة ، أو «محجوبة ، لاتعنى أنهن بمعزل عن الرجل، وأن أسواراً عالية وصفيقة من المنفرقة تقوم بيهما ، وإنما تشير إلى مركزهن الاجتماعي من الثراء والرفاهية ، فهن لا يفارقن البيوت عاملات أو ساعبات في طلب الرزق ، ولهن من الحدم والأعوان أما يغنيهن عن الحروج ، فهن يقضين حبابهن في البيوت - وأي بيوت المجاسن جماعات ، تأتين الأخبار ، وبنبادان آخرالإشاعات ، ومحبن على الوصف و أقاربن من الرجال ، وحب الفساء في هذا أثبت من حب الرجال ، وحب الفساء في هذا أثبت من حب الرجال ، ويقص علينا ابن حزم إخير صديق له من مروات الرجال ، وهي عمدة جارية مقصورة ، وهام بها ، وقطعه حبه عن كثير من مصالحه ، إلى أن كانت هي التي تعذله على ما ظهر منه ، ومما يقوده إليه هواه ، فكيفت

تَأْتِي لَمْذَهُ ﴿ الْمُقْصُورَةُ ﴾ أن تعذله له لو لم تكن ثلقاه. وتتحدث إليه ؟

ويدرك ابن حزم واعياً دوو الفراع والتبطل ، والمرف مع القدرة ، والسلامة والصحة ، في حياة المرأة ، وكيف يصبح الزواج معها مطلماً وغاية وججة ، والباير د دوران فكرها حول الجنس ، والحاحها عليه ، وما أعلم عالة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء ، إلامن الحماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لاشفل لهن غره ، ولاختمن لسواه . والرجال مقتسون في كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحياطة العيال ، ومكابدة الأسفار ، والصيد وضروب الصناعات ، ومباشرة الحروب ، وملاقاة الفنن ، وتحمل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهكذا كله متحيف للفراع ، صارف وتحمل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهكذا كله متحيف للفراع ، صارف عن طريق البطل » وهي لفتة هصرية ، رغم ألف عام مضت علها ، تحسب عن طريق البطل » وهي لفتة هصرية ، رغم ألف عام مضت علها ، تحسب عن طريق البطل » وهي لفتة هصرية ، رغم ألف عام مضت علها ، تحسب عن طريق البطل » وهي لفتة هصرية ، رغم ألف عام مضت علها ، تحسب عن طريق البطل » وهي لفتة هصرية ، رغم ألف عام مضت علها ، تحسب كلابن حزم ، وتلتقي مع أحدث نظريات علم النفس الحديث .

وقدم لنا ابن حزم عرضاً ، وفي إلماحات خاطفة ، ألواناً من المهن أسهمت فيها المرأة أواختصت بها ، من غبر طبقته بالطبع ! ، فهي تعمل مربية ومدرسة لأبناء الطبقة العليا ، وتربي هونفسه على يدها، تعلم معها القرآن ، وأجاد الحط ، وتذوق الشعر ، ومنهن كانت الطبيبة والحجامة ، والسراقة والدلالة ، والماشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة ، والمعلمة والمستخفة ، والصناع في المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك . ومن نافلة الحديث القول بأن المرأة في الطبقة العليا كانت تحسن الموسيقي ، وتعزف ألوانها المختافة ، وتجيد الغناء في ألحان تصنعها أوتصنع لها ومن بينهن الثريات اللائي تتميز أملا كهن عن أملاك أزواجهن ، ويدرنها لحسابهن ، أملاك هريضة وواسعة ومن الحوادى من كانت للبهجة والمعاشرة ، فهي مثقفة قارئة ، تغني وتجيد ومن الحوادى من كانت للبهجة والمعاشرة ، فهي مثقفة قارئة ، تغني وتجيد ليست على شيء من ذلك ؛ أو حظها منه قليل ، فهن الخدمة وما شق من أعال الست.

وكانت المرأة تتراسل مع من تحب ، وتتلقى رسائله أيضاً ، وقدم، لنا ابن حزم ألواناً من هذا التراسل ، صوره وطرائقه وحيله وكيف. مجرى ، فالرسالة تجيء في و ألطف الأشكال ، وجنسه أملح الأجناس ، وهي لا تعني أن اللقاء بين الاثنين عسير دواما ، فقد تكتب لهذا السبب به أو لأنها أبلغ تعبداً في بعض الأحيان ، لحصر في الإنسان ، أوحياء أو هيبة ، و بعض أهل المحبة بمن كان يدري ما يقول ، ويحسن الوصف ، ويعبر عمة في ضميره بلسانه عبارة جيدة ، وبحيد النظر ويدقق في الحقائق، لايدع المراسلة: وهويمكن الوصل ، قريب الدار ، أتى المزار ، ويحكى أنها من وجوه الللة .. ويحمل الرسائل حادة النساء من ذوات المهن اللائي أشرت إليهن من قريب ، وكان دخولهن إلى البيوت سهلا وميسورا، إلى جانب من لايخشي خطره ه ولا يلفت النظر إليه ، لأنه خامل لا يوثبه به ، ولا يهتدى للتحفظ منه ٥-من الصبيان وأصحاب الهيئة الرثة ، أو البذاذة في الطلعة ، وعمن لا يلحق. الشاك به لنسك يظهره ، أوسن عالية قد بلغها، ويبدوأن دور النساء العجائز بين هؤلاءكان أكثرشيوعاً ، ينفدن إلى الحجب المصونة ، ويخترقن الأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، ويعرف ابن حزم أمثلة. واقعة لكل هذا ، ولكنه لايذكر أسماء أصابها ، ولايزيد الأمر توضيحاً حَقِيم لا بنبه عليها ، ويكتفي بأن يوكد على و ذوات المكاكيز والنسابيح، والثوبيق الأحمرين ، ، ويشير إلى أن الفتيات الشابات كن يتلقبن النحدير به بهن ، و يحدث أحيانا أن تستخدم المرأة او الرجل حاملا للرسالة ذا قرابة من المرسل إليه ، لا يضن معها هليه جذا العون ، وكان المقتدرون يستخدمون الحماج الزاجل أحيانا ،

وكان العشاق يتبادلون الهدايا ، على قدر متساو بين المرأة والرجل المنوف ذلك من ألوان الهد ايا التي ذكرها ابن حزم ، ويبدو أن الأمر كان شائماً ، فقـد جاء به عالم قرطبة الكبير مؤكداً في أسلوب القصر :: * ومارأیت قط متعاشقین إلا و هما یهادیان خصل الشعر میخره بالعنبر ، مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت فی أصلها بالمصطکی ، وبالشمع الابیض المصفی ، و الهت فی تطاریف الوشی والحز ، وما أشبه ذاك ، لتكون تذكره هند البین . وأما تهادی المساویك بعد مضغها ، والمصطکی إفر المستعمالها ، فكثیر بین كل متحابین حظر علیها اللقاء ،

ونعرف أن الزواج كان يم فى سن مبكرة للغاية ، فقد تزوج أبو بكر ، أخو ابن حزم ، فى الرابعة عشرة من همره تقريباً ، على ما نفهم من قصة له يقى الطوق ، ونفتر ض أن زوجته كانت فى مثل هذه السن تقريباً ، إن لم تكن قصغر قلبلا ، فقد توفى الطاعرن الدى اجتاح قرطبة فى بو نية من عام ١٠١٩ م ، فى الثانية والعشرين من عمره ، بعد زواج استمر ثمانية أعوام ، والعجائز كن يلمن دوراً فى تهيئة الظروف بين الحطبين ، فالمرأة إذا أسنت وصلحت ، وانقطع عندها الرجاء ، انصرفت إلى العبادة ، ونسكت بعمل الحير ، فهى قذلل العوائق ، وتحمل الرسائل ، وتحفظ السر ، وأحب الأحمال إليها ، قو أرجاها القبول ، سعها فى تزويج يتيمة ، او إعارة ثباها وحلها لعروس مقلة ، أو أرجاها القبول ، سعها فى تزويج يتيمة ، او إعارة ثباها وحلها المروس مقلة ، ويوئر أبناء الطبقة العليا أن يتزوجوا من فتيات ينتسبن فى طبقهم نفسها ، ويقس عياب ابن حزم أن يحيى بن محمد بن عبدة ، وهو من بيت قرطبى عريق ، عليتا ابن حزم أن يحيى بن محمد بن عبدة ، وهو من بيت قرطبى عريق ، عليتا ابن حزم أن يحيى بن محمد بن عبدة ، وهو من بيت قرطبى عريق ، أراد أن يتزوج من جارية كانت فى بيهم ، فباعها أمه على غير ارادته ، ودهبت إلى إنكاءه من بعض العامريات ، ففقد عقله ، وأصيب بالجنون ، وذهبت إلى إنكاءه من بعض العامريات ، ففقد عقله ، وأصيب بالجنون ،

ونعرف من والطرق، أن رجال الطبقة العالمية يفضلون الشقروات ، وكن العنصر الغالب بين نساء الأندلس فيا يبدو ، وكانت لعم صاحبة ابن حزم الى عرضنا لها من قل شقراء ، ولم يكن يه ضى بغير الشعر اللهبي بديلا حيى ولو كان على المدس ، أو على صورة الحسن نفسه ، و مجد ذلك في أصل تركيبه ، ولا تواتيه نفسه على سواه ، ولا يجب غيره ألبتة ، وجاء في هذا على مذهب أبيه كما يقول . وكان أمراء الأندلس وخلفائه مجبولين على تفضيل الشقراوات ،

لانختلف فى ذلك مهم نختلف ، وكانوا أنفسهم شقراً نزاعاً إلى أمهاتهم هو وترك ذلك الانجاه بصانه واضحة فى شعر الغزل الأندلسى بعامة ، وعند أبي عبد الملك مروان المعروف بالطلبق بعامة ، وكان أشعر أهل الأندلس على زمانه ، وجاء شعوه الغزلى كله فى شقراوات (١).

وكانت عادة النسرى وانخاذ الجوارى إلى جانب الزوجة شائعة ، لأن ابن حزم حين أراد أن يشي على الحياة الزوجية لأخيه قال إنه لم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وبالمثلى يمكن القول ، وهو رد فعل طبيعى ، أن الرجل حين لايقنع بزوجه ، ولا مخلص لحياة أسرته ، أن تمد الزوجة رغبها إلى غيره ، ويذكر ابن حزم أيضاً ، في مقام الثناء على زوجة أخيه ، أنها لم يكن لها غيره . ولمكن الجارية تستطيع أن تصد سيدها عن الاستمتاع بها ، يكن لها غيره . ولمكن الجارية تستطيع أن تصد سيدها عن الاستمتاع بها ، جميلة كانت في دار ابن الركيزة ، محمد بن أحمد بن وهب ، سبق لها مولى ، وجاءته المنية ، وبيعت في تركته ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده ، وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله ، وكانت نحسن الغناء فأنكرت علمها به ، ورضيت بالحدمة ، والحروج عن جملة المتخلفات للنسل واللذة والحال الحسنة ، وفاء منها لمن ذهب ووارته الأرض ، والنامت عليه الصفائح ، ولقد رامها وفاء منها لمذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه ، وغرجها مما هي هيه ، فأبت ، فضربها غير مرة ، وأوقع بها الأدب ، فصبرت على ذلك فيه ، فأبت ، فضربها غير مرة ، وأوقع بها الأدب ، فصبرت على ذلك كله ، وأقامت على أمتناعها ،

وكانت المرأة صاحبة الرأى فى زواجها ، وبحدثنا والطوق ، عن جارية جميلة كانت لسعيد بن منذر بن سعيد ، صاحب الصلاة فى جامع قرطبة ، على أيام الحكم المستنصر ، أحبها وتعلق بها وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها ، فطلبت منه ساخرة أن يتخفف من لحيته ، وكانت طويلة كثة ، لأنها تستبشع

 ⁽۱) أنظر دراسة كاملة عنه في بر غرسية غومث بر مع شعراء الأندلس والمتنبي ، تو جعة الدكتور الطاهر أحمد مسكي ، ص ۸۲ مكتبة وهية ، القاهرة ۱۳۹٤ه – ۱۹۷۶ م.

ضخامها ، فأعمل فها الجامين ، على حد تعبير ابن حزم ، حى لعلقت ، ثم دعا بجماعة أشهدهم على عتقها ، وحين خطبها لنفسه لم ترض به ، وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بن مناس ، فأسر إلى واحد فى المجلس أن بعرض عليها رفيته فى خطبها لنفسه، فرضيت به ، وتزوجته فى ذلك المجلس يعينه ، وكرهت قرطبة هذا الموقف من الحكم ، على نسكه وورعه و اجتهاده ، ولكن الحارية أنفذت رأبها ، وما كافت المستطبع لو لم يكن لها ذلك حقاً مقرراً .

وقد حرص الحادون من الكبار والقادة على أن يقيموا دون حياتهم الحاصة أسواراً عالية ، وأستاراً صفاقاً ، ينأون بها عن أحاديث السمر ، و يجلون أشخاصهم أن تصبح موضع القال ، ولقد تغزل شاعر من قرطبة في السيدة صبح أم هشام المؤيد ، وكانت في فقرة من حياتها على مدلة بالمنصور بن أبي عامر ، ودفع بالشعر على لسانجارية تغنى في بجلسه ، فا إن غنت به ، حتى أمر بقتالها . وكان البيت المالك ينأى بفتياته أن يصبحن حديثاً يدور على ألسنة الشعراء تغز لا وإعجاباً ، وحين تغزل أحمد بن مغيث ، يعور على ألسنة الشعراء تغز لا وإعجاباً ، وحين تغزل أحمد بن مغيث ، وينتسب في أصرة قرطبية عربقة ، بإحدى بنات الحافاء ، ولم يفصح لنسا ابن حزم عن اسمها ، كجارى عادته في مثل هذه المرقف ، قتل وأبعدت أسرته عن المناصب العامة ، وكان ذلك سبباً له لاكهم وانقراض بيهم .

ويقدم لنا ابن حزم صورة دقيقة ومفصلة للمرأة حين ترغب ، ولها حين تكره ، وولقد رأيت امرأة كانت مودنها في غير ذات الله عزوجل ، فعهدتها أصفى من الهاء ، وألطف من الهواء ، وأثبت من الحبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون في الملون ، وأنقذ استحكاماً من الأعراض في الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العبان ، وأنقب من النجم ، وأصدق من كدو القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من وجه أبي عامر ، وألذ من العافية ، وأحلى من المني ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرصخ من النقش في الحجر ،

و ثم لم ألبث أن رأيت تلك المردة قد استحالت عداوة أقطع من المرت و وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحمق، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من المعاناة الدياء ، وأكبر من أروية المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأفظع من فجأة اللهاء ، أوأبشع من السم الزهاف ، وما لابتولد مناه اعن الذحول والمرات ، وقتل الآباء وسي الأمهات ، وقال الآباء

وتبقى نظرة ابن حزم إلى المرأة ﴿ هَلَ أَسْتَطْبِعِ القُولُ أَنَّهَا نَظْرَةُ الْكَثْرُةُ المغالبة من طبقته وفي جيله ؟ ﴿ هممت أَنْ إِرْجِح ذَلِكُ ، لُولا أَنْ ابن حَزْم حرركتابه ولما يتجاوز الثامنة إوالعشرين أمن عمره ، وهي سن إنغلب فيها الحماسة والاندفاع والانفعال، فيجيء حصادها الفكري متسها بالقوة والتوهج، و لكنه أقرب إلى الذاتية المنفعلة منه إلى الموضوعية المتأملة ، ولعله فما عاش من أعوام امتدت به حتى قاربت السبعين ، طامن من حدثه ، وأعاد النظر في أَرْأَفَكَارُهُ ، وَلَوْ أَنَّهَا فِي جُوهُمُ هَا أَظِلْتُ صَحَيْحَةً وَسُلِّيمَةً دُونَ مَا شُكِّهِ إِنَّ وَقَل أنصفها في مواطن كثيرة ، فيرى أن الرجال والنساء سواء في قمع الشهوات ﴿ وَالْمُمْلُ إِلَيْهَا : ﴿ وَمَا رَجُلُ عَرَضَتَ لَهُ الْمُرَأَةُ جَمِيلَةً ۚ بِالْحَبِّ ، وَطَالَ ذَلك ، ولم يكن ثم مانع ، إلا وقع في شرك الشيطان ، واستهوته المعاصي ، أو استفزه الحرص، وتغوله الطمع ، وما امرأة دعاها رجل بمثلهذه الحالة إلا وأمكنته ، حَمَّا مَقْضِياً ﴾ وحكما نافذاً ﴾ . ﴿ وشيُّ أصفه لك نراه عبانا ، وهو أنى مار أيت ﴿ وَهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ عَلَى اللَّهُ وَاحْدَثْتُ ﴿ حَرَكَةً إِناصُلَةً كَانَتَ عَنْهَا بِمُعْزِلُ ، وأنت بكلام إِزَائِدُ كَانْتُ عَنْهُ فَ غَنِيةً ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك ، ورأيت النهمم لمخارج الفظها ، وهيئة تقلها ، لا تُعافيها ، ظاهراً علها ، لاختاء به ، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنسامية

و ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً ، وأعوة الله أن أظن غير هذا ، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة ، أعنى العملاح ، غلطا بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الدرائع أمسكت ، والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتو صل إلها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الحالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر عصره إلى الوجوه البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر يعمره إلى الوجوه البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر مصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، و يتصدى المشاهد المؤذية ، و يجب الحلوات بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، و الفاسة كالنار المشتعلة تحر ق كل شي ، ، من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحر ق كل شي ، ،

ويرى أن المعاناة اليومية إذا جارت، و الحدمة إذا تجاوزت الحد، والغذاء إذا قل ، تذهب مجمال المرأة وتأتى على نضارتها ، دو إنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت ، ولذلك قال من قال : إن حسن الرجال أصدق صدقا وأثبت أصلا ، وأعتق جودة ، لصبره على مالقى بعضه وجود للنساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح، واختلاف الهواء وعدم الكن ، ولست أرى الأمركذلك ، فالحق أن الرجل والمرأة في هذا سواء أيضاً .

ولم يكن ابن حزم يرى في سعاع الغناء ، ولو من امرأة ، أو الموسيقى ، شيئاً يكره ، أو يخالف قواعد الشريعة ، مادامت المتعة تجئ من الفن وحده ، هون أن تحرك المرأة كأنى في أهماق الرجل المدادات الشهوة ، ويقول عن نفسه : « وإنى أذكر أنى دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صوته ، وتألف القلوب أخلاقه، المحديث والمجالسة دون منكر والامكروه ، فسارحت إليه ، وكان هذا سحراً ، لقد استجاب ابن حزم للدعوة ، ولكنه أمسك عن المذهاب ، بعد أن صلى الصبح ، وأخذ زيه ، لأن فكراً طرقه ، فسنحت له أبيات من الشعر ، فبقى معها حتى أكلها ، ثم كتبها ودفعها إلى صديق فسنحت له أبيات من الشعر ، فبقى معها حتى أكلها ، ثم كتبها ودفعها إلى صديق

ولم يكن ابن حزم محسن الظن بالمرأة كثيراً ، وهي نتيجة طبيعية لما مر تحت عينه من تجارب وأحسدات ، حين كان صبياً ، أو في سن فتية ، فلم يستطع لها تعليلا علمياً ، ولا ردها إلى أسبابها المنطقية ، ولا نسى شيئاً مما وآه بينهن ، فأدى ذلك إلى غيرة شديدة طبع عليها ، وسوء ظن في جهنهن فطر هليه ، وقد أشرف من أسبابهن على غير قليل ،

ونلحظ. في نهاية المطاف أن ابن حزم على امتداد كتابه أمسك عن أية إشارة تتصل بحياته الأسرية ، ولم يعرض لأية أحداث تتصل بعائلته ، فلا نعرف شيئًا ، ولو عارضًا ، عن زوجه أو أمه ، خارج اعتر افاته الذاتية عن غرامياته ، ولم ينته في أي منها إلى زواج ، وعدا حديثه عن أخيه ألى بكر وزوجه عاتكة ولا نجد بين صفحات الكتاب صدى لولادة بنت المستكفي، وعاصرت ابن حزم ، وكانت حديث قرطبة ومنتدياتُها ، لأن ولادة أخذت طريقها إلى الشهرة والتحرر بعد وفاة والدها الخيلةة المستكفي عام ١٠٢٥م، وهي على أبواب السادسة عشرة من عمرها ، طرية الإرادة ، فخلا من التجربة تشق طريقها إلى المحد خائفة وجلة ، وسط أحداث صاخبة ، وفي عاصمة] قلقة ، تبيت على فتنة و تصبح في بركان ؛ ومع خطاها الأو لى لم يكن ابن حزم ؛ في قرطبة ، كان خارجها ملاحقاً ومضطهدا ومنفياً ، وقبل هذا التاريخ لسنوات ثلاث تقريباً كان في شاطبة يحرر رسالته ، ولم يكن ساعبها في حياة ولادة ما يرفعها إلى مرتبة أن تصبح واحدة من بطلات الطو ق ، وأن تدخله تاریخاً بروی ، وحدثاً بسجل ، وعرفها ابن حزم علی التأکید طفلة ، کما عرف أبوها ، وكان قد ألقى به فى « المطبق » أقسى سجون قرطبة ، مع ابن عمه(١) أبي المغيرة واحتفظ له ابن حزم بكراهية عيقة واحتقار شديد ، ولايعرض الكتاب لغير نساء الطبقة العليا من قريب او بعيد وبجيُّ حديثه عن المرأة أصلا فيا يتصل بموقفها محبوبة أو عاشقة ، وهو الموضوع الذي أدار عليه رسالته ، ويجيء غيره **ق**ليلا وعرضاً ، للتأكيد أو التدليل أو التوضيح ،

⁽¹⁾ أنظر صفحة ٦٦ من هذا الكتاب .

مؤلفات في الحب سبقت طوق الحمامة

شغلت قضية الحبالعرب علمياً مع بداية الازدهار الثقافى ، ر مطلع القرن التاسع الميلادى ، حين وضع كل شئ على بساط البحث ، وتعرضت كل الآراء لسهام النتد ، ونظر الباحثون فى كل المسلمات ، و شغل العصر بألوان من الفكر والجدل ، والإيمان والإنكار ، على نحو لا تنسع له الحياة إلا حين ترقى ، وبحسبك أن حياتنا الإسلامية الآن ، بعد ألف عام كاملة من الزمان ، لا تتسع لمثل هذه الألوان من الدرم ومن الحلاف ،

یذکر المسعودی فی الجزء الثانی من کتابه «مروج اللهب : « تنازع الناس فی ابتداء وقوع الهوی وکیفیته ، و هل ذلك من نظر وسماع و اختیار واضطرار ، وماعد وقوعه بعد أن لم یکن ، وزواله بعد کو نه ، و هل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه «۱) .

و تضم طبعة باريس منه ، فيما يذكر المستثير ق جوستاف فون جزنباوم ، حديثا مفصلا عن مجلس فى قصر يحيى بن خالد البرمكى ، ضم الني عشر مسلماً ومو بذاً واحداً ، قدم كل و احد مهم رأيه فى طبيعة العشق ، فى جمل عكمة ، تتفق جوهرا ، وإن اختلفت شكلا وتركيبا ، وجملة ما رأوا : أن الحب ثمرة المشاكلة بين المحب والمحبوب ، ولا يكون إلا بازدواج النفسين ، وامنزاج الشكلين ، وهو دلبل على تمازج الروحين. ومن اعتدال الصورة ، وتكافؤ فى الطريقة ، وملاءمة فى الهمة ، ويتخلل فى القلب كما تتخلل قطرات المطربين ذرات الرمل . وهو سحر ، أخفى وأحرمن الحمر ، والمحب جواد مشرق الطبيعة ، فائق الشمائل ، وينبعث ثمن تجانس الأرواح والمحب جواد مشرق الطبيعة ، فائق الشمائل ، وينبعث ثمن تجانس الأرواح والمحب جواد مشرق الطبيعة ، فائق الشمائل ، وينبعث ثمن تجانس الأرواح

لاصق بالنفس ، متصل بجوهريتها ، يسمى هشقاً ، والعشق نار تتأجيج فى القلب، يعقد اللسان ، وبه يصبح المحب عبداً مماوكاً ، ولا ينجح فيه علاج، في والإفراط فيه يحطم الجسد ، ويعانى المحب من اللوعة والأرق ، و صومه البلوى ، وإفطاره الشكوى » ، وهو أشرف سبب للفناء » ،

وهرالاء الرجالكما سماهم المسعوديه(١):

ه على بن الهيم ، ولم أعثر له على ترجمة فيا بعن يدى من المصادر و أبو مالك الحضر مي ، وليست له أية ترجمة فيما رجعت إليه من المصادر

ومحمد بن الهذيل العلاف ، أبو الهذيل ، ولد حوالي سنة ١٣٥ هـ - ٢٥٠ أو ١٥٠ م ، وكان آمولي لقبيلة عبد القيس ، وتوفى ٢٢٦ أو ١٣٥ هـ ١٤٠ أو ١٥٠ م ، وكان آمولي لقبيلة عبد القيس ، وتلميذ همرو بن عبيد ، وهو مولى كذلك ، وعرف بالصلاح الآوالتقوى ، واشتهر بالزهد والورع ، أواعتنق رأى واصل ابن عطاء في الاعتزال ، وألف كنباً كثيرة لم تصلنا . ويعد أبو الهذيل من كبار المعتزلة ، أوهو المؤسس الحقيقي للتأليف في علم الكلام ،

متكلم مناظر ، كان شيخ الإمامية في وقته ، ولد بالكوفة ، أونشأ في متكلم مناظر ، كان شيخ الإمامية في وقته ، ولد بالكوفة ، أونشأ في واسط ، وسكن بغداد ، وانقطع إلى يحي بن خالد الرمكي ، فكان القم عجالس كلامه ونظره ، وصنف كنبا مها : الإمامة ، أوالقدر ، والشيخ والغلام ، والرد على المعتزلة في طلحة والزبع ، والرد على الزنادقة ، و غير ها. وكان حاضر الحواب ، سئل عن معاوية : أشهد بدرا ؟ فقال : نعم ، من ذاك الجانب 1 ، ولما حدثت نكبة المرامكة استعر ، وتوفى على إثرها بالكوفة ، أجانب 1 ، ولما حدثت نكبة المرامكة استعر ، وتوفى على إثرها بالكوفة ، أو يقال عاش إلى خلافة المأمون .

• إبراهيم بن سيار النظام ، أبو إسحاق ، كان من أعظم تلاميد محمدبن

١ - فون جرفباوم ، دراسات في الأدب العربي ، ص ٨٧ ومابغدها ، ترجمة إحسان حباس و آخرين .

الهذيل العلاف، ترك البصرة موطن نشأته إلى بغداد بعد مدة ، وتوق بها في عنوان شبابه ، بين سنتي ۲۲۰ و ۲۳۰ هـ ۸۳۰ و ۸۴۰ م ، ووقف حياته على مقاومة الدهرية والديصانية ، أو بحدي آخر ضد الفاسفة الهالينية ، والتي أفرت على الرخم من هذا في بناء مذهبه الديني تأثيراً حاسماً ، ودافع عن المقول و مخال الفرآن » ، وحارب قول الحنفية ، بالرأى والقيامي ، وكان الجانب ذلك بارعاً في اللغة والجدل وقول الشعر ، وكان الجاحظ من أظهر طلابه ومريديه ، وقد تعارفا في البصرة في مجلس أبي الحذيل المعلاف ، رغم أن التلميذ كان يكمر أستاذة بحشرين عاما ، إلا أن الاستاذ كان يتمتع محمز لة عالية في علم الكلام ، وعكانة اجتماعية رفيعة .

- ه حلى بن منصور ، ولم أعثر له على نرجمة فيا بين يدى من المصادر ، المعتمر بن سليان بن طرخان ، أبو محمد ، ولد سنة ١٠٠ ه -٧١٨م وتوفى عام ١٨٠ ه -١٨٠ م ، كان وأبوه من العباد النساك ، ومن حفظة الحديث في اليصرة ، انتقل إليها من العين ، وكان ثقة ، حدث صنه كثيرون منهم أحمد بن حنبل ، وله كتاب في المغازى :
- من الكوفة ، ولكنه استوطن بقداد ، ونظم تعالم المعتزلة في شعرلتشيع بين الكوفة ، ولكنه استوطن بقداد ، ونظم تعالم المعتزلة في شعرلتشيع بين التاس ، وكان من أنصار الأمام على رضى الله عنه ، على النقيض من معتزلة المكوفة ، فوضعه هارون الرشيد في السجن ، غير أنه عاد فاكتسب نفوذا قوياً في مهد المأمون وانتهت إليه رآسة المحتزلة في بغداد ، وكان إلى جانب ذهك شاعرا، وله قصيدتان تعليميتان أوردهما الجاحظ في كتابه الحيوان وشرحهما ، وألف لهارون الرشيد و صحيفة ، في البلاغة أوردها الجاحظ في كتابة والبيان والتبيين ،
- ثمامة بن أشرس النميرى، مولى بنى نمير ، كان زعيم القدرية فى زمان المأمون والمعتصم والواثق ، وهو الذى دعا المأمون إلى الاعتزال ، وتروى حنه قصص تشهر إلى استخفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى الناس

1

يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع لحوفهم من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : أنظر إلى هو لام الحمير والبقر ! ، ثم قال : ماصنع ذاك العربي بالناس ، وقتل ثمامة فى زمن الواثق ، وقبل توفى عام ٢١٣ هـ ٨٧٨ م ، ما ما يا يا الماري

السكال ، من الإمامية ، ولعله محرف عن « السكاك » ، وهو الذي جادل جعفر بن حرب ، وتوفى هام ۲۳۲ هـ ۸۵۰ م ، وصاحب هشام بن الحكم ، ولم أجد في كتب التراجم مايلقي على شخصية المزيد من الضوء ،

 الصباح بن الوليد ، من المرجئة ، ولم أعثر له على ترجمة فيا بين يدى من المصادر ؟

• • إبراهيم بن مالك ، فقيه بصرى ، جدل لا يعرف له مذهب ، ويظن جرنباوم أنه : ابراهيم بن مالك بن بهبوذ البزاز ، المتوقى عام ٢٦٤ هـ مدرنباوم أنه : ابراهيم بن مالك بن بهن يدى مايد عم آجد فى كتب الترجمات التى بن يدى مايد عم آهذا الكلام ، أو يضيف إليه جديدا ، واتمى على شخصية الرجل مزيداً من الضوء،

به والشخصية الأخيرة هي الموبذ، أي قاضي المحوس ، واكتفى المسعودي بوظيفته دون أن يقدم لنا اسمه ، أومن يكون .

فأنت ترى أننا أمام حشد من رجال الفكر ، يمثلون مختلف جوانبه ، فيهم المسلم والمجومي ، والمتكلم والفيلسوف ، والأديب والفقيه ، ويكاد اجباع هولاء في مجلس واحد أن يكون ضربا من من المستحيل ، ولكنه دون شك يقدم لنا تصوراً دقيقاً وموجزا لما كانت عليه أفكار العلماء ، في المبيئات النقافية المختلفة ، عن الحب ومشاكله ، ونجد صداها واضحاً عند بعض الشعراء المعاصرين لم ، ويخاصة عند العباس بن الأحنف ، وفي موثلفات الدارسين من تلاميذهم ، ومدن جاموا بعدهم .

كان الجاحظ (٧٦٧ – ٨٦٨ م) ، فيا أعلم ، أول مولف عربي كتب في المستون السابقة ، وتتلمة في العب الإنساني، وقد عاصر بعض من ذكر نا في الفترة السابقة ، وتتلمة

على البحض الآخر ، وجاء حديثه عنه مختلفاً عن الجميع ، مستمدا من مهجه في الدكتابة ، فهو مجمع بين القسلية والمسامرة ، والإفادة والتعليم . ولقد عرض له في موضعين ، أولهما في كتابه و الحيوان ، حيث أفاض القول عن الجانب العملي منه ، ما بحسن ويسعد ويجمل ، وما يكون في صالح طرف دون الآخر ، فيودي إلى الملل والنفور والتعاسة ، ووازن بين أنوان ممارسته عند الشعوب المختلفة ، وبين المخلوقات غير الإنسانية ، بين أنوان ممارسته عند الشعوب المختلفة ، وبين المخلوقات غير الإنسانية ، وخلال ذلك كله يلقي بتجاربه وملاحظاته ، وهي مفيدة ومتقدمة ، وتقع من العلم الحديث موقع الرضى ، ويتحدث عنها صرعاً ، لايتحرج ولا يوارى ولا يكني . وكان « الحيوان » مماكتب في أراخر حياته ، فجاء حافلا بالمعارف الصادقة في هذا الياب .

وأما الكتاب الثانى فرسالة صغيرة وفى العشق والنساء ، وهى فيا يبدو مقتطفات من كتاب لم يكن الجاحظ راضياً عنه كل الرضى ، أو لعله وأى فيه ما يثير مشاعر المحافظين ، و وكان يحرص دواماً على أن تكون حياته الحاصة ملكاً له ، لا يجاهر بمعصية ، ولا يباهى مخطيئة ، يؤثر السر ، ويبتمد عن مواطن الإثارة ، ولا يرى فى مداراة العامة عيباً ، ويتخد من مرضاتها مدهباً ، ما دام ذلك لا محمله على غيرم يرغب فيه من الأفكار والعادات ، (۱) ويقول فى خاتمة الرسالة ، معتذراً عن الإطناب فيها : و فمنع من ذلك فرط ويقول فى خاتمة الرسالة ، معتذراً عن الإطناب فيها : و فمنع من ذلك فرط الكبوة ، وإفراط العلة ، وضعف المئة ، وأعلال القوة ، فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال ، وألفى قلوبنا على هذه الأشغال ، اجتنبنا على المناب من هيع ذلك إلى فرق ما بين الرجل والمرأة ، فلما اعتزمنا على أن نقصد من هيع ذلك إلى فرق ما بين الرجل والمرأة ، فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به ، وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر عددها ، وتبعد عايها فرأينا – والقه الموفق – أن نقتصر منه على مالا يبلغ بالمستمع إلى السامة ، وبالمالوف إلى مجاوزة القدر » .

 ⁽۱) الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دراسة في مضادر الأدب ، ص ۱۱۳ ، الطبعة الثالثة ،
 دأر الممارف بالقاهرة ۱۹۷۹ ، وقد نفدت و الطبعة الرابعة قيد الصدور .

واختم الجاحظ رسالته ، بما ابتدأ به ابن حزم وغيره كتهم ، معتلرآ عما فيها ، ووليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن تحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المهانى الصعبة ، التي تستكد النفوس ، وتستفرع المجهود ، والصبر غاية ، وللاحمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الحزل إعلى أن الكتاب إذا كثير هزله سخف ، كما أنه إذا كثير جده ثقل ، ولا بدلاكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارى ، وينفي النعاس عن المستمع ، ولم يصلنا الكتاب الأصلى فيما أعلم ، ولم أجد بين من درسوا الجاحظ من وقف عند المشكلة وأبدى فيها رأيا ، ويبدو لى وقع الجاحظ في الرسالة محتلفاً ، غامضاً ومضطرباً ، وناتمي به في السطور الأولى كمن يكمل حديثاً ليس بين أيدينا بدايته ، ويرد على قوم لانعرف إدعاو اهم ، وتحن معه بين متر ادفات الله تنهي إلى شيء واضح وعدد ، و ثدو راقر سالة إجمالاحول مجورين "

و المرأة ، ويتحدث عن مكانها ، ويراها أرفع حالاً من الرجل في أمور منها : وأنها التي تخطب وتراد وتعشق وتعللب ، وهي التي تفدى و تحصى ، وهما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه ، وبالمشي إلى بيت الله ، وبصدقة ماله ، وعنق رقيقه ، فيسهل طيه ولايأنف منه ، فإن استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه ، وطار الغضب في دماغه ، ويمنع ويعصى ، ويغضب ويأبي ، و إن كان المحلف سلطاناً مهيبا ، وإن لم يكن يحبها ولا يستكثر منها ، وكانت قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة الصداق ، قليلة النشب ، وليس ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات في صدو والأزواج ، و ولسنا نقول ، ولا يقول أحد بمن يعقل ، وإن الساء فوق الرجال أو دو بهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكنا رأينا ناساً يزرون علين أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن ، يزرون علين أشد الاحتقار ، ويبخسونهن ، الأجر مقوقهن ، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوقه الآباء والأعمام إلابأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال » ،

ويقدم صورة مفصلة المرأة المفضلة على أيامه عند عامة الناس ، من البصراء مجواهر النساء ، وجهابلة الأمر ، فهم ويقدمون المحدولة ، والمحدولة ، من النساء تكون في معزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الحرط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام ، بعن الممتلئة والقضيفة ، وإنما يريدون بقولهم مجدولة : جودة العصب ، وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول ولذلك قالوا: خمصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها ولذلك قالوا: خمصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها المضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة الضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة أعم ، وهي بهذا المعني أحرف ، ، وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : أعلاها قضيب . وأصفلها كثيب » .

• والمحور الثانى الحب ، ودوره فى حياة الناص ، وما يمليه من مواقف أو يفرضه من سلوك ، وثمة رجلان و لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه مشغول عن التوغل فيسه وبلوع أقصاه ، والملك للضخم الشأن ، لأن فى الرياسة الكبرى ، وفى جواز الأمر والنهى ، وفى ملك رقاب الأمم ، ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب ، والاحتراق فى العشق ،

ويقسم الحب إلى مراتب ثلاث: الحب والهوى والعشق ، فالحب أصل الهوى ، ومن الهوى يتفرع العشق ، والعشق ما يهم له الإنسان على وجهه أو يموت كلدا على فراشه ، ويعرض لبعض ما يعترى العشاق والمحبين من الغضب والنفور والسلو والحنين ، ومن الرغبة والعجز والحاجة إلى إشباع الغريزة ، وسيطرة المرأة على الرجل ، واستحواذها على جانب من فكره ، على الرغم من المشاغل التي تزحم حياته ، وتستغرق فكره ، فكره ، والسعادة التي تحقب نوال العاشق معشوقه ، وهي سعادة ، فيما يرى الجاحظ، لا تعد لها سعادة . ثم يقارن بن للة الظفر بالعدو ، ونيل العاشق ، فيرى (م١٨ - ابن حزم)

الثانية أقوى أثراً ، وأبلغ متعة : و فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها ، وأكمل لذاتها ، ظفر المحب بحبيبه ، والعاشق بطليبه ، .

والرسالة قصيرة ، لاتتعدى عشر صفحات في طبعة حسن السندوبي لمجموعة و رسائل الجاحظ ، (القاهرة ١٣٥٧ه = ١٩٣٣م) ، ويغلب على الشكل الذي جاءت فيه الطابع الإنشائي ، والملاحظات العجلة ، لا يقف معها الجاحظ عند أية فكرة مستغرقاً أو معللا ، ولا يلتقط لها مما حوله شاهداً ، على جارى عادته ، إلا في حالة واحدة :

وقد دخلت كتب الجاحظ الأندلس فى زمن مبكر ، فى حياة الجاحظ نفسه ، فنحن نعرف أن فرج بن سلام لقى الجاحظ ، وتوثقت الصلة بينهما ، وجمعنهما صداقة وطيدة ، وجاء بكتبه إلى الأندلس ، ومن بينها و البيان والنبيين ، أكيداً ، لكن لا يمكن الجزم بأن رسالته و فى العشق والنساء ، كانت بينها ، لأن الجاحظ فيا يبدو لم يكن راضياً عنها ، ولا حفياً بها ، وأبعد منه أن نقول أن ابن حزم عرفها ، أو أفاد منها ، لأن المنهج عند كليهما مختلف ، والنظرة متباينة ، ولا تلمح لها فى وطوق الحمامة ، أثراً .

وفى الفترة نفسها هاش أبو يوسف يعقوب ، الشهير بالكندى (١٠٣ - ٨٧٣ م) ، و تميز بين فلاسفة عصره فى الشرق بأنه من سلالة عربية أصيلة ، ومن ثم أطلق عليه لقب فيلسوف العرب ، وهو أول ، وآخر ، تلمية لأرسطو عربى الأرومة فى خلافة المشرق ، وكان انتقائياً فى فلسفته ، فحاول على طريقة الأفلاطونية الحديثة أن يوفق بين آراء أفلاطون وأرسطو ، ويرى أن رياضيات فيثاغورس الجديدة أساس كل العلوم . وقد جمع إلى الفلسفة معرفة واسعة بالنجوم والكيمياء والنظريات البصرية ، والموسيقى ، وينسب إليه عدد لايقل عن ٢٦٥ مؤلفاً ، من بينها رسالة فى و العشق ، ولكنها ضاعت كتبه فى الشرق ولكنها ضاعت كتبه فى الشرق والغرب ، وقرأ روجر بيكون كتابه فى البصريات فى ترجمه اللاتينية ،

وباشرت تأثيراً واضحاً عليه ، ولقد حفظت لنا العرجمات اللاتينية ، ومن بينها ما قام به جير ال الكريمونى ، نسبة إلى كريمونا في إيطاليا ، عدداً من مولفات الكندى أكثر بما هو موجود في أصولها العربية . ورغم ذلك لا يمكن الجزم بأن مرالفاته دخلت الأندلس صريحة ظاهرة بوجه مسفر ، وريما دخلت إليه كغيرها صحية العلوم التطبيقية من فلك ورياضة وطب ، أو تسربت إليه متسترة في ثنايا الاعترال ، ولم يصلنا شيء من رسالته في والعشق ، ولعلها استقرت مترجمة إلى اللاتينية في خزانة كنب مغمورة ، في جانب من أوربا ، تنتظر اليد التي تزيح عنها الغبار . وأتصور أنها دراسة فلسفية تمناول الأمر من جنابه النظرى ، المنصل بالأرواح والما نها دراسة فلسفية تمناول الأمر من جنابه النظرى ، المنصل بالأرواح والما نها دراسة فلسفية والطوق ، ولا في حياة ابن حزم ، ما يرجح أنه رأى الرسالة أو أقاد منها .

. . .

ثم نلتقی بعد الكندی بأبی بكر محمد بن داو دا اظاهری (۸٦٨ – ۱۹م)، فی كتابه و الزهرة ، و من المؤكد أن كنباً أخرى ، غیر ماذكرنا ، سبقته ، ضاعت ولم تصلنا ، لأنه یذكر فی مقدمة كتابه : « وقد رأیت ممن ینسب نفسه إلی الأدب ، و یتحقق بتألیف الكتب ، قصد فی مثل هذا الكتاب إلی مقصد یبعد به عندی من الصواب ، ابتدأ بذكر من حشق من المتقدمین حتی ارتقی ببعد به عندی من الصواب ، ابتدأ بذكر من حشق من المتقدمین حتی ارتقی لی ذكر بعض الأنبیاء صلوات الله علیهم أجمعین ، و ذكر أنهم كانوا من أتباع الهوی علی حال لا بجوز أن یضاف مثلها إلیهم ». و هی إشارة لا یمكن أن تنصرف و اقعا إلی رسالة الجاحظ ، لأنها علی غیرما یصف أبو بكر ، أن تنصرف و اقعا إلی رسالة الجاحظ ، لأنها علی غیرما یصف أبو بكر ، ولا تصوراً إلی وسالة الكندی ، لأن هذه فلسفیة و تلك أدبیة تاریخیة ،

يصف أصحاب النراجم أبا بكر إبانه كان عالماً أديباً ، شاعراً ظريفاً ، من أذكباء زمانه ، لين الجانب مصقول المواهب ، وكان رفاق صباه ينادونه و عصفور الشوك » لنحافته وصفرته ، وخلفوالده في رآسة الملهب المظاهرى و لما يباغ من العمر ستة عشر عاماً ، وتولى التدريس ، وألف في

الفقه الظاهرى وفي الأصول آ. وكانت بغداد على أيامه مر دهرة الثقافة ، تتدافع فيها الحركات الفكرية بكل ألوانها ، ترجمة وتأليفاً وحواراً ، تغللها حماية الدولة ، وتغذيها حرية واسعة بلا حدود ، أشبه بما كانت عليه أثنينا أيام سقراط ،أو الاسكندرية في عهدالبطالسة ، أو فلورنسة تحت حكم آل مديتشي ، بل إن بغداد وجدت في شخص الحلاج الصوفي الشهير سقراطها أيضاً ، ولعب ابن داود (دوراً في محاكمته ، ولكنه توفى قبل أن شهد إهدامه في عام ٢١٠ ه ٣٢٠ م ،

كان ابن داو د حاد العاطفة منذ صغره ، ويقول عن نفسه: « ما انفكك عن هوى منذ أن دخلت الكتاب » ، وعرف بالتقوى فى الوقت نفسه، وقاسى من إلحاح الرغبة ومقنضيات العفة ، ومن ثم وجد متنفسه فى البحث عن مثل أعلى فى الحب وفى الحياة ، تستطيع رغباته المكبونة أن تعبر عن نفسها من خلاله ، فبدأ يوالف كتاب الزهرة منذ حداثته ، ولما يزل تلمبذا ير دد على الكتاب ، وأطلع أباه على أكثره ، وإذا هر فنا أن الآب توقى عام ٨٨٨م، أحركنا أن ابن داود كتب الحاتب الأكبر من كتابه ولحا يتجاوز الستة عشر عاماً من عمره ، ولو أن ذاك لايعنى بالضرورة أن الكتاب أخذ شكله النهائى أفى هذه السن ؛ ووعا كان اختيار الأشعار يعود إلى هذه الفترة ، أما المقدمات فى هذه السن ؛ ووعا كان اختيار الأشعار يعود إلى هذه الفترة ، أما المقدمات و الأفكار و ترتيب الأبواب فجاء فى مرحلة تالية ، وقد شهر صباه بالميل و الأفكار و ترتيب الأبواب فجاء فى مرحلة تالية ، وقد شهر صباه بالميل المحمد بن جامع الصيد لانى ، وعمل كتاب و الزهرة ، بسبه ، فيا يروى الحطيب البغدادى ، وإليه توجه بالحديث فى المقدمة دون أن يشير إلى اسمه ، أو يومى إلى صفات تحدده ، وإليه توجه بالحديث فى المقدمة دون أن يشير إلى اسمه ،

مهد أبو بكر لكتابة بمقدمة مسجوعة ، ثم عرض لمنهجة ، أأ فلكر أنه استودعه مئة باب ، ضمن كل باب مئة بيت، ذكر في الحمسن إباباً الأولى منها جهات الهوى ، و أحكامه وتصاريفه و أحواله ، وجعل الأبواب المنسوبة إلى الغزل أمثالا ، ورتبها على ترتيب وقوعها حالا فحالا ، فقدم وصف الهوى وأسبابه ، و بسط ذكر الأحوال العارضة فيه بعد استحكامه ، ومن

الهجر والفراق وما توجبه غلبات التشوق والإشفاق ، ثم ختمها لذكر الوفاء بعد الوفاة ، بعد أن أتى على ذكر الوفاء فى الحباة ، ووضع الكل باب عنواناً مسجوعاً ، مثالا محكماً ، يومئ إلى محتواه ، مثل : « من كثرت لحظائه دامت حسراته ، العقل عند الهوى أسر والشوق عليهما أمير ، من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه ، ليس بلبب من لم يصف مابه لطبب ، إذا صع الظفر وقعت الغير ، وعلى هذا النحو يمضى فى بقية الأبواب .

أما الخمسون باما الأخرى فأفانين من الشعر ، اقتصر فيها على قايل من كثير ، وقنع من كل فن باليسىر ، وأشار إلى منهجه 'فيها عند نهاية القسم الأول ، وجاءت أبوا. على النحو التالى : « ماقيل فى تعظيم الله ، ما مدح به النبي وما استشهد به وأنشد بين بديه ، ما قاله شعراء الإسلام في أهل بيت النبي ، مراثى الملوكوالسادات وأهل الفضل والرياسة.، توح الأهل والأخوان على مافقدوه من الشجعان ، ذكرالنوح على منمات منالأباءوالقرابات، ذكر من جزع فاحتاج إلى تعزية أوليائه ومن رزق الصبر فاستغنى محسن عزائه ، ذكر النزهبد فها يفني والترغبب فها يبقى ، ذكر أشعار الظرفاء من الماوك والخنفاء ...، و عضى المؤلف في عناوين أبواب النصف الثاني على هذا النحو. وهذا القسم ليست لة أية صلة بموضوع العشق ، وإنما هي مختارات شعرية تتناول قضايا عامة، مما يدور حولها الشعر المربي عادة، وتعرض لها كتب السمر والمخارات ؛ يعلن عليها بر أى مقتضب له ، أو ينتمل عن غره، ومن بن الشعراء الذبن تتر دد أسماو هم كثيرا: "مروالقيس وأمية بن أبي الصلت ، والنابغة الذبياني ، والقطامي ، والحطيئة ، وأبو تمام، والبحترى ، ويشاء بن برد ، وجميل بن معمر ، والحسن بن الضحاك ، و فو الرمة ، ومجنون بني عامر . ولم بهمل الآحاد غــــــر المشهورين من الرجال والنساء ، المعاصر بن له أو الذين بلغته الرواية عنهم ، على غير السائد فى عصره ، وبين المؤافين على أيامه .

لقد وصف المستشرق الفرنسي ماسنيون في كنابه • محنة الحلاج ،

كتاب الزهرة «بأنه كتاب رائع عن الحياة العاطفية في تلك الأيام ، ومعرض في بآراء المفكرين والأدباء في بغداد ، و ماكان بدور ا بأذهائهم عن موضوع الحجب » ، ويمكن أن نقول : « إنه أول مجموعة من الشعر ، تدور حول الحب الأفلاطوني ، قيلت في اللغة العربية في بغداد خلال النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي » ،

وصل كتاب الزهرة إلى قرطبة ، كأشياء كثيرة من المشرق ، فى زم مبكر ، مبشراً بالحب العدرى بين الأندلسيين ، وبعد ثلاثة أرباع القرن من تأليفه ، أثناء خلافة الحكم الثانى ٩٦١-٩٧٦ ، ألف ابن فرج الحيانى ، وعب أن يكون قد مات فى السجن عام ٣٦٦ ه = ٩٧٦ م ، كتاب الحدائق ، مختارات من شعر الأندلسيين ، نحا فيه منحى ابن داود فى يختابه الزهرة ، وحاول أن بيزه ، فجعل « الحدائق » فى ماثتى باب ، يضم كل باب ماثتى بيت من الشعر ، ليس منها باب ثكرر احمه لأبى بكر ، فيم يورد في فيه لغير أندلسي شيئا ، وبيدو أنه لم يقف بتقليده عند الشكل ، وإنما تجاوزه إلى المحتوى ، فقد حفظ لنا الذين نقاوا عنه قصيدة له تفيض عدوبة وتنضح عدرية :

وطائعة الوصال عفقت عنها بدت فى الليل سافرة فباتت وما من لحظة إلا وفيها فملكت النهى جمحات شوقى وبت بها مبيت السقب يظما كذاك الروض ما فيه لمثلى ولست من السوائم مهملات

وما الشيطان فيها بالمطاع دياجي اللبل سافرة القناع إلى فتن القلوب لها دواعي الأجرى في العقاف على طباعي فيمنعه الكمام من الرضاع سوى نظر وشم من متاع فأتخذ الرياض من المراعي

ولم يصلنا كتاب و الحدائق ، لسوء الحظ ، فلا نعرف عنه إلا القليل جداً الذى نقله عنه ممى جاءوا بعده ، وضاعت معه ثروة هائلة من الشعر الأندلسي تبلغ أربعين ألف بيت، ، في هذه الفترة المبكرة من الحياة الأدبية في الأندلس ، فلم يكن قد مضى على فتحه هير قرنين ونصف من الزمان .

أعد كتاب الزهرة شعراً واتجاهاً جانب الحب العدرى ، و وهو موقف ، فيا يرى غرسية غومث فى مقدمته لترجمة الطوق إلى الإسبانية ، يمثل ثورة حقيقة ، لانعرف بالدقة حجم صداها فى واقع الحياة ، لكن دورها فى شعر الغزل الأندلسى ، على الأقل ، كان واضحاً وملموساً . لقد كان الشعر قبله قصائد تدور حول الأغراض التقليدية المعروفة ، أو مقطعات كثيرة ذات نغم فظ وشبق ، مثل ما نجد فى شعر الغزال ، شاهر إسبانى كبير من القرن التاسع الميلادى ، وقد وجد هذا التجديد الثائر فى شعر الغزل أنصاراً متحمسين خلال فترة الحجابة العامرية ، وتبنته أخيراً أقاية من أنصاراً متحمسين خلال فترة الحجابة العامرية ، وتبنته أخيراً أقاية من الشباب ، يوجهها ابن شهيد وابن حزم ، وجعلته بين دعامات مهجها الجمالى ، ووجدت فى الأخير خير من يدافع عنها ، ورعما واحداً من قلائل الجمالى ، ووجدت فى الأخير خير من يدافع عنها ، ورعما واحداً من قلائل حاول احتذائها فى حياته ، وأعطاها المطابع الأدبى النهائى بكتابه « طوق الحمامة » ، ممزوجة باللطف و لون فريد من العنة ، ويمكن أن تدعوها إفلاطونية ، كما يقال عادة وفى تعبر شائع » .

ولقد عرف ابن حزم كمتاب الزهرة لأبن داود مباشرة ، وهي حقيقة لما تدرس كما يجب ، ذلك أن الأديب القرطبي حرف الفكر الظاهري في زمن مبكر ؛ أسبق بكثير مما يظن عادة ؛ وقد ارتبطت نظرية الحب البغدادي المصقول ؛ إلى حدما ، بوجود المنهب الظاهري ، هير أنه من الضروري أن نضيف ، إنه على الرغم من وجود إشارة نصية بسيطة ، ومن التوافق في الأنجاهات العاطفية ، فإن «العلوق» لا يكاديدين «الزهرة»، بشيء ، أو إن شت يدين لها بشيء محدود المغاية ، لقد تغربت النظرية وتأسينت ، وفقدت تكلفها الواضع ، وتحذلها المغنث ، وماكان يقال في بغداد نثراً رقيقاً ، أو شعراً ملتقطاً ، أخذ ابن حزم يقوله في شاطبة ، دافئاً وإنسانياً ، عن نفسه وعن أصدقائه في قرطبة ، وأنت العاطفة دافئاً وإنسانياً ، عن نفسه وعن أصدقائه في قرطبة ، وأنت العاطفة واللهفة ، وهما خاصيتان إسبانيتان ، على أسوار التقليد التي تحول دون

تدفق النبع ، فارتووا من أعماقة ، ولكنهم مزجوه بدمائهم . إن الزمن لم يذهب عبثاً ! » .

إجمالا أنا مع غرسية غومث فها ذهب إليه ، لأن التقاء ابن سخرم ، كما سترى ، مع ابن داود فى أكثر من فكرة لايقلل من أصالته ، لأنة تناول الأمر على نحو مختلف تماماً ، وإن اتفقا فى رأس الموضوع وعنوانه .

أول ما نلحظ من اتفاق بينهما أن كلهما استجاب في تأليف كنابه لعاطفة دافعة ، ميل ودود عند ابن داود لشخص لم يصرح به ،وذكرالمؤرخون اسمه ، وشكا إليه عدم وجود ندم بأنس به في الحلوات ، وبجد عنده العزاء عن الناثبات ، يورد له الأخبار ويكتم عليه الأسرار ، فلما رأى ما به من غلبة الاشتياق ، ومن مبل إلى تعرف أحوال العشاق ، عزم على أن يوجه إليه نديما يشاهد به أحوال المتقدمين ، ويحضره أخبار الغائبين ، ينشط بنشاطه و على علاله، إن أدناه دنا ، وإن أقصاه نأى ، . وصداقة متينة عند ابن حزم ربطته بشخص من المرية لم يصرح باسمه ، ولم يحفظهَ لنا الناريخ ، لقيه فيها أيام أن هبطها لاجناً ، مهيض الجناخ وحيداً ، إلا من رفقة مواسية ، وما لبث أن لحق به ، بابن حزم حين ترك المرية إلى شاطبة، كتب إليه أولا، ثم شخص إليه ثانية : و فإن كتابك وردنى من مدينة المرية إلى مسكنى محضرة شاطبة ، تذكر من حسن حالك ما يسرنى ، وحمدت الله عز وجل عليه، واستدمته لك ، واستزدته فيك ، ثم ألبث أن اطلع على شخصك ، وقصدتني ينفسك ، على بعد الشقة ، وتنائى الديار ، وشحط المزار ، وطول المسافة ؛ وغول الطريق، وفي دون هذا ما سلى المشتاق، ونسى الذاكر؛ إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ؛ ورعى سالف الأذمة ، ووكيد المودات ، وحق الـشأة ، ومحبة الصبا ، وكانت مودته للـه تعالى ۥ . ﴿ وَكُلْفَتْنَى – أَعْزُكُ الله ـ أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا تنزيداً ولا مفننا ؛ لكن مووداً

لما يحضرنى على وجهة ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيا أذكره ، فبدرت إلى مرهوبك ، والولا الإنجاب لك لما تكلفته ، .

وكلاهما دافع عن نفسه في مواجهة اتهام بعض معاصريه له ، أن الكتابة في العشق أمر لا يلبق بأولى الفضل ، يرفع ابن داود في وجه ه معارضيه رأيه : و ونحن لو شنا أن نذكر من كناب الله جل وعز ، ومن أخبار المنقدمين من أنبيائه ، وأيضاً نخر من أوليائة ، ما يسهل سبيل الهسوى على من أنكرها ، ويتربها من فهم من لم ير أثرها ، من حيث لا يستوجب به من عاقل أنكار ، ولا يلحق بأحد من الأئمة فيه عار ، لرجرنا بإذن الله أن لا نقنصر عن ذلك . غر أن هذا الأمر ليس من أمور الدبانات التي لانثبت إلا بالاحتجاجات ، وإنما هوشيء نختص به قوم يرقة طبائمهم ، وتآلف أرواحهم ، فمن كان مثلهم فهو يعذرهم ، ومن خرج عن حدهم هان قوله ». ويرد ابن حزم على ناقديه : و وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفي لمثل هذا ، ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجانى عن وجهته ، وما أحل لأحد أن يظن في غر ما قصدته » .

وفيا يتعلق بلكر أسماء العشاق ، يتحرك ابن داود في نطاق ديني خالص ، فيرفض ما يلهج به الناس على أيامه من عشق الأبياء ، وأنهم كانوا من أتباع الهوى ، على حال لا يجوز أن يضاف مثانها إليهم، لأن و إذاعة تنك الأخبار على العامة وتشرها بين الناس خطأ ، فإن اله مة قاد تفهمها على غير وجهها ، وتستند إليها في التفريط والعصبان أو تغدمها موضع الإذكر ، والبيون عليهم السلام ، والصالحون من أتمة أهل لإسلام ، يجل مقدارهم عنأن تذكر العوام أخبارهم، فيضعوها في غير موضعها إن قبلوها ، أو يكذبوا حاكيها إن أنكروها ي . ولم يكن في حاجة لأن يوضع موقفه من غير هولاء ، لأنه لم يعرض لأحد من معاصريه ، إلا ما كان قصعما شائما ، يتناشده السهار . ويصدر ابن حزم في هذا

الجانب من منطلق رفيع ومتحضر ، يأخذ الشواهد مما رأى وسمع وحدث له ، ولكنه يلزم نفسه الكناية عن الأسماء ، « فهى إما عورة لا نستجنز كشفها ، وإنما محافظ فى ذلك صديقاً ودوداً ورجلا جليلا ، ومحسى أن أسمى من لا ضرر فى تسميته ، ولا يلحقنا والمسمى عيب فى ذكره ، إما لاشهار لا يغنى عنه الطى وترك التبيين ، وإما لرضا المخر عنه بظهور خبره ، وفلة إنكار منه لنقله » . ويرفض أن يقحم نفسه فى الحياة الحاصة لأمراء عصره ، « وإنما هو شىء كانوا ينفر دون به فى قصورهم مع عيالهم ، فلا ينبغى الإخبار به حبهم » ، لأن « حقوقهم على المسلمين واجبة ، وأنم فلا ينبغى الإخبار به حبهم » ، لأن « حقوقهم على المسلمين واجبة ، وأنم غيب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين » .

وقد يتفق العنوان عند الإثنين ومختلف المحتوى ، فكلا الإثنين ، ابن داود وابن حزم ، خص الرقيب بباب خاص ، ولكن شتان بين معالجة الإثنين ، الأول غرق في محتار أت من الشعر بعد محمسة سطور ، على حين عرض ابن حزم لأمر الرقيب في جوانبه المختلفة ، وقدم حايه شواهد من عصره ، ومحتار ات من شعره ، ولو أن حديثه أيضاً كان قصراً نسبياً .

والشيء نفسه يمكن أن يقال من و الرسول ، وهو السفير عند ابن حزم ، قدم ابن داود لهذا الباب بحكاية عن جميل ، يغلب عليها طابع القصة المخترعة ، دون أن يزيد شيئاً ، بيها تحدث ابن حزم عن دور السفير وهيئته وصفاته ، وما يجب أن يتحقق فيه من شرائط ليؤدى مهمته على أكل الوجوه ، وعدد من كانوا يقومون بهذه المهمة حرفة أو تطوعاً ، وكان فيه ، كالعادة، موفقاً يقف على أرض الواقع ، وتلحظ أن ابن حزم فرق بين الرسول ، وأسماه السفير ، وهو من يقوم بالمهمة بنفسه شخصياً ، وبين المراسلة وتم عن طريق تبادل الرسائل ، مما ينبى م بأن القراءة والكتابة كانت شائعة في الأندلس بين المرجال والنساء، وعند كل الطبقات ، ويبدو أنها لم تكن في بغداد على هذا المستوى ، لأن ابن داود لم يعرض فيبلو أنها لم تكن في بغداد على هذا المستوى ، لأن ابن داود لم يعرض طذا الضرب منها ، لا في باب و الرسول ، ولا في باب آخر مستقل بها .

وكلاهما أوقف على الوشاية باباً مستقلا . وكسره ابن داود على تلاثة أقسام : سعاية المتحابين إلى غير هما ، وسعاية المحب إلى محبوبه ، وسعاية المحبوب لمحبه ، وهي قسمة تأميح فها جانب المنطق الشكلي ، لأنها الصور العقلية للقضية ، دون أن يعني ذلك أن لها الطابع نفسه في واقع الحياة . وجعل التأثر بالوشاية على ضربين ، لأنه يختلف تبعاً لأحوال العشاق : و فالعشاق المتيمون لايقبلون قول الوشاة بللا يسمعونه، لأن الثقة منهم بأحباسهم ماحية لقول من وشي سهم. ﴿ وأما أهل الوله المتولمون فيقبلون مالاً يسمعون فَصْلَاهُمَا بِسَمَعُونَ ﴾ . وعرض ابن حزم للوشاية في حديث مستفيض ، قسمها من حيث الغاية على ضربين : واش يربد القطع بين المتحابين أذية، وثان يسعى للقطع بينهما لينفرد بالمحبوب ويستأثر به ، وألحق سهما ثالثًا يسعى مهما جميعاً : ويعرض لوسائل الواشي وألوانها تفصيلا ، في حديث طويليتناول فيه الكذب والغيمة ودورهما في إنساد المجتمع بعامة ، ويفرق بين الغيمة والنصح تفريقاً جميلا ، ومحمل عليهما بشدة ، ويستشهد على ما يقول بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأشعار له ، وأمثلة لما يعرف مما حدث في مجتمعه . فالبون شاسع بينهما لي هذا الباب أيضاً ، ولا يدين أديب قرطبة ولا يسطر و احد مما كتب لأفكار فقيه العراق .

ويلتقيان في موضوع الهجر ، واختار له ابن داود عنواناً مسجوحاً على عادته : « بعد القلوب على قرب المزار أشد من بعد اللديار من الديار» واختار له ابن حزم عنواناً موجزاً ، كلمة واحدة : « الهجر في قسمة عقلية الموضوع مختلف جداً ، فابن داود يجعل أضرب الهجر في قسمة عقلية أربعة : هجر ملال ، وهجر دلال ، وهجر مكافأة على الذنوب ، وهجر يوجبه البغض المتمكن في القلوب » : على حين يلتقظ ابن خزم مادته من حياة العشاق نفسها ، فيجعله : هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وهجر يوجبه التذلل ، وهجر يوجبه العتاب ، وهجر الملل ، وهجر القلي ، وهجر المفاء ، وقد التقيي ابن حزم مع ابن داود في أقسامه وزاد عليها ،

ولكنهما افترقا فيا هو أهم ، ألقى ابن داود بأقسامه الأربعة ثم مضى إلى ما استعذب من شعر غيره ، جرباً على عادته والتزاماً بمهجه ؛ أبياناً وراء أخرى ، دون تعليق منه ، وفصل ابن حزم القول فى كل قسم من هذه الأقسام ، عوارضه ونتائجه ووقعه فى القلب ، وضرب الشواهد من حياته نفسه ، ومن أحداث صحبه ، ووشاه بأبيات من شعره منشداً أو متذكراً .

واستشهد ابن حزم بالقرآن والحديث كثيراً: لأنه عرض للكذب والفجور والغدر والنميمة ، وأدانها بشدة، وأوقف باباً على «قبح المصية»، وآخر على « فضل التعفف » ، ومادة كليهما دينية ، تنهض على أساس من القرآن والسنة ، على حين لا تظهر في كتاب ابن داود ولا آية قرآنية واحدة، والحديث الوحيد الذي أورده: « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها التلف وما تناكر منها اختلف » ، ثلتقي به في « طوق الحمامة » أيضاً، وهو حديث نبوى متواتر بجرى على الألسنة دواماً ، ولا محتاج ابن حزم لأن ينقله من كتاب « الزهرة » ، أو محفظه عن طريقه .

وعلى النقيض من ذلك ، تجد الفلسنة اليونانية صدى أكر فى كناب ابن داود ، فقد كانت بغداد على أيامه موطاً لترجمة الفكر الإغريقى إلى اللغة العربية ، وتمتعت بغداد فى عصره مجرية فكرية أوسع بكثير مما تمتعت به قرطبة على أيام ابن حزم ، فكانت مسرحاً لآراء منظر فة وعنيفة فى شى المجالات ، دينية وفاسفية وسياسية ، ووجدت الفلسفة من الدولة رعاية وتشجيعاً ، على حين سيطر المذهب المالكي على عاصمة الحلافة فى الأندلس ، واقام دون الأفكار الأخرى صعاباً بليغة ، ولم تصبح الفلسفة أمراً محبباً ومرفوباً فيه ومتداولا بين عامة المفكرين ، الفلسفة أمراً محبباً ومرفوباً فيه ومتداولا بين عامة المفكرين ، ألا فى فترات محدودة ، وعلى نحو متواضع . ومن ثم تتردد فى كتاب الزهرة أسماء عدد من فلاسفة اليونان ، ينقل لنا عن بطليموس رأيه فى الصداقة والعداوة ، وعن جالينوس و أن المحبة فد تقع بين العاقلين من اب تشاكهما فى الحمق ، لأن العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ، لأن العقل العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ، لأن العقل العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ، لأن العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ، لأن العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ، لأن العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ، لأن العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ، لأن العقل ، ولا تقع بين الأحمة بين المقون المقون المية و علي المقل ، ولا تقع بين الأحمة بين المية علي المية و ال

بحرى على ترتيب فيجوز أن يتفق فيه على طريق واحد ، والحمق لا يجرى على ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين » . ويحكى عن أفلاطون قوله : « ما أدرى ما الهوى ، غير أنى أعلم أنه جنون إلاهى ، لا محموم ولا محمود » . وأخل على نحو جاد النفسير البالغ السخرية الذى وضعه أفلاطون على لسان أرستوفان لتفسير ظاهرة الحب، ولكن دون أن ينسبه إلى أفلاطون: دوزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً فجعل في كل جسد تصفاً، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه ، كان بيهما عشق المناسبة القدعة ، وتتفاوت أحوال الناص في ذلك على حسب رقة طبائعهم » للمناسبة القدعة ، وتتفاوت أحوال الناص في ذلك على حسب رقة طبائعهم » ونسب إلى بعض المتطبين ، دون أن يفصع من هم ، رأياً في « أن العشق طمع يتولد في القلب ، وتجتمع إليه مواد من الحرص ، فكلما قوى ازداد صاحبه في الاهتياج واللخاج وشدة القلق ، وكثرة الشهوة و و و و و النفاع ، ونقل هنا عن طبيب يوناني .

وكان ابن حزم أيضاعلى وعي بالفلسفة اليونانية ، واستخدمها على نحو أقل من ابن داود ، وصحح له ما نقل عها ، حين أخذ رأى أفلاطون في تفسير ظاهرة الحب ، فهو يرى و أنه اتصال بين أجزاء النفس المقسومة في هذه الحليقة في أصل عنصرها الرفيع ، لاعلى ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة ؛ الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوى ومجاورها في هيئة تركيها ، وأورد حكاية نسها إلى أفلاطون حين سجنه بعض الماوك ظلماً ، فلم يزل محتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، ثم محضى مع الحكاية إلى مايها ، يدعم بها رأيه في تفسير ظاهرة الحب ، ولم مهتد أحد إلى مصدر هذه الفقرة التي أوردها لنا ابن حزم . ثم نقل قول أبقراط الطبيب : وما أحبني أحد إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه ، وهذه الفقرة أيضاً لا ترد فيا بعن أيدينا من التراث بعض أخلاقه ، وهذه الفقرة أيضاً لا ترد فيا بعن أيدينا من التراث اليونا . ويستشهد بأفليمون صاحب الفراسة ، في أن العين باب إلى القلب ،

ومنا فذ نحو النفس ، وبجىء عنده بطليموس فى بيت من الشعر ، مؤداه : أو عاش بطليموس لشهد بمهارته فى رصد جرى الكنس . وكان ابن حزم فى كل هذه الحالات أصيلا فى ثقافته ، ولم ينقل عن ابن داود، ولا أفاد شيئاً ، وارتضى أن يصمحح له ما خالفه فيه .

و ممكن القول إحمالا ، أن ابن داود وابن حزم يتفقان في عدد من رءوس القضايا المتعلقة بالحب ، ولكن النبع الذي يصدران عنه مختلف جدا ، فابن داود متأثر بالصور المنطقية لكل قضية ، وبما قرأ أودر س حوله ، يأتى مها في أول الباب موجزة ، ثم يلحقها بما يناسبها من أشعار في حدود المئة بيت ، كما اختط لنفسه منذ البدء ، وغلب الشعر على كتاب «الزهرة» وقلت الأحبار فيه ، وحتى ما ورد به من حكايات فإنما هي قصص لمشاهير العشاق ، أخذت طابعاً شعبيا ، وخضعت لقواهد الأسطورة ،وكل حماعة تلونها عا هو أقرب إلى ذوقها ، فأنت معها لا تدرى أين تبدأ الحقيقة وأين ينهي الحيال ،مثل مجنون ليلي ،وأخبار جميل بثينة ، وكثير عزة، وعروة وعفراء ،وغيرهما . أما ابن حزم فيصدر عادةعن تجربته الذاتية، أوتجارب معاصريه التي شهدها أو عرفها ، و ربما تجد في « الطوق » صدى قراءات بعيدة ، في ثقافات مختلفة ، ولكنها خافتة ، وتأتى ممتزجة بتربةالأندلس، ومن خلالعادات أهله وحيائهم وتقاليدهم . فكتاب ابن داود مجموعة رائعة من شعر الغزل ، لاتنتمي إلى عصره ، وإنما تعود إلى شعراء عاشوا قبله بقرن أو قرنين من الزمان ، صنفها على أبواب ارتضاها ، دون أن تعكس في شيء نبض المجتمع حيث يعيش الحب واقعاً ،أماكتاب «طوق الحمامة» فلقطات واقعية لحركة مؤلفه، والذين حوله، في مجالات العاطفة؛ حبة ودافئة ، وتنضح إنسانية فى كل جوانها .

وهناك آخرون عاصروا ابن داود ، وبالتالى سبقوا ابن حزم ، وعرضوا لموضوع الحب أيضاً ، وهم : أديب ، وشاعر ، وجماعة » أما الأديب ﴿ فهو: محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء، أبو الطيب (١٩٣٠ - ٩٣٢ م) في كتابه « الموشى»، وشهر باسم: و الظرف والظرفاء»، ولن أقف عنده هنا، لأن المستشرق الإسباني فرسية غومث عرض له في دراسة ترجمها، وضمنها هذا اللكتاب، وجاءت فيه تحت عنوان: «كتاب سبق طوق الحمامة، وآخر جاء معده »، وفيها الغناء، أو إن شثت ليس عندى ما أضمته إلها الآن.

و ما المانى فيه الشاعر العامى الشهير : أبو العباس بن المعتر المعتر المدهم)، وولد في بيت ملك ، وتفيأ أعجاد الحلافة، وربى في بدعة النعيم وموطن الجلالة ، فلشأ نبيل النفس، دقيق الحس، قوى لشعور بالجمال، ولوعاً بالأدب والموسيتي ، شغله الأدب والمطرب واللعب عن دسائس القصر، ومطامع الحكم، فلما ولى المقتدر ابن همه ٢٩٥هم مرم م، وترك تدبير الحكم وأمور السياسة لأمه ومن حوظا من النساء والحصيان، التف الحانقون حول ابن المعتز هخاهوا المقتدر وبايعوه، فما تبوأ الحلافة غير يوم وليلة ، لأن أعوان المقتدر لم يستسلموا، وحاربوا خصومهم وقهروهم، وأعادوا المقتدر إلى عرشه، واختفى ابن المعتز في دار ابن الحصيص التاجر الحوهرى، ولمكن أعوان المقتدر مرعان ما اهتدوا إليه واعتقلوه، ودفعه المقتدر إلى مؤنس الحازن فخنقه وسلمه إلى أهله واعتقلوه، ودفعه المقتدر إلى مؤنس الحازن فخنقه وسلمه إلى أهله واعتقلوه، ودفعه المقتدر إلى مؤنس الحازن فخنقه وسلمه إلى أهله والمه في كساء.

كان ابن المعتز شاهراً رقيق اللفظ ، سهل العبارة ، بليغ الاستعارة ، رائع النشيه ، بريئاً من كذب المدح وذم الهجاء ؛ ويعكس فى شعره ماكان يسمم به من ترف العيش ، ورفاهية النشأة ، وتتجلى فيه معاوفه انواسعة من فلك وتنجيم وفلسفة ، وقد أمعن فى اتباع مذاهب القدماء فى الشعر ، ولكنه تأثر مخطى أن تواس إلى حد بعيد ، وبرع فى وصف الطبيعة ، ومطاردة الصيد ، ومراسلة الإخوان ، وإلى جانب الشعر له مؤلفات أخرى هى : البديع ، والجوارح والصيد ، وأشعار الملوك ، مؤلفات أخرى هى : البديع ، والجوارح والصيد ، وأشعار الملوك ،

وطبقات الشعراء ، والزهر والرياض ، وكتباً أخرى ضائعة ويذكم الأستاذ هلال ناجى ، نقلا عن المدكتور صلاح المنجد ، أن له كتاباً و في العشق ، ، توجد مخطوطته فى مكتبة طشقند فى الاتحاد السوفيتى ، ولاأعرف مصدراً آخر من الدارسين أو فهارس المولفين أو المكتبات أشار إليها ، وأجهل محتواها تماماً ، وأتصور أن فيها ما يفيد البحث ، وبضيف الى سلسلة الكتب للتى تدرس الحب جديداً ، وتلقى أضواء كاشفة على طبقته ، وعلى ما بين أيدينا من مصادر أخرى ،

وفى غيبة النص لا عكن القطع ، أو حتى الترجيح ، بأن ابن حزم قد قرأ الرسالة وتأثر بها ، ولكننا نعرف على وجه اليقين أن ابن المعتزكان معروفا في الأندلس ، ومعروفا لابن حزم مخاصة ، عرض له في رسالته و فضائل أهل الأندلس » ، حين وازن بينه وبين الشاعر الطلبق : وأبو عبدالملك هذا في بني أمية ، كابن المعتز في بني العباس ، ملاحة شعر وحسن تشبيه » . وكان في تراث ابن المعتز ، و في حياته ، الكثير مما يعجب به ابن حزم ومحوص عليه ، وأقف بالاحتمال عند هذا القدر ، إلى أن يتاح لى أن أقف على رسالة ابن المعتز و في العشق ، أو أقرأ عنها ما يعين على البقين ،

وأما الجماعة فإخوان الصفا ، وهي مدرسة فلسفية ازدهرت في البصرة قريباً من بهاية القرن العاشر ، حوالي عام ٩٧٠ م ، وتميل إلى الفيشاغورية ، وكان لهم فرع في بغداد ، ولم يكونوا جماعة فلسفية فحسب ، وإنما لهم ميول سياسية ودينية ، ذات ميول شيعية متطرفة ، ربما كانت إسماعيلية ، وتشكلت من هددمن كبار العاماء والفلاسفة هالهم ضعف الخلافة ، وفساد الاخلاق ، وفقر الشعب ، فحاولوا تجديد السياسة والأخلاق عن طريق الانفتاح الثقافي ، لأن الحقيقة تتضبع وتزدهر في لقائها وصراعها مع الأفكار الأخرى ، فإذا ما عزلت ؛ أو انعزلت ، تطرق إليها الوهن والعفن والفساد ، وكانوا يتناولون في حرية كاملة كل القضايا الحوهرية ، ويرمون إلى إسقاط الحكم القائم على أيامهم عن طريق تربية الشعب عقلياً ودينياً ، وفي هذا

ما يفسر الغموض للذي أحاط بالأعضاء ونشاطهم و

كتب إخوان الصفا مجموعة من الرسائل مرتبة على غرار الموسوعات ، وبعض المقالات مليل بأسماء غير معروفة ، وتبلغ عدتها اثبتين وخمسين رسالة ، تعالج الرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقي والاخلاق والفاسفة ، وشخم كل المعلومات رالمعارف التي يتطلب عصرهم من الرجل المثقف أن يأم بها . وقد خصصوا الرسائة السابعة والثلاثين ، وهي السادسة بين مجموعة الرسائل الخاصة بالعلوم المطبيعية وعلم النفرس ، وفيها عرضوا للعشق ، وعية المنفوس ، والمرض الإلمي . وأوردوا طرفاً مما قالت الحكماء والفلاسفة في ماهية العشق وكمية أنواهه ، وكيفية نشوئه ومبدئة وعلله الموجبة له ، والأسباب الداعية إليه ، والغرض الأقصى منه ، وو تقوا عند الحكماء اللهن وعناء الحكماء اللهن وعناء الحكماء اللهن وعناء الحكماء اللهن وعناء الحكماء اللهن قضيلة نفسية فمدحوه ، وذكروا محاسن وعناء الحكماء اللهن قالوا إن العشق فضيلة نفسية فمدحوه ، وذكروا محاسن أهله ، وزينوا أسبابه ، وعند أولئاك المدين لم يقفوا عند أسراره وعلله وأسبابه ، وحقائقها ودقة معانيها ، فزعرا أنه مرض نفسي ، أو جنون وأسبابه ، وحدائقها ودقة معانيها ، فزعرا أنه مرض نفسي ، أو جنون علمه ، أو همة تفس فارغة ، أو فعل المتبطلين لا شاغل لهم ، وقدردت الرمالة على هؤلاء جميعاً :

« ولعمرى إن العشق يترك النفس فارغة من جميع الهم يلاهم المعشوق، وكثرة الله كر اله ، والفكرة في أمره ، وهيجان الفواه؛ والواهبه وبأسبابه ، ولكن ذلك من فعل البطالين الفراغ ،كما زعم من لاخبرة له بالأمورالجقية، ولكن ذلك من فعل البطالين الفراغ ،كما زعم من لاخبرة له بالأمورالجقية، والأسرار اللطيفة، ولايعرف من الأمور إلا ،المجلى الحواس وظهر للمشاعرة وأما الذي بدرك منها بصفاء الملهن ، وجودة التسييز ، وكثرة الفكر، وشدة البحث ، ودقة النظر ، فهم بمعزل ، وذلك أن الدين زعموا أن العشق هو مرض نفساني ، أو قالوا إن حنين إلهي ، فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا مايعرض للعشاق من سهر الليل ، ونحول الحسم ، وغؤور العيون ، وتواثر النبض ، و الأنفاض الصعداء ، مثل ما يعرض العمرضي ، فغايرا أنه مرض نفساني ، و الأنفاض الصعداء ، مثل ما يعرض العمرضي ، فغايرا أنه مرض نفساني به و الأنفاض الصعداء ، مثل ما يعرض العمرضي ، فغايرا أنه مرض نفساني به و الأنفاض الصعداء ، مثل ما يعرض العمرضي ، فغايرا أنه مرض نفساني به و الأنفاض الصعداء ، مثل ما يعرض العمرضي ، فغايرا أنه مرض نفساني به و الأنفاض الصعداء ، مثل ما يعرض العمرضي ، فغايرا أنه مرض نفساني به و الأنفاض الصعداء ، مثل ما يعرض العمرضي ، فغايرا أنه مرض نفساني به و الأنفاض الصعداء ، مثل ما يعرض العمرضي ، فغايرا أنه مرض نفساني به و الأنفاض الصعداء ، مثل ما يعرض العمرضي ، فغايرا أنه مرض نفساني به و الأنفاض المناه ا

و وأما الدين زعموا أنه جنون إلهي فإنما قالوه من أجل أنهم لم مجدوا لهم . دواء يعالجونه ، ولا شربة يسقونها إياهم ، فيبرؤون مما هم فيسه من المحنة والبلوى ، إلا الدعاء لله بالصلاة والصدقةو القرابين في الهياكل ورقى الكهنة ، ما شاكل ذلك ، كما حكى العاشق بقراء ، وهو عروة بن حزام قنيل الحب :

بدلت لعراف اليمامة حكمه فقالا : شفاك الله والله مالنا عسا ضمنت منك الضلوع يدان 11

وعراف نجد ، إن هما شفياني ﴿ فَمَا تُرَكَّا مِنْ سَلُوةً يُعْرِفَانُهَا ۗ وَلَا رَقِّيةً لِمَا يَهَا رَقِّيانِي

وكان أخوان الصفا ، فها يبدو ، عيلون في تفسر ظاهرة العشق إلى أنه هوى غالب في النفس ، نحو طبع مشاكل في الحسد ، أو نحو صورة مماثلة في الجنس ، وربما كان هذا التفسير دليلا تؤكده شدة الشوق إلى الاتحاد ، وامتزاج الروخ بالروح ، كما قال ابن الرومي :

كأن فوادى ليس يشفى غليله سوىأن يرى الروحين بمتزجان

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها ، وهل بعد العناق تدانى وألم فاهاكي تزول صبابتي فيزداد ما ألقى من الهيمان

وأفاضت الرسالة في تأكيد هذا الوجه ، وتعرف أسبابه منذ يبدأ نظرة عجلة، أو التفاتة صريعة، إلى أن يصبح تفانياً ، وتحدثت عن الاشتياق والهيام ، وأن كل محب لشيُّ من الأشياء مشتاق إليه ، هائم به ، وأنه منى وصل إليه ، ونال من يهواه منه ، وبلغ حاجته من الاستمتاع به ، والتلذذ بقربه ، فإنه لابد يوماً من أن يفارقه أو بمله أو يتغبر عليه ، وتذهب تلك الحلاوة ، وتتلاشى تلك البشاشة، وغمه لهيب الاشتياق، إلا الحبين لله تعالى من المؤمنين ومن عباده الصالحين ﴿ وَهُنَا تَعْرُضُ ۚ الرَّسَالَةُ لِلْعَشَّقِ الصَّوْفِي ﴾ والغاية من وجود للعشق في جبلة النفوس و محبَّما الأجساد، استحسانها الها، وتفسره بأنه تنبيه النفوس من نوم الغفلة ، ورقدة الحهالة ، ورياضة لها ، وتعريج بها ،

وترقمية من الأمور الجسمانية الحسوسة إلى اكمور النفسية المعقولة ،

وتدال الرسالة على ماذهبت إليه من خلال نموذج كشف فيه من المانين والنافر من وتنحسر لنا ظاهرة تنسية واضحة طابا تحدث عبا الشهراء ، ووقدرا حيالها ملهولين ، وشغلت حيراً واضحاً بن الأدب البربي ، فتشير إلى معرفة من عشق يوها من أيام عمره الشخص من الاشخص ، ثم تسلى عنه أو فقده او تغير عليه ، ثم إنه وجده من بعد ، وفا من اخبر عما كان عليه وعهده من الحسن والجمال ، وتلك الزينة والمحاسن المنى رآما على ظاهر جسمه ، فإنه متى رجع عند ذلك ، فنظر إلى تلك الرسوم والصور التي هي باقية في نفسه منذ العهد القديم ، وجدها محالها من فلم تتغير ، وتم تتبدل ، ورآها برمها ، فتشاهد النفس في ذاتها حيثة من نلك المحاسن والصور والرسوم والأصباع ماكانت من قبل تراها على غير تغير ، وتجد في جوهرها ماكانت قبل ذلك تطلبه خارجاً عنها ، فعند ذلك غير تغير ، وتجد في جوهرها ماكانت قبل ذلك تطلبه خارجاً عنها ، فعند ذلك تغير اها على ذاك الشخص ، وهواليوم يراها منقوشة في نفسه ، مرسومة في خانه ، باقية لم تنغير ،

و الرسالة على الرخم من صغرها تثير جوانب كثيرة من المسائل المتعلقة بالعشق، ونظرة الناس إلبه، وقد حاولت تقديم الدراسة النفسية العميقة لتعليل المظاهرة من خلال النقافة التي كان العصر يزخر بها، وقد حددت معلم كل اتجاه من الاتجاهات وفق الصورة التي تراها، وفي محاولة الرد على هذه الاتجاهات حددت النظرة العملية، وأكد إخوان الصفا على الجانب الاجهاعي الحب، واهتدوا إلبه منخلال استيعاب ظواهره، نفسية واجهاعية ودينبة وفلسفية وحسية، وحاولوا تفسيره وربطه بالفكر الإسلامي، منخلال منهم وحده، دون أن يعرضه والرأى الآخرين فيه، من خلال كناباتهم ومؤلفاتهم.

ومن المهم أن نشير إلى أنهم وقفوا بدراسهم عند نزعة الحبءوالأسمن

النظرية التى تقوم عليها هذه النزعة ، ولم يعرضوا المجانب الأدبى منها ، ومع ذلك كان لهم دورهم الواضح في توجيه الأذهان نحو الحب العذرى ، رجمامن حيث لا يشاءون ، فنحن تعرفأن أبا حيان التوحيدى (تـ ١٠٢٣هـ ١٠٤٠م) وكان تلميذاً للجماعة ، وإن لم يكن عضواً نشطاً فيها ، يعزو التدهور في أيامه ، وما لحق الناص من غلبة الشهوات المادية على تفومهم ، إلى انصرافهم عن مذهب الهدو في العشق ، أو ماندعوه الآن بالحب العذرى ،

دخلت ر سائل أخو ان العالم أف الأنداس ، على يد للعالم الرياضي مسلمة المحريطي ، أبو القاسم ، المتوفى عام ٣٩٧ هـــ ١٠٠٧ م ، إثر عو دته من رحلة دراسية قام بها في المشرق ، ولهذا يذكر في بعض الخطوطات على أنه مصنفها ، والحق أنه اختصرها ، وتوجد مخطوطة لمختصره في مكتبة الإسكوريال: وكان مسلمة معاصراً لابن حزم ، وأورد عنه خبراًعاطفياً برواية أبي دلف الوراق ، ولعته بالفياسوف المعروف، وماأشك في أن ابن حزم قرأ رسائل أخوان الصفا التي حمالها مسلمة ؛ وأرجح أنهاكانت وراء اختياره و طوق الحمامة ، عنوانا لتكابه ، ذلك أن إخران الصفا ، فها يرى الباحثون ، أخذو ا اسمهم من باب « الحمامة المطوقة » في كليلة ودمنة ، حيث يطاب دبشلم الملك من بيدبا الفياسوف أن محدثه ، إن رأى ، ﴿ عَن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ، ويستمتع بعضهم ببعض ، ، فليس ببعيد أن يكون ابن حزم استلهم عنوانه من هذا الباب أيضاً ، متأثراً بكليلة ودمنة مباشرة ، أو عن طربق ﴿ إخوان الصفا ﴾ ، والباب يدور حول مايصنعه الود في إنقاذ من التقوا على الحب في لحظات الحرج والضيق ، وكدلك عكن القول أن فلمفتهم أعانت ابن حزم فى تكوين نظرته الفلسفية عن ظاهرة الحب وتفسير ها ، دون أن تتجاوزها إلى تأثيراته في الحياة ، وجوانبه وظواهره ، وفي أمثلته وشواهده ؛ فقد جاءت هذه في كتاب الطوق ذاتية مصفاة ، وأندلسية خالصة .

ویاتی این سینا (۹۸۰ – ۱۰۳۷ م) بعله هوگاه ، وقند جاء بعله ابن داود وقبل ابن حزم ، وهو أشهر شخصية في عالم اللمبالمري، بعدالر ازي ، ويسميه العرب الشيخ الرئيس ، وفيه تجمعت عانة عالىم عربية ، فكان طبيباً وفيلسوفاً ولغوياً وشاعراً ، وتبلغ سِملة مؤلفاته ٩٩ كتابا ، بينها عدد من الرسائل أو الكتب الصغيرة ، وكان رائداً عظيما بلغ الغاية ، ولم يكن ماقدمه اللاتينيون بعده بقرنين من الزمان على أنه الفلسفة ﴿ المدرسية ﴾ إلا موجزًا لما اتتهى إليه في فلسفته و ماوراء الطبيعة ، و كناباه : « الشفاء ، و و القانون ، ممثلان الآن فروة الفكر في العصر الوسيط ، ويشكلان فيا يقول المستشرق هفرنسي جاك س ، ويسلر ه محاولة من أعظم المحاولات الموسوعية في تاريخ الحضارات ، و بهمنا من بين كل مؤلفاته هنا رسالته ﴿ في العشق ، ، وهي أقل كمنيه شيوعاً واعتناء من الدارسين في العالم العربي ، على حين أنها تجد في الغرب عناية أكبر ، وقد ذهب الأب إسكندر دينو مي أخبراً ، وهو يبحث عن الأصول العربية للحب العنيف في الغرب بعامة ، وعند شعراء التروبادور نخاصة ، إلى أن هذه الأصول بجب البحث عنها في الملسفة العربية ، وبالدَّة، عند ابن سينا في رسالته : ﴿ فِي العشق ، ، فقد ﴿ أَعْطَى للحب البشرى، أي لعشق النوى الحين انبة ، دوراً إنجابياً ، يسهم به في توجه النفس نحو الحب الإلهي والاتحاد سم الله ي . أى أن ابن سينا تغلب على الهرة التي تفصل نشاط النفس الحبواني عن نشاط النفس الناطقة في الإنسان ، وبلمالك استطاع أن يصل بين طرفي الحب الطبيعي والروحي ، وبالملك ﴿ أَعْطَى لَلْنَفْسِ دُورًا مِنَ الْمُشَارِكَةُ مَعَ النَّمْسِ النَّاطَقَةِ الْعَاقَلَةِ فَجعل حب الحمال الظاهري ، أي الحب الحنسي ، هوناً في الاقراب من الإله ، فإذا انضمت النفس الحيوانية إلى النطانة اكتسبت من انحادها هذا بتلك الفوة السامية سمرًا و شرفاً » . ومن ثم تعتمل السرجة الحلقية في الحب ـ الإنساني على مدى مانسين به الإنسان اللاتحاد بالحير المطاني . يقول ابن سينا : ١ ومهما أحب الصورة المايحة باعتبار عقلي ، هلي ماأبرضمحذه ،علم

: ذلك وسيلة إلى الرفعة والتناهي في الخيرية ، لو لو هه بما هو أقرب في التأثير من المؤثر الأول والمعشوق المحض ، وأشبه بالأمور العالية الشريفة » :

و و و اضح من هذا أن تفكير ابن سينا لا يتناول من الخصائص الأوبع المعبيف ، تناولا مباشراً ، إلا الفول بأنه قوة تسمو بالنفس ، مع أننا لو تدبعنا فكرة و الحب من أجل الحب، و إعلاء شأن المحبوبة ، لو جدناهما متوفر تين في الأدب العربي ، لا في الفلسفة العربية ، منذ قر نين أو أكثر قبل ابن سيناً . أما القول بأن الحب رغبة لاير جي لها أن تتحقى، فإنه موجو د ضمنا في الشعر وإن لم يصنعه الشعراء فكرة أو بجعلوا منه مبدأ . وهو أيضاً ينطوى في الفكرة التي ترى أن و الرغبة ، قوة دافعة لتطهير النفس وصعودها نحو الإله ، تلك الفكرة التي تمثل محور فلسفة الأخلاق في الأفلاطونية الحديثة ، فإذا تحدث ابن سينا عن الحب الأرضى ونسب إليه أثراً خلقياً ، ولا أقول شيباً ، فإنا لانبعد عن الصواب إذا رأينا في اتجاهه هذا توسيعا في فكرة اشتباق النفس منذ الأزل ، و ممثل حاجبها إلى أن تصعد من خلال النكيف الروحاني في مراتب الرجود ، وتناًى عن موضعها الغامض في هذه الحياة إلى النامل المستمر في الواحد أو في الوجود ذاته » (1) .

وواضح من هذا أن تفكير ابن سينا لايتناول من الحصائص الأربع للحب العنيف تناولا مباشرا ، إلا القول بأنه قوة تسمو بالنفس ، وليس في رسالته : « في العشق ، مايوحي بأنه يقيم أساساً فلسفياً للحب العذري ، وليس وليس فيها شاهد واحد على أنه كان بوجه نظره إلى الأدب، بل إن الإحكام الدقيق في حرض آرائه ينبيء بأنه كان بطبق مبدأه العام في النفس وأجزائها على مشكة أو ظاهرة بعيبا ، وبحاول أن يجد لها مكانها الصحيح في نظامه الفلسفي ، وهو في كل الرسالة يعالج مبادي، حالها على نحو أكمل في الفلسفي ، وهو في كل الرسالة يعالج مبادي، حالها على نحو أكمل في الفلسفي ، وهو في كل الرسالة يعالج مبادي، حالها على نحو أكمل في الفلسفي ، وهو في كل الرسالة يعالج

١ -- جوستاف فون جرنباوم ، دراسات في الأدب العربي ، ص ٨٣ وما بعدها ،
 ترجمة إحسان عباس وآخرين .

مؤلفات أخرى . والحق أن الحب فى ذاته لايمثل نقطة انطلاق فى تفكيره ، وحين يعرض له لايتناول صورة نزعة الحب فى الأدب ، ولكن دراسته وحين يعرض له لايتناول صورة نزعة الحب فى الأدب ، ولكن دراسته وتقدم من بعض الوجوه الأسس النظرية التى تقوم عليهاهذه النزعة الإنسانية ،

كان ابن سينا معاصراً لابن حزم ، وأسبق منه بسنوات ، وأقطع بأن العالم القرطبي لم يكن عرف رسالة ابن سينا و في العشق ، حين حرر كتابه وطوق الحمامة » ، حتى لو افترضنا أن ابن سينا حرر رسالته في بدء حباته ، وهو افتراض مشكوك فيه إلى حد كبير .

● ※ ●

تلك هى الكتب التى عرضت لمو، ضوع الحب قبل ابن حرم ، لا يعرض الأديب القرطبي لأى منها في كنابه ، غير إشارة جاءت في مقام التصحيح لابن داود ، وبقيبها ربما كانت ... قرأ وتمثل ، ومن المحتمل أنها تركت شيئاً في أعماقه ، ولكنه في كل الحالات كان سيد قضيته وموضوعه ، لا يستلهم شيئاً غير فكره الحالص ، وأحاسيسه الذاتية ، وتجاربه الشخصية . وقبل أن نتابع دور الطوق في كتب الحب ، سابقاً وموثراً في هذه المرة ، أدع الفرصة للمستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث ليحدثنا بدوره عن كتابن ، سبق أولهما ابن حزم وجاء الثاني بعده ...

كتاب سبق طو ق الحمامة وكتاب جاء بعده

المستشرق الإسبان ؛ إميليو غرسية غومث و من عجلة الأندلس ، المجلد ١٦،٦، سنة ١٩٥١، ص ٢٠٩-٣٣٠

_ 1 _

كتاب الموشى للوشاء(١)

عدث أحياناً في مجال الأدب العربي أن المؤلفات الأشد انزواء ، هي التي تأخد طريقها إلى النشر قبل فيرها ، وتفسير هذا المتناقض الظاهرى والطريف أن الاستعراب علم حديث النشأة نسبيا ، وأن حجم الكتب المخطوطة غير المنشورة مازال يتجاوز الحصر ، ومن ثم اتجه اههام المختصين إلى المخطوطات ، وابتعدوا عن الكتب المطبوعة ، إلا في حالات نادرة تعود إلى أهميتها أو طابعها العملي ، لأن هذه ، على النقيض من تلك ، لاتقدم الصورة المثيرة لأمركن مجهولا ، ولاشيء غير هذا يفسر لنا الظلام النسبي الذي المثرة لأمركن مجهولا ، ولاشيء غير هذا يفسر لنا الظلام النسبي الذي المثن كتاب والموشي ، لأبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ، وعاش تقريباً بين ٨٦٠ و ٩٣٦ م ، على الرغم من أنه طبع في ليدن بهولندة ، في مطبعة بريلء الم ١٨٨١ م ، بتحقيق رودولف أ. برونوف R. E. Brünnow في مطبعة بريلء المهم مرتان في المشرق ، إحداهما في القاهرة عام ١٣٢٤ ه ، في مطبعة التقدم ، بعنو ان : كتاب الظرف والظرفاء ، (٢) ، والملاحظات

⁽۱) القسم الأول من هذا المقال ترجم إلى الفرنسية بعنوان ؛ المصادر الشرقية لكتاب طوق الحمامة لابن حزم القرطبي : كتاب الموشى للوشاء ، وقرىء فى الجلسة التى عقدت فى يوم ١٧ سبتمبر ١٩٥١ ، فى المؤتمر الدولى المستشرقين الثانى والعشرين ، وقد اجتمع فى اسطنبول، خلال الأيام من ١٥ إلى ٢٢ سبتمر ١٩٥١ .

 ⁽۲) أنظر : مقدمة برونوف - وبروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ج ۱ ص ۱۲٤ هـ
 والملحق ج ۱ ص ۱۲٤ ، وإحالانه على : ابن الندم ، وابن الأنبارى ، وياقوت ، والسيوطى،
 وفلوجل ، وفوستنفلد .

التالية تنور حول الموازنة بين هذا الكتاب وكتاب آخر استفاد منه ، وكان هذا ، على العكس من الأول ، قد نال شهرة مستفيضة ، بلغت قدراً لايناقش، وهو كتاب وطوق الحمامة ، لاين حزم القرطبي (٩٩٤-٩٣-١٩م)، ويعتبر حجر الزاوية في موضوع تأثير الأدب العربي في الأدب الأوربي ، وكتاب قمة في الأدب الأندلسي ، وقد در من وصحح مراراً ، وطبع نصه أربع مرات (٠) ، وترجم حتى الآن إلى اللغات : الإنجليزية والروسية والألمانية والإبطالية والفرنسية (١).

وقى مقدمة ترجمة سادسة للطوق ، إسبانية فى هذه المرة . وقد أنهيتها وتظهر هذا العام (٢) ، حاولت أن أضع كناب ابن حزم الشهير فى مكانه بن بقية الكنب المماثلة، وهو يمثل فيا أرى ، إلى جانب كنابات أبي عامر ابن شهيد (١٩٣٧– ١٠٣٥م) ، خير ما أبدعت المدرسة الأدببة التي يمثلانها ، وتنتسب إلى عالم الحلافة الأموية فى قرطبة ، ذلك أن التوهج الأدبى بجيء على المدوام متأخراً بالنسبة إلى التوهج السياسي ، توهج سرعان ما انطفاً لانتثار عقد الحلافة سريعاً ، وعلى غير توقع ، وإذا بدا لنا أن نحدد فى إبجاز عجل علامع هذه المدرسة أمكن أن نقول إنها :

- أرستقراطية الحياة ، تطابق الاتجاهات الفكرية الجديدة للنظام القائم ،
- عربية الولاء ، أى أنها لانلقى بالا إلى حياة المستعربين أو ثقافتهم ،
 أو حتى مجرد الاهمام بالحياة الشعبية .
- قومية الانجاه ، على الرغم من ولائها العربي ، وتمكنها من الأدب

⁽۱) توجد ترجمة وأنية لابن حزم ، بقدر ماسمحت لى المراجع التي بين يدى ، يمكن الراجع التي بين يدى ، يمكن الرجوع إليها في المفترة التالية .

 ⁽٣) طوق الحمامة في الألفة و الألاف ، لان حزم القرطي ، ترجمة إميليو غرسية غومث ،
 سي النص الدري ، مدريد ، جمعية الإبحاث والنشر ١٩٥١ .

و بلغت طبعات النص في الثانة المرابية حتى أدبابة على السطور إحدى عشرة طبعة فيما أعلم ،
 أدقها وأرقاحا الطبعة التي صدرت عن دار المعارف ، انقاطرة ٥ ٩٩٠ .

العربي المشرقي ، مجاراة لموقف الأسرة الأموية في إسبانيا في مواجههم للعباسيين ، أي أنها تحاول أن تجاني النماذج المشرقية وأن تنافسها .

م عصرية الطموح ، تهم بالإنسان ، وقل ما تعنى بالكتب ، ربما أسبب تسرب الروح الغربي إليها ، أى أنها تنهض على مزاج الكاتب أكثر مما تقوم على ثقافته الواسعة ، أو تمكنه من قواعد اللغة ، وتحاول أن نهرب من الرذيلة المشرقية ، في الاعتماد الدائم على المؤلفات السابقة .

وهذه الملامح الأربعة بمكن أن تلنقي بها كلها ، فيا أعتقد ، عر صفحات طوق الحمامة ، والملمحان الأخيران على الأقل تجدهما واضحين وموجزين في تلك الحماة الشهيرة التي جاءت في آخر المقدمة : « دعي من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا . وقد كثرت الأخبار عهم ، وما مذهبي أن أنضى مطية سواى ، ولا أنحلي يحلي مستعار » . والواقع أن ابن حزم قص علينا في كتابه الشهير ، كما نعرف ، تجاربه الذاتية ، وتجارب أصدقائه ، وشخصيات أخرى سبقته ، وكلهم في كثرتهم الغالبة أندلسيون . وفيا خلا الأحاديث النبوية ، والنصوص الدينية ، وبعض الأمثال ، وقليل من الإشارات العارضة ، لم يذكر في مصادره غير كتاب واحد : كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني (٨٦٨ — ٩١٠ م)(١) ، وجاء به في الحقيقة في عال تصحيح ما فهم المؤلف المشرق من فقرة النقطها من حديث أفلاطون عن الحب و الحمال في محاورة « المسأدية » المحب و الحمال في محاورة « المسأدية » لدو الحمال في محاورة « المسأدية » لم الحب و الحمال في محاورة « المسأدية » لم الحب و الحمال في محاورة « المسأدية » لم الحب و الحمال في محاورة « المسأدية » لم الحب و الحمال في محاورة « المسأدية » لم الحب و الحمال في محاورة « المسأدية » لم الحب و الحمال في محاورة « المسأدية » لم الحب و الحمال في عاورة « المسأدية » لم الحب و الحمال في عاورة « المسأدية » لم الحب و الحمال في عاورة « المسأدية » لم المهم المؤلف المنار » و المسأدية » لم المون عن الحب و الحمال في عاورة « المسأدية » لم المون عن الحب و الحمال في عاورة « المسأدية » المورة « المراب » والمورة « المسأدية » المورة « المورة » المورة » المورة « المورة » المورة « المورة » المورة » المورة » المورة « المورة » الم

⁽۱) نشرة النصف الأول من هذا الدكتاب الشهيم ، واسترعى اهتهام ماسينيون بقوة في كتابه : محنة الحلاج (۱۹۲۲) ، لويس نيكل ، بمساعدة إبراهيم طوقان ، عام ۱۹۳۲ ضمن السلسلة التي تنشرها جامعة شيكاغو ، وعن مخطوطات النصف الثانى ، ولما يزل مخطوطاً، أنظر : مجلد الأندلس – المجلد ٤ ، عام ۱۹۳۹ – ۱۹۳۹ ، ص ۱۹۷ – ۱۵۵ .

نشرت وزارة الإعلام العراقية النصف الثانى من السكتاب ، في سلسلة اكتب التواث به يتحقيق ابراهيم السامرائى ونورى حودى القيسى ، بنداد عام ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م
 نجمقيق ابراهيم السامرائى ونورى حودى القيسى ، بنداد عام ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

ويكن الظن بدءاً أن كتاب الزهرة مصدر مباشر لطوق الحمامة ، فهو أى كتاب الزهرة ، يدور حول الحب أيضاً ، اوكان معروفاً جيداً فى ، إسبانيا ، بل وهناك من قلده فى زمن الحبكم النابى(١) ، وموافقه ظاهرى ، ابن موسس هذا الملهب، وقله أنحاز إليه ابن حزم خائباً . ولسكن الواقع أن ما هو مشترك بين السكتابين قليل جدا. فالسكتاب المشرق محتارات من شعرالغزل محاصة ، بين السكتابين قليل جدا. فالسكتاب بصلة ، هلى حين أن السكتاب الأندلسي لا تحت إلى موافق السكتاب بصلة ، هلى حين أن السكتاب الأندلسي دراسة نفسية ، ذات حواش فلسفية ، والسكتاب الأول طافح بالصناعة المعتازة ، والتحدلقات الحناة ، ويتميز الثاني بأنه طبيعي وإنساني ، مباشر وداني ،

هل يمكن القول إذن أن وطوق الحمامة ، عمل أصيل بكامله ؟ . لا ، على التأكيد . ليس ثمة عمل أدبي يفتقد السوابق واللواحق ، ولوكان جرد الدبال الذي تولد منه ، وفيا عدا ذلك يؤكد لنا أبن حزم أنه ترك جانباً و أخبار الأعراب والمتقدمين ، وكان يعرف جيداً السكثير من الأخبار في تروى عنهم ، والجو الذي نتنسمه عبر صفحات والطوق ، لم يظهر في الأندلس عفوياً على ير جيل معين ، وإنما نعرف أنه جاء من المشرق الإسلامي ، من البيئة التي عاشت فيها ، أدبياً على الأقل ، أسطورة الحب المهدري ، ثم تحددت أدبياً أيضاً . وفضيلة ابن حزم التي لا جذال فيها ، للهدري ، ثم تحددت أدبياً أيضاً . وفضيلة ابن حزم التي لا جذال فيها ، تقوم بالدقة على أنه أسين أو غرب هذا الجو ، عراه من أرديته الدوية ، أو البغدادية ، وحتى من اسمه ، فكلمة و عذري ، لا تظهر ولا مرة واحدة على امتداد كل صفحات السكتاب ، لسكي يكسوه من جديد ثياباً قرطبية ، ومن الطبيعي أن تتخلف في تربته وفي أساسه المراد التي يسرت قرطبية ، ومن الطبيعي أن تتخلف في تربته وفي أساسه المراد التي يسرت نقول ، لم ينسخيها ، مواد من الصعب جداً تحديدها ، لأن المراف ، فيا نقول ، لم ينسخيها بالموني الحرفي الحكامة ، وإنما تمثانها وطورها عفوياً ، نقول ، لم ينسخيها بالموني الحرفي الحكامة ، وإنما تمثانها وطورها عفوياً ، نقول ، لم ينسخيها بالموني الحرفي الحكامة ، وإنما تمثانها وطورها عفوياً ، أعطى لها روحاً جديداً ، وشكلا مغايراً ، وحياة محتافة .

⁽١) أنظر مقال الياس تيريس، مجلة الأندلس ، المجلد ١١، عام ١٩٤٦ ، ص ١٣١ـ١٠٠٠.

تتبع أثر هلمه المصادر الحفية مخاطرة إذن ،لــكل ما قلت ، ولأن ﴿ الدراسة الواحية الصلات بن الأدب الأنداسي والأدب العربي في المشرق لما تزل متلعثمة ، ومن ثم كان جرأةمني أن أعرض مؤقتاً ، وفي شكل مقال ، وكمحاولة لجس النبض ، لواحد من هذه المصادر ، وهو كتاب و الموشي، الوشاء : ولقد صرحت في البدء بأن السكتاب غير معروف تقريباً ، ودرج الدارسون على اعتباره آلياً ، وعلى نحو تقليدًى ، مجرد قائمة بالأخلاق الفاضلة ، وقو انين السلوك ، ليتصرف المجتمع العربي في أزهى عصوره على هديها . هكذا اعتبره مثلاً آدم سيتر في كتابه نهضة الإسلام ، ويقول عنه بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية : ودليل الحياة الأنيقة في عالم بغداد العظم ، . وعبثاً ممكن مثلا أن تجد له أثراً بين مصادر دراسة الحب في الأدب العربي الكلاسيكي ، وحررها علماء من الطبقة الأولى ، مثل جوالدتسمر (١) أو رير (٢) . والحق أن كتاب الرشاء حيى ولوكان مرشداً عظم الفائدة إلى الأخلاق الفاضلة ، فإنه أصلا كناب عن الحب في الجانب الرئيسي منه ، وهو على الناكيد الجانب الأكبر انساعاً ؛ وهو شيُّ منطقي جداً ، لأن الحب في حد ذاته ، وفي مظاهره المصقولة ، قناعة أنيقة تخضع لقواعد دقيقة مسلم سما . وكان الوشاء متخصصاً في الموضوع ، فهو لا محال نفسية الحب العذري في دقة فحسب ، وإنما يضيف إليه النصوص والقصائل الأكثر روعة ، والأجمل توجها • وعرض لحب الفيان ، وشق طريقه عظوظاً ، ثم انتهى بالسيطرة على كل الأوساط البغدادية ، بل ويصرح

^{1 -} Goldziher I.: Vorlesungen Über dan Islam, P. 192'y ZDMG, 69 (1915) 'pp. 192 - 207

^{2 -} Ritter H.: Philologika VII (Arabische Und persische Schiften Über di profane Und die mystiehe Liebe) en Der Islam'Xxl' 1933' PP. 84 - 100

فى كتابه و الموشى » أنه خص هذين الموضوعين ، كلو احد مهما بكتاب مستقل ، ولعلهما فقدا لسوء الحظ ، لأنى لا أراهما واردين فى قائمة مؤلفاته ، وهما : كتاب المقتفى (١) ، وكتاب القيان (٢) ، ورغم أننا نجهل هذين السكتابين فإنمادة الموشى و بما كانت أفضل ما نملك بين أيدينا عن الحب بين العرب، وهو أكثر فائدة من كتاب الزهرة لابن داود ، وأشا، قرباً ، كما سفرى ، فى دوجه إلى ابن حزم فى طوق الحمامة ،

وق حدود ما أشرت ، في قراءة مستأنية ولدكن ليست مستوعبة ، سأحصى وأجمع الفقرات الني في الموشى أو في طوق لحسامة (٢) ، والتي أعتقد أن بينها بعض الشبه ويجب أن أضيف إلى ذاك أني بصاد مقال انتائجه مؤقتة تماماً الأن الشبه ممكن أن يجي من مؤلف آخر الحتار الاتجاه نفسه ولما يعرف ، وأن هذه المشامهات لها ، فيما أرى ، بعض القيمة المقنعة إذا أخلت في جدلتها فحصب ، أى أنها تدعم بعضها بعضا ، وتحليلها منفصلة يجعله تبدو ، ودي كذلك حقاً . غير ذات معنى وقليلة الإفناع . فنحن نتحر ك وأعيد التقول ، على تربة ظنية . وبدل أن أتبع ما ورد في الموشى أو في المطوق متسلسلا ، رأيت لسهولة العرض أن أجمع على نحو غير طبيعي قليلا ، وكمجرد وجيه فحسب ، الفقرات الني وازنت بينها ، طبقاً لما تخضع له من تشابه .

 ⁽١) في صفحة ٤٥ من ضيعة ليدن : • و لمحن مفردون لأهل النشن كتاباً نذكر فيه أخبا قالمتيمين : و ملح المتشقين : و أشعار المنفز لين عمع جملة من صفات الهوى : في كتاب المقتفى .
 إن شاء الله تعالى » .

 ⁽٢) قى صفحة ١١٠ من صبعة التناهرة : « وقد أفردنا كتاب نقيان نذه عظم القيان :
 قَاعَنْي ما في ذاك السكتاب عن تكثير هذا الباب . فاعرفه ، إن شاء الله » .

أَشْيِرَ فِي فِعَضَ ٱلإِحَالَاتِ ، كُمَا فَي هَذَه ، إلَى الطبعة الشرابية ، لأَنْ طبعة بهان البست بين يدى وأنا أحر رهله الصفحات .

⁽٣) فيها بتصل بالموشى استخدمت، إلا في حالات فاهرة كالإحدة السابقة الد طبعة برفرف التي أشرات ربيعا في سال الوفوف الملاد ما بريل أشرات ربيعا في سال الوفوف الملاد ما بريل المراكبة المتحدد طدة للروف الما ليدن ما بريل ١٩١٤. وتحدل المتناجات الأرقام من ١ إلى ١٠٠

تسهیلا قشاری، العربی استخدمت علیمة دار المعارف سکارب داری الحمامة ، التقاهر
 ۱۹۷۵ ، بدلا من طبعة بتروف .

- ف الاقتباس ، أوالأسلوب ، أو اللغة .
 - فالتعليق على عدد محدود من الوقائع .
 - في الملاحظات النفسة :
 - فى الأفكار أو فى المواقف الشاعرية:
 - فى التقسيم وهناوين الأبواب ،

وأو كد على أننا بصدد تشابه بجىء من الذاكرة القوية التى شهر بها العرب، ومستمد من رواسب القراءة ، أكثر ثما يعتمد على النسخ أو الاقتباس وأستبعد الفرض الذى يخرج عن نطاق الموازنة ، وبجب أن يضاف إذا أكدته المشاجات الأخرى ، وهو أن الموشى يمكن أن يكون واحداً من الكتب التى قرأ فها ابن حزم و أخبار الأعراب والمتقدمين ، والتى أدار لهاظهره

١- النشابه في الاقتباس أو الأسلوب أو اللغة

ثلاثة على الأقل الاقتباسات المشتركة المهمة الني وجداما :

الحديث النبوى: والأرواحجنود مجندة ، مانعارف مها إثناف ،
 وما ثناكر مها اختلف ، ويشير إليه الموشى صفحة ٢٥ ، ويوجد قى الطوق صفحة ٢٣ .

۲ ـــ الحديث النبوى الثانى : دحبك الشيء يعمى ويصم ، ، جاء به الموشى فى صفحة ۲۱ ، و ذكره الطوق صفحة ۲۹ ، دون أن يشير إلى أنه حديث نبوى ،

٣- و الحديث النبوى الثالث ، فيا يظن : و من عشق فعف فمات فهو شهيد ۽ ، ويظهر في الموقي صدحة شهيد ۽ ، ويظهر في الموقي صدحة المعاد عليه في العلوق صدحة ، وجاء به ابن حزم دون أن يشير إلى أنه حديث واكتفى بقوله : ووقد جاء في الآثار : ، ، ،

أذكر القارى، بأن الكاتب يستخدم عادة طبعة ليدن من الموشى ، إلا قرحالات قليلة أشار
 إليها ، أما صفحات الطرق فتشير إلى طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٥ م . (ألمرجم) .

و إلياك الأن حالتين بتشابه فيهما الأساوب :

ق - يقول مواغ الموشى، مع بداية الجزء الثانى، أنه سوف يتضمن شيئاً من الهزل أكثر بما فى الجزء الأول : و ولابد من خلطها بشيء من الهزل ، إذ فى ذنك ترويح لقلوب ذوى العقل ، وينهيأ مولف الطوق فى مقدمته ، ليعرو تناوله موضوعات قد لاتبدو «ادة ، مشيراً إلى آراء مولفين آخرين ، ويبدؤها : وأجدوا النفوه بشيء من الباطل ليكون أعون لها على الحق ، أو «أرجوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » .

• - فى صفحة ٧٧ من الموشى يتحدث المؤلف هن مال بعض الحبين الكاذبين ، فيقول : و فاستحسن الناس الملل والاستبدال ، والغدر والانتقال ، وأنا أبر أ إلى الله أن يكون هذا من شعر ظريف ، أو من فعل حصيف ، ويورد ابن حزم فى صفحة ١٤٩ ، بعد أن بين أن : وللشعراء من من الشعر يتمون فيه الباكمي على الله من ، ويثنون على المثابر هلى المتدات ، حالة أبى تواس ، وأنه وكثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره ، ويقلد الشاهر المشرق بأبيات له ، ثم يعقب عليها بقوله : و ومعاذ الله أن بكون نسيان ما درس لنا يطعاً ، .

وأخيراً يتو افقان في حالتين لغويتين :

ت سقول الموشى فى صفحة ٥٤ : لا وأما إمن عشق من الشعراء فما يحصرهم عدد ، و الايحصيم أحد ، ، وفى الطوق ، صفحة ١٩ : ١ وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن محصوا ، :

۷ - ویقول الموشی فی طبعته المشرقیة ، صفحة ٤٩ ، إن الحب المهر مطاع ، وقائد متبع ، ویدکر الطوق ، صفحة ۸۳ : « لعلمت أن الهوی سلطان مطاع ، .

٣ – النَّمَانِهُ في النعليق على عدد محدود من الوقائع

٨ - الضرب الأول من الحب ، بين ضروب الحب التي ذكرها ابن
 حزم ، صفحة ٢٣ : و بحبة المتحابين في الله عز وجل ، ، وهو عنوان

باب من أبواب كتاب الموشى: و باب صفة المتحابين فى الله عز وجل ، : 9 من علامات الحب وشواهده الظاهرة عند المحب ، صفحة ٢٨: و شرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء ، وفى الموشى ، صفحة ٩٣ ، نجد الجارية التى أر ادت أن تعشق فتى غنبا : و شربت من فضلة كأسه ، ن

الفصل الثالث من الطوق وأوقفه المؤلف على قصة أبي السرى همار بن زياد ، اللى أحب جارية رأها فى النوم ، نجد ابن حزم يعذله قائلا : الواعشقت صورة من صور الحمام لكنت عندى أعذر » . ونجد فى الموشى ، صفحة ٥٦ : » وبلغنا أن منهم من عشق صورة فى حمام ، وخيالا فى منام ، وكفا فى حائط ، ومثالا فى الوب ، والعشق ألوان وأنواع وضروب وفنون وأمره عجب » :

۱۱ - و پتخدث الطوق عن المراسلة ، صفحة ٥٦ ، فيقول : ﴿ وَأَمَا صَفَّى الْحِبْرِ بِاللَّذِمْعِ فَأَعْرِفُ مِنْ كَانَ يَفْعَلَ ذَلِكُ ﴾ . و يور دالموشى ، صحفة ١٥٤ ، قصيدة فيها : ﴿ مَرْجِ المُدَادُ بِدَمْعِهُ ﴾ ، و بعد ذلك بقليل ، في أيبات شعر أخرى ؛ ﴿ هَذَا كُتَالَى بِدَمْعُ عَنِّى ﴾ .

17 - ويقول الطوق ، عند الحديث عن الهدايا التي يتبادلها العاشقان ، صفحة ١٣٠ : وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خصل الشعر ... وأما تهادى المساويك بعد مضغها فكثير ». ونقرأ في الموشى ، صفحة ٣٠ : و وتبعث إليه بخائمها و خصلة من شعرها ... وقطعة من مسواكها » وفي صفحة ١٤٠ : و وقد تهادى أيضاً أهل الظرف بالمساويك » .

٣ ــ التشابة في الملاحظات النفسية

17 - في الباب الخاص عاهية الجب من طوق الحمامة ، ص ١٤، نجد هذه الملاحظة : « والحب - أعز ك الله - داء عياء ، وفيه منه الدواء على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ وطةمشهاة ، لايودسليمها البرء، ولا يتمى

هليها الإفاقة ي ، و في الموشى ، صفحة ٨١ من الطبعة المشرقية : و الحب مع مافيه من المرارة والنكد ... مستعلب عند أربابه ، مستحسن عند أصحابه ي ١٤ – وربما كان الباب الحاص بعلامات الحب في الطوق ، من أظهر الأبواب أصالة ، و أغناها بالملاحظات النفسية ، في صفحة ٧٧ ومابعدها ، وتلتقى في الموشح بسلسلة الملاحظات أيضا ، استخدم لها المصطاح نفسه : علامات . ففي صفحة ٨٤ : و وأعلم أن أول علامات الهوى على ذى الأدب نحول الجسم ، و طول اللحقم ، واصفرار اللون ، وقلة النوم ، وخشوع نمول الجسم ، و طول اللحقم ، واصفرار اللون ، وقلة النوم ، وخشوع النظر ، وإحمان الفكر ، ومرعة الدموع ، وإظهار المشوع ، وكثرة الأنين ، وإعلان الحنين ، وانسكاب العبرات، وتتابع الزفرات. وعن تأثير الحب في العاشق يقول طوق الحمامة ، صفحة ١٨ وما بعدها : و فكم غيل الحب في العاشق يقول طوق الحمامة ، صفحة ١٨ وما بعدها : و فكم غيل جاد ؛ وقطوب تطاق ؛ وجبان تشجع ، و غليظ الطبع طرب ي . و في الموشى حرم العاجز » .

المون الطوق ، صفحة المحب سلط نا لا يقاوم ، و نلتقي بها ، في الطوق ، صفحة الحرك ، و نصها : و إن للحب حكماً على النفوس ماضياً ، و صلط نا قاضياً ، و المرا لا يخالف ، و حداً لا يعصى .. و توجد أيضاً في الموشى ، صفحة المح من الطبعة المشرقية : و و يلال له العزيز ، و يخضع له المتجبر ، و يبرز له كل محتجب ، و ينقاد له كل ممتنع و من جانب آخر يعرض الطوق للفكرة مرة أخرى فيا بعد ، على نحو أشد تفصيلا ، في باب الطاعة ، صفحة ١٨ مرة أخرى فيا بعد ، على نحو أشد تفصيلا ، في باب الطاعة ، صفحة ١٨ وما بعدها ـ و الملاحظة التي ترد في نفس الفصل الحاص بعلامات الحب ، كا صفحة ٥٠ و تعرض للمحب المزيف ، ممن « يتحلى بشم قوم ليس مهم، ويدعى غريزة لا نقبله ، ، نجد لها سابقة في كتاب الموشى ، صفحة ١٨ : ولن يغبى ادعاء أنه قارن العشق والهوى ، لأن علامات الهوى ثائرة ، وآيات الادعاء ظاهرة »

17 - وتأكيد طوق الحمامة ، صفحة ٦٠ ، في باب طي السر ، أن (م٠٠ - ابن حزم)

الحب لا مكن إخفاءه ، ونعى عبارته : ﴿ وَيَأْبِي السَّرِ اللَّفَيْنَ ، وَمَارَ الْكُلَّفَ الْمُعْرَجِ فِي الْفُسُوعِ إِلَّا ظُهُورًا فِي الحركاتِ والعين ﴾ ، توجد في الموشى أيضاً ، في صفحة 40 : ﴿ وَلَنْ يَخْفَى الْمُحَبِّولِانْ تَسْعُر ، وَلَا يَنْكُمُ هُواهُ وَإِنْ تُصْمَر ﴾ .

ا ١٧ - وفي مقابل باب المساعد من الأخوان ، في طوق الحمامة ، صفحة ١٧ ومابعدها ، يستخدم الموشى ؛ صفحة ١٧ ، الصديق المساعد يه يقول ابن حزم مشيراً إلى المساعد من الأخوان : «فإن ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين ، وأمسك جما إمساك البخيل، وصنه بطارفك وتليدك...» ، ويذكر الموشى ، في الصفحة التي أشرنا إليها ، مشيراً إلى الغرض نفسه ، بيتاً من الشعر تعود سفيان الدورى أن يردده :

فإذا وجلت أخا الأمانة والنقى فيه البدين قرير العين فاشدد

۱۸ - فى طوق الحمامة ، فى باب الواشى ، صفحة ۸۳ وما بعدها ، يدين ابن حزم فى عنف بالغ الوشاة والكذابين ، وفى الموشى ، صفحة ۲۳ ، باب كامل بعنوان : ﴿ باب ماجاء من فضل الصدق لذوى الأداب، وماكر، من الكذب لذوى الألباب ﴾ .

۱۹ – وتشهير ابن حزم بخيانة المرأة وغدرها عنيف ومعروف ، أنظر مثلا صفحة ۱۰۹ ومابعدها من طوق الحمامة ، وصفحة ۱۰۹ و و هله هله الأخيرة يقول : «ولولا أن أكون منها على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنهن في الشر ، ومكرهن فيه ، عجائب تلهل الألباب » ، وعرض الموشى للفكرة أكثر من مرة ، فهو يقول في صفحة ۷۹ : « إن للغدر في النساء طبع ... » ، وفي صفحة ۸۸ و ۱۲ : «مع أن مكرهن أخفى من الحيال ، وأعظم من واسيات الجبال ، تنفذ حيلهن على الرمجال ، ويتمكن كيدهن من الأبطال » ،

۲۰ وتحمل الغاس ، وعدم الثورة عليه ، ومو اجهته بمثله ، هو فيا
 بری ابن حزم دناءة وخسة ، يقول فی صفحة ۱٤۸ من الطوق : « ومنها

(أى من الأسباب الموجبة للسلو) الغدر ، وهو الذي لا محتمله أحد ، ولا يغفى عليه كرم ، ولا يلام السانى عنه . . . بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه . . فما يصبر عليه إلا دني المروعة ، خميص النفس : نذل الهمة . ساقطة الأنفة ». وتجوع الفكرة نفسها في الموشى ، صفحة ١١٨ : « ثم أن أجهل الجهالة ، وأضل الضلائة ، صبر الفتى الأدبب ، على غدر الحبيب ، فإن الصبر على وأضل الغدر ، يضع من المروعة والقدر .

٤ - النشابه في الأنكار أو في المواقف الشاعرية

٢٢ -- يتحدث الموشى، صفحة ٧٨، عن استحالة أن يحب الإنسان حباً حقيقياً شخصين في الوقت نفسه : و وهل يجتمع وحدان في موضع »، و وقيا بعد، في صفحة ٩٩، يورد قصيدة من بحر السريع، لأدبب مجهول، بعرض للموضوع نفسه، ومنها هذا البيت

نساداك منه حسن جسائز أم نيس يرضي الله دينين و تجس في الطوق ، صفحة ٤٦ ، قصيدة لمرانقه ، من بحر الخفيف، منها هذان الدنان :

أرس في القلب موضع لحبيب ن ولا أحدث الأمور بثان وكلّا الدين والحسد مستقم وكفرر من عنده دينان

٢٣ - فيما يتصل عوضوع المراسلة (أنظر رقم ١١)، يورد الموشى
 في الصفحة ١٥٩ - هذا البير من عمر الكنام لشاهر مجهول :

مازلت أبكى مدقراتكتابها حتى محوت صطورها بدموصى وفي صفحة ٥٧ من الطوق ، نجد هذا الشطر من بيت شعرلابن حزم ، وجاء في بحر الطويل ، والنشابه اللغوى بيهما واضح :

. فما زال ماء العين يمحوسطوره .

۲۶ ــ في الموشى ، صفحة ۳۷ ، نجد هذا البيت من الشعر ، في بحر الرمل ، لشاعر مجهول ، ويعرض لكتمان السر : ١

أمت السر بكتمان ولا يبدون منك إذا استودعت سرى ويورد ابن حزم في صفحة ٦٢ من كتاب الطوق ، قطعة من قصيدة له ، جاءت في محر البسيط ، ومنها هذ الشطر :

أميته وحباة السر ميتته

۲۵ سویجی الموشی فی صفحة ۵۳ بقصیدة من بحر الوافر ، الشاهر العباسی علی بن الجهم (ت۸۲۳ م) ، مهداة إلى الخایفة المتوكل ، وسقط صریع حب جاریته قبیحة ، وإلیك من أبیاتها الثمانیة هذه الأبیات الثلائة : تنكر حال علی الطبیب فقال : أری بجسمك مایریب جسست العرق منك فدل عندی علی داء له شأن عجیب

فحرك رأسه ودنا منى وقال: الحب ليس له طبيب وقال أدى فإن هذه القصيدة هى المصدر المباشر الذى ألهم ابن حزم قصيدته الني من بحر الوافر أيضاً ، وجاءت في ستة هشر بيتاً ، وثلتقي بها في الطوق ، الصفحة ١٣٧ ، ومنها أشطار الأبيات هذه :

- . يقول لى الطبيب بغير علم ،
- فقال : أرى نحولا زاد جداً
- . فأطرق باهتاً مما رآه ·

٢٦ ــ وفي الموشى، الصفحة ٦٧ ، نجد هذا البيت من بحر البسيط الشاعر مجهول :

الحب أوله عذب مذاقته لكن آخره التنغيص والكدر وبيت أخر من بحر البسيط للشاعر ابن أبي رعد :

الحب أوله عذب وآخره إمثل الحزازة بين القلب والكبد وفي الصفحة ١٨٢ من طوق الحمامة نجد قصيدة طويلة لابن حزم، من عمر الطويل، ومنها هذا البيت:

وأيت الهوى مهل المبادى لذيذها وعقباه مر الطعم ضنك المسالك ٥ - تشابهات في التقسيم وعناوين الأبواب

هنا علينا أن نتحدث حقاً عن اختلافات أكثر مما نعرض الألوان من المشابهات. وفيا يتصل بمنهج الكتاب وتقسيمه إلى أبواب ، ليس ثمة شك فيأن الطرق قطماً أفضل نهجاً وتنظيا وترتيباً من كتاب الموشى أو كتاب الزهرة . فابن حزم و هو فيلسوف وعلم اهنم ، بروح غربى ، بمناقشة حتى خطة الكتاب تفصيلا ، الصفحتان ١٧ و ١٨ ، و يمكن أن نقول الشيء نفسه فيا يتصل بعناوين الأبواب ، وثمة شيء من تشابه بين عناوين الموشى و طوق الحمامة . فحيث يقول الموشى ، في الصفحة ٦٤ : و باب من مات من شدة الوجد ، وجبئ من شدة الوجد ، يوجز طوق الحمامة الفكرة في : و باب الموت ، وحيث يقول الموشى ، في طوق الحمامة الفكرة في : و باب الموت ، وحيث يقول الموشى ، في طوق الحمامة الفكرة في : و باب الحث على كمان السر ، في حفظ ما حنت عليه ضموع الصدر، مختصره الطوق في : و باب طي السر ، و عناوين كتاب ضموع الصدر، مختصره الطوق في : و باب طي السر ، وعناوين كتاب الزهرة مسجوعة و بعادة و شاعرية ، و عناوين الطوق بلا سجع و عادية وموحية ، و ذات وقع غربي .

ويتصل بهذا الغرض، و لوأنني سأخرج عن الموضوع قايلا، أن ألقى علاحظة أراها مفيدة وجديدة ، ذلك أن أسك الأبواب الأخرة في كتاب الموشى ، الصفحة ١٦٤، بدور حول العبارات التي ينتشها العشاق على خراتيمهم ، وعنوانه: «ومما ينتشه أهلي الموى على خراتيمهم ، ، وفي الفقرة الأولى منه نلتتي بعشرة نقوش ، إليك أوائلها:

رمن كثرت لحظاته ، دامت حسراته . من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفائه ، من قدم هواه ، دام أساه .

ونلحظ أن تمانية نقوش منها ، دون تغيير أو مع تحوير طفيف ، عناوين أبواب في كتاب الزهرة لابن داود ، وهي واقعة تئير الاهتمام ، لأن ابن داود والوشاء كانا متعاصرين ، فهل كان كتاب الزهرة مصدر هذه العبارات التي تقشها العشاق على خواتبمهم ، أم أن كتابات العشاق هي التي ألهمت ابن داود عناوين أبواب كتابه ؟

دراسة أصول كتاب أدبي قمة ، وهو طوق الحمامة في حالتنا هذه ، مفيد دائماً وضرورى ، والسَّت أدرى ما إذا كانت الملاحظات التي سبقت مقبولة أم لا ، وما إذا كانت تسهم تاريخيا في تفسير إمكانيات الإبداع في كتاب ابن حزم القرطبي الشهير . وأعنقد ، في حالة الالتفات إليها ، أن غايبي لاتتوقف عند هذه فحسب ، فمنذ زمن وأنا أدافع وأدعو ، معطياً خ المثل متواضعاً ؛ إلى أنه من غير الممكن أن ندرس الأدب الأندلسي علمياً دون أن نحدد ما به من عناصر مشرقية ، وماهو تجديد أو اقتباس إسباني ، وهو أمر صعب للغاية من الوجهة التقنية في حالات كثيرة . وحالة ابن حزم ، و ابن شهيد أيضاً ، مثل متمنز وواضح لمعرفة الصلة وردود الفعل المتباينة للتبارين ، والاصطدام بن المكرين ، المشرق والغربي. ولو لم تمت القيادة الأدبية ، والتي عشها المؤلفان الكبيران ، تحت أنقاض الخلافة ، تاركة الطربق و اسماً وعريضاً لعصر من النشريق والبغددة ، كما انتهى إليه حال دول الطوائف ، لكان من المؤكد أن أدب الأندلس وثقافته ماكان ليصبح بالشكل الذي وصَّلنا عايه الآن ، مجرد مقاطعة تاثهة من أدب العرب وثقافتهم ، بلكان سيرتفع شامخًا ، في مملكةمتألقة ومستقلة على نحو ماكانت عليه خلافة قرطبة .

- Y -

كتاب منية المحبين وبغية العاشقين الشيخ بوسف بن مرعى الحنبل

أن تقفوتأثير أن وطوق الحمامة با في الأدب النالي شيء مفيد ، لالكي نعرف القدر الذي بلغه من الشهرة كتاب ابن حزم فحسب ، وإنما أيضاً لكى نغذى الأمل وندعمه في العثوريوماً على عنطوطة جديدة له ، لأن إمكانيات العثور عليها تزداد منطة با مع اكتشاف أن دائرة انتشاره كانت أوسع مما برهنا عليه . وحتى الآن ، ماعدا الحطأ أو الإغذال . در مي الباحثون تأثير الطوق ، أو اكتشفوا إشارات إليه ، في المؤلفات النائية :

- فى الأدب الأندلسي : فى كتاب و أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، طبعة الرباط عام ١٩٣٤ ، الصفحات ١٧٤ ١٢٦ (١) ، وثلاث قصائد فى كتاب نفح الطيب الممقرى ، المجاد الثانى ، الصفحة ٤٠٦ ، من الطبعة الأوربية . .
- فى الأدب الإسبانى: تأثيرات موضع نقاش فى كتاب ، الحب المحمود، لكاهن هيتا، وهومن القرن الرابع عشر (٢). وفى كتاب الراهب المحمود، لكاهن هيتا، وهومن القرن الرابع عشر (٢). وفى كتاب الراهب المحموديف دى خسوس مارية Joseph de Jesus Maria، وعنواته

۱ – أنظر : ليفي برواسال ، مجلة الأقدلس ، الهجلد ، اللصفحات ۳۲۹ – ۳۶۰ و۳۲۲–۳۲۳ .

[•] في الجازم ؟ الصفحة ٩٩ ه ، من طبعة إحسان عباس . (إللترجم)

۲ – أنظر : أميركوكاسترو ، إسبائيا في تاريخها ، صير ۲۷۱ – ٤٦٩ ، بونس أبرس ١٩٤٨ .

ترجمت هذا الكتاب القبم إلى اللغة العربية ، وسوف تنشر ترجمتة قريباً . وفيما يتصل بتأثير الطوق ق بتأثير وطوق الحمامة و في كتاب المحمود 6 ، أنظر الفصل الخاص بتأثير الطوق ق الأدب الإسباني و من هذا الكتاب (المترجم) .

مز ايا فضيلة العقة Execlencias de la virtude de la eastidad و نشر في القلعة عام ١٦٠١ م (١) -

• فى الأدب العربي المشرقى: فى « روضة المحبن » لا بن قيم الجوزية (٢) وفي « ديران الصبابة » لابن أبى حجلة (٢) ، ومع شى ، من الشك فى كتاب « تزين الأسواق » للأنطاكى (٤) ،

وإلى هذه التأثيرات يمكن أن نضيف الآن تأثيراً واضحاً في كناب أخر هو: ومنية المحبين وبغية العاشقين، الشيخ السورى يوسف بن يحبي بن مرحى الطور كرمى الحنبلى ، ولم يرد في قائمة ريتر التي حررها عن كتب الحب (٥).

وطبقاً لكتاب و خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر، للمحبى، المجزء الرابع ، الصفحة ٥٠٨ ، نعرف أنه رحل إلى مصر للمدر اسة عام ١٠٤٤ هـ ١٦٣٤ م ، و كان مفتياً في عابلس ، وعلى مذهب ابن تيمية ، و توفى يوم الإثنين ١٠٠٠ من صفر عام ١٠٧٨ هـ ١ من أغسطس ١٦٦٧ م (١).

١ - أنظر : كاسترو ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ ، وأنظر أيضًا ، عايمة أوليقو أسين ، مجلة المجمع الملكي الإسبان ، المجلد ٢٠ ، ص ٣٨٩ ، ٢١ ، هام ١٩٥٠ .

٧ - ألظر : بروكلمان ، مجلة إسلاميكا ، المجلد ه ، ص ٢٦٤ - ٤٧٤ .

٣ ــ أنظر : غرسية غومث ، مجاة الأندلس، المجلد ٢ ، ص ٥٠٠ - ٩٧٣ .

إنظر المرجع المابق.

ه - أنظر فيها سين صفحة ٣٠٠ من هذا الكتاب الهامش رقم ٢

٩ - قى فهرس مكتبة بلدية الإسكندوية ، و لا أعرف ما إذا كان بداية المخطوطة نفسها ، ومع ذلك يقال أنه توفى عام ١٠٣٣ ه ، ١٩٣٣ م ، و ذكر هذا التاريخ بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربي ، ج ٢ ص ٣٩٩ ، و الملحق ج ٢ ص ٤٩٩ ، و يدعوه بروكلمان : مرعى بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمى ، زين الدين المقدسى الحنبلى ، ولد فى طول الكرم ، قريباً من ذابلس . و مخطوطة الإسكندرية تظهر عند بروكلمان فى الملحق فقط ، ج ١ ص ١٢٩٧ ، فى الفقرة الخاصة بالمطبوعات .

وقد أمكنني أن أعود إلى مخطوطنين من المذية ، إحداهما كاملة في مكتبة بلدية الإسكندرية ، تحت رقم : ن – ٤٥٦٤ – ج ، وجاءت في ٢٥ ورقة ، بلا نرقم ، وكنبت في خلم شرقى جيد ، وهي التي سأحيل عليها دائما . والأخرى في دار الكتب المصرية ، وجاءت في ٥١ ورقة ، ومسطرتها دائما . وكنبت في خط مغربي ، وتحمل رقم ٢٠٢٢ أدب ، ولسبت إلى مجهول ، فكان عنوالها : « الحبو المحبة ، مؤلفه مجهول ، ، ولو أنه يمكن النوصل إلى معرفة المؤلف في الحال .

تحن بصدد كناب محدود الصفحات ، وبعد مقدمة قصيرة مسجوعة يقسم المؤلف كنابه في عشرة أبواب هي :

- ١ في إثبات حقيقة المحبة وشرفها .
- ٢ في كلام الخائضين في حقيقة المحبة .

٣ ــ فى حقيقة العشق وأسبابه ومراتبه ، وفى الفرق بينه وبين الحلة والمحبة ، وفى الفرق بينه وبين الحلة والمحبة ، وفى أسماء ، ومن المؤلفان المفريته فى الأولاك المقسومة) ، و ابن أسماء : أفلاطون ، (ولكن ليست نظريته فى الأولاك المقسومة) ، و ابن مينا وأرسطو وأبقراط والمتنبى والأصمامي وابن تيمية والقاضى عياض وابن قيم الجوزية .

عن كلام الحائضين عدح العشق وذمه . وفيه يذكر كتاباً آخر
 له عن الحب بعنوان : وتسكين الأشواق مأخبار العشاق. يه .

الهرى وفي ذكر القب ومدح البقل.

 ٦ - فى علامات لمحب والعاشق ومـذا يصير لهما عند غلبة من السكر وغيره وماذا يترتب علمهما .

٧ - فى حنبة الشوق وهل هو يزول بالوصال أو يزيد ، وهل يصح كنان المحبة ، وهل بتصرر عند كمام لمحبة هجر، وهل إعرض الحبيب عن عداوة .

٨ - في إرشاد العاشق الديم، ، إلى الطريق المستقيم ، وبيان عقوبة من حجيج للمعل الدسم .

٩ - فى الحدر من المرد وأصحاب العدار، وماقيل فيهم من الأشعار :
 ١٠ - فى فضل الشعر ، وفى ذكر شىء من أشعار المحبن. وهو مختارات إ

من شعر الغزل ، ليست مهمة إلى حد كبير ، ويضمنها المؤلف أشعار آله ، ويختمها بموشحة .

و الإشارة الوحيدة التي يذكر فيها ابن حزم باسمه توجد في الباب الرابع ، الورقة ٩ ب، في الوسط منها : « وقال ابن حزم : وقد أحب من الحلفاء الراشدين و الأثمة المهتدين خلق كثير ، وحبيد الله أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره وعد لائمه ظالما "، وعشق عمر بن عبد العزيز جارية زوجته فاطمة مشهورة». " و هذه الفقرة تلتقى في جانب مع ماذكره ابن حزم في كتابه و طوق الحمامة ، ، الصفحة ٢ من طبعة بتروف : (أو الصفحة ٢ من طبعة مروف : (أو الصفحة ٢ من طبعة دار المعارف) * ،

وأما فى الباب السادس من و المنية ، وهو الحاص بعلامات الحب، فقد اتكأ الشيخ مرعى طويلا على كتاب ابن حزم ، ودون أن يشير إليه ، وإليك جانبا من نص المؤلف الشرق ، وفيه صرفت النظر عن الأشعار التى تتخلله ، وهي غير ذات أهمية ، إلى جانب فقرة غيرو اضحة ، وقد ألحت إلى الانفاقات الأكثر وضوحا ، وجئت بها في حرف مختلف ، وهلقت عليها :

(فللمحب والعاشق علامات يعرف بها المحبون، وحالات يتميز بها العاشقون(١) قمن العلامات (الورقة ١٢ ب) اضطراب أعضاء المحب العاشق عند نظر

[•] تختلف عبارة ابن حزم فى الطوق عما فى كتاب المنية شيئا فيما يتصل بعبيد الله ، ولم يشر الطوق من قريب أو بعيد إلى قصة عمر بن عبد العزيز ، فلعلها إضافة من صاحب المنية ، أو لعله رجع إلى تسخة من الطوق غير التى بين أيدينا ، نسخة كاملة غير مختصرة ، وهو ما أرجحه (المترجم).

١ - فى طوق الحمامة ، الصفحة ٢٧ ، من طبعة دار المعارف : « و للحب علامات يقفو ها الفطن ، و يهتدى إليها الذكي » .

عبوبه ومعشوقه (۱): ورميه بطرفه نحو الأرض ، وتغيره تغير احمران واصفرار ، وذلك من مهايته له ، وحيائه منه ، وعظمته في صدره . . [بيتان من الشعر]. ولذلك قال بعضهم : من علاماته اصفرار وجه الحجب عند روية حبيبه ، واحمران وجه الحجب عند روية من يشبه محبوبه أو عند الشعر] . . . ومنها أن يضطرب المحب عند روية من يشبه محبوبه أو عند مهاع اسمه الشعر] . . . ومنها أن يستانعي مماع اسم مهاع اسمه (۲) ، . . [بيتان من الشعر] . . . ومنها أن يستانعي مماع اسم معبوبه ويستاند الحديث في أخباره (۳) وأشعاره ، وعب أهل محبوبه وقرابته (٤) وغامانه وجبر انه ومن ساكنه . . . [بيتان من الشعر وتفصيل مقراب ما للوضوع] . . (الورقة ١٢) : ، ومنها الإنصات لحديثه ، واستغراب ما يأتى به ولوكان حين المحال ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار . . واتباعه كيف سلك (٥) ، والإسراع بالسير نحق المكان الذي يكون فيه ، والمتعمد للقعود بقربه ، والدنو منه ، والتباطي على المقيام من عنده (٢) [بيت من الشعر] . . ومنها بذل نفسه والتكرم جا دون من

١ = قى طوق الحمامة ، الصفحة ٢٧ : و ومنهابهت يقع ، و روحة تبدو على المحب عنه
 رؤية من يحب فجأة

 ⁽٢) في الطوق ، في الصفحة نفسها : و ومنها اضطراب يبدر على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة ».

 ⁽٣) فى الطوق، الصفحة ٢٩ : ٩ ومن أعلامه أذك تجد المحب يستدعى سماع اسم من
 يحب، ويستنذ الكلام فى أخباره يه .

 ⁽٣) فى الطوق، الصفحة ٣٢، و ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته . . . ».

⁽٥) فى الطوق ، الصفحة ٢٧ : «والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتى به ولوأنه عين المحال . . . وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وان جاد ، واتباعه كيف سلك » .

 ⁽٦) في أأطوق ، في الصفحة ففسها . ﴿ وَمَمَا الْإِسْرَاعِ بِالسِّيرِ نَحْوَ الْمُكَانُ قُلدي يكونُ

يحبه ويهواه . (١) . (الورقة ١٣) . ومنها الانبساط الزائد الكثير ، والتضايق في المكان الواسع ، والمجاذبة على الشي يأخذه أحدهما ، والتعمد للمس اليد عند المحادثة ، ولمس ماأمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب ما أبتى المحبوب في الإناء (٢)

فى ضوء هذه الاستفادة ، أو إن شئت الدقة فى ضوء هذا النقل ، نستطيع أن نترصل إلى النتائج التالية :

ي أن طوق الحمامة كان معروفاً ، وجرت عليه أعينالقراءة والكتاب في سورية ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي (٣) ومن ثم لا يجب أن نفقد الأمل في أنه يمكن العثور يوماً على مخطوطة جديدة له في المشرق.

لقد أنيحت لى الفرصة أن ألحظ فى مقدمة ترجمتى الإسبانية اللطوق (٤) أن و باب علامات الحب إه أتبح له من بين أبواب كل الكتاب،

⁽٢) فى الطوق ، فى الصفحة نفسها : وومن علاماته . . الانبساط الكثير الزائد ، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما . . والتصد لمس البد عند المحادثة، ولمسما أمكن من الأعضاء الطاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء

ه في هذا الاتفاق إشارة جديدة على أن إضافة برشيه ، الصفحة ٣٤ من طبعته ، لتصبح
 العبارة • الانبساط الكثير الزائد في المكان الضيق ه ، فزوة خالصة ، مثل عدد من التصويبات
 الأخرى التي حاولها .

⁽٣) كل بقية الموالفين الذين أشرنا إليهم : ان الخطيب ، وابن قيم الجوزية ، رابن أبى حجلة ، من القرن السادس عشر . أبى حجلة ، من القرن الرابع عشر الميلادى ، وداود الأنطاكى من القرن السادس عشر . المقرى حده توفى عام ١٠٤١ه = ١٦٣١ م ، وهو مع ذلك سابق المشيخ مرعى .

⁽٤) أنظر الصفحة ٢٩٧ الحدش ١ من هذا الكتاب .

أكبر حظ من الذيوع والانتشار ، في الشرق والغرب على السواء ، فهل باترى كان هذا الفصل بجرى بين يدى القراء وحيداً ، ومنفصلا عن بقية (الكتاب ، أم أنه ضم ، مع فصول غيره ، إلى كتاب آخر لانعرفه ، وكان . هذا الكتاب المصدر المباشر لمن استخدموه في المشرق، وحتى في الغرب؟ . في هذه الحالة علينا أن نصرف النظر عن النتيجة الأولى .

• ملاحظة أخبراة :

لم تعرض لى في مؤتمر المستشرقين ، ولكني أبادر إلى رأى مكن أن يقال عن القسم الأول من هذه الدراسة ، من الذين يرون أن التشابه صدفة . فها يتصل بالأمكار العامة في الحب ، وفي العبارات والبغم، سهل جداً . لأننا ، في رأى من يدافعون عن هذهالفكرة ، بصددمشاعر ومجالاتمشنركة بن كل عصر ومكان ، ولست من أنصار هذا الرأى. فالحب ليس شيئًا مشتركاً بين مختلف العصور والثقافات ، فضلا عما فيه من جانب تشريعي وآخر بمس وظائف الأعضاء ، ويقول أورتيجا إي جاسيت : و الغان بأن ظاهرة شديدة الإنسانية مثل أن نحب وجدت دائماً ، ودائماً في صورة واحدة ، هو مثل أن نعتقد خطأ أن الأفر اد بملكون مثل المعادن والنبات والحيوان طبيعة واحدة وثابتة ، ونجهل أن كل مافيه تاريخي ، كل شيء . حتى ماينتمي منه إلى الطبيعة فعلا ، كما هو الحال في حاجاته الغريزية . . . الحب شكل واختراع ونظام إنساني ، وليس ابنءم المضم ولازيادة الكلورف المعادة» وأحتفظ لنفسى بتطبيق أفكار أورتيجا إى جاسيت ، في مستقبل غبر بعيد ، على تطور الأدب العاطفي عندالعرب. فقط أبادر هنا إلى القول بأنه عكننا في القريب أن تؤثر خ في عالم العرب المشارقة منى اقتحم الحب العذري محال الحب الطبيعي الجاهلي ، ومنى حل مكانه ، ومنى انتصر الحب الذي تمثله قصائد عمر بن أبي ربيعة

ورفاقه ، ومتى ساد حب الجوارى ، و متى برزت ظاهرة حب الغلمان في الأدب العربي ، ومن كل هذه الغراميات الأخيرة ، ذات التقليد المشرق ، توجد عناصر في طوق الحمامة لابن عزم ، ومن جانب آخر، بين الروحانيات العاطفية النبيلة للأديب القرطبي والفحش الجامى لشاعر كبير من القرن التاسع الميلادى ، مثل الغزال ، تتوسط هوة عميقة ، لا يمكن أن تفسرها بردود فعل عفوية فحسب ، دون أى لون من تأثير التقاليد المشرقية التي صبقته مباشرة .

آخرون كتبوا في الحب

بعد ابن حز م

كان ابن حزم نسيج و حده في كتابه والطوق، على نحوما رأينا ، لم ينقل عن أحد ، ولم يتأثر في منهجه بقراءة ، وترك أثره فيمن جاءوا بعده ، دون أن يباغ أحد منهم ملغه ، وأول هولاء فيما أعرف أبو محمد جعفر بن أحمد السراج ، المتزفي سنة ٥٠٠ هـ ١١٠٧ م ، وإذا عرفنا أنه جاء إلى الحياة هام السراج ، المتزفي سنة ٥٠٠ م عاصر ابن حزم نستوات طويلة تقارب الأربعين عاماً ، وكان عالم قرطبة على السمع والبصر ، ولكن تحديد الزمن الله ي الأربعين عاماً ، وكان عالم قرطبة على السمع والبصر ، ولكن تحديد الزمن الله ي أن دنيا المشرق في القرن الحادي عشر كانت مهيأة ، إن لم تقل متشوقة ، أن دنيا المشرق في القرن الحادي عشر كانت مهيأة ، إن لم تقل متشوقة ، الى أن تقرأ كناباً من طراز و طرق الحسامة ، دون أن نجزم بأن عبني السراج إلى أن تقرأ كناباً من طراز و طرق الحسامة ، دون أن نجزم بأن عبني السراج وقعت عايه ، وليس في كتابه ما يرجح ظنا : على نحوما منعرف بعد قليل .

يعرف السراج بالقارى ، البغدادى . لأنه ولمد فى بغداد ، وعلى صاحتها لقى الله ، وكان رجلا كثير النجارب ، رحل إلى مكة والشام ومصر ، ويقول عنه أجلال الدين السيوطى : لا كان عالى الطبقة فى الحديث والقراءة والنجو واللغة والعروض ، ومن هنا كانت أغلب تآليفه تقوم على الرواية والنقل ، والحمع والنظم ، وكتابه لا متسارع العشاق » خير مثال لهذا ، فهو حشد من الروايات والأخبار والأشعار ، مسندة أو مرسلة ، يوردها دون أى تحليل أو نقد أو موازنة ، كأنما يستهذف الرواية و حدها ، وكأنما غايته التسلية والإمتاع وكنى .

ونختف عن ابن حزم في أنه فقيه سياسي، ومحدث سلفي، بجرى على مذهب العامة في أيامه، و ايس له اطلاع على الفلسفة ، ولا مشاركة في الثقافات الأجدية المترجمة ، وعادى في حياته وثقافته، لايتمنز بموقف بارز في أي مجال،

ور بما لهذا السبب لا تقف عنده كتب التراجم طوبلا ، فهو محدث كمئات المحدثين الذين تضيق بهم بغداد ، ونحوى كآلاف منهم على امتداد العالم للعربى ، وأقرب الظنأنه كان رقيق العاطفة ، يصبو للجمال، ويتذوق الشعر، ويقول الأبيات منه على استحياء ، يلفه الوقار، وتكبح نزعاته التقاليد، ويحرص دائماً على الأخلاق السائدة ، وأراه وجد فى الحديث عن العشاق غيره تسلية ، والحياة مع أخبارهم سلوى، ولعله أراد أن يكتب تاريخه ، وأن ينفس عن مكنون صدره ، حين سطر سيرتهم فى : ومصارع العشاق و .

بدأ السراج كتابه بلا مقدمة تبين منهجه ، و انتهى به دون خاتمة توجَّز غايته ، وكسره على اثنين وعشرين جزءا ، زحمها بكل ما عرف من قصص ﴿ العشاق ، حتى ما كان نادراً أو خرافة لا تصدق ، ولاتجيء أخباره مرتبة ، وقد يعرض للموضوع ثم يعود إليه ، وقد يجيءجانب منه في جزء ، وجانب 🖔 ثان في جزء آخر ، ومحورها أخبار العشاق العذريين ، وفاضت على أيامه ، وأصبحت تمثل في بغداد تياراً ماحوظاً ، في عالم الأدب على الأول . ويأ في بأخباره مسندة ، وهو فى ذلك مجرى على عادة سارية ، لأن إسناد الحبر عنده ليس دليل الصحة دائمًا ، وإهماله ليس قرين الضعف . وأورد لنا عبر هذه ﴿ القصص طائفة من الشعر لعدد كبير من الشعراء على أيامه أوقبلها ، مثل جرير ، وعمر بن أبي ربيعة ، ويشاربن بر د ،وأبي العتاهية،وأبي نو اس، وأبي تمام ، والبحترى ، وغيرهم . ولشعراء آخرين مجهولين من الأعراب وسواهم ، لا نعرف أسماءهم ، ولم تعن كتب الأدب برواية شعرهم ، ﴿ وكان متداولا في مجالس السمر البغدادية على أيامه ، ويأتى ما لأنها نكمل القصة التي يوردها ، أو توشي المرضوع الذي يتحدث عنه ، أو لأن ذاكرته فاضت بها . وعرض على نحو أقل للحب الإلمي ، وأورد هدداً من قصص ﴿ اللصوفية ، وأشعارهم في حب الله ، أو الجنة ، أو الحور العين ، أو في مدح صاحب الكعية:

وحاول في الجانب الأكبر من قصصه أن يؤكد خلود العاشقين ، وأن

بهرز ملامح النساك مهم ، والدين يخافون الله ، وأن يربط بين العشق والنقى والعفة ، وتركنا نفهم أن الدين يسهم بقدر فى توجيه الحب وجهة عفيفة ، فعشاقه يو كدون من خلال تعاملهم علىالوازع الديني ، وأنه يحول بينهم وبين اوتكاب المعاصى ، أو يحماهم على إخفاء عواطفهم ، فصاروا أمثلة المتضحية والوفاء . وهو في كل الحالات رجل إخبارى ، لا يحلل ولا يدرس ، لا يا بمس العلل ، ولا يدفع لك بالنتائج ، ومع ذلك فتحليل القصص الذي أورده بهدى المعالم ، ولا يدفع الحب العذرى فى بغداد . ومن المفيد أن نشير إلى أن السراج ، وقد طوى كنابه على الكثير من شعار العدريين وصرعي الحب الإلهي ، السراج ، وقد طوى كنابه على الكثير من شعار العدريين وصرعي الحب الإلهي ، المسراج ، وقد طوى كنابه على الكثير من شعاراته العلمان ، وأورد شيئاً من شعرهم المأجن ، وهي ظاهرة ترتبط بتقدم الحضارة ، وكانت بغداد في قمة الحضارة الما أيامه ، ولعلها لم تكن ترى في الحديث عن مثل هذه الظاهرة الشاذة شيئا بعاب .

ومهما یکن فکتاب السراج قصص انفصل عن الواقع، وحن الأسماء النی ارتبطت به، زاد فیه الرو اق و أعاده ا تلوینه، أو ابتدعوه أصلا، و نثر و ا بین سطووه أسماء معروفة : ایکون أقرب إلی الواقع، وانفد إلی قلوب السامعین، وهو یعکس دون شك ذوق الذبن أقبلوا علی هذه القصص، یسمرون بها أویؤ رخون لها ، دون أن تصبح و ثبقة لحیاة أبطالها ، أو لواقع المحتمع الذی انتموا إلیه ، ومؤلف الکتاب فقیه خاتف ، یتوجس شرآ من وراء روایة أیة حکایة ، فیور دها مسئدة ، کأنما برید أن ینفض یدیه من مسئولیتها ، ویو صد الباب دون مشاعره : فلا یعرف أحد علی نحو یقینی ما تنطوی علیه ، وکاها ملامح یقف این حزم فی الحانب المقابل لها تماما .

بعد نمانی سنوات من وفاة السراج یجی م ابن الجوزی ، أبو الفرج عبد الرحمن ، القرش البغدادی ، ولد فی بغداد عام ۵۸۰ هـ ۱۱۱۶ م ، وفیها توفی عام ۵۹۷ هـ ۱۲۰۱ م ، والجوزی نسبة إلى د فرضة الجوز ، وفیها توفی عام ۵۹۷ هـ ۱۲۰۱ م ، والجوزی نسبة إلى د فرضة الجوز ،

من ضواحی عاصمة الرشيد . وأمضی طفولة تعسة ، مات أبوه ولما يتجاوز الثالثة من عمره ، وأهملته أمه ، فرحته عمة له ، ثم احتضنه محاله حين ظهرت مواهبه ، وتفرد بين قرنائه ، واتجه صغيرا إلى الرعظ ، فبرع فيه ،أعانته هليه أمشاعر رقيقة ، وحذان متدفق ، ورغبة في الإصلاح ، وعزم على مقاومة الفساد اللذي عم وطم ، بالكلمة القارعة ، والقصة الموحية ، والمثل القلوة . الفساد الذي عم وطم ، بالكلمة القارعة ، والقصة الموحية ، والمثل القلوة . ولكن مواهبه لم تقف به عند الوعظ ، فشارك في كل مناحي العلم على أيامه ، كتب في علوم القرآن والحديث ، والأدب واللغة ، والرعظ أو الفقه ، والتاريخ والسير، وتعرف له المكتبة العربية قرابة ستين كتاباً بين مخطوط ومطبوع ، على حين يرتفع أصحاب التراجم القدامي بموالهاته إلى اللاث مئة ، ومطبوع ، على حين يرتفع أصحاب التراجم القدامي بموالهاته إلى اللاث مئة ، وبهمنا من بينها حيماكتابه : و ذم الموي » . ﴿

وقبل أن نعرض للكتاب نفسه أرى من المفيد أن نذف عند صورة دقيقة لمولفه ، أوردها ابن العماد الحنبي ، نقلا عن المرفق عبد اللطيف ، فغيها ما يكشف اتجاهه ، ويلقى إضره أعلى مولفه ، يتول : وكان ابن الحرزى الحطيف الصوت ؛ حلو الشائل أن رخيم النغمة ، موزون الحركات ، إلذيد المفاكهة ، لا يضيع من زمانه شيئا ، يكتب قى البوم أربع كر اريس ، وير تفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلدا إلى ستين ، وله في كل علم مشاركة ... وكان يراعى حفظ صحته ، وتلطيف مز اجه ، وما يفيد عقله قرة ، وذهنه الحدة ، يعتاض عن الفاكهة بالمفاكهة ، لباسه الأبيض الناعم المطيب ه .. أوله عبون لمطيف ، ومداعبات حلوة ، ولا ينفك عن جارية حسناه ، وذكر عبون لمطيف ، ومداعبات حلوة ، ولا ينفك عن جارية حسناه ، وذكر غير واحد أنه شرب حب البلادر فسقطت لحيته ، فكانت قصيرة إجداً ، وكان مخضها بالسواد إلى أن مات ه .

ورغم أن ابن الجوزى احتاط لنفسه ، فجعل عنوان كتابه: و ذم الهوى، ، ثما يرفع الحرج عنه قلوهلة الأولى ، احتاج كعادة الذين كتبوا فى الحب قبله ، أن بشير إلى أنه يؤلف كتابه استجابة لرغبة أبديت له: «شكا إلى بعض من أثرت شكواه إثارة همتى فى جمع هذا الكتاب ، من بلاء

بنلى به ، وهوى هوى فيه ، وسألنى المبالغة فى وصف دواء دائه، فأهديت له نصيحة وديد لأو دائه ، وقد أتيت بها على أبلغ ترتيب ». وبعد مقدمة قصيرة حداً لانتجاوز هذه السطور، عقب بما يشبه أن يكون اعتداراً عما يشب أن يكون اعتداراً عما يس وقاره من مضمون الكتاب: و وأعلم أنى قد نزلت لأجاك فى هذا الكتاب عن يفاع الوقار ، إلى حضيض الترخص فيا أورد ، اجتذاباً لسلامتك ، واجتلابا لعافيتك ، وقد مددت فيه النفس بعض المد : لأن مثان مفتقر إلى مايديه من الأمهار ، حن الفكر فيا هو بصدده من الأخطار، فيكن هذا الكتاب سميرك ، واستعمال ماآمرك به فيه شغلك ، والله ولى صلاحك ، فإنه لاعاصم إلا من رحم ، .

أَمْ أَنَى عَلَى الْأَبُوابِ النَّى تَضَمُّهَا الكتابِ ، وتَبَلَغ الْحُمْسَين ، وتحت كلَّ اللَّهِ مِنْ الْحُمْ اب قصول عديدة ، تتناول الجوانب المختلفة للقضية التي يُمَالِجُها .

نحن مع و ذم الهوى ، إذن أمام كتاب ضخم ، لعله أضخم كتاب ألف في هذا المجال ، ولاغرو أن يكون كذلك ، فصاحبه واعظ ، معرفه و فيرة و هبارته مواتبة ، ورغبته في الإفاضة بينة ، وإدراكه لنفسية الفارىء دقيقة ، وكانت دراسته جماع هذا كله ، جاء الجانب الأكبر عنها في التحذير والتذكير ، من التنبيه إلى فضل العقل ، و ذم الهوى والشهوات و الحض على مجاهدة النفس و محاسبتها و توبيخها ، و مدح الصعر و الحث عبه ؛ و حراسة القلب من التعرض الشواغل و الفتن ، و ما يصدأ به ، و مباؤه ، أو يفرغه من محبة الرب.

وخص النظر بأبواب عديدة ، تدور حول الأور بغض البصر ، وذم فضول النظر ، والتحذير من شره ، والهي هن النظر إلى المردان و بجالسهم ، و إثم النظر وعقوبته ، ومن عاقب نفسه عليه ، و من طلب العمى خوف الفتنة ، و ثواب من غض بصره عن الحرام ، ومعالجة الهم والفكر المتولد عن النظر ، والتحذير من فتنة النساء ، والتخويف من الفتن ومكايدالشيطان ، والتحذير من المعاصى وقبحها ، وقى ذم الزنا ، وعرض المعواطف المنحرفة ، وحذر من ذلك كله ، وذكر بعقوبته ، وحث على التوبة لمن تردى في مهاويها ، وخرج من ذلك إلى نهاية منطقية فيها الحماية لمن أراد العافية ، فحبب في الزواج ، وقرع من خبب امرأة على زوجها ، وبذلك انهى الجانب الوعظى من الكتاب .

ومن الباب الحامس والنلائين حتى نهاية الكتاب وقفه على العشق ، حقيقته وأسبابه وذمه ، وثواب العفة فيه ، وما يجرى على العاشق من المرض والضيى والحنون ، والحيل والمخاطرة والنهلكة الأجل لقاء المحبوب ، ومن ضربت به الأمثال من العشاق ، ومن حمله العشق على أن يزنى بمحارمه ، ومن كفر بسببه ، ومن دفع به العشق إلى أن يقتل نفسه أو معشوقه ، ومن قتله العشق ، وأدوية الشفاء ، وأخبار مشاهير العشاق ، وأنهى الكتاب بباب وقفه على الوصايا والزواجر والمواعظ ء

كان اعباد ابن الحوزى في الحانب الحاص بالهي والتحذير ، والإرشاد والتذكير ، قائماً على النقل عن الزهاد والعباد والمحدثين ، والفقهاء والمتصوفة والمفسرين، والأدباه والعلماء وعلية القوم ، والبدو وعامة الشعب، وقد يذهب بعيداً فينقل عن السيد المسبح ، ويستشهد بأحوال الرهبان ، أو يضرب المثل بأنبياء بني إسرائيل . وأفاد في الأبواب الحاصة بالمشق من النراث اليوناني المترجم ، فهو ينقل عن أفلاطون ، وبوذجانس بم وأرسطوطاليس ، وفيثاغورس ، وجالينوس ، ويسميم و الأوائل ، به ويعقب على آرائهم بالإسلاميين . إنه متوح المقل والقلب ، ياتقط أية مادة يسقط عليها عقله ، ما دامت تخدم الهدف الذي يسعى إليه ، ويوشى مادة يسقط عليها عقله ، ما دامت تخدم الهدف الذي يسعى إليه ، ويوشى طويلة ، وأخباره مسندة دائماً ، وعبارته واضحة أبداً .

وحددت مهمته واعظاً بهجه فى الرواية ، فهو يهتم بالتأثير فى المقام الأول ، لا يعنيه المصدر كثيراً ، ولا صدق ما يرويه ، نحور القصة ويطورها ، وقد يوشيها محديث ولو موضوع ، لكى يبلغ التأثير غايته م

وجرى قامه بأبعاد مما جرى به قام أى واحد من الذين سبقوه ، يورد أ قصة الأم الى عشمت ابنها واحتالت عايه ، والأخ الذى أحب أخته واتخذها عشيقة ، وبمضى بالقصتين فى خبر مثير وأسلوب سهل جداب ، يغرى بالقراءة ، وبمسك باهمام القارىء حتى النهاية .

والكتاب صورة لما كان يجرى في المجتمع العربي بعامة ، وفي بغداد على نحو خاص ، في عصر الموالف وما قبله ، وإذا صفينا مادته من طابع المقصة ، وإرادة الناثير ، التقينا بالحياة كما هي ، وإذا البون شاسع بين ما يحدث فعلا ، وما يتمناه ابن الجوزى واعظاً ، وقد أسرف في أمثلته ، وأراها لاتحقق ما أراد منها ، فنها أشاع نادراً، وأذاع مجهولا ، وجعل من مقطات الأبرار مندوحة لعامة الناس .

وأدار المؤلف ظهره للأبدلس ، والغرب الإسلامى ، وحتى مصر لا ترد إلا نادراً ، وكان فى ذلك محلصاً مع نفسه ، فهو لم يبرح بغداد فيا البدو ، والنفط مادته من روايات معاصريه الذين لقيهم ، وشهدة بنت أحمد من بينهم على نحو ظاهر ، والحبر الآندلسى الوحيد الذى اهتم به ، وأورده تفصيلا ، قصة أحمد بن كليب مع أسلم بن عبد العزيز ،

وأكاد أجزم أن ابن الجوزى لم يقرأ وطوق الحمامة ، أو حتى سمع يه ، فهو لا يأتى على ذكر ابن حزم أبداً ، ولا يلتقى معه وأى أو مهج أو فكرة ، ومسافة الحلف بيهما واسعة ، مادة ومنهما ، ابن حزم أصيل وذاتى ومبدع ، وابن الحوزى قارىء ومختار وصانع ، والأول واقعى ومقرر وذابى ، والنانى واعظ وقصاص وناقل ، والقرطبى يقدم مادة لا نكد نجدها عند غيره ، والبغدادى يقدم حشداً هاثلا من الروايات ، لا نكد نجدها عند غيره ، والبغدادى يقدم حشداً هاثلا من الروايات ، ومكن أن نلتقى بالحزب الأكبر منها مبعثراً فى مؤلفات أخرى ، ولكن غاك لا يقل من شأنه ، فهو شبق بحكاياته وأسلوبه ، وأنت تجرى بين على طوره ، وكأنك نقراً كناباً معاصراً ، لا تقع منه على جملة قلقة ، شعور غايض ، أو كدمة صعبة تقف عندها، أو تحتاج فى فهمها أن

تعود إلى العاجم.

* * · ·

وبعد قرن تقريباً مجىء ابن قيم الجوزية ، ومن توافق الصدف أن البعد الزمني بين وفاة السراج ومولد ابن الجوزي ، يعادل تقريباً المسافة بين وفاة ابن الجوزي ومولد ابن قيم الحوزية ، صنوات تتجاوز التسعين وتقل عن المائة ، ؛ وثمة فارق جوهري بينهم ، فالسراج وابن الحوزي بغداديان ، وابن قيم الحوزية دمشقى ، جاء إلى عاصمة بي أمية عام ١٩١٩ه = ١٩٩١م وبها توفى عام ١٩١١ه = ١٣٥٠م ، وعبر حباته الطويلة تنقل ما بين سورية ومصر ومكة . وكان تلميذاً لمشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢٦٣ – ١٣٢٨م) ، لا مخرج عن شيء من أقواله ، وينتصر له في جميع ما يصدر عنه ، وهو الذي هدب كتبه ، و نشر علمه ، وسجن معه في قلعة دمشق ، وأهين وعذب الذي هدب كتبه ، و نشر علمه ، وسجن معه في قلعة دمشق ، وأهين وعذب بسببه ، وطيف به على جمل مضروباً بالعصى ، وأطلق سراحه بعد موته . وكان ابن تيمية إماماً جليلا ، لا مخضع في مذهبه إلا للقرآن والسنة والإجماع ، بعدة أنه من أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، وقد رفع عقمرته ضد البلخ عبادة الأولياء والحج إلى قبورهم ، والنذر لهم ، وسار الوهابيون على ومبادئه فيا بعد .

وكان ابن قيم الحوزية حسن الحلق ، عبوياً عند الناس، ذا عبادة و تهجه وطول صلاة ؛ تفن في كافة علوم الإسلام من تفسير وحديث وأصول ، متمكناً من النحو وعلم الكلام والتصوف ، أغرى محب الكتب فجمع منها عدداً عظها ، وكتب نخطه الحسن شيئاً كثيراً ، وألف تصانيف كثيرة تقارب السبعين ، أروجها : «زاد المعاد في هدى خير العباد ، ويهمنا من بينها كتابه : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ، وأراد به فيما يقول : وعوناً على الدين والدنيا ، فتارة يضحك قارثه ، وتارة يبكيه ، وطوراً يبعده عن أسباب اللذة الفانية ، وطوراً يرغبه فيها » .

تناول أبن القيم الحوزية الحب من كل جوانبه ، حب الله والإخوان ،

والأموال والنساء والألحان؛ و فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بهاياتها، وبها ظفرت النفوس عطالبها، وحصات على نيل مآربها، وتخلصت من معاطبها، ويرد الحب إلى أسباب ثلاثة: ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبته، وما قام بالمحبوب، والموافقة التي بين المحبوب، والمحبوب، ومتى قويت هذه الدواعي وكمات، قويت المحبة واستحكمت، والعكس صحيح أيضاً.

وهو رجل دين ملتزم ، وباحث جاد في دروسه وفي حياته ، يعرض للجنس والحب فلا يرى له طريقاً غير حكم الشريعة ، لايرجع إلى عادة جارية في أيامه ، ولا إلى تفسير مستعار ، لايتساهل ولا يترخص ، وإن فصل الحطاب هو أن الاتصال الجنسي الحرام يفسد الحب ، ولابد أن تنتهى المحبة بينهما إلى المهاداة والتباغض ، أما الاتصال المباح فإنه يزيد الحب إذا صادف مراد المحبوب ، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى لم تكن حاصلة قبل الذوق » .

ويعرض للنظر على غير ما نظر فيه ابن الجوزى قبله ، يورد آراه الذين يرونه مباحاً ، لأن روية الجمال البديع تنطق ألسنة الناظرين بقولهم : سبحان الله رب العالمين ، وتبارك الله أحسن الحالقين ، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن عبئاً ، وإنما أظهرها ليستدل الناظر إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعه ، ولقد خطب رجل امرأة فاستشار الذي نقال : هل نظرت إليها ؟ فقال : لا . قال : اذهب فانظر إليها » . و و أمر الذي للخاطب بأن ينظر إلى المخطوية إنما هو نظر للحاجة ، وهو من النظر المائدون فيه لمصلحة راجحة ، وهو دخول الزوج على بصيرة ، فالنظر المباح أنواع هذا أحدها ، مخلاف النظر المال الصورة المحرمة ، بل إن التلاصق لايذهب التقى إذا كان في عشق مباح ، بل هو أمر مستحب ، كعشق الزوجة والجارية » . ويورد مناظرة طريفة بين بل هو أمر مستحب ، كعشق الزوجة والجارية » . ويورد مناظرة طريفة بين

(القلب والمين ، فالعين رائدة ، والذلب باعث وطالب ، وهذه لها لذة الرؤية ، وهذا له لذة الظفر ، ولهذا كانا في الهوى شريكين ، فلما وقعا في العناء ، واشتركا في البلاء ، أقبل كل منهما ياوم صاحبه ،

ويورد في حتيقة العشن آراء الأعلباء والفلاسفة ، والمفكرين العرب ، وأهمهم رأى تمامة بن أشرس ، وهو موجود في كل الكنب السابقة التي فرضت للحب ، ويعرض لإرادة الحب : هل هر اختياري تابع لهوى للنفس وإرادتها ، أو اضطراري لاياخل نحت قدرة العبد ، فهو بمزلة محبة المظمآن الماء البارد ، والجائع للطعام ، وبورد آراء كل من الفريقين ، ويفصل بينهما ، منهيا إلى رأى وسط ، فالحب في أوله ، من نظر وتفكير وتعرض ، أمر اختياري ، ولكن ما يترتب على هذا الاختيار المعطراري ، ويضرب لذلك مثلا بالحمر والسكر ، فشر ب الحمر أمر إرادي ، ولكن السكر الذي يتولد عنه اضطراري ، ومني وقع السبب اختيارا ، لم يكن فاعله معذورا فيما تولد عنه ، فإذا حصل العشني بسبب غير محظور ، كمن يعشق زوجه فيما توليقف بالجبرية عند هذا الحد ، فمن وقع نظره فجأة على جميلة ، ثم صرف ولايقف بالجبرية عند هذا الحد ، فمن وقع نظره فجأة على جميلة ، ثم صرف بعره ، ولكن العشق تمكن منه ، لم يكن محتاراً ،

ويتناول قضية الحب من جانبها الفقهى، وأكمله فيا يرى ما أنتمى بالزواج الخالعزوبة ليست من الإسلام فى شيء، فإذا تزوج المحبان فإن للمعاشرة فوائد وآداباً وقواعد منها: وإكمال اللذة ، وكمال الإحسان إلى الحبيبة ، وحصول الأجر ، وثواب الصدقة ، وفرح النفس ، وذهاب أفكارها الرديئة عنها ، وخفة الروح ، وذهاب كثافتها وغلظها ، أو خفة الجسم ، أو اعتدال المزاج ، وجلب الصحة ، ودفع المواد الرديئة ، فإن صادف ذلك وجها حسناً ، وخلقاً دمثاً ، وعشقاً وافراً ، ورغبة تامة ، فنلك اللذة التي لا يعادلها شم ، ولاسها إذا وافقت كما لها ، فإنها لا تكمل حتى بأخذ كل جزء من البدن بقسط من اللذة ، فتلذ العين بالنظر إلى المحبوب ، والأذن بسهاع من اللذة ، فتلذ العين بالنظر إلى المحبوب ، والأذن بسهاع

كلامه ، والأنف بشم رائحته ، والفم بتقبيله ، واليد بلمسه ، وتعتكف كل جارحة على ما تطلبه لذتها ، وتقابله من المحبوب ، فإن فقد من ذلك شيء لم تزل النفس متطلعة إليه ، فلا تسكن كل السكون ، والمالك تسمى المرأة سكناً لسكون النفس إليها ، قال الله تعالى : وومن آياته أن خاق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » .

ويدرك واعيا أن الرغبة تشتد مع الصحة الكاملة ، والغذاء الجيد ، وتهبط أو تتلاشى مع المرض والجرع والحاجة ، فالصوم ، مثلا ، يكسر حدة الشوق ويضيق على النفس مجارى الشهوة ، ويخم كتابه بخمسين وصفة لمن وقع فى الهوى وأراد أن يبرأ منه ، وهى نصائح مسجوعة ، ووعظ إنشائى ، قراعها تسلى ، ولكما لاتشفى عاشقاً ، ولاتأخذ بيد مريض .

نا در ينفرد ابن قيم الجوزية بين رفاقه بأنه قرأ كتاب وطوق الحمامة ، دون شلك ، وعلى ذلك شواهد من حياة الرجل ، ومن طبيعة العصر ، ومن كتابه نفسه . فنحن نعرف أنه كان جماعة للكتب حفياً بها ، وخاف وراءه مكتبة غنية ، وكانت الصلة بين دمشق والأندلس أقوى بكثير في هذه الفيرة من الزمن مها كانت عليه بين الأندلس وبغداد بعد أن سقطت الحلافة ، واجتاح هولا كو عاصمة بني العبام ، وأتى على معالمها تدميراً ، وأرسل بها إلى دائرة الظل لزمن طويل ، على حين صعد نجم القاهرة مريعاً ، وأصبحت قبلة العالمين العربي والإسلامي ، بعد أيام صلاح الدين المحيدة ، وأصبحت قبلة العالمين العربي والإسلامي ، بعد أيام صلاح الدين المحيدة ، وبعد أن حطم الجيش المصرى بقيادة الظاهر بيبرس جيش التار في موقعة وعين جالوت ، ، عام ١٢٦٠ م ، وحرو سورية ، وعاد بها من جديد إقليا من دولة كبرى عاصمها القاهرة ، وتشمل مصر والشام والجزيرة العربية . وكانت مصر محط الأندلسين في طريقهم إلى الحج ، أو رحالة العربية . وكانت مصر محط الأندلسين في طريقهم إلى الحج ، أو رحالة ألى الشرق ، أو تجاراً يعماون في النصدير والاستيراد ، أو طلاباً يبحثون العماون في النصدير والاستيراد ، أو طلاباً يبحثون العلم ، أو أساتذة يحاولون أن بجدوا لم في حلق الأزهر مكاناً ، زهواً عما وصلوا إليه وبلغوه في وطنهم ، أو هاربين من الملاحقة يطلبون الأمن

والمأوى . ومن القاهرة ينطلقون إلى الحجاز للحج ، وإلى القدس تبركاً ، وإلى دمشق طاباً لصناعاتها الدقيقة ، وكانت تشهر بها على نحو عالمي ، طوال. العصر الوسيط .

أما تأثير «الطوق» في كتاب « روضة المحين» ، فيتجلى من خلال مناقشة ابن قيم الجوزية لآراء ابن حزم وفيا نقل عنه ، فهو يرفض رأى عالم قرطبة في أنسبب الحب الصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع » ، لأنه مبنى على القول بتقدم خلق النفوس على الأبدان وهو فاسد . وعلى خطى ابن حزم يومن بوحدانية الحب ، ولكنه لا يقف مثله بالفكرة عند جانبها العاطفي وحده ، وإنما يكسوها ثوباً دينياً ، فيذكر الآية : و ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصم » ، فيذكر آراء المفسرين في أن المقصود عجز الإنان عن العدل بينين في الحب والشهوة ، وإن كان يستطيع أن يفعل ذلك فيما هو مادى من الملبس والمسكن والنفقة . وينثر أبيات ابن حزم في استحالة تعدد المحبوب ، ويصنع منها مثلا موجزاً : « ليس في القلب حبان ، ولا في السماء ربان » .

أما الباب الحاص بعلامات الحب ، فكان فيه عالة على ابن حزم تماماً ، ينقل عنه دون أن يشير إليه ، ويستشهد به ذاكر له فى أكثر من موضع ، والفرق بينهما أن ابن حزم موجز ، يحاول أن يعطى صورة لنفسه ولمن حوله ، دون أن يرتدى ثباب الواعظ أو مسوح الراهب ، ولا يحاول أن يبحث عن أمثاله خارج حياته وحياة صحبه ، ولا يقتنص الشواهد مما قرأ فى كتب الآخرين ، على حين أن ابن قيم الجوزية يورد على ما يقول ، أو ينقل إن شئت ؛ الشواهد كثيرة ومتعددة ، وهو يورخ أو يحلل ، ولكن عينه على ما تقتضيه الشريعة إجازة أو تحريماً ، وقد كسا أفكاره أثواباً مشرقية ، ما تقتضيه الشريعة إجازة أو تحريماً ، وقد كسا أفكاره أثواباً مشرقية ، وصاغها في صورة دينية ، ليبلغ بها غايته ، وكان واثقاً من نفسه فلم يكن في حاجة ليعتذر عن حديثه في الحب ، أو ليبرر إقدامه على التأ ليف فيه ،

وكان ابن أبي حجاة التلمساني ، أحمد بن يحيى ، أبو العباس ، معاصراً لابن قيم الحوزية ، حنيلياً مثافى اتجاهه الفقهي ، وهو يمثل وحدة الثقافة الإسلامية في عصرها الزاهر خبر تمثيل ، فقد ولد في المغرب عام ٥٧٧ هـ - ١٣٧٥ م ، وأمضى شطراً من حياته في دمشق ، ثم جاء القاهرة واستقر بها ، وولى مشيخة الصوفية بصهريج منجك ، إلى أن توفي عام ٧٧٧ هـ = ١٣٦٦م ، وله أكثر من ثمانين مصنفاً في الحديث والفقه والنحو والأدب ، وله شعر ونثر ، ويهمنا من بين كل مؤلفانه كتابه : ديوان الصبابة ،

بدأ ابن أبى حجلة كتابه بمقدمة مسجوعة ، أبان فيها غايته بأنه محوى أخبار من قتابهم الهوى ، وتركبهم كهشيم محتظر ، ويزهو بأن جماعة من معاصريه غلبوا من تقدم بالتأليف في هذا الباب ، ويقارن بين كتابه وبين ما ألفه الشهاب محمود ، ويرى أن ذاك بالنسبة إلى هذا مشكور ، ويشير إلى وطوق الحمامة ، في السطور الأولى من مقدمته إشارة غامضة ، لم أتبين مايريد منها تماماً ، ربما لأن النص الذي بين أيدينا مطبوع تجارياً، يجيء على هامش كتاب « تزين الأسواق » للأنطاكي ، فهو ملى عبالتحريف والأخطاء .

سلك ابن أبي حجلة في تأليف كتابه طريق « الاختصار والاقتصار ، واحتذى فيه شكلا منهج ابن حزم ، فرتبه على مقدمة وثلاثين باباً وخاتمة . أوقف المقدمة على ذكر حد العشق واشتقاقة ، وماقيل في وسمه ورسمه ، وأسبابه وعلاماته ومراتبه، وأسمائه ومدحه وذمه ، واختلاف الناس فيه : أهو اختيارى أم اضطرارى ، وخص الخاتمة بمن ومات من حبه ، وقدم على ربه ، من غنى وفقير ، وكبير وصغير ، ، ودرس في كل باب من أبوابه جانبا من جوانب الحب ، فبدأ بذكر الحسن والجمال، والمحبين والظرفاءمن الملوك والحافاء : ومن عشق على السماع ، ومن أول نظرة ، وتغير ألو انالحبين ، والغيرة ، وإنشاء السر ، ومغالطة الحبيب ، والرسل والرسائل ، وطيف الخيال ، والرقيب والنام والنام ومغالطة الحبيب ، والرقيب والنام والنام

والواشى ، والتعانب بن الأحبة ، ومساعدة العاشق ، والشفاء من الجوى"،
وتعنت المعشوق ، والدعاء على المحبوب ، والحضوع ، والوعد ، والرضى
من المحبوب ، واخلاط الأشبح ، ونحول المحب ، وما يكابده المحبون ،
وطيب ذكر الحبيب ، ووصف ما محمل فى المحبوب شكلا ، وأخبار
المطربين من الرجال وذوات الحجال ، ومن ابتلى بحب النساء والغلمان ،
ومن اتصف بالعفاف . ويأتى بعناوين الأبواب مسجوعة فى تكلف ظاهر،
ومن اتصف بالعفاف . ويأتى بعناوين الأبواب مسجوعة فى تكلف ظاهر،

عاش ابن أبى حجلة فى عصر بدأت فيه النقافة العربية تأخذ شكلا موسوعيا ، بقوم على الجمع والحفظ والترتيب ، وكان المغاربة أكثر ميلا ، وأسبق أخذا ، فى هذا الانجاه ، ويتجلى هذا واضحا فى و ديوان الصبابة ، فقد زحمه صاحبه بأسماء الفلاسفة والشعراء والكتاب ، وهو لا يقنع من مالاسماء الاجنبية بلكرها ، وإنما يضيف إلها تعريفاً موجزاً ، لا تجده عند من سبقوه ، ممن كتبوا فى هذا المجال ، فأرسطو فلكى وتلميذ أفلاطون ، وأفلاطون أخذ الحكمة عن فيثاغورس ، وبطليموس فلكى وعلى معرفة واسعة بالجغرافية ، وإلى جوار هؤلاء تنتقى بأسماء ابن سينا ، والجنيد ، ومن الشعراء أبو تمام ، وبشار ، وأبو نواس ، وامرؤ القيس ، والبهاء زهير ، وابن نباتة المصرى ، وآخرون كثيرون :

وينقل عمن سبقوه في الكتابة عن الحب ، كالحرائطي ، وابن حزم ، والسراج ، وابن الجوزي ، وابن قيم الجوزية ، وعن أبي عمر و محمد بن أحمد النوفاني ، في كتابة و تحفة الظراف » ، وشمس الدين بن الأكفاني في كتابه : و غنية اللبيب عند غيبة الطبيب » ، وتفرد من بين هولاء جميعاً بأنه ضمن كتابه أمشة أندلسية عديدة ، جاء بها من مصادر مختلفة ، أشار إليها حينا ، وأهملها حينا آخر ، وهو أمر طبيعي من مغربي يعيش في المشرق ، ويشده الحنين دوما إلى مسقط رأسه ، وذكريات أمسه ، وكان الأندلس جزءاً من عالم المغرب أحاسيساً وذكريات . فقد أورد في الباب الأولى بيتن

الحكم بن هشام دون أن ينسبهما إليه ، مكتفيا بقوله : إنهما و لبعض ملوك الأندلس ، وهما :

ظل من فرط حبه مملوكا ولقد كان قبل ذاك مليكا تركته جآذر القصر صبا مستهاما على الصعيد تريكا

ثم عاد في الباب الثاني ، وهو الحاص بذكر والمحبين الظرفاء ، من الملوك والحلفاء »، فذكرهما ثانية ، وأضاف إليهما بيتين آخرين ، ونسبها إلى الحكم ابن هشام صراحة (١) ، وأتى بأبيات الرشيد في جواريه ، وهي مشهورة ، ووصلت الأندلس في زمن مبكر ، وراجت فيه كثيراً ، وأتبعها بأبيات الحليفة الأندلسي سليان المستعين ، من قصيدته التي قالها يعارض فيها أبيات الرشيد ، وكان الأندلسيون يزهون بقصيدة أميرهم ، ويرون محق أنها أرق من أبيات الرشيد ، وقد أتينا عليهما من قبل (٢) . وينقل بعدها رواية للشيخ أثير الدين أبي حيان نصها : «كان السلطن أبو عبد الله محمد بن السلطان أثير الدين أبي حيان نصها : «كان السلطن أبو عبد الله محمد بن السلطان وأبيته مراراً بغرناطة ، وأنشدني شعراً ، وحضرت عنده إنشاد الشعراء ، ومن شعره :

أيا ربة الخدر التي أذهبت نسكى على كل حال أنت لابد لى منك فإما بذل وهو أليق بالملك ، فإما بدر وهو أليق بالملك ،

وهوكما ترى شعر سخيف ، وكل مبررات روايته وذكره أن قائله أمير . ويورد الأبيات النالية ، من قصيدة رقيقة وشهيرة لابن بقى ، نقلا عن أبن الأبار فى كتابه (تحفة القادم » ، وهى ليست موجودة فى « المقتضب» منه الذى اختاره أبو اسحاق إبراهيم بن محمد البلفيقى :

⁽۱) المقطوعة من خبسة أبيات في « الحلة السيرا^ء لابن الأبار ، ج 1 ص ٤٩ ، طبعة. القاهرة ١٩٦٣م

⁽٢) أنظر صفحة ١٢٢ من هذا الكتاب .

حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانقى أبعدته عن أضلع تشتافه كي لا ينام على وسادخافق

ويعلق عليها ابن الأبار: ونسب بعض أهل عصرنا ابن بقى (١) إلى الجفاء فى قوله: وأبعدته عن أضلع تشتاقه ، ولو قال: أبعدت عنه أضالع تشتاقه و لكان أحسن و ويعقب عليه برأى ابن الأثير فى هذه الأبيات ، نقلا عن كتابه و المثل السائر و : وأبيات ابن بقى من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقض رقصاً و ولم يقف عند هؤلاء وحدهم ، فاستشهد بأبيات من شعر ابن عبد ربه ، وابن زيدون ، وابن شرف ، وابن رشيق ، وابن الزقاق ، وابن خفاجة ، وابن سهل الإشبيلى ، وغيرهم ،

وقد اتكأ ابن أبي حجلة على ابن حزم في أكثر من مكان ، وكان غرسية غومث فطناً كعادته حين لحظ أن «باب علامات الحب» في وطوق الحمامة اكان أكثر أبو اب الكتاب ذيوعاً وتأثيراً فيمن جا وا بعده ، ونجد ذلك واضحاً في مقدمة و ديو ان الصبابة ، في الفصل الحاص بأسباب الحب وعلاماته ، فهو يذكر : و ومها أنه يستدعي سماع اسم محبوبه ، ويستلله الكلام في أخباره ، وبحب أهل محبوبه ، و والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتي به ، ولو أنه عين المحال ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، وانباعه كيف سلك ، و والإمراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه ، والدنو منه ، واطراح الأشغال الشاغاة عنه ، والزهد فيها ، والرغبة عنها ، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته ، والتباطيء في المشي عند والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته ، والتباطيء في المشي عند القيام عنه ، وهي فقرات نقلها كلها عن و الطوق ، نصاً دون أن إشير إليه .

⁽۱) وردت كلمة ابن بقى فى ديوان الصبابة المنشور فى المرات الثلاث (ابن تقى)، وهو خطأ .

ويذكر ابن أبى حجلة فى الباب الثالث من كتابه ، وهو و فى ذكر من عشق على السماع ، ووقع من النزوع إلى الحبيب فى النزاع ، قصة أبقر اطحين وصف له رجل من أهل النقص أنه يجه ، فقال : ما أحبى إلا وقدوافقته فى بعض أخلاقه ، وقد نقالها نصاً عن ابن حزم ، وقد أوردها فى والطوق ، فى باب و الكلام فى ماهية الحب » . وينقل فى الباب التاسع والعشرين ، وهو وفى ذكر من ابتلى من أهل الزمان بحب النساء والغلمان ، فصة أوردها ابن حزم فى والطوق » فى وباب فضل التعفف » ، وينسبها قصة أوردها ابن حزم فى والطوق » فى وباب فضل التعفف » ، وينسبها ألمه فى هذه المرة ، ويلقبه بالأموى ، ونص عبارته : وقال الحافظ أبو محمد الأموى ، أن امرأة يثق بها حدثته أن فنى علقها وعلقته ، وشاع أمرهما ، فاجتمعا يوماً خالين ، فقال لما : هلمى نحقق ما يقال فينا . فقالت : لا فاجتمعا يوماً خالين ، فقال لما : هلمى نحقق ما يقال فينا . فقالت : لا والله ، لاكان هذا أبداً ، وأنا أقرأ : و الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

وأورد ابن أبي حجلة في الباب الثاني ، « في ذكر المحبين الظرفاء ، من الملوك والحلفاء » ، أبياتاً لابن حزم ، دون أن ينسبها إليه ، وقد جاءت في « الطوق » عند الحديث على وحدانية الحب ، في « باب من لا يحب المع المطاولة » (١) ولم يورد « ديوان الصبابة » البيت الأول ، وتقدم بالبيت الأخير بيتا ، وتأخر بالذي سبقه ، وأعاننا على تصحيح كلمة فيه ، بالبيت الأخير بيتا ، وتأخر بالذي سبقه ، وأعاننا على تصحيح كلمة فيه ، حاءت قلقة في طبعتنا الأولى « للطوق » ، وصححناه في الطبعة الثانية منه ، كانت في تلك « ذو شك » ، فأصبحت في هذه « ذو شرك » ، وهي أقرب كانت في تلك « ذو شك » ، فأصبحت في هذه « ذو شرك » ، وهي الباب الثالث ، وهو « في ذكر من عشق على السماع » ، يورد ثلاثة أبيات من الشعر ، من بحر الهزج ، وينسبها لشاعر يدعي المدني ، يورد ثلاثة أبيات من الشعر ، من بحر الهزج ، وينسبها لشاعر يدعي المدني ، لغل حين ينسبها ابن حزم في « الطوق » في « باب من أحب بالوصف ، لنفسه ، والبيت الأول منها :

 ⁽١) طوق الحمامة ، ص ٢٤ ، الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور الطاهر أحد مكى ،
 دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٧ .

ويامن لامني في حب من لم يره طرفي (١)

وفى الفصل نفسه يورد ابن أبى حجلة أربعة أبيات من الشعر، غير منسوبة الأحد، ومطلعها:

يا ليت شعرى من كانت وكيف سرت أطلعة الشمس كانت أم هي القمر

وقد نسب ابن حزم الأبيات لنفسه ، وجاء بها فى « الطوق » فى « باب من أحب فى النوم (٢) ، وأعانتنا رواية « ديوان الصبابة » على تصويب كلمة غامضة وغير واضحة فى البيت الثانى ، وهى « أظنة » فأصبحت « تحير » ، وبذلك « أظنها » ، وكلمة « تحيل » فى البيت الثالث فأصبحت « تحير » ، وبذلك استقام معنى الأبيات . وقد نسب ابن أبى حجلة فقرة فى الفصل الرابع ، من مقدمة كتابه إلى ابن حزم وهى : «قال رجل لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت امرأة فعشقها ، فقال عمر : ذلك مما لا يملك ! » ، ولم يذكر المصدر الذى نقاها عنه ، ولا توجد فى نسخة « الطوق » التى يين أيدينا ، وهى به أشبه .

وقد ناتقی بالعنوان واحداً ، أو متقارباً ، عند الإثنين ، ولكهما مختلفان فی تناوله ، فباب و الإداعة ، عند ابن حزم ، هو باب و فی إفشاء السرو الكهان عند عدم الإمكان ، عند ابن أبی حجلة ، و و فی الرسل والرسائل ، والتلطف فی الوسائل ، عنده ، نلتقی به عند ابن حزم فی بایی و المراسلة ، و و السفیر ، و هو یفرد بابا خاصا لكل من و الرقیب ، و و الواشی ، و لكن ابن أبی حجلة مجمعها فی باب واحد : و الرقیب النام ، والواشی الكثیر الكلام ، و ابن حزم ، فی كل هذه الأبواب ، و الواشی الكثیر الكلام ، و ابن حزم ، فی كل هذه الأبواب ، بتخذ مادته من الواقع ، و یوشها بشی من شعره ، أما ابن أبی حجلة ، فا كتفی فها بأمثال عدیدة من الشعر ، لشعراء مختلفین ، وقلیل من حكایات مشرقیة فها بأمثال عدیدة من الشعر ، لشعراء مختلفین ، وقلیل من حكایات مشرقیة

⁽١) طوق الحمامة ، ص ٣٨ ، وفي ديوان الصبابة : أيامن

⁽٢) طوق الحمامة ، ص ٣٧

ينقلها عن الخرائطي ، دون أن يأتى بجديد أو ينقل عن ابن حزم شيئا .

والحق أمهما في ماعدا ماأشرنا إليه من توافقات ، نقل فيها الأديب المغربي عن عالم قرطبة العظيم ، مختلفاندافعا ومناخا وغاية . لقد جاء ابن حزم في وهج الحلافة ، وكتب و الطوق » في عنفوان شبابه فكان صورة للتمرد والأصالة ، "وعدم المبالاة بما حوله ، وألف ابن أبي حجلة كتابه وشمس الحضارة الإسلامية تسرع نحو الغروب ، فجاء مزبجا مما حوله ، رواية وحما ، وخرافة وأساطير ، وفحشا وقلة حياء .

ولقد عالج ابن الحزم الحب عاطفة لاتقنن ، أمساك بجوانب غير قليلة من ظواهره ، وحاول أن يجد لها تفسيرا ، و دخل به ابن حجلة فى متاهات الفقه " ، فيبحث مثلا : هل التداوى بالجماع يبيحه الشرع ، ويدهب إلى أن ذلك غير جائز إذا كان المحبوب ممن لا يجوز نكاحه ، واما التداوي بالخمر والقبلة ، فإن تحقق الشفاء به ، كان نظير التداوى بالحمر عند من بالضم والقبلة ، فإن تحقق الشفاء به ، كان نظير التداوى بالحمر عند من يبيحه ، بل لعل ذاك أسهل من هذا ، لأن شربه من السكبائر وهذه من الصغائر ؛ د

ويعرض لحق الزوجة على زوجها حين ترغب ، وياتى بآراء الذين لايرون لها هذا الحق ، لأنه للزوج وحده ، إن شاء استوفاه ، وإن شاء تركه ، ويراه أضعف الأقوال ، لأن القرآن والسنة أوالعرف والقياس يرفضه ، ويرده قول الله : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ». وقال تخرون بل هو حق و اجب ، وحد دو اله مواعيد ، وضربوا آجالا ، وكان ابن قيم الحوزية يرجح هذا الرأى فيا يشعر .

وأمرف ابن أبي حجلة في وصف المرأة حسيا به راء فيما وتغزلوا فصولا تتناول كل أجزاء جسمها ، وما قال الشعراء فيها وتغزلوا به ، وهي أشياء برئ منها كتاب ابن حزم . والظاهرة التي استوعت انتباهي، ووقفت عندها طويلا ، أن ابن حزم "عرض لظاهرة حب الغلمان، وجاء لها بشواهد واقعية تتناثر هبر صفحات الكتاب كله ، دون أن يخصها وجاء لها بشواهد واقعية تتناثر هبر صفحات الكتاب كله ، دون أن يخصها

بباب، أو يحللها، أو يدنى فيها برأى ، إلا ما جاء فى الباب قبل الأخير، بباب، أو يحللها، أو يدنى فيها برأى ، إلا ما جاء فى الباب قبل الأخير، أو أوقفه على « قبح المعصية ، وتحدث فيه حن حرمة الزنا واللواط بعامة . ولم يعرض لظاهرة حب المرأة للمرأة لا تلميحا ولا تصريحا ، ولا تمثيلا ولا حتى تقبيحا ، تجاهلها تماما . على حين خص ابن أبى حجاة إظاهرة التغزل فى الغلمان بباب كامل : و ذكر من ابتلى من أهل هذا الزمان بحب المناء والغلمان ، ولم يقف بالأمر عند هذا الحد ، فتجاوزه إلى الحديث عن حب المرأة للمرأة ، وأفاض فيه ، وأمرف لونا وقولا فيما أتى به من شواهد وأمثلة وأشعار .

لا أظن سكوت ابن حزم عن هذه الظاهرة يعنى أن قرطبة قد خات منها ، فليس ذلك من طبيعة الحياة فى القديم أو الحديث ، ولا أظنه تجاوزها تعففا فقد تحدث عن الحب يقع من الرجل على الغلام ، فهل يقع فى الظن أن الناسخ رفع من الكتاب ماانصل بهذا الأمر ؟ ربما أ. إنه فرض قائم حتى نجد للأمر تفسيراً آخري، ولا يقلل من هذا الاحمال أنه أنه أنه أبقى على ماانصل ممنه إبالغلمان ، فالرجل أفها يتصل بالمرأة أنانى بطبعه ، ولدينا على هذا شواهد كثيرة ، حذف فيها الناسخون أو الطابعون عما انصل محب المرأة للمرأة ، وأبقوا كل ماانصل منها بالربط مهما كانت معيبة .

بقى أن أشير إلى أن الأندلسيين احتفوا بديوان الصبابة على نحو لانعهدو محتى مع كتاب ابن حزم ، فقد وصل الأندلس عام ٧٦٧ هـ ١٣٦٦ م فيما أرجح ، أى قبل وفاة مؤلفه بعشرة أعرام كاملة ، ورفع إلى السلطان أبي عبد الله بن أبي الحجاج يوسف ، فأعجب به ، وأشار أصحابه على لسان الدين بن الحطيب أن يعارضه ففعل ، وجعل الموضوع أشرف، فيما يقول ، وهو محبة الله تعالى ، ألنفه في أخريات أيامه ، مكرها لابطل ، وأعطاه عنوان : « روضة التعريف بالحب الشريف » ، وجاء من بين أفضيل عنوان : « روضة التعريف بالحب الشريف » ، وجاء من بين أفضيل ما سطر وزير غرناطة الكبير ، ومن سخريات القدر ، أن هذا السفر عاليل كان وثيقة الإتهام التي أدانته بها عجمة التفتيش ، وهن حياته ثمناً

لتَأْلَيْهُمْ في الظاهر وضحية ألاعيب السيادية وقا ارتبها في واقع الحال .

♣ ₩ ₩

وبعد أربعين عاماً من وفاة ابن أبى حبجاة ؛ يجى إلى الحياة البقاعى ، ابراهيم بن عرب بن حسن ، وأصاه من البقاع فى «بورية ، و« كن دمشق ، ووالد عام ٨٠٩ ه = ١٤٠٦ م ، وتوفى بها عام ٨٨٥ ه = ١٤٨٠ م ، وكانت له رحلة إلى القاهرة وبيت المقدس ومكة ، وهو مؤلف وأديب وشاعر ، وأنف كتاباً عن الحب أسماه «أسواق الأشواق » ، لما يزل عندارطاً ، ولم يتح لى الإطلاع عليه ، ولكن الأبطاكي يقول عنه إنه غذارطاً ، ولم يتح لى الإطلاع عليه ، ولكن الأبطاكي يقول عنه إنه وختصار لكتاب و مصارع العشاق » للسراج البغدادي ، وعرضنا له من إختصار لكتاب و مصارع العشاق » للسراج البغدادي ، وعرضنا له من أهل ، ويصف محتمر البقاعي : و بأنه طال ، غير طائل ، و جمع مالاحاجة قبل ، ويصف محتمر البقاعي : و بأنه طال ، غير طائل ، و جمع مالاحاجة لأحاديث النبوية ، لتوثيق الأحكام الدينية ، وكالإخلال بمحاسن الأخبار ، وطائف الأشعار ، التي هي بهذا الفن أعلق من الجوي ، بأهل الهوي ، وعدم الترتيب المستازم لاحتلال التهذيب ، وكالإعراض عن ذكر غالب وقوع بعض العشاق في شرك الحب » .

وعلى نفس المسافة من مجىء البقاعى بعد ابن أبى حجلة ، يجىء داود لأنطاكى من البقاعى تقريباً. وهو داود بن عمر المعروف بالأكمه ، ولد فى أنطاكية فى تاريخ بجهله ، وحفظ القرآن ، وقرأ المنطق والرياضيات ، وشيئاً من الطبيعيات ، وتعلم اليونانية وأحكمها ، وكان عالماً بالطب والأدب ، وضريراً ، وإليه إنتهت رياسة الطب فى زمنه ، وهاجر إلى الديار وضريراً ، وإليه إنتهت رياسة الطب فى زمنه ، وهاجر إلى الديار المهمرية ، « ومثل فيها بين يدى الأماثل ، وخدم من سما فيها من أرباب لفضائل » واستقر بالقاهرة زمناً ، ونال شهادة عريضة ، ثم رحل إلى : كته، وأقام مها سنة ، توفى فى آخرها عام ١٠٠٨ هـ ١٦٠٠٠ م عنها

أَلَّفُ الْأَنْطَاكَى كَتَاباً فِي الحَبِ ، وأعطاه عنواناً : « تزيين الأسواق ؛ بنفضيل أشواق العشاق » ، وجاء اختصاراً لكتاب البقاعي ؛ إلى جانب

كتب أخرى كثيرة أفاد منها، وأشار إلى بعضها فى مقدمته. ونشر كنابه قى القاهرة عام ١٣٢٨ ه = ١٩١٠ م، و بحاشيته «ديوان الصبابة» لابن أبى حجلة وعرضنا له من قبل. وليس من السهل علينا أن نحكم ، وكتاب البقاعى ليس بين أيدينا ، ماذا أخذ البقاعى عن السراج ، وماذا ترك ، وما الذى تجاوزه الأنطاكى من كتاب البقاعى وما الذى عرص عليه ، ولكن من بقرأ كتاب « تزيين الأسواق » ، يجد نفسه أمام الظاهرة التى تتميز به مقرأ كتاب « المبصرين » ، حين يتدفقون إملاء ، فتتدافع المادة فى أفواههم بحقب « المبصرين » ، حين يتدفقون إملاء ، فتتدافع المادة فى أفواههم بحقيء كيف ما اتفى .

و حكايات الأنطاكي وأمثاته وأشعاره مشرقية في بعملها ، ومصادرة كذلك ، وأشك كثيراً أنه رأى « طوق الحمامة » ، فهو لايشير إليه كتاباً أو مؤلفاً ولامرة واحدة ، ولايلتقي مع صاحبه في مهج أو إنجاه ، إذا استثنينا أمثلة ثلاثة توافق فيها الإثان . الأول ، وينسبه الأنطاكي إلى « وحكى عن المثلة ثلاثة توافق فيها الإثان . الأول ، وينسبه الأنطاكي إلى « وحكى عن أن قال لها يوماً : هل لك أن نحقق ما قيل فينا ، فقالت : معاذ الله أن أفعل ذلك ، وأنا أقرأ : « الأخلاء يومئة بعضهم لبعض حدو إلا المتمين ، والثاني : حكاية الأندلسي الذي باع الجارية في أرض البربر ثم استردها والثالث : حب ابن كليب الكاتب ، الشهير بابن قزمان ، لاسلم والثالث : حب ابن كليب الكاتب ، الشهير بابن قزمان ، لاسلم فالحكاية الأولى أرجح أنه نقلها عن « ديوان الصبابة » ، وجاءت فيه فالحكاية الأولى أرجح أنه نقلها عن « ديوان الصبابة » ، وجاءت فيه وذكره الأنطاكي بين مصادره ، وأما الثانية فيغلب على ظنى أن ابن عزم والأنطاكي كليهما نقلا عن أصل ثالث ، وأو أما الأخيرة فيذكر الأنطاكي نقلها عن أصل ثالث ، وأو أما الأخيرة فيذكر الأنطاكي للسان الدين بن الخطيب ، وهو كتاب « الإعاطة ل أخبار غرناطة » للسان الدين بن الخطيب .

وإنها لظاهرة تسترعى النظر أن يكون « طوق الحماءة » بن يدى ابن أبي حجاة ، أو قرأه على الأقل ، وهو يحرر « ديوان الصبابة » ، ثم لانلتقى

به بين مصادر الأنطاكي ، وكان حريصاً على أن يجمع بين يديه كلماكتب عن الحب قبل أن يحرر كتابه ، ونقل عها جميعاً ، وأشار إليها في أحابين كثيرة ، وعلى الرغم من أننا نلتقى به بين الكتب التي نقل عنها المقرى التامساني صاحب « تفح الطيب »، ومن نسخة تخالف نسخة « الطوق ، التي بن أبدينا ، وجاء إلى القاهرة بعد منوات قليلة من وفاة الأنطاكي ، وأرجح أن أبدينا ، وجاء إلى القاهرة بعد منوات قليلة من وفاة الأنطاكي ، وأرجح أنه أستخم نسخة وجاها في الفاهرة . لأنه يشير كثيراً إلى إأنه خلف مكتبته وراءه في فا س. و يخيل إلى أن المغاربة ، وتشمل الأندلسيين ، كانوا أكثر حرصاً على تسجيل تراشهم ، والحرص عليه ، والاحتفاظ به ، على حين كان المشارقة على تسجيل تراشهم ، والحرص عليه ، والاحتفاظ به ، على حين كان المشارقة كل تعدد ، وأن يفيدوا منه .

. . .

وحول العام الذي توفى فيه الأبطاكي ، قباه أو بعده بقليل ، يجيء إلى الحياة يوسف بن مرعى الحنبلي ، وسوف يؤلف كتاب : « منية المحبين ، وبغية العاشة بن (١) » ، وقد درسه غرسية غومث ، وتتبع تأثير الطوق فيه ، وترجمنا هذه الدراسة من قبل .

١ ـــ أنظر صفحة ٢١١ من هذا الكتاب.

تأثير طوق الحمامة في الأدب الإسباني

شرامخ الآدب الإسباني في فجر حياته ثلاثة :

« ملحمة السيد : قصيدة شعرية طويلة ، تدور أحداثها حول أندلسي مغامر ، نصف عربي ونصف أسباني ، نصف مسلم ونصف مسيحي ، إعاش في القرن الحادي عشر ، وتوفي في مدينة بانسة عام ١٠٩٩م وأصبحت بطولته ومغامراته غذاء المشاعر عند عامة الناس ، على نحو ما أصبح عندنا عنتر بن شداد ، وأبو زيد الهلال ، وسيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس ، وآخرون (١) .

الحب المحمود Llbro de Buen Amor المحمود المحم

ي لاثليستينا La Celestina : عنوان يمكن أن ثهر بجمه مجاور ا ر بالقوادة) ، وهي مسر عية مأسوية كتبها فرناندو دى روخاس (ت ١٥٤١ م)، شأنها شأن «طوق الحمامة » ، و « الحب المحمود » تتخذ من الحياة العاطفية منطلقا للتعيير عن عدد من مشكلات العصر الذى

أما ملحمة السيد فبعيدة موضوعا وشكلا عن «طوق الحمامة » ت

لأنها إبداع جماعي ، صنعها شاعر . أوشعراء ، جوالون ومادتها الحرب والنزال . والشجاعة والأبطال ، ويأتى فيها الحب وختافا ، فهى تعرض للمرأة زوجة وفية مطبعة . وللإبنة عروسا مصونة مطاوبة . وتقطة اللقاء الوحيدة بينهما أن ابن حزم والسيد القنبيطور تعاصرا أحواما . الأول شيخا اعتزل الحياة فى قريته منت اشم ، من مقاطعة ولبة جنوب غربى الأنداس آثر بعد نضال ثقافى عنيف ومرير أن يقنع بطلابه ومريديه ، إلى أن توفى عام ١٠٦٤ م ، وولد الثانى فى بيبار ، شمالى مدينة برغش ، عام ١٠٤٥ م ، وحين كان ابن حزم يودع الحياة إلى رحاب الله ، كان السيد فتى يافعا ورحين كان ابن حزم يودع الحياة إلى رحاب الله ، كان السيد فتى يافعا فى الحرب للمرة الأولى ، حين وقف ملك قشتالة إلى جانب حليفه المقتدر ابن هود ملك سرقسطة ، ضد راميرو الأول ملك أرجون ، فى معركة تحت فى ربيع عام ١٠٦٣ م (٢).

ويختلف الأمر فيما يتصل بالكتابين الآخرين، فكالاهما تأثر «بالطوق» قل عنه ، أو مبار على هديه ، أو احتذاه أسلوبا ، ونبدأ بالأول منهما ، وتدع الثانى الهرصة قابلة .

كان المفكر الإسباني العظيم أميركوكاسترو أول من أشار في كتابة : «أسبانيا بين المسامين واليهود والمسيحين » أوكما أسماه في طبعته الثانية إ: وحقيقة أسبانيا التأريخية ، ، إلى أن «طوق الحمامة ، كان حاضراً أن الأدب المسيحي على امتداد القرن الرابع عشر . ويصف إميليو غرسية غومت عميد المستشرة بن الإسبان في وقتنا هذا كتاب مواطنه أميركوكاسترو – ويقف من آرائه في الجانب المقابل – بأنه مثير ومدهش ودسم ، و «أول غزو يقوم به متخصص في الدر سات الرومانية على حقل الثقافة العربية ، وجاء رداً على عدد من الرحلات التي قام بها المستشرقون في مجال الدر اسات الرومانية ، (٣).

وقدعاش (طوق الحمامة ،على نحوين مختلفين فى الأنداس ، الإسلامي والمسيحى على السواء ، حوصر رسمياً وامتد شعبياً ، أمار صمياً فلأن الصراع الفكرى بين

B. 149 - 3

ابن حرم ومناهضي مذهبه الظاهري ، وفلسفته التشريعية ، وفكره المستنبر جعل كتبه غير محبة ، ظاهراً على الأفل ، إلى القائمين على أمور الثقافة في قرطبة الإسلامية ، وأخير فلا نه كتاب صريح ، يتحدث عن الحب في لغة علمية ، ويدرسه أمراً واقعاً ، يحل ويوجه في دقة الطبيب ، إدون أن يرتدى فياب الواعظ الردىء ، وما من خير يرجى في أن نلاحق قضايا العاطنة لسباً فياب الواعظ الردىء ، وما من خير يرجى في أن نلاحق قضايا العاطنة لسباً ولعنا ، دون أن نغوص وراء أسبابها . وأماشعبياً فقد وجد طريقه إلى جمهرة القراء ، فكاية في الدولة ، وتشنياً من الفقهاء ، واستمتاعاً بما بين دفتيه عن علم وأدب .

آ الوالشيء نفسه يمكن أن يقال عن الكتاب في الجانب، المسيحي؛ وقد عاش ابن حزم فنرة التوازان الحربي بن الجانبي ، وشالت كفته بعد موته مواحد وعشرين عاماً لصالح المسيحيين ، حين سقطت مدينة طليطلة عام ١٠٨٥ م في يد ألفر نسى السادس ، ولكن عزوف المسيحيين الرسميين عنه يعود إلى أسباب أخرى . لقد ناقش ابن حزم فى كتابه : « الفصل فى المال أ والأهوا، والنحل» المسيحين في عصره، مناقشة علمية إهادئة ومستنبرة و، تنعة ، فأكسبه هذا بغض رجال الدين المسيحيين على أيامه ، والحول بيدهم ، والكلمة إلبهم ، ولم يكن لهم من سعة الثقافة ورحابة الأفق ماكان له أِنْ فَيْفُهُمُونَ قُولُهُ ، ويعرفون قدره ، أُويدركونُ أَنْ أَبَالْأَفْكَارِ تَنَاقَشُ ، والعلماء بجادلون . أما بين الحماهير ، وفي جانب كبير منها ، وبخاصة بين المستحربين الذين يقيمون في الدولة الإسلامية ، ﴿ أُو المسلمين الذين تخلفوا في المدن الإسلامية التي سقطت بيد المسيحيين ، وأولئك المسيحيين الذين كانوا ية يمون على الحدود ، فقد قرأوه في العربية ، أو تناقلوا نصوصه شفاهاً « أو عرفوه كيفِما اتفق » ، لأننا نلتقي بنصوص قشتالية (؛) ترجمة حرفية منه ، ولأن الحب بالأسلوب الذي عرضه ابن حزم ، كان مجهولاعند اليونان والرومان، وظهوره في العصر الوسيط صدى لكتب من طراز كتاب ابن حزم ويتمول كاسترو في صراحة : « على أو لئك الذين لايريدون أن يخطئوا تاريخيه عندما يصدرون أحكاما على الإدب الإيبرى (الإسباني والبرتغالى) ، أن يعرفوا ما كان يحدث الخانب العربي من الأندلس ». ولو أن واحدا من الأوربيين ، فيا يرى ، كتب صفحات كالى كتبها ابن حزم ، لوضع على رأس قائمة عبافرة الأدب الأوربي (ه).

بدءاً ، ما كتاب (الحب المحمود) ٢

إنه قصيادة طويلة ، جاءت في ألفي بيت ، وتنتظم عناصر عديدة غير متجانسة ، وعكن أن نردها إلى المحاور التالية :

مقدمة نثرية ، سبقتها صلاة شاعرة فى أبيات راقصة ، عرض فيها المؤلف غايته من الكتاب ، وأنه وقف بآزاء لونين من الحب: الحب المحمود كما تنظمه الشرائع ، والحب المحنون اللهى يجتاح العالم . ﴿ وَأَلْفُتُ هَذَا الْكَتَابُ الْجُديد ، وأرردت فيه بعض الطرق والحيل والحدع التى يستخدمها أبطال الحب الدنيوى المجنون فيخطئون . وقد قرأتها ، أو سمتها ، من رجال ونساء عقلاء ، إذا أردت أن تنجو فسر على منو الهم ، ويمكنك أن تقول مع داود صاحب المزامير : اخترت طربق الحق » ! .

و الحطيئة شيء إنساني ، وإذا كان بعضهم - ولا أنصحهم - لا أنصحهم - يركنون إلى الحب المجنون ، فسوف نجدون له طرقا هنا ، لأن كتابي هذا للجميع ، رجالا ونساء ، موافقين وكارهين : من أراد الطيب ، واختار النجاة ، وعمل صاحا تقرباً إلى الله . ومن أراد الحب الدنيوى المجنون ، وسلك إليه الطريق الذي أراد ، ويمكن أن يقول : أما أنا فعلى الرب توكلت ، أبهج وأفرح برحمتك ، لأنى نظرت إلى مذاتي ، وحرفت الشدائد في نفسي » .

وقصص غرامی بطاه مؤلف الکتاب نفسه ، مجیء فی شکل ترجمة ذاتیة له ، يعرضها علينا خلال سلسلة من المغامرات العاطفية ، محكيها فی ظرف ملحوظ. وتنتهی بالفشل عادة . والتاريخ العاطفی لرجل يدهی دون مليون ، وسيدة تدعی دونيا أندرينا ، وثالثة تعاون العاشقين ، وهی السفيرة هند ابن حزم ، والقوادة عند كاهن هيتا ، ويستخدم لها أحيانا اللفط فى صورته العربية alcahuete وأبيات مطولة فى نقد الحب ، اقتبسها من مسرحية لاتينية مجهولة المؤلف ، كتبت فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وتحكى قصة فتاة استسلمت إغراء ، وانتهى أمرها بالزواج ، ومعركة رمزية ساخرة بين دون كرنال ، ودونيا كوارسما ، ومع كل واحد منهما جيشه .

ثم استطرادات ذات طابع تربوی أو اجتماعی وساخرة ، لیست دائمهٔ على صلة وثيقة بالأصل. أنه يصور لنا الصراع الحاد بين الإحساس الديني. وبنن عواطف الإنسان العادى فى العصر الوسيط ، ويضعهما وجها لوجه ، فنحس بآلامه ، ونتمثل أزمة العادات في عصره . وهو رجل دين ، ولكنه يصطدم بالتقاليد القابضة، ولا يتر دد في أن محمل على رجال الدين ، وأن يسخر من العلاقات الغرامية بن الرهبان والراهبات ، ومن ثم فهو يقدم لنا الجانب الواقعي ، من الحياة اليومية في الكنائس والأدبرة ، وما وصَّلنا من وثائق العصور الوسطى يؤيده فى روايته ، فنحن نعرف أن « المحمَّع الديني ، الذي عقد في مدينة بلد الوليد ، في الأندلس المسيحي ، عام ١٣٢٢م ناقش بالنص قضية « عشيقات رجال الدين » ، وأعطاهم مهلة شهرين لكي يفارقوهن ، ولكن المحاولة فشلت ، كما نتبين ذلك من المحمع الدبني الله الذي عقد في مدينة سلمنقة عام ١٣٣٥ م ، وفشل أيضًا في محاولته ، وأحتاج الأمر لعقد مجمع جديد في مدينة القلعة عام ١٣٤٢ م . ونلحظ أن كاهن هيتا يعطى أهمية قليلة للعلاقات الغرامية ال كانت قائمة بين القسس والراهبات ، حين يصف مغامرات بطله ، أو أن شئت نفسه ، معهن ، وسوف ينتهى به المطاف أخبرا إلى التوبة ، فيذهب إلى دير محاول أن يتطهر مما ارتكب من ذنوب فى سابق أيامه .

ويسخر من الغنى ، ومن الصراع المستمر بين رجال الدين وعامة الناس فى سباقهم من أجل الاستيلاء على أموال الذين محتضرون ، ولا ينتجو من سخريته القارصة العجائز المتصابيات ، ولا البربات المتهتكات ، وخلال ذلك كنه ، ينثر العديد من لأساطير والحكايات والأمثال والمحاورات ، ويأتى بقصائد غنائية ، في أوزان محتلفة ، ذات طابع ديلى وموجهة إلى مريم العدراء ، أو علماني لكي يتغلى فيها العميان والطلاب ، وأناشيد يترنم فها العاشون لجمال الريفيات .

وهذه العناصر المتعددة ليست جزرا منعزلة ، وإنما يجمع بينها خيط فكرى تمثله رواية غرامية ؛ ذات سيرة ذائية ، فيها خيال محلق ؛ وتقنية محكمة ، وتستالهم أشياء واقعية ؛ وهذا الخيط محافظ على وحدة العمل الأدبى وتتجمع حوله الأفكار الأخرى للكتاب .

* * ※

منذ البدء كان الوصول إلى حقيقة مؤلف كتاب را الحب المحمود » مشكلة ؛ وفكرة ملحة في الوقت نفسه ؛ وحتى وقت قريب بجدا كان شخصية غامضة ومبهمة ، تطل على الدارس من وراء ضباب معتم ؛ أو تناقض محير برحتى أن محقق نصر الكتاب ، الناقد الأسباني خوليو ثيخادور يقول في مقدمته المكتاب بخرف الواحد : وخارج ما أورده المؤلف عن نفسه ؛ في كتابه ، لا يمكن الفول أننا نعرف عنه كلمة واحدة » . ولكن المشكلة قد حنت الآن أو هي في طريقها إلى الحل ، وفي ضوء الوادان وأكثر موضوعية ، وكتابة حياة المؤلف وتريحه . المد نشر الفاتيكان جانبا وأكثر موضوعية ، وكتابة حياة المؤلف وتريحه . المد نشر الفاتيكان جانبا لل جانب وثائق الحرى عثر عليها في و المعهد الإسباني » ، في وارسو عاصمة بولندا ، وفي كنائس أسبانية أخرى ، ولدراسة هذه الوثائق ، عاصمة بولندا ، وفي كنائس أسبانية أخرى ، ولدراسة هذه الوثائق ، للراسة كاهن هيتا عام ٢٧٢ »

اسمه الحقيقي خوان رويث، ودخل التاريخ الأدبى منخلال لقبه اكاهن هيتا ، وهي الوظيفة الدينية التي كان يتولاها في قرية هيتا ، من مقاطعة

وادى الحجارة ، شرقى مدريد و على مقربة منها . وطبقا لوثيقة دينية و جدت فى الفاتيكان ، وأشار إليها لأول مرة فى صيف ١٩٧٤ الدكتور أميليو سئيث الأستاذ فى جامعة برشاونة ، فى جريدة أ . ب . ث ، فإن خوان رويث ولد فى الحانب الإسلام من الأنسلس ، وربما فى قلعة بحصب (٥) ، ويطلق عليها الآن اسم « القعة المكية » ، وهى مدينة صغيرة فى مقاطعة جيان ، ابنا غير شرعى ، لرجل ثرى من بالنثيا ، يدعى أرياس جونثالث ، ومثل هذه الصلات كانت عملا عاديا فى تلك الأيام ؛ ونجد صدى ذلك واضحا فى المصلات كانت عملا عاديا فى تلك الأيام ؛ ونجد صدى ذلك واضحا فى بلا معال المعبية القشنالية ، على حين تصمت المصادر والوثائق الرسمية ، ولا محال للطامن فى صحة هذا الحبر ، لأن الوثيقة المتصلة به ، كانت طلبا مقدما و البابا فى روما ليعفو عنه ، ويتجاوز عن هذه الصلة غير الشرعية ، ليمكن تعين خوان رويث كاهنا لمدينة « سجوينثا » ، ومن الوثيقة نعرف أنه جاء الى الحياة آخر عام ١٢٩٥ ، أو أول العام الذى تلاه .

وتقول الوثائق أد جده وعمه ، وحدداً كبيراً من أفراد أسرته ، قتلوا في الصراع الدى كان د ثرا بين المسلمين والمسيحيين على امتداد القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، وأن أباه غير الشرعى كان أسيرا ، وعاش فى الجانب الإسلام ٢٥ عاما، وأن سيده المسلم قدم له جارية مسيحية كانت عنده ، المتصبح زوجة له ، على أن يصبح الذكور من أولادها أحرارا ، والبنات جوارى للسيله ، وأبجنب أرياس من زوجته الرقيقة ستة أولاد ذكور ، ومن ثم اعتق السيد الزوجين وأبناءهم ، وهى رواية فوق الشك أيضاً ، لأننا نعرف أسماء وأعمار ثلاثة من الأخوة أصبحوا رجال دين ، وتقدموا إلى البابا أيضاً بطابون إذنا خاصاً بتولى مهامهم لصغر سنهم ، وعفوا عن عدم شرعية مولدهم .

وقد أطق سراح الوالد عام ١٣٠٥ م، وتزوج ثانية فيما يبدو ، وكان له من زوجته الجديدة ، والشرعية من الوجهة المسيحية ، ثلاثة أولاد ، ونعرف أنه توفى عام ١٣١٢ م . إذن فقد ولد خوان رويث ، كاهن هيتا ومؤلف « الحب المحمود » من أم كانت جارية لسيد مسلم ، يقيم في مقاطعة جيان ، ولأب عاش أسيرا خمسة وعشرين عاما بين قوم يتكلمون العربية ، وإذا كان لمقاطعة أن تعرف كتاب « طوق الحمامة » وأن يسير فيها ذكره ، بعد قرطبة نفسها ، فهي كورة جيان ، مقاطعة الحياة اللاهية ، والرواقص المشهورات ، والقرية من عاصمة الحلافة .

لم يكن خوان رويث مجهولا على أيامه ، ولا قليل الأهمية ، فقد ترلى مناصب عديدة ، ذات أهمية اجتماعية كبيرة ، وأصبح فى رعاية مارية مولينا ملكة قشتالة ، وقد عين كاهنا لمدينة سيجونةا » عام ١٣١٧م ، وله من العمر ستة وعشرون عاما.

وفى عام ١٣١٨ م عين رئيسا للشمامسة فى «مدينة دل كامبو »، وبعدها بعام عينه البابا يوحنا الثانى والعشرون كاهنا لمدينة « بالنثيا » وقد بدلت الملكة مسعى كبيراً لدى البابا ليعينه مطرانا ، وهو الثلاثين من عمره ، دون حاجة إلى عفو جديد عن مولده غير الشرعى ، وفى ها.ه المناسبة أشار البابا إلى الدماء التي بدلتها أسرته فى الحروب ضد المسلمين . وفى عام ١٣٢٢ لمنتقى به في مدينة « برغش » ، وحول هذه الأعزام سمح له البابا أن يدرم ؛ وهى الجامعة التي كان يتردد عليها رجال الدين ربما فى جامعة « مونبليه » ، وهى الجامعة التي كان يتردد عليها رجال الدين القادمون من ممالك شمال الأندلس المسيحية . وبعد فترة صمت امتدت حتى عام ١٣٤٣ م ، نلتقى به ثانية ، فى وثيقة مقدمة من مطران طليطة ، يطاب له فيها وظيفة دينية فى « قلهرة » . وفى ما بين عامي ١٣٤٣ و ١٣٥٣ م ، نلتقى به شرة فراغ كبيرة فى حياته ، وبرجح المؤرخون أنه أمضاها فى السجن ، نلتقى به شرة فراغ كبيرة فى حياته ، وبرجح المؤرخون أنه أمضاها فى السجن ، أوالنفى ، بسبب كتابه « الحب المحمود » ، وفى هذا العام تلتقى به إلى جوار الكار دينال وخيل دى البرتس » ، ورحل معه إلى إيطاليا ، وإلى أفنيون فى جنوب فرنسا :

كشاعر يأتى خوان رويث فى القمة ، لا بين عباقرة عصره فحسب ، وإنما على كل شعراء أسبانيا فى العصر الوسيط ، دون استثناء أو عدوان على أحد . فهو خبر من تحدث عن المرأة والحب فى أيامه ، ودون مبالغة يمكن أن نضعه إلى جانب أوفيد ، ودانتى ، وبترارك ، وشكسبير ، وهاين ، وفرلين، وعمر بن أبى ربيعة ، والعباس بن الأحنف . وابن زيدون . وهو وفرلين، وعمر بن أبى ربيعة ، والعباس بن الأحنف . وابن زيدون . وهو فيا يرى أمريكو كاسترو – يقدم لنا مجتمعا . متأثراً بالتقاليد الإسلامية إلى حد كبير .

ربما هناك من تنضح مشاعره المانية بحنان أكبر ، وكثيروإن يتنموقون على عليه في مصادر الإلهام ، أو في المنهوم الشعرى للحياة ، ولكنه يتنموق على الحميم في شيئين أساسيين : كتب تاريخ عصره ساخراً ، وتميز في أمر آخر لم يبلغه الشعراء بعده إلا بقرون : وضوح شخصيته .

لقد ضمن كتابه كل ما عرفه عن العالم والحياة ، وليس إقليلا، فهو كمصدر ناريخي يساوى كثيراً ، ولولا كتابه « الحب المحمود » – والشيء أنهسه إيقال عن طوق الحمامة – لجهلنا الكثير من تاريخ العصور الوسطى . إن كتب التاريخ تحدثنا كيف قاتل آباؤنا ، وكتب التشريع تخطط لما أرادوه مثلا ، أما هو – أو هما – فيحدثنا كيف كان يعيش أهل عصره واقعا ، في بيوتهم وفي الأسواق ، في أحزانهم ومسراتهم ، ماذا كانوا يأكلون على موائدهم ، وكيف كانوا يلبسون ويعشقون .

كان خوان رويث مثقفاً فى اللاتينية والعربية ، وفى القانون والتوراة ، وقرأ واعياً كتاب «كوند لوكارنو » ، مجموعة من الحكايات العربية ، ترجمت إلى القشتالية فى زمن مكر ، وحازت شهرة كاسحة ، القداستوعب الحكايات وتمثلها ، وأفاد منها ، واقتبس بعضها الماليات وتمثلها ، وأفاد منها ، واقتبس بعضها الماليات الماليات الماليات والماليات والقاد منها ، واقتبس بعضها الماليات والماليات والمالي

وهو شاعر ساخر بكل ما تتسع له الكلمة، لم ينج من سخريته شخص ولا موقف ، يلاحظها بدقة ، ولا موقف ، يلاحظها بدقة ، ولا موقف ، يلاحظها بدقة ، وينقلها في أمانة ، ونظرته إلى الواقع نافذة ، كل شيء عنده يتحدث إلى

العين ، ويترجم إلى مشاعر ، وقادر دائماً على أن نجعين نرى المشاهد التى نقرؤها ، فهو صاحب واقعية شجاعة ، يجبن أمامها أكثر الناس مجرأة ، على فعه كل ما فى قابه ، وقبه يسع العالم كنه ، إنه أشجع كتاب العصر الوسيط فى أسبانيا ، وأشدهم بحرراً . .

وقا. حار النقاد المحدثون فيه إنساناً . وكتابه يمد كل طرف بما يريد من شواهد: لأنه يتلاعب بالألفاظ والموافف ، فالأديب الفرنسي « بويمجر) شواهد: لأنه يتلاعب بالألفاظ والموافف ، فالأديب الفرنسي « بويمجر) ، براه في كتابه: « الأدب الفشتال التديم » (بجا ص ١٨٣) ، مفكراً حراً ، عدواً للكنيسة » ، ويشاركه هذا إلرأي العالم المواسوعي الأساني منينات أي بلايو فيراه : رجل دين فأجر وسكير ، طواف ليل ، وفيق حانات » والحق أن كاهن هيتا كان رجل دين ليس على شيء من للدين ، فهو يكره زملاءه على أيامه ، سمت در جاتهم أو انحطت ، من القلب ، وكان في حياته أقرب ما يكون إلى شاعر من أشبيلية على أيام بني عباد ، أو من بغداد على أيام أبي نواس . وكتابه أول نص أدبي أسباني من العصر الوسيط يناهض الكنيسة ونفوذها ويفضح أخلاق أهاها .

كان خوان رويث شاعرى المزاج، قاق الروح، يعيش حياة فوضوية، ويؤثر أن يتحرك وسط أجواء شعبية، رفة تراقصات يبوديات. وزامرين إمسامين، ورجال دين من عشاق السهر، ورغم مهنته أمضى من حياته فى الحانات كثر مما أمضى في الكنيسة، وتحدث عن الحب والشعر والكأس، أكثر مما أمضى في الكنيسة، وتحدث عن الحب والشعر والكأس، أكثر مما أمضى بالناس القداس، أو ألقى عديهم من العظات. وجاء بين عصرين تدبين دون أن ينتمى إلى أى منهما، ونتاج أدبين يتقسمان شبه الجزيرة، العربي والأسباني، دون أن يكون خالصاً لاحدهما. أو إذ كانت و ملحمة السيد، ابناً شرعياً لديلامم العربية التي سادت الأندنس، فقاء جاء و الحب المحمود، ابناً شرعياً لكتاب و طوق الحدمة،

* * *

اختلف النقاد في موقفهم من أصول ﴿ الحب المحمود ﴿ . حاول الفرنسيون

أن يستولوا عليه دون أن يتركوا لغيرهم نصيباً منه ، فرأى بوتمجر في كتابه الذي آشرنا إليه من قبل ، أن خوان رويث «تلميذ للأدب الفرنسي ، ولم يكن شاعراً أسبانياً في شيء ، إلا في لغنه ، التي يتناثر بينهما طوفان من الكلمات الأجنبية ، ولم يشر إلى شيء من التأثير العربي، رغم أن الكلمات الأجنبية التي يشير إليها جلها عربي .

وتوزعت الأسبان انجاهات شي : بعضهم بحث عن أصول و الحب المحمود ، في أي مكان ، إلا في المكان الذي يجب أن يبحث فيه ، فتحدث عن أصوله اللاتينية والفرنسية ، وسكت عن العربية ، أو مرجما تحت اسم الشرقية على استحياء ، أو تجاوز الصمت إلى الإنكار ، كأن القول بتأثر إنسان بالحضارة الأرقى في وطنه شيء يعاب عليه ، ويقال من أهميته ، أو كأن هناك في عالم الأدب ما يوجد من عدم ، أو يبدأ من فراغ ، وبعضهم أحس بالأثر العربي عبر صفحات الكتاب فأشار إليه إجمالا دون أن يقف عند تفصيلاته لأنه لم يكن يعرف العربية على نحو يتبح له أن بقدم على ما يقول برهاناً ، ومن هؤلاء أميركو كاسترو ، وأشرنا إليه أكثر من مرة .

أما المستشرقون الأسبان ، والمثقفون الموضوعيون منهم بخاصة ، فقد وقفوا عند التأثير العربي على نحو أو آخر ، فعرض له « أنحل جونثالث بالنثيا » في كتابه « تاريخ الأدب الأسباني » ، وألمح إلى أنه « بتجلى عند خوان رويث على صورة لايرقى إليها الشائ ، ونرى ذلك بوضوح فى مواضيع شي من كتابه الحب المحمود » ، وضرب لذلك عدداً من الأمثلة . ويشاركه هـذا الرأى منيندث أى بلايو ، وزاد القول بأن خوان رويث كان يعرف من العربية ما يصاح للاستعمال الدارج ، لاما يمكنه من دراسة الفنون الأدبية .

ودرست الحكاتبة الأرجنتينية « مارية روزة ليدا » التأثير العربي في « الحب المحمود » من جانب آخر ، رأت الكتاب يشبه أن يكون ترجمة ذاتية لحياة موالفه العاطفية ، ومثل هذه التراجم نادرة جداً في أدب العصور الوسطى الأوربية ، سواء في الأدب اللاتيني أو الآداب الرومانثية التي

انفصلت عنه، أو الآداب الجرمانية ، ولا نجد له مثيلا حتى القرن الثالث عشر، عين كتب الشاعر الألماني أو لريش فون ليشتنشين (١٢٧٠ – ١٢٧٦ م) كتابه: و فضائل المرأة ، وكتب أديب إيطاليا الكبير داني (١٢٥٥ – ١٢٧٦م) كتابه: « الحياة المحددة ، (١) ، أما في أدب القرن الرابع عشر القشتالي ، فكان «الحب المحمود » استثناء ،

أمام هذا النميز حاولت ليدا أن تبعث من جديد، وعلى نحو أكثر نفصيلا فكرة منسية دعا إليها من قبل المستشرق الأسباني « فرانسيسكوفرنانديث اى جونثالث » (١٨٣٣ – ١٩١٧ م) ، وأصر فيها على أن هناك صلة بين الكتاب وفن المقامة العربية . :

لقد ازدهر فن المقامة بين عرب الأندل ، وخبر شروح مقامات الحريري قام سها أندلسيون ، ومضى نفر من أدبائه يكتبون على منوالها ، رسائل وخطباً ومواعظ ورحلات وعلوماً ، ومنذ القرن الثاني عشر أخذت المقامة في شكالها العربي طريقها إلى مهود قطالونية ، وأدباء بروفانس، وجنوبي فرنسا ، وأصبح واضحاً أنه أخذ طريقه إلى قشتالة أيضا ، بعد أن عَبْر أخيراً إ على قصيدة قشتالية ، كتبها «دون سم توب ديه كاريون » بعنوان : « محاورة بين القلم والجام ، وجاءت كلمة القلم من عنوانها في صورتها العربية el Calamo وإلى فن المقامة ينتمي أيضاً «كتاب الطرب، ، وألفه يوسف بن مثير بن صيرة ، يهودي من برشلونة، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وفيه ثلتقي شخصية البطل والراوي والمؤلف في واحد ، ويصبح محوراً لعميل تلتقي فيه بالحكمة والمثل والخرافة والأسطورة ، ويخدط الحوارالتر بوي بالشعر الغنائي والسجع : ولم تضع لبدا يدها على نقط اللقاء بين المقامة وكتاب. الحب المحمود » تفصيلا ، ربما لأنها لم تكن تعرف العربية . إلا أنها أوضحت أن الشبه في البناء الفني بن «كتاب الطرب»، وجاء في شكل مقامة، و بين كتاب « الحب المحمود » لايدع محالا للشك أو التردد . وأخيرا فإن نشر قصيدة « الحوار بين القلم والجلم » ، وهوليهودي من قشتالة . ومعاصر أصاحب « الحب المحمود » ، (م ۲۲ - این حزم)

وجاءت فى شكل مقامة ، يفتحالباب واسعا أمام البحث الأدبى فى قابل الآيام، لكى يتتبع تأثير المقامة المعربية فى عدد من الأجناس الأدبية الأسبائية نخاصة ، والأوربية بعامة . ولكن ليدا ، وهى تقارن بين « الحب المحمود » وفن المقامة العربية ، كانت تهدف إلى حل مشكلة البناء الأدبى فى كتاب كاهن هينا ؛ وفى كل كتاب أوربى ألف على منو اله فى العصر الوسيط ، ومن ثم وقفت مجهدها عند الشكل ، دون أن تتجاوزه إلى محتوى الكتاب ومادته ...

* * *

كان إميليو غرصية غومث، أول من حرض ، فيما أعلم ، للمشابهات بين محتوى « الطوق » ومحتوى « الحب المحمود » ، ورأى « أن كتاب كاهن هيتا لا يمكن أن يفهم دون افتر اضات عربية كثيرة ، من بينها إذا أردت أن مؤلفه من المدجنين (٧) ، وأنه يلتقى فى نقاط كثيرة ومثيرة مع كتاب ابن حزم ، ولو أن من السداجة بمكان القول بأن هذا أخذ من ذاك » .

وقد قام غرسية غومث بعدد من الموازنات بين نصوص متشامة في المكتابين ، ولكنه توقف إزاء غياب الوثائق التي تبرهن على المصلة المباشرة ، وكان حصيفا فطنا - كعادته - حين قرر أن « إنكار النشابه عمل غعر علمي ، والقول به بجعل موقفي رديئاً - أى موقف غرسية غومث - يوم توجد وثائق تبرهن عليه ، وهو أمر محتمل تماما ، كما حدث في الحوار الذي دار حول المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية لداني ، والتأكيد بالتبعية المباشرة مجازفة ؛ وأعتقد ، مثل كاسترو ، أنه توجد عناصر عربية كثيرة ، ولكني أرى أنه يبعد كثير اأن يكون « طوق الحمامة » من بيها ، كمدر أصيل وبطريقة مباشرة ، لأن كتاب ابن حزم كان يتحرك في نطاق محدود : إنه كتاب خاصة ، وصعب للغاية ، وتفصله حن « الحب المحمود » هوة عيقة من الاختلافات الفكرية » . وللغاية ، وتفصله حن « الحب المحمود » هوة عيقة من الاختلافات الفكرية » .

كتب فرسية غومث هذا الكلام فى مقدمته للترجمة الأسبانية التى قام بها لطوق الحمامة ، عندما صدرت للمرة، الأولى عام ١٩٥٢ ، ومن ذلك الحين حدث فيما يتصل بكاهن هيتا أشياء كثيرة ، أبرزها الوثائق الدينية السرية فى الفراتيكان وعدد من الكنائس الإسبانية ، وأشرنا لها من قبل ، و منها يتبين أن موالف كتاب الحيمود ، ولد لجارية كانت في حوزة سيد عربي في قاحة خصب من مقاطعة جيان . وأن أباه غير الشرعي ظل أسيراً لسيده المسلم خمسة وعشرين عاماً ، وهي فترة كافية لتجعله متمكنا في اللغة العربية ، وكانت لغة الثقافة ، وكان تعليم الجواري فها ، بنين وبنات ، أمرا شائعا .

وقلعة يحصب حيث ولد خوان رويت ونشأ ، وعاش أبوه من قبل أعواما طوينة . كانت موطن ثقافة ، ومهبط شعراء ، فنها عاش بنو سعيدالمؤرخون والأدباء ، والهم نسبت الفاهة أيضاً ، وتميز من بهنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد ، وكان غزلاني الشعر وفي الواقع ، وا. نه قد حب ذائعة مع حفصة الركونية الشاعرة ، لانقل عنفا وشهرة عما كال ين ولادة وابن زيدون ، وكان ينافسه في حها أمير غرناطة من قبل الموحدين ، عثمان ابن عبد المؤمن ، ودفع أبو جعفر حياته ثمنا لهذا الحب . وتميز بنو سعيد بالعلم والثقافة ، وأنهم يتو فرون على مكتبة عامرة ، وشهر من بينهم أبوعران والثقافة ، وأنهم يتو فرون على مكتبة عامرة ، وشهر من بينهم أبوعران مومي بن محمد (ت ٦٤٢ ه - ٢٤٢ م) بأنه جماعة للكتب ، يطلبها أنى وجدها ، ويبذل فيها كل غال ومرتخص ، ويصفه ابنه أبو الحسن على بأنه اعاش سبعا وستين سنة ، ولم أره يتخلي يوما عن مطالعة كتاب ، أو كتب اعاش سبعا وستين سنة ، ولم أره يتخلي يوما عن مطالعة كتاب ، أو كتب ما خلوله ، حتى في الأعياد » (٨) . وليس مهما بعد ذاك أن تكون الأحداث ما خلوله ، حتى في الأعياد » (١) . وليس مهما بعد ذاك أن تكون الأحداث ما خلوله ، حتى في الأعياد » (٨) . وليس مهما بعد ذاك أن تكون الأحداث ما خلوله ، حتى في الأعياد » (٨) . وليس مهما بعد ذاك أن تكون الأحداث ما خلوله ، حتى في الأنه الحوالة أني المدى أز هربهم ، ومن حولهم ، تأصل قد عدن المدينة الصغيرة النائية ، في منتصف الطريق بين قرطبة وغرناطة ،

أكان ممكنا أن يحرص بنوسهيد على اقتناء الكتب ، وأن يكون لهم مها الكثير ، وبينها عدد من مؤلفات ابن حزم ، ينقلون عنها في مؤلفاتهم ثم لايكون من بينها الطوق ؟ الأقرب إلى طبيعة العصر والناس ، وموقع المدينة ، ومكانة ابن حزم ، أن يكون كتاب ، الطوق » معروفا ومتداولا ، وأن تقع عليه عينا والد خوان رويث ، ولعله تحدث به ، وقص ما عرف من حكاياته ، ولعاه توفر لنفسه على نسخة منه ، في عصر كانت فيه ما عرف من حكاياته ، ولعاه توفر لنفسه على نسخة منه ، في عصر كانت فيه

معرفة العربية والتوقر على كتما موطن أعثر أز ، ومدعاة فخر ، في قشتالة نفسها ،حيث بدل الفونسو العاشر ، أو العالم ، ملكها (١٢٥٧ – ١٢٨٤ م) جهدا مضاعفا لمرجمة التراث العربي إلى القشتالية ، فترجم إليها القرآن والإنجيل وكتبا أخرى كثيرة ، علمية و أدبية ، فدفع بالثقافة العربية إلى العقول القشتالية المثقفة و غذى النثر القشتالي بالأساليب و الأساطير والأمثال العربية .

ثمة نقاط يلتقى فيها ابن حزم و خوان رويث ، وأخرى يقفان عندها على القيض . كلاهما رجل دين ، وكتبأو لهما «الطوق » مفيا ، أونافيا نفسه ، وكتب الثانى « الحب المحمودا » بين جدر ان السجون ، وكلاهما كان ثائر ا على الحامد من أفكار عصره ، وعالجاموضوعا واحدا ، والتزما منه موقفاً متقاربا ، وأكدا على سلامة عقيد بهما : وكما كان الطوق صورة فريدة ، في جوانب منه ، للحياة العاطفية في قرطبة القرن الماشر الميلادي وما بعده ، كان الحب المحمود صورة لها في قشتالة على امتداد القرن الرابع عشر .

ويتقابلان في الكثير أيضاً . كان ابن حزم يمثل حضارة في القمة تو هجاء المكها المرف وحياة اللذاذة ، وتهيأ للانحدار ، وحاش خوان رويت في مجتمع جاس ، ينفض عن بصره وعقله وقلبه غبار القرون الوسطى ، بكل ما تحمله من تخلف وظلام وجهالة . وكان ابن حزم موسوعى الثقافة ، رفيع المذكر ، حاد الذكاء . وكاهن هيتا إذا قيسر برفاقه في قشتالة بجيء في المقدمة ولكنه حين يقف إلى جوار ابن حزم يبدو متواضعا في كل شيء ، معرفة وثقافة وفكرا ، وآثر ابن حزم أن يكون جادا وعنيفا ومستقيم السلوك ، واختار خوان رويث أن يكون ساخرا ومهادنا ومسهرا ، ويذكر ابن حزم في يقدم من أحداث مجتمعه ، غالباً ، الاسم والمكان والحادثة ، وآثر قرينه فيا يقدم من أحداث مجتمعه ، غالباً ، الاسم والمكان والحادثة ، وآثر قرينه المشتالي أن يتخفى وراء الرمز ، وأن يقف عند ما هو عام . وابن حزم من الحاصة ، أبوه وزير وتولى هو الوزارة ، وينتمى في أسرة لها في مجتمعه مكانة وجاء خوان رويث ابنا لعلاقة غير شرعية ، لم تراع فيها القوانين التي بجرى علمها أهل ديانته ، وكان عليه أن يطلب العفي عها من البابا في كل وظبفة

يتولاها . وأخيرا فكتاب ابن حزم ذوموضوع إواحد ، وقلما يتجاوزه إلى أمر لا يتصل به ، وكتبه نثرا ، ووشاه بالكثير من شعره ، وكاهن هيتا اتخذ من حياته العاطفية إطاراً لكتابه ، وحمله كل ماعرفوأراد ، وإذا استثنينا المقدمة ، وهي قصرة ، فقد جاء به شعرا كله .

أول ما نضع يدنا عايه من تأثيرات عربية في كتاب لا الحب المحمود، قدر هائل من الألفاظ العربية ، يستخدمها الشاعر في مهارة ، ويرسمها بأحرف لاتينية ني دقة غير معهودة على أيامه ، ولا تقتصر على الأسماء والحروف كما عند الآخرين، وأنما تتجاوزها إلى الأفعال وأسماء الفاعلين مثل: ياء النداع Ya وشيكمة Xaquima وفي الأسبانية الحديثة Jaquima ، وموثنها : مرفوضة Marfuz ، وجملة كاملة مثل : قابي عربي معمل ، وفعل الأمر مثل : اسكت ascut وامش مصورتها الفنية وأخذ عدد من قصائده شكل موشحات كاملة ، في صورتها الفنية وأخذ عدد من قصائده شكل موشحات كاملة ، في صورتها الفنية

وأخذ عدد من قصائده شكل موشحات كاملة ، فى صورتها الفنية اللدقيقة ، فيى ذات مطلع وأغصان وقبل ، وجاءت فى اثنى عشر دوراً ، وإذاكان من الوشاحين العرب من وجد عذوبة فى أن يوشى موشحاته بخرجة أعجمية ، فى شكل لفظ أعجمي أو من عامية أهل الأندلس ، فقد تجاوز كاهن هيتا هذه اللفتة بكثير ، وجعل خاتمة كل دور فى موشحته لفظاً عربياً ، على نحو ما نرى (٩) :

كاهن هيتا يرسل سفمرة إلى فتاة عربية

.

کسی أنسی شجنی وحزنی وآلای ، رجوت عجوزتی أن تسعی فی زواجی ، فتحدثت إلی فتاة عربیة لم تعرها سمعاً ، هی تصرفت بعتبل وأنا غنیت طویلا ،

ياسمي قالت التموادة العربية :

يا صديقتي ، يا صايقتي ، طال الزمن ولم أراك ، لم أنت هكاءًا ؟ ما أصعب أن القاك ، حب جديد محييك ، فردت العربية : لست أدرى Les nedri !
ابنتى ، واحد من القلعة alcalà يسلم عليك ،
يرسل لك هذا الثوب açodra (١٠) مع هذه البراءة alvalà الله معك ومن ذلك عندنا كثير ،

خاديه ، ابنتي ، أيتها السيدة ، قالت العربية : لا و الله Le gualà : :

ابنی الله یعطیك السلام و الصحة ، لاتستهیی بها ، لأنی لم أستطع أن أحضر لك أكثر ، أحضرت لك هدیة جمیلة وردك یكون علی الود ala wud (۱۱) لن أمضی و حدی . قالت العربیة : أسكت ascut !

وعندما رأت العجوز ألما لاتستطيع شيئاً قالت : طالما قلت لك ، حتى هذا نفسه تفقدينه ، لأزك لم تقولى شيئاً ، أنى أو د الرحيل من هنا مزت العربية رأمها وقالت : أمش ، أمش amixi !

وإذا وقفنا عند المشابهات فى النصوص ، وضعنا يدنا ، فى قراءة عابرة و للحب المحمود »، على بعض منها ، يكاد أن يكون ترجمة لما فى الطوق :

يقول ابن حزم يلتمس لنفسه مندوحة فى تأليف الكتاب: « من كان القاضى حمام بن أحمد ، حدثنى عن يحيى بن مالك ، عن عائد بإسناد يرفعه إلى أبى الدرداء أنه قال : أجموا النفوس بشىء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق . ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضى : « من لم محسن يتفى ، لم يحسن يتقرى » . وفى بعض الأثر : « أريحوا النفوص فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » (١٢) .

وعن الموقف نفسه يقول خوان رويث : «كامات عالم وقالها كتون (١٣) : المرجل بما فى قلبه ،

[يخلط أنهاجاً وفكراً باسماً ،] !!! [آ لأن الأحزان الكثيرة تلد خطايا كبيرة » (١٤) ه

ويقول ابن حزم مشيرا إلى تأثير الحب فى النفس: «ومنها آن بجود المرء ببذل كل ماكان يقدر عليه مماكان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له ، والمسعى فى حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويرغب فى نفسه . فكم يخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجاهل تأدب ، وتفل تزين ، وفقير تجمل ، وذى سن تفتى ، وناسك تغتك ؟ ومصون تبذل » (١٥) ي

و في هذا المغنى يقول صاحب الحب المحمود :

ويخلق الحب من الحشن لطيفا ،

ز ويهب القول الجميل لمن كانت كنماته صهاء ، وبه يعود الجبان شعجاعاً ،

ويصبح الكسلان نشطأً وجاداً ،

ويحتفظ الفتى بشبابه طويلا ،

ويعود بالشيخ ، في كثير ، فتى شـ با ،

ويجعل من الأسود أبيض جميلاً ، "مثل السمك ،

ومن لا يساوى جوزة يعطه الحب شهرة عظيمة (١٦) ؟

ويتشابه موقف ابن حزم وخوان رويث من الرسول الذي يبعث به المحب إلى محبوبه فلا يكون وفياً ، يخون مهمته ، ويغدر بصاحبه ، ويصطفى الغنيمة لنفسه .

ية ول ابن آخرم فى باب « الغدر » : « ومن قبيح الغدر أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه ، يستريح إليه بأسراره ، فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ، ويستأثر به من دونه ، وفيه أقول :

أقمت سفيراً قاصداً في مطالبي وثقت به جهلا فضرب بيننا

وحل عرى ودى وأثبت وده وأبعد عنى كل مبا كان ممكنا فصرت شهيدا بعد ماكنت مشهدا وأصبحت ضيفاً بعد ماكان ضيفنا»(١٧)

ويقص كاهن هيتا ما حدث له منع رسوله فرناندو غرسية ، وكيف أرسله إلى فتاة تدعى وكروث ، ، تعمل خبازة ، فاختص بها نفسه : ج

> عینای لن تریا النور ، لای فقدت کروث ،

كروث الحبازة الحبيبة . اتخذتها عشيقة ،

حست الطريق إليها عريضا فوجدته ضيمًا ، إن مثل ما يفعل الأندلسيون ،

فكرت أن تكون لى ، قالت لفرناندو غرسية ، احمل لها رضاى ورغبتى وكن عنى محاميا لطيفا وابقا ،

قال لى: إنها أعجبته وكانت على هواه ، وأنه جعل منكروث خاصة به وعشيقة ، لقد تركنى اجبر النخالة ، وأكل الحبز الأكثر حلاوة .

> قدم لها عملا بنصیحتی حنطة طیبة مضی علیها عام ، وأهداها أرنبا

الخائن ، الزائف ، مرفوض

أخزى الله رسولا عجلا ، بالغ الطيش : [ولارعى الله صياد الأرائب،

يخص نفسه بالصيد من وراء سيده (١٨) .

وربما كان الفصل الخاص بالسفير أوضح تأثيرا في كتاب « الحب المحمود ، ، وفي كتب إسانية أخرى سوف نعرض لما في مرة تالية ، من أي باب آخر، وقد اختار ابن حزم هذا اللفظ الأنيق المهذب لكلمة والقوادة»، وكانت شائعة بين العامة في الأندلس ، مسلمين أو مسيحيين ، يتح^رثون العربية أو الرومانثية ، لقد دخلت هذه في صورة aleahuete ، والسفير أو القوادة أو الوسول ، يطلق على المرأة ، والرجل قيلام، الذي يتارب بين الرووس والقلوب في الحلال أو الحرام ، وكانت هذة المهنة شائعة في الأندلس ، ولم تكن محتقرة أو شراً خالصا على النحو الذي عليه اليوم ، فالم تكن القوادة إذ ذاك تسمى بين الذين بالتقون على أجر ، فالهؤلاء بيوتهن المعروفة، وأبما تتردد وين من ثلتتي عرا لنهم على حب ، ينتهي مهم إلى الزواج أو لاينتهي ، إنها تقرم بالوساطة بين المحبين ، رسولا يحمل الهدايا والأفكار ، في مجتمع لم يكن قد عرف البريد المنظم ، أو الهاتف الموصل ، أنها أشبه ما تكون ، بالخاطبة» في الحتميع العربي المعاصر ، قبل أن ينتشر التعليم وبعيم الاختلاط . وقد خص ﴿ ابن حزم والسفير ، بباب قصير ، أو وصلنا قصيرا ، عرض فيه الهسته وصفانه واغراضه وحيله ، ولن نأتى بنص ما قال هذا ، وآنما نخيل إليه [القارىء في كتاب ﴿ طوق الحمامة ﴿ نفسه (١٩) .

هذا الباب و اضح التأثير في كتاب لا الحب المحمود ، ، وأزعم أن لا طوق الحمراء ، ين يدى خوان رويث ، أو في ذاكرته على الأقل ، وهو الحمراء كتابه . و لكن كاهن هيتا ، وهو رجل دين ، وأمضى حياته نائباً

للأسقف في أكثر من مدينة أندلسية ، في منطقة التعاور ، على الحدود بين المسلمين والمسيحيين، دفع لهذه المهنة باسم جديد استمده منالحياة المحيطة به وهو Tortaconventos ، اسم كان يطلق في البدء على أولئك المترددين على الأديرة ، محماون لها الهداياظاهرا ، أو يلتمسون عندهاالمغفرة تمويها ، أما واقعا فلكي يرى الرجل صاحبته ، وتاقي المرأة حبيبها ، وكان يطلق أيضا على خادمات الأديرة ، وكن يسفرن بين الرهبان والراهبات ، وكل طائفة تقيم في دير منفصل ، يترددنبالرسائل ، ومحملن الهدايا، ومحددن المواعيد ويوفقن بين المتنافرين ، وأصبحت الكلمة تعنى في الأسبانية ما يعنية لفظ ويوفقن بين المتنافرين ، وأصبحت الكلمة تعنى في الأسبانية ما يعنية المفط أشرنا ، ظلت أكثر استخداما ودورانا على الألسنة ، وذكراً في الأدب ، أشرنا ، ظلت أكثر استخداما ودورانا على الألسنة ، وذكراً في الأدب ، وكما أن ابن حزم حدد صفات السفير الناجع ، وأخطاءه ومتاعبه ، كذلك صنع خوان رويث :

لتكن سفيرتك إليها من قرابتك ؟
وأن تكون وفية لك ، وليست خادماً لها ؟
وألا تعرف ذلك سيدتها ، حتى لاتكلب الأخرى ؟
ومن يتزوج رديئاً محال ألا يندم طويلا .

حاول ما استطعت أن تكون سفير تك لبقة ، فطنة ، ذات دربة و خبرة .

تعرف كيف تصبر وتصوغ الأكاذيب اللطيفة ٦

إذا لم تكن لك قريبة كهذه فعليك بالعجائزة . من اللائى يترددن على الكنائس ويعرفن الأزقة ، محفظن كثيرا من الحكايات والنصائح وفيهن رقة ، معهن كتاب السحر لموسى ، وبد بفتن الأسماع :

يا لهن من عجائز معلمات ثرثارات : تلتماهن في كل مكان : في الميادين وفي الحارات . يتوجهن إلى الله بالحساب ، ويصلين دائما مستعدات ، أي ، كم من خبائث يعرفن ، أولئائ العجائز الصابعات ! :

> أرسل عجائز فى السحر بالأعشاب ماهرات ، يمضين من بيت إلى بيت ويزعمن أنهن قابلات : بالمساحيق و الكحول والدهونات ، ترمى الفتاة بنظرة فتعمى الفكر منها والمدركات :

و فتش عن سفيرة بين أو لئك السودانيات الوادعات : من العاملات فى بيوت الرهبان والقسس و الراهبات . إنهن مشاءات جيدات وبالأحذية جديرات : فهو لاء القوادات يقمن بالكثير والرخيص من المقايضات .

> حيث بمضى أولئك النسوة تكون البهجة ، فتيات قليلات يستطعن الإفلات منهن ، ولكى لا يكذبن عليك تعلم كيف تلاطفهن ، فلهن جاذبية ، ويعرفن جيداً كيف يعمينهن ،

وبين أولئك العجائز جميعاً ، فإن هذه أفضلهن ! ارجوها ألا تكذبك ، وأظهر لها حبك خالصا ، أن السمسار الماهر قادر على بيع الحيوان العاطب ، وملابس كثيرة رديئة قد تخفي لحافاً جيداً (٢٠) :

ثم ماذا؟ .. لقد وصلنا كتاب «الطوق» في محطوطة وحيدة عبث بها يد الناسخ ، فحذف منه كل ماكان على غير هواه ، ولم يتردد في أن يصرح بذلك آخر الكتاب ، ولا أحد يدرى ماذا حذف ، وإلى أين جرى به هواه وجاءنا كتاب «الحب المحمود» في مخطرطات ثلاث ، لم يكتب مها شيء نخط المؤلف ولا في حياته ، وأقربها البينا أكثرها شعرا ، أي أن الكتاب أيضاً لم يصلنا كما أراد له مؤلفه ، ولا أحد يدرى ما الذي سقط منه ، وما الذي غير فيه من ألفاظ وجمل ، ومع ذلك فنمه مما أخذ عن ابن حزم صفحات غير فيه من ألفاظ وجمل ، ومع ذلك فنمه مما أخذ عن ابن حزم صفحات لو مضينا بها إلى النهاية لطالت ، وحسينا ما أوردنا منها شاهدا ودليلا.

والكتاب الآخر الذى نلمج فيه و تأثير الطوق » مباشرة ، أو عن طريق و الحب المحمود » ، هو إمسرحية و لا ثلستينا La Celes tina وهو اسم المبطلة إ، ويطيب لى أن أنرجمها بالمهنة التى تجسمت فيها والتى تدور حولها المسرحية وهى « القوادة » . وقله نشر فى مدينة برغش بعد سبعة أعوام من سقوط دولة الإسلام فى الأندلس ، بعنوان : المأساة اللاهية لكاليستو ومليبيا Tragicomedia de Calisto y Melibea وأثارت الجدل حاداً فى عصرها ، بن راض وساخط ، ومؤيد ومعارض ، ثم أعيد الجدل حاداً فى عصرها ، بن راض وساخط ، ومؤيد ومعارض ، ثم أعيد نشرها فى إشبيلية ، مدينة طروب ومرحة وثرية ، عام ١٥٠١م وفى المدينة تفسها أعيدت طباعتها فى العام النالى ، وهو نجاح لا مثيل له بمقابيس النشر فى تلك الأيام ، وما أصرع ما نغير الاسم ليصبح كلمة واحدة :

وهي مسرحية رائعة ، فتنت أجيالاً من القراء ، وتفنن الآن ، وستظل كذلك ، ربما لأجبال عديدة تأتى من بعد ، واعتبرت كشفآ أدبياً عرائعاً ، وحملة أدبية موفقة إلى عالم المجهول ، وأصبحت محور الدرس

والتعليق فى الجامعات والمعاهد ، وكتب حولها الكثير ، وذاعت ركل العالم الثقا ، واعتبرت إحدى الفطع الأدبية الحائدة التي يزهو بها الأدب الإسباني في مجال الأدب العالمي .

أما مولفهافرناندو دى روخاس Fernando de Rojas (1081) فلا نعرف عنه إلاشيئاً قليلا. وهذا الشيء القليل غامض ومضطرب ومليء بالألغاز، رغم أن إبداعه العلمي يضعه إلى جانب القمم الأدبية في العصر الوسيط: ماحمة السيد. والحب المحمود، ودون كيخوته. ولكن المحلد سقط على الكتاب وتجاوز الكاتب، فمعلوماتنا عن شخصه محدودة، والوثائق المتصلة به نادرة، وتاريخ وفاته أكبد، وبعض الإشارات الحاصة بحياته وأسرته تلتقي ما متنائرة ومضطربة في بعض وثائق العصور الوسطى. وهذه الإشارات رغم قصرها ترسم إطاراً تقريبياً للعالم الذي الوسطى. وهذه الإشارات رغم قصرها ترسم إطاراً تقريبياً للعالم الذي كانت تتحرك من خلاله شخصية المؤلف، دون أن تقدم لنا معلومات دقيقة ومفيدة عن شخصيته نفسها. وكل ما نعلم عنه أكيداً أنه ولد في قرية بويبلا، من مقاطعة طايطلة، في تاريخ نجهله، وأنه تركها ليصبح عدة طابعرة، مدينة أكبر حجماً، في المقاطعة نفسها.

بقى عليمنا أن نتصور حياته من خلال الكتاب، بدل أن نفسر إنتاجه إلى أن نفسر التاجه إلى ضوء حياته، وحياة المؤلف مفيدة في تفسير إبداعه وإلقاء الضوء عليه . كما أن عمله الأدبى ضوء كاشف لما استمر من حياته ، أو انطوى في خبايا صدره ، كلاهما يفسر ويفسر . يأخذ ويعضى ، أما ها فنحن بإزاء جانب واحد فحسب، أن نبنى حية فرناندو دى روخاس .

ينتمى دى روحاس إلى قطاع عريض من المحتمع الإسبانى ، شغل القرن الحامس عشر الميلادى ومابعده ، ويعرف بالمسيحيين الجدد وهم أولئك الذين أرغموا على اعتناق الكاثوليكية من البهود ، فاستجابوا لذلك رهبة أو نفاقاً ، بعضهم نسى معها أصوله تماماً ، واحتفظ الآخر بكل ميوله البهودية في أعماقه ، احتفظ بها لنفسه وأورثها خلفه من

بعده ، وإن ظل في ظاهره كاثوليكياً بالطبع ، ومنهم من أصبح نحت هذا الرداء من رجال الدين الكبار ، وبلغ مرتبة متقدمة بين أحبار الكنيسة ، فأصبح مطراناً أوا اسقف أو قديساً ، أو حتى من رجالات اللاهوت واللامعين ". وكان هؤلاء المسيحيون الجدد يعتبرون في إسبانيا المعصر الوسيط مواطنين من الدرجة المثالثة ، يعيشون حياة قلقة ، في جو خانق من الأرهاب والبوس والتعاسة ، مواطنين بلا حرمات من أى لون ، وبلغ الذعر بينهم أن بعضهم كان نحاف البعض الآخر ، وكل فرد يشك في وبلغ الذعر بينهم أن بعضهم كان نحاف البعض الآخر ، وكل فرد يشك في كل الآخرين ، ومن الممكن أن يقف الواحد منهم أمام محكمة التفتيش ، بكل ما تمثله من رعب وقسوة ، وأن يتعرض لألوان من التعذيب لاحد لها خرد لفظ يتفوه به ، مخرج من فمه عفواً دون قصد ، وكلمة عابرة يقولها في بيته بين أفراد أسرته ، على مائدة الطعام ، ممكن أن تنهى به إلى أعماق السجون المظلمة تحت الأرض ؟

من بين وثائق محاكم التفتيش التى انشرت عام ١٩٠٧ ما يتصل عمحاكمة أحد أقرباء دى روخاس ، لأنه قال عرضاً ، يشير إلى الآخرة: وأنا هنا نحير ، ولست أعرف ماهناك » . وقريبة له ،كانت وحدها ، وتفوهت بألفاظ شبيهة ، وخشيت أن يكون أحد الحيران قد سمعها ، ولم تره ، وفيبلغ عنها ، فأسرعت إلى المحكمة بنفسها ، لتعرهن على حسن أيتها ، فيبلغ عنها ، فأسرعت إلى المحكمة بنفسها ، لتعرهن على حسن أيتها ، وقدمت اعتر افها كاملا : و أنا إيزابيل لو بث ، روجة فرانسيسكو لو بث ، قلت دون أن أثلابر ماقلت ، أو أعتقده : لا أستطيع أن أقول رأيي فى الآخرة ، لأنى لاأرى شيئاً مما يجرى هناك ، كشل جار تعود الناس أن يتفوهوا به » . وعندما بلغ دى روخاص الثانية عشرة من عمره اعتقل والله وسجن وقدم لحكمة التفتيش ، ولتفادى العلب اعترف بكل التهو الموجهة إليه فحكمت المحكمة بإعدامه حرقاً فى حفل عام وفى العام الذى حرر فيه كتابه كانت هناك قائمة طويلة من أقاربه ، ومتات آخرين من أصدقائهم أو معارفهم أو جير انهم ، تأخه طريفها إلى محاكم التفتيش في مدينة

طليطانة ، ورآهم يتلظون على الذار أحياء ، ويواجهون العذاب ألوانا . وشاهد ما هو أقسى : رأى يهود طليطلة جميعاً . وقد خوجوا إلى حفسل عام ، سنة ١٤٨٤م يعلنون توبتهم ، وياهنون دينهم القديم : وفي عام ١٥٠١م أتم دى روخاس تحرير مسرحيته « القوادة » ، وله من العمر ٢٠ عاما ، ومنذ ذلك الوقت ، وحتى وفاته في ٣ أبريل من عام ١٥٤١ ، لا نعرف عنه شيئاً ، إلا عرضا في وشيقة محاكمة من عام ١٥٤١ ، لا نعرف عنه شيئاً ، إلا عرضا في وشيقة محاكمة حده ، وقسد رفض قاضي محكمة التفتيش أن يسمح له بأن يخسار محمود ، وقسد رفض قاضي محكمة التفتيش أن يسمح له بأن محتما ، وتضم محميد ، وعينت له المحكمة محاميا آخر ليس موضع شائ منها ، وتضم الوثيقة قائمة بالكتب التي وجدت في مكتبته و تعطينا صوره له بأنه كان برجوازيا مرموقا ، يهتم بتنمية ثروته ، دون أن يعطى الجانب الثقافي أية عناية

جدة , وفى هذا الجوكتب دى روخاس مسرحيته : فجوعت تعبيراً عنه ، أو محاولة للتعبير ، سلبا وإيجابا ، ومن خلالها قدم بنا رأبه ملفوفا فى ما حوله ، وعما يعتمل فى أعماقه من مشاعر وأحساسيس .

محتوى المسرحية بسيط وعادى . ككل الأعدال الأدبية الكبرى التي أبدعها الله كاء الإنساني ، وإذا أسقطنا المناظر والمواقف والحديث المباشر عن الأبطال ، فهبى تدور حول شاب فارس يدعى كاليستو ، دخل حديقة بيت صحبة بازله ، فرأى هناك مايبيا ، فتاة في سن المراهقة ، فوقع أسير هواها في . الحال وحين أبدى ها حبه صدته في عنف ، فعاد إلى بيته حزينا تعيسا صريع الخيبة والحسرة ، وتحدث مجا جرى له إلى خادمه ، فأشار عليه هذا بأن يدعو المرأة عجورا تساعده في محنته ، الحبيرة بأمور النساء ، بائعة عطور ، أستاذة في فن التزيين ، قوادة ، وساحرة إلى حدما » تدعى عليه شاسمة :

و جاءت السلينا سريعا وقبلت اللهيام بالمهمة ، واستطاعت أن تدخل بيت مليبيا ، تحت ستار أنها تبيع خيوط غزل ، واستطاعت أن تتجدث

إلى الفتاة ، وأن تتغلب على مقاومها العنيدة ، أخلت تعزف لها على فضائل العاشق ، شاب من أسرة نبيلة ، ذكى ومهذب ومرموق أو واستطاعت عيلتها ودهائها أن نقنع الفتاة عقابلة الذي إسرا ، بعيدا عن أبوبها العجوزين ، وتلقت ثلستينا مكافأة طيبة على صنيعها ، وطاب خادما كاليستو جانبا مها بوصفهما وسيطين ، ورفضت العجوز أن تعطهما شيئا مما أخذت فقتلاها ، فاقتصت العدالة مهما ، وذبحا في ميدان عام .

و فدهب كاليستو ليلا لموعد مع حبيبته ، لقيها في حديقة البيت ، وهما في لحظة صفاء عاطفي سمع كاليستو ضجيجا في الشارع ، وصياحا من خدمه الذين تركهم يرقبونه ، فأسرع لنجدتهم ، فسقط به السلم الموصل إلى الحديقة فات نتوه ، وعندما رأت الفتاة ما حدث لحبيها لاذت بأعلى برج البيت ، وسجنت تفسها فيه ، وأسرت لوالديها بأنها فقدت شرفها ، مم القت بنفسها من فوق البرج ، فسقطت ميتة ، وفوق جثما وقف الأب والأم ، يندبان حظهما ، ويبكيان شيخوجهما وحيدين ، وقدما لنا من خلال الحوار الذي دار بينهما، صورة قاتمة ومتشائمة للحياة الإنسانية بآثامها وأخطائها ومآسها ،

تقوم المسرحية على ثلاث شخصيات رئيسية: كاليستو العاشق، ويعبى السمه في اللغة الإغريقية في رائع الجمال، مرح بالمطبيعة، نبيل بالوراثة ضعيف أمام العواطف، قوى في غيرها و ومليبيا حبيبته، ويعبى اسمها ذات الصوت العلب، وتركت لنا المسرحية وصفا مفصلا لها ، فهمى ذات عينين خضراوين واسعتين، وحواجب رفيعة ومرتفعة، وأهداب طويلة، وأنف أقى ، وفم صغير، تزينه أسنان بيضاء رقيقة ، وشفاه ممتائة ، شقراء تضرب إلى الحمرة ، ووجه عريض ، وكف صغيرة، وأصابع طويلة ، ملونة الأظافر ، شقراء وسط ألماس، وبشرة بضة حلوة وأصابع طويلة ، ملونة الأظافر ، شقراء القوادة مندفعة ، وعلى وجهها عذراء الروح ساذجة ، استجابت لإغراء القوادة مندفعة ، وعلى وجهها تتدافع مشاعر الخوف والرغبة ، وقد أصبح الاسمان ، كاليستو ومليبيا ،

توأمان في الأدب الإسباني ، على نحو ما عايه روميو وجوليت عند الإنجليز والشخصية الثالثة ، وحملت الروية اسمهالأهميتها ، ثلستينا ، وقامت بدور الوسيط ، عجوز شريرة ، ذكية وذات حيلة ، وعلى معرفة واسعة بالحياة والناس ، وقدرة ساحرة في العزف على أوتار القلموب ، مشعوذة توممن بالحرافات ، وماهرة في تحريك أدق المشاعر المنطوية في أبعد أغوار النفس ، واستخدامها لصالحها ، طماعة جشعة ، وهي نقيصة سوف تودى ما أخرا .

حار النقاد في تصنيف العمل الذي قام به دى روخاس ، اعتبره بعضهم رواية لاتساع حجمه ، وكتابته نثرا ، وصعوبة عرضه مسرحيا دون تصرف ، ورأى آخرون أن غلبة الحوار عليه ، وتقسيمه إلى مواقف ودعوة المؤلف إلى قراءتها على مجموعة من السامعين ، ومراعاة الملامح والنغم في الإشارات والأصوات والحركات ، بما يناسب كل شخصية ، يومىء إلى المؤلف أراد بها شيئا آخر غعر الرواية .

وإذا تجاوزنا الشكل إلى المحتوى فإن قراءة فاحصة للرواية ، أوالمسرحية إذا شئت ، تظهر لنا واقع كاتب قلق الضمير دينيا ، وأن العناصر المسيحية اليها ضثيلة للغاية ، في عصر كانت المسيحية كل شيء في واقع أهلها ، أو هي الحياة نفسها ، والقليل من هذه العناصر مفتعل وسطحي على نحو واضح في أغلب الأحوال ، ويدعنا الممثلون نفهم من خلال مواقفهم ، أو عبر كاماتهم ، أنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة ، وتحكم الجميع فلسفة أبيةورية واضحة . فلستينا تنصح : « تمتع بشبابك ، وباليوم الجميل ، والليلة الحلوة ، والأكلة الشهية ، والشراب المعتق ، لا تدع ذلك ما استطعت إليه سبيلا . انفق واخسر ، ولا تبك الثروة الضائعة ، أنك لن تحمل معك من هذا العالم شيئا » وتقول أليسيا ، والدة مليبيا : « نستمتع ما دام لدينا ما نأكله اليوم ، غدا لا يعنينا ، لن تعيش أبدا ، وقليلون هم ما دام لدينا ما نأكله اليوم ، غدا لا يعنينا ، لن تعيش أبدا ، وقليلون هم الذين ببلغون مرحاة الشيخوخة ، والذبن يبلغونها لم يحدث أن أحدا منهم مات من الجوع » .

ویشکو کالیستو لحادمه نار الجوی تجتاح داخله ، وحرارة الشوق یغص بها قلبه فیقول له الحادم فی بساطة : ولکن هذا یتعارض مع تعالیم المسیحیة ! . فیهز کالیستو کتفیه بین مستغرب ومنکر ، فیز هج الحادم منه : ألست مسیحیاً ؟ . فیره علیه : أنا ؟ . . أنا عاشتی ملیبیا ، لها ولدت ، وفیها أموت ، وأعبدها مدی الحیاة ! .

إنها باختصار رواية تسخر في قسوة من الرأى العام على أيامها ، ومن القيم التي كان يقدسها وتستعبده ، ووضعت حدا فاصلا بين عصرين أدبين ، وتستمد أهميتها من الواقعية الرائعة التي صيغت فيها ، ورسمت شخصياتها فى دقة ، ويرى العلامة الإسباني مثنديث أى بلايو : أنه لو لم يوجد ثرفانتيس ، مؤلف دون كيخوته ، لا حتلت المقام الأول في أدب الإبداع الإسباني: وفيها تلتقي البسمة والدمعة ، والبهجة واللذعة ، والموت والحزن٢، شباب وجميلات ، ونبلاء وأغنياء ، ومن خلا بالهم من أى شيء ، ومخاوقات غادرة ، ومجرمون، وشياطين . وإلى جانب الأفكار الفلسفية تقدملنا صورآ مزالتقاليد والحياة الاجتماعية الإسبانية فيعصر النهضة ، رسمت في عناية لا يعلى عليها ، وفي صدق لا يبلغ مداه . وهي غنية بالأمثال والجمل السائرة ، تأتى على لسان الخدم وعمار الناس ، وقد أثرت [في الممرح النثرى في القرن السادس عشر الميلادي ، ومعها بدأ فن الحوار ﴿ فِي أُورِبًا ﴾ وتركت بصماتها واضحة في قصص الشطار ، وفي الأعمال الأدبية التي تبحث بين الطبقات الدنيا عن مسرح لها . وكأى عمل أدبي إسباني كتب فى تلك الأيام تضم الكثير من الألفاظ ذات الأصل العرف.

ونأتى إلى ما يعنينا من العرض. السابق . فيم يلتقى ابن حزم ودى روخاس وفيم يفتر قان ؟

منذ البدء ينبغى أن نشر إلى أن مظاهر الاختلاف بين شخصيما أشد وأقوى من جوانب الاتفاق: كان ابن حزم فقها ملتزماً ومتشدداً ، شاعراً ومؤرخاً وفيلسو فأ، وعالماً بالأصول، وشارك نمكل النشاطات الفكرية على أيامه، وكان ينتسب في بيت إن لم تكن له عراقة بعيدة فهو من الطبقة العالية الجديدة، التي شهدها آخر القرن العاشر ، من أبناء الوزراء وكبار الموظفين ، وأهلتهم مواهبهم وخبراتهم أن يتقدموا إلى مواطن الصدارة في وطنهم ، سياسياً واجتماعياً ، وأن يلعبوا هرراً هاماً في تقرير مصائره . وكان دى روخاس كاثوليكياً ينحدر من أصول يهودية قريبة ، ملاحق ومضطهد ، مغمور كاثوليكياً ينحدر من أصول يهودية قريبة ، ملاحق ومضطهد ، مغمور لا نعرف له تاريخاً ، ولم يشارك في الحياة الثقافية على أيامه بغير هذه الرواية ، ولا توحى معالجته لها بأنه كان في قوارة نفسه منسجماً مع العقيدة التي يرفع شعارها ظاهراً ، ويعانها تقية وخوفاً .

وقرأ الكتب المغزلة ، وعرف عقائد أهالها ، وناقشهم بعنف ، ولكن لانعرف وقرأ الكتب المغزلة ، وعرف عقائد أهالها ، وناقشهم بعنف ، ولكن لانعرف أنه ألم بشيء من الأدب الملاتيني ؛ أوانته إلى أدب المستعربين على أيامه ، أولا تعكس كتاباته المختلفة شيئاً منها ، على حين أن دى روخاس ، وجاء مع توهيج عصر النهضة ، كان يعرف اللاتينية إلى جانب لغته القشتالية ، وقرأ بترارك الوهج عصر النهضة ، كان يعرف اللاتينية إلى جانب لغته القشتالية ، وقرأ بترارك الإيطالي (١٣٠٤ – ١٣٧٤م) ، وبخاصة في كتابه : « تدبير الثروة الإيطالي (١٣٠٤ – ١٣٧٤م) ، وبخاصة في كتابه : « تدبير الثروة وعنه عرف من الشعراء هوراس وجوفنال ، وشعراء آخرين من اللاتين ،

ومختلف شكل العمل الأدبى عند كل منهما : فابن حزم حرر كتابه فى نثر راق : يجىء فى الطبقة الأولى إيقاعاً وجزالة ، ومزجه بأشعاره ، وحال عاطفة الحب وجوانبه ، والتقط شواهده أحداثاً وقعت من حياته أو حياة صحبه ، ولا يجىء الحوار عنده إلا نادراً ، ولمواقف عارضة وقصيرة ، ولم يدر مخلده أن يكتب رواية ، فضلا عن مسرحية ، ولا كان هذا الجنس الأدبى موقراً فى مجتمعه ، على حين اختباً دى رو خاص وراء عمله الأدبى ، جاء خاتاً كا، ، فى شخصياته وأحداثه ، نعملها معادل فى واقع الحياة ، ولكنها ليست حادث أحد بعينه ، واختار لحا شكلا جديداً مستمداً من الآداب

اللاتينية ، يقع فى منطقة بين الرواية والمسرح ، وكتب نثراً كله ، وتعتمد على الحوار فى المقام الأول ، وترك الأحداث نفسها تتكلم ، ووضع بعض ما يريد أن يقول على لسان أبطاله ، حتى يهرب من المؤاخذة المباشرة والقريبة ، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أنه كان حراً ، لأن عاكم التفتيش يمكن أيضاً أن تواخذ الكانب بما يضعه على لسان الأبطال فى رواياته أو مسرحياته ، ولكن إدراك المراد جملة ، من عمل أدبى كامل ، فوق الطاقة الذهنية للقائمين عليها ، المراد جملة ، من عمل أدبى كامل ، فوق الطاقة الذهنية للقائمين عليها ،

لكن ابن حزم أعطى دى روخاس الفكرة الرئيسية التي أدار حولها العمل [الأدبي، وهي فكرة « القوادة ، ، وينبغي أن نشير بدءاً إلى أن هذا اللفظ لم يكن يعني إذ ذاك ما نعنيه منه الآن ، أو الإسبان فيا بعد زوال دولة الإسلام، فلم [تكن تتاجر بالإثم ، وإنما تضطلع بدور الرسول ببن المحبين في مجتمع لم يكن يعرف البريد المنظم ، ولا الماتف الموصل ، ولا التلاق السهل ، فهي تذلل الصعاب ، وتنقل الأخبار ، وتحدد المواعيد ، وتوَّدى الهدايا ، ويسميها ابن حزم ٥ السفير ٤ في طوقه ، ولم يرد حنده ألفظ القوادة ولا مرة واحدة عبر الكتاب كاه^(*)، ولكن الاختلاف في التسمية فحب، ذلك أن ابن حزم، لوكان مصقولًا في حياته > راقياً في ثربيته ، اختار اللفظ الذي يتفق مع موضعه من ﴿ الْحَدْمُ مِوالْحَبَّالُ مُ وَاخْتَارُ آخْرُونَ كُلُّمَةً ﴿ الْقُوادَةُ ﴾ ، وربما بعد عصره، حين انحطت المهنة وتدهورت ، كأى شيء في عهود الانحدار ، وشاعت على الأفواه وفي الكتب ، ودخلت اللغة الإسبانية في صورة Alcahuete ،وتحت هذه الصورة التقينا بها مراراً في كتاب الحيود ، ومن قبله خصما [الشاهر الأندلسي أبو جعفر بن سعيد بأبيات رقيقة ، لا تخرج في محتواها عما وصفها به ابن حزم نثراً ، وأوجز خصائصها في بيت واحداً: « من ا لطف أحاديثها ، تجمع بين الماء والنار ۽ .

وقد اختار دى روخاس « القوادة » [بطاة لروايته ، وأدار ﴿ حولُكَ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللّ

كل الصفات التي أوردها ابن حزم في كتابه عن « السفير » ، مهنة وأسلوباً واقتداراً ، والمثير أن المستينا في الرواية ، أعنى القوادة ، تتحدث عن نفسها ، وتنعت مهمتها بأنها سفارة .

كان ابن حزم ، أنهما أعلم ، أول من خص « السفعر » بباب مستقل في كتاب ، وجاء قصيراً نسبياً ، وما كان للطرق أن مخلو منه ، فهو يعالج ﴿ قضية الحب ، وما كان للحب أن يشيع في مجتمعات مَا قبل وسائل الاتصال ﴿ الحديثة ، دون وسيط يدلل صعابه ، ويقوى وشائجه ، ومحكم الصلة بين طرفيه ، وكانت القوادة ، أو السفير أو الرسول إن شئت ، هي هذا الوسيط. وكل الذين جاءرًا بعد أبن حزم عالة عيه، وصاحب ﴿ الحب المحمود ﴾، ورجعنا فيما سبق أنه عرف « الطوق »، لا بتجاوز في وصفه لها ما تحدث به أديب ً: قرطبة ، ودى روخاس لايكاد بخرج عن هذا الخط أيضاً . ويبقى هل تأثر بالطوق مباشرة أو عن طريق الحب المحمود ، أو عن طريق كتاب ثالث أَلْفُهُ كَاهِنَ طَلْبِيرَةُ Arcipreste de Talavera) ، وأسماه : "«كرباج Corbacho أو ذم الحب الطياري » ويتحدث عن قضايا أربع خص كل واحدة منها بباب : الحطايا التي يؤدي إلها الحب المحنون ، وشرور ورذائل النساء، والصلة بين الحب وأمزجة الرجال، وتحديد لمكرة الإرادة الحرة ، والباب الثاني من بينها أكثرواقعية ، وأشد ارتباطاً بالحياة ؛ وكلا الكتابين ، الحب المحمود وكرباج ، من مصادر دى روخاس في روايته ، وكلاهما اتكأ على بن حزم ، ومعهما لا أستبعد أن تكون عبن مؤلف : القوادة » قد وقعت على كتاب «طوق الحمامة» ، وكان أ موَّلَهُهُ قَدْ دَخُلُ مِعَ ابْنَ الْمُغْرِيلَةُ الْمُهُودِي فِي جِدْلُ عَنْيِفُ ، يُرْحُولُ مَا بُدْرُمُنَّهُ فِي حَتَى الإسلام والمسامين، وفي العقيدة اليهودية وما ينصل بها ، حوار استقر في ذاكرة كل سودي مثقف من جيله ، ومن اللَّذِين جاءوابعده ، وربما حتى } يومنا ، وتأثير ابن حزم لا يتمن عنه الفكرة فحسب وإنما يتجاوزه إلى الملامح الرئيسية الشخصية للستينا، وفي النظرة المتشائمة للحياة، ومحاولة فتح باب الأمل

عريضاً وواسعاً أمام الرافحين في رحمة الله من المخطئين، ولقد ينتهي بنا تحليل النص في دراسة أكثر تأنياً إلى مشامهات أخرى ، ولا أظن أن تأثير ابن حزم وقف عند ِ هذين الكتابين؛ ومع دراسة أوسع للأدب الإسباني الوسيط قد نقع على تأثيرات أخرى أشد وضوحاً ، واكثر عمقاً ·

الهو امش و التعلية ات :

 ١ - ترجمت نص الملحمة إلى العربية، وقدمت لها بدراسة تفصيلية، في كتابى: ملحمة السيد ، أول ملحمة أندلسية كتبت في اللغة القشتالية ، وصدرت عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠ ٧ – ملحمة السيد ، ص ٩٨ ، الطبعة الأولى ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٠م .

٣ - ُ غرسية غو مث مقدمة البرجمة الإسبانية لطوق الحمامة ، ص ٧٧-٧٨ ، الطبعة الثالثة ، مدرید ۱۹۷۱ .

 إلى القشتالية أصنى لهجات الأندلس المسيحى فى العصر الوسيط، وهي كغيرها تفرعت عن. اللا تينية ، والتهمت اللهجات الضعيفة التي حولها ، ولأن قشتالة موطنها قامت بالدور الأول في حركة الاسترداد المسيحي ، أصبحت لهجتها اللغة الرسمية ، ولم تعرف كلمة الأسبانية إلا متأخراً . وقد استعصى عدد من اللهجات أو اللغات على الفناء ، مثل القطلونية ، ويتحدثون بها في قطلونية ، على البحر الأبيض ، وعاصمتها برشلونة . والغاليسية ويتحدثون بها في الشهال الغربي ، أو لغة الباسك ، وهي غير ړلا تينية ، ويتحدث بها سكان مقاطعة. الباسك في الشمال ، وهم يطالبون بالا ستقلال .

و تسمى أيضاً قلعة بني سعيد .

 ٦ - كان ابن حزم أول من استخدم في طوق الحمامة تعبير «الحياة المجددة» أنظر ص٠٩٠. وتعليقنا هناك ، في طبعتنا الكاملة والمحققة لطوق الحمامة ، دار المعارف ، طبعة ثانية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٧ – المدجنون : هم المسلمونالذين تخلفوا في المدن الوسقطت في يد المسيحيين، وظلوا على. ﴿ وَاللَّهِ عَلَى إسلامهم ، وحافظوا على العربية لغة لهم .

٨ – الإحاطة لابن الخطيب ، ج ١ ص ٢٢٢، ط الأولى، تحقيق محمد عنان – المغرب في حلى. المغرب لابن سعيد ، ج٢ ص ١٦٦ .

ه - لا أعرف أحدًا قبل أشار إلى هذه الظاهرة .

١٠ - وردت هذه الكمة في مخطوطات \$ الحب المحمود ۽ في صور نختلفة : Goda و Gadra و Açodra ، وحار خوليو ثخادور محقق النص بازائها ، فايس. لأى منها معنى في اللغة الإسبانية ، وأقرب كلمة إسبانية إليها Cidra ، اسم ثمرة تشهه الليمونة ، أي وهي أتفه من أن تهدى . فلم يجد بدأمن القول بأن أصلهاعر بي ، و اختار من الصور الثلاث لفظ Goda ، واحتال عليه في تخريجات غير علمية ، وتأبا ها قوانين علم الأصوات، لينتهي بها إلى أن أصلها سعود . ولقد أسرت على نفسه كثيرا ، ذلك لآن المفظ يجب إن يكون Codra أو مع أدارة التعريف العربية açodra ، وهي صورة إسبانية للكنمة العمدرة (بضم الصاد) العربية ، ومعناها أنثرب ، وما هوم يعنيه الشاعرفي أرجح ؟ أنظر :

· Arcipreste de Hita : Libro de buen Amor, tomo II, P. 126 – 227, edicion y notas de Lulio Cejador, Clasicos Castillanos, Madrid 1954

- الصحاح الجوهري ، والقاموس الحيط ، مادة : صدر
- دوزى : المعجم لمفصل بأساء الملابس العربية ، ص ٢٠٥ الترجمة العربية
 للدكتورأكرم فاضل ، بغداد ١٩٧٠ .

11 - فى معظم الطبعات الإسبانية لكتاب والحب المحمود" يوجد هذا اللفظ مرسوما على النحو التانى: alaud : أى العود ، وترجمتها عن هذا النحو، عندما نشرت هذه الدراسة مقالا فى مجلة الآقاق عربية » العراقية ، ولكن خلال رحلتي صيف عام ١٩٧٦ إلى مدريد اطلعت إعلى نسخة أخرى للكتاب ، فوجد ت صورة المفظ فيها على هذا النحو: ala wud ، أى على الود ، وهي أكثر احمالا ، وانسجاما مع معنى البيت .

١٢ – طوق الحمامة ، بتحقيقذ، ص ١٠٠١ دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ ،
 وكل إشارتنا هذا إلى الطوق تنصر ف إلى هذه الطبعة .

۱۳ – کتون (۲۳۶ – ۱۶۹ ق.م) خطب رومانی شهیر .وداعیة تقشف ، أدرك مبکرآ أن ترف روما لمبالغ فیه سوف یودی ب . فحاول أن یقف فی طریقه ، وإن یقلل منه ففش ، وأصبح الحمه یطنق وصفً علی کل رجل ذی عادات متقشفة .

١٤ - الحب المحمود ، الدور رقم ؛ ؛ .

١٥ -- الطوق ، ص ٢٨ .

١٢ – أخب انحمود ، الدوران رقم ٢٥١ ، ١٥٧ .

١٧ – الضوق . ص ١٥٥ .

۱۸ – آخب المحمود ، الأدوار ۱۱۵ – ۱۲۰

١٩ – باب السفير ، طوق الحامة ، ص ٥٨ ، من طبعتنا .

٢٠ – الحب المحمود : الأدوار رقم ٢٠١ – ٢٠٠ .

كتب أخرى للمؤلف

١ -- امرو القيس: حياته وشعره ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٧٥م
 ٢ -- دراسة في مصادر الأدب ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٧٧ : فد
 ٣ -- ملحمة السيد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٠ (نفد ويعاد طبعه) :

 ٤ - مع شعراء الأندلس والمتنبى ، نرجمة كتاب المستشرق الإسبا إميليو غرسية غومث ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٤م ...

٥ ــ بابلو تيرودا : شاعر الحب والنضال ، دار روز اليوسف ١٩٧٤.

٦ - تحقيق طوق الحمامة لابن حزم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف
 ١٩٧٧ ،

٧ - القصة القصيرة: دراسه و نماذج ، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٧٧ :

٨ – الأدب المقارن : أصوله ومناهجه ، دار المعاوف ١٩٧٧ :

تحت الطبع :

في 9 - الشعر الأندلسي حتى نهاية القرن الحادي عشر ، للمستشرق الفرنسي هنري بيريس .

١٠ - ابن حزم القرطبي ، المستشرق الإسباني ميجيل أسين بلاثيوس .

فهريش

٣	١ - الإهداء : : :
٥	. ٢ ــ صورة تمثال لابن حزم
٧	يَ ٣ – كالمات في البدء كالمات في البدء
14	 ١٠ عظط أتقريبي لمدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي ١٠٠٠
14	o - قرطبة على أيام ابن حزم
77	٦ - شاهل عصر ١٠٠٠
1.4	٧ ـ فتنة البرير
140	 ٨ - ابن حزم قمة إسبانية : للمؤرخ الإسباني سانتشث ألبرلس .
114	و عراميات ابن حزم ومشكلة الحب العدرى في الأندلس و ومشكلة الحب
Y . M.	١٠ ــ مقدمة لطوق الحمامة : اللفيلسوف الإسباني أورتيجا أيجاسيت
778	١١ ــ مزاج ابن حزم منخلال الطوق: صورة له يقلمه . ٠٠٠ ت
749	١٢ _ المرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة : . : المراة
777	١٣ _ مؤلفات في الحب سبقت طوق الحمامة : ١ : ١ : ١ : ١
-	١٤ ــ كتاب سبق طوق الحمامة، وكتاب جاء بعده:
444	للمستشرق الإسهاني إميليو غرسة غومث
419	١٥ ــ آخرون كتبوا في الحب بعد ابن حزم : ٠٠٠٠٠
414	١٦ ــ تأثير طوق الحمامة في الأدب الإسباني
	•